وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
قطاع الشؤون الثقافية

أسست عام ١٣٨٥هـ - ١٩٦٥م
الوعي الإسلامي
Al-Wa'ei Al-Islami
مجلة كويتية شهرية جامعة


# مقالات ودراسات

## إسلامية - أدبية - فكرية


مصطفى قاسم عباس

إجازة من كلية أصول الدين - جامعة الأزهر

إجازة في اللغة العربية وآدابها - جامعة دمشق





الإصدار
السابع والسبعون
١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م

# مقالات ودراسات

إسلامية - أدبية - فكرية

وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

قطاع الشؤون الثقافية

أسست عام ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٥ م

الوعي الإسلامي

AL-Waei AL-islami

مجلة كويتية شهرية جامعة

تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
دولة الكويت - في مطلع كل شهر عربي



الطبعة الأولى
الإصدار السابع والسبعون
١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م

العنوان:

ص.ب ٢٣٦٦٧

الصفاة ١٣٠٩٧ الكويت

هاتف: ٢٢٤٦٧١٣٢ - ٢٢٤٧٠١٥٦ - ١٨٤٤٠٤٤

فاكس: ٢٢٤٧٣٧٠٩

**البريد الإلكتروني:**

info@alwaei.com

**الموقع الإلكتروني:**

www.alwaei.gov.kw

**الإشراف العام:**

رئيس التحرير

*فيصل يوسف أحمد العلي*

أسست عام ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٥ م
الوعي الإسلامي
AL-Waei AL-islami
مجلة كويتية شهرية جامعة

وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
قطاع الشؤون الثقافية

# مقالات ودراسات

## إسلاميّة - أدبيّة - فكريّة

تأليف
**مصطفى قاسم عبّاس**
إجازة من كلّيّة أصول الدّين - جامعة الأزهر
إجازة في اللّغة العربيّة وآدابها - جامعة دمشق

الإصدار السّابع والسّبعون
١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م

بسم الله الرحمن الرحيم

# تصدير

**بقلم رئيس تحرير مجلَّة «الوعي الإسلامي»**

الحمد لله الذي خلق الإنسان وعلَّمه البيان، ووهب له العقل ليعقل عن ربه ما شرعه وأبان، وأنزل القرآن تبصرة للعقول والأذهان، وأرسل رسوله بالهدى والبلاغ والتبيان، وقيَّضَ من عباده من نظم الفقه بأفصح لسان، أحمده حمداً يملأ الميزان.

وأشهد أن لا إلٰه إلَّا الله وحده لا شريك له كل يوم هو في شان، وأشهد أن سيِّدنا ونبيِّنا محمداً عبده ورسوله المبعوث إلى الناس كافة بالدليل والبرهان. اللَّهُمَّ صلِّ وسلِّم على عبدك ورسولك محمد، وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان.

**أمّا بعد:**

فإنّ العلم والثقافة الشرعيّة ميدانٌ خصبٌ لكلِّ متعلِّم؛ إذا أراد أن يستزيد من الإحاطة بلغته، ودينه، ومبادئ أمَّته.

وحتَّى ينتشر هذا الوعي ويعمّ، كان لا بد من توفير المواد العلميّة اللَّازمة له.

ومن أهمِّ تلك الموادِّ: الكتب بمختلف أنواعها ومناهجها ومستوياتها، شريطة أن تكون نافعة بنّاءة جادّة.

ولأجل تواصل المثقَّفين شرقًا وغربًا، وتنامي الشعور بالانتماء، وتقوية أواصر الارتباط الثقافي بين شعوب الأمّتين العربيّة والإسلامية، كانت فكرة الاجتهاد في إخراج الكنوز التراثية، وطباعة الرسائل العلميّة، أولويَّةً عمليَّة في مجلَّة «**الوعي الإسلاميّ**»، فهي بذلك تسعى لزرع الثقافة العربيَّة الإسلاميَّة، بشتَّى صنوفها، في الناشئة والمبتدئين، وفي الصغار والكبار، على حدٍّ سواء.

وقد جَمعتْ مجلّة «**الوعي الإسلاميّ**» طاقاتها وإمكاناتها العلميّة والمادِّيَّة لتحقيق هذا الهدف السامي، فتَيسَّر لها بفضل الله تعالى إخراج عدد ليس بالقليل من هذه الكتب والرسائل، وكان لها نصيب وافر من الحفاوة والتكريم في كثير من المجتمعات داخل الكويت وخارجها، وذلك لما تميَّزت به هذه الإصدارات من أصالةٍ وقوّةٍ ووضوحِ منهج، ومراعاةٍ لمصلحة المثقَّف، وحاجته العلميّة.

ومن هذه الإصدارات النافعة، كتاب:

**«مقالات ودراسات إسلامية ـ أدبية ـ فكرية»**

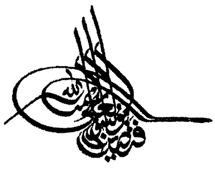
للأستاذ مصطفى قاسم عباس

ومجلّة «**الوعي الإسلاميّ**» إذ تقدّم هذا الإصدار لقرّائها، فإنّها تتوجّه بخالص الشكر والتقدير للأستاذ الفاضل على إذنه الكريم بطباعة الكتاب، نسأل الله له التوفيق والسداد.

**والحمد لله رب العالمين**

**رئيس التحرير**

*فيصل يوسف أحمد العلي*



﴿ قال العماد الأصفهاني:

«إني رأيت أن لا يكتبَ إنسانٌ كتاباً في يومه إلا قال في غده:

لو غُيِّرَ هذا لكان أحسنَ، ولو زيدَ كذا لكان يُستحسنُ، ولو قُدِّم هذا لكان أفضلَ، ولو تُرك هذا لكان أجملَ، وهذا من أعظم العِبَرِ، وهو دليلٌ على استيلاء النقص على جُمْلةِ البشرِ».

# الإهـــداء

إلى كلّ مسلم يعتزّ بدينه، ولسانُ حاله دائماً: نحن أمة أعزنا الله بالإسلام، فمهما ابتغينا العزةَ في غيره أذلنا الله.

إلى كل مشوقٍ إلى العلم، متزودٍ منه لأنه خير زاد للإنسان، فتراهُ دائماً في ظمأٍ لورد مناهله، والتضلّع من معينه، فيتعلم ويتعلم، وشعارُه نصب عينيه: (من ظن أنه تعلم فقد بدأ جهلُه).

إلى كل أديبٍ أريبٍ، ذواقٍ للشعر، ذي إحساس مرهف، وعاطفة مشبوبةٍ بنمير الحب، وخالص الوداد.

إلى كل من يغار على اللغة العربية، فيسعى جاهداً في خدمتها، وبشتى أنواع الخدمة؛ لأنه يعلم أنها لغة القرآن الكريم، وهي خالدة بخلوده، محفوظة بحفظه.

إلى كل من تعلمتُ منهم حرفاً أو حكمةً، أو تجربةً، أو أي شيء، فلهم فضل علي في ذلك، ومن لا يشكر الناسَ لا يشكر الله.

إلى أمي وأبي وأولادي وكل أقاربي، وكل من أُحبُّهم في الله ويحبونني فيه، وأتمنى لهم الخيرَ فيتمنون لي أضعافه.

إلى كل هؤلاءِ أهدي هذا الكتاب محبةً وعرفاناً بالجميل.

❁ ❁ ❁

# مقدمة الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربِّ العالمين وأفضل الصلاة على سيدنا محمد المبعوثِ رحمة للعالمين، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وصحابته الغر الميامين، ومن سار على هديهم إلى يوم الدين.

**أما بعد:**

فهذا كتاب: (دراساتٌ ومقالاتٌ إسلاميةٌ. أدبيةٌ. فكريةٌ) أضعه بين يدي القارئ الكريم، وهو كتابٌ حوى عدة مقالات ودراسات في مجالات شتى، إسلاميةٍ. فكرية. أدبية. اجتماعية... ومنها ما يتعلقُ بالتراث، ومنها ما هو في الحاضر، ومنها ما طغى عليه الأسلوب الأدبي، ومنها ما طغى عليها الأسلوب العلمي، ومنها ما يكون قراءةً ودراسةً موجزةً عن كتاب قرأتُه أكثر من مرة فأعجبني، وكما قالوا:

(كتاب تقرؤه ثلاث مرات، خيرٌ من قراءة ثلاثة كتب)، والإنسان يقرأ كثيراً من الكتب، ولكن الكتب التي تستوقفه، وتسيطر على شعوره هي التي يقوم بدراسةٍ عنها، وبصراحة إن الكتب التي قمت بدراسة موجزة عنها ليست كلَّ الكتب التي استوقفتني حين قراءتِها، بل هناك الكثير منها لم أقم بدراسته دراسة موجزةً، ولعل

الأقدارَ تسمح لنا في المستقبل بدراسة تلك الكتب.

وهذه المقالات والدراسات التي بين طيات الكتاب تَهم المرءَ المسلم؛ لأن منها ما يحثّ على التوبة والرجوع إلى الله، ومنها ما يُنير فكر المرء المسلم ولا يجعلُ منه إمّعة يقول:

إن أحسن الناس أحسنتُ، وإن أساؤوا أسأتُ، وذلك كما سيرى القارئ الكريم في مقال: (أنلوم المشعوذين أم ننبه المغفلين) وكذلك في مقال: (أصحاب الآراء الشاذة من أين أتونا بها؟!).. وغيرها من المقالات التي سيجدها في مكانها في هذا الكتاب.

كما أن هناك بعضَ المقالات التي أتت عفوَ الخاطر، لذلك هي أقرب ما تكون إلى الخاطرة، والخاطرة تُصاد صيداً كما هو معلوم؛ لأنها إن نفرت وشردت لا يستطيع المرء أن يُمسك بها بعد النفور، فيقول متحسراً: ليتني دونتها...

ومن هذه الخواطر: (خواطر بعد منتصف الليل) (تأملات في سفر الحياة) (لأن الحياة لا تنتظر) (آمالٌ تموت وآمال تحيا) (قلوبٌ شاكية وعبرات ساجمة) (كلمات مبعثرة) (من عجائب الأقدار)...

وهناك مقالاتٌ ودرسات أدبيةٌ، حول موضوع محدد وذلك كمقال: (المكفوفون في الأدب العربي ـ البصيرة قبل البصر) ومقال: (أشواقُ الغربة وبكاء الديار) ومقال: (شعراءُ في غياهب السجون) ومقال: (دموعُ القوافي في عيون المراثي) ومقال: (الغرابُ في الشعر العربي .. نذير شؤم أم بشير خير؟!) وغيرها من الدراسات والمقالات.

كما أنك ستجد في الكتاب ـ أيها القارئ الكريم ـ بعضَ المحاضرات التي ألقيتُها في بعض المراكز الثقافية، وقد حرصتُ على وضعها في الكتاب حتى يعم النفع، وتكثر الفائدة، وذلك كمحاضرة: (دين الإسلام بريء من التطرف والإرهاب) ومحاضرة: (جمال العربية وخطر انتشار العامية)، وهناك أيضاً في الكتاب دراسةٌ مطولة، وهي تلخيص كتاب: (إدارةُ الوقتِ من المنظورِ الإسلاميِّ والإداريِّ) لمؤلفه الدكتور خالد بن عبد الرحمٰن بن علي الجريسي، وهذا التلخيص فائز في مسابقة (الملخص الماهر) التي أقامها موقع الألوكة وهو موقع علمي مميز ومشهور...

كما أن معظم هذه الدراساتِ والمقالات قد نُشرت في المجلات العربية والصحف الأدبية والثقافية، ومواقع الإنترنت، فقد نُشر بعضها في مجلة الرافد الإماراتية، وبعضها في المجلة العربية، وفي مجلة الحج والعمرة، ومجلة الوعي الإسلامي، ومجلة الفرقان، ومجلة نهج الإسلام وكثير منها قد نُشر في جريدة الفداء التي أكتبُ فيها منذ أكثر من ثلاث عشرة سنة، وتستطيع أن تجد معظمها في مواقع الإنترنت، وخاصة في موقع الألوكة، ودنيا الوطن، وسيريا نيوز، وغيرها من مواقع المجلات والصحف...

وهذا الكتاب ـ عزيزي القارئ ـ هو حصيلةُ ما يقارب عشر سنين أو أكثر، ففيه تجارب من الحياة، وفيه زادٌ للأديب، وشواهدُ للخطيب، وموعظةٌ للغافل، وهدىً لمن يسير في دروب الضلال.. ولم أعتمد في ترتيب مقالاته على التسلسل الزمني للكتابة، إلا أنه

حوى معظم ما كتبتُ ونشرت إلى تاريخ صدوره. وأتى كحديقة غناء تنتقل فيها من غصن إلى غصن، وتُحدق في ألوان مختلفة، وتشم روائح فواحة متنوعة... وذلك حتى لا يملَّ القارئ؛ لأنه يتنقل في هذه الحديقة من الأدب إلى الفكر، ومن الفكر إلى الخواطر، ومن الخاطرة إلى الدراسة...

وقد حرصتُ على أن تكون الحواشي والمصادر والمراجع في نهاية كل بحث، أو دراسة أو مقالة، وذلك على العادة في نشر المقالات، وحتى لا يتشتّتَ الذهنُ بالحواشي أثناء القراءة...

فأسأل الله تعالى أن يتقبل مني هذا العملَ، وأن يجعله في ميزان حسناتي، وحسناتِ القارئ والناشر ومن ذكرتهم في الإهداء، وأسأله الرحمة والمغفرة، يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون، إلا من أتى الله بقلب سليم.

✍ وكتبه:

مصطفى قاسم عبّاس

سوريا ـ حماة ـ حي كازو

تاريخ: ٢ رجب، ١٤٣٣هـ، الموافق: ٢٠١٢/٥/٢٢م

# تأمُّلاتٌ في سِفْرِ الحياةِ

ـ الإنسان بطبيعته يكره الْمِحن والخطوبَ، ويتبرم من الشدائد والملمّات، ويتضجر من الظلم، ويغلي صدرُه غليان الْمِرْجل عندما يرى المآسي تتْرى، والأحزانَ تتوالى، والعَبَراتِ تُسكب، وينفر عنه الصديق تلوَ الصديق، والأخُ بعد الأخ...

... ويصل إلى مرحلة البكاء واضعاً نصب عينيه قولَ الشاعر:

يُخادعني العدوُّ فما أُبالي    وأبكي حين يخدعني الصديقُ

ولكنْ ـ ليت شعري ـ إن الإنسانَ عندما ينظر إلى هذه القضية بنظرة تأمّلية، فإنه سوف يرى أن في كل مِحنة منحةً، وفي كل غدر وفاءً، وستتفتح له آفاقٌ وآراءٌ لم تكن لتَتَفتح لولا ما حلّ به، فيقول: الحمد لله، ويمضي في طريقه قائلاً:

جزى اللَّه الشدائدَ كلَّ خير    وإن كانت تُغصّصني بريقي
وما شكري لها حمداً ولكنْ    عرفتُ بها عدويّ من صديقي

ـ قد يُكلم الإنسانُ بمُدية أو بسواها في ناحية من نواحي جسده، لكنّ جرحَه سرعان ما يلتئم، وحزنَ قلبه سرعان ما يزول، ولكنّ نفسه عندما تُكلم، وروحه عندما تُجرح، وفؤادَه عندما يتصدّع، فبالله قل لي: كيف ستلتئم الجراحُ، وكيف سينتظم زجاجُ القلب المتناثر؟!.

ـ إذا قمتَ بخدمةِ الناس لأجل الناس فإن كثيراً من الناس ينكرون فضلك، ويتناسَون ما أسْديت لهم من معروف ـ خاصةً مع مرور الزمن ـ فاجعل خدمتك للناس لا لتنتظِر الثناء منهم، بل لأجل فعل الخير، ولْتتذكر دائماً قوله تعالى: ﴿وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣]. . .

ـ إذا كنت تتنظر ثواباً من الناس على معروف أدّيته، فهيهاتَ هيهات ـ إلا من رحم ربُك ـ فأكثر الناس ينسون، ﴿...وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾﴾ [مريم: ٦٤].

ـ قد تشعر بالخيبة والمرارة، ويحوطك الحزنُ واليأس من كل جانب، بالإضافة إلى ما يعتريك من الدهشة والحيْرة والذّهول، وإذا سألتني: متى يكون ذلك؟ فأقول لك: عندما تتيقن أن أعزّ الناس عليك يطعنك في ظهرك، وفي الوقت ذاته يُظهِر لك خالصَ الحب والوداد، فعليك أن لا تستغربَ من ذلك، فهذا شيء قد اعتاد عليه الناس في زماننا، بل عليك أن تهيئ نفسك لتستعدَ لصفعة أخرى من مُحِبٍّ جديد. . .

ـ يتعلّلُ كثير من الضعفاء بقول الشاعر:

تجري الرياحُ بما لا تشتهي السُّفَنُ

وبالمقابل يبالغُ كثير من الأقوياء الواثقين بأنفسهم عندما يقولون:

تجري الرياحُ كما تجري سفينتُنا    نحن الرياح، ونحن البحر، والسُّفَنُ

ـ كثير من الناس تتحركُ عزائمُهُم، وتنهض حالهُم، وتهب

رياحُ قوتهم، وتعلو همتهم حتى تصل الثريا، ولكنْ ـ مع الأسف ـ كل ذلك بعد فوات الأوان، ولذلك تراهم يدندنون ويهمهمون دائماً:

إذا هبت رياحُك فاغتنمها    فعُقبى كلِّ خافقةٍ سكونُ

ـ لا تغترَّ بكثرة الناس حولَك، ففي الأعاصير والعواصف لا تثبت إلا الجبال... فأما الزَّبد فيذهب جُفاءً، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض...

ـ الذي لا يتعلم من أخطائه، ولا من أخطاء الآخرين، فربما لن تتحسرَ عليه إذا ألمت به ملمةٌ جزاءَ ما اكتسبت يداهُ.

ـ قد تصل إلى مرحلة تظن فيها أن الباطل أقوى من الحق، وأن الظلمَ أصلحُ من العدل، وأن الخيانة أفضلُ من الأمانة، وأن اليأس خيرٌ من الأمل... وأن الموت أجملُ وألذ من الحياة ونعيمها، لكنك ـ يا صاحبي ـ تنظر بمنظار الساعة التي تعيش فيها، والمكانِ الذي تتعايش معه، فهذه الثوابتُ لا تُقاس بساعة زمنية ولا بمكان محدد، إنما تُحسب على مر العصور والأزمان، وقد تختلف باختلاف الأمكنة...

فبنظرة سريعةٍ في التاريخ الغابر، وبما خلّف لنا من أوابدَ أثريةٍ... نرى أن الباطل إذا كانت له جولةٌ فإن للحق جولاتٍ وجولاتٍ، وأن الظلم ـ كما قالوا ـ مرتعُهُ وخيم، وأن الخيانة لم ولن تكونَ كالأمانة في سموّها ورفعتها، وأن اليأس والتعلُّل مطيَّة الفاشلين، وأن الموت ليس أجملَ من الحياة، وإلا لما كان هناك بعث ولا نشور، وهنا يجول في خاطري قول الشاعر:

ولــو أنّــا إذا مِــتــنــا تُــركــنــا لــكــان الــمــوت راحــةَ كــل حــيٍّ
ولــكــنــا إذا مــتــنــا بُــعــثــنــا ونُــســأل بــعــدهــا عــن كــل شــيِّ

ـ الأيام ـ أيها القارئ الكريم ـ هي الأيامُ ذاتُهَا لم تتغير، والزمن يجري شئتَ ذلك أم أبيت، والأمكنة هي الأمكنة، ولكنك أنت لستَ أنت؟!

أو بمعنى آخر: مزاجك يختلف من ساعة إلى ساعة، بل من لحظة إلى أخرى، ولم يتغير شيء في الزمن.

وكذلك الأمر بالنسبة للأمكنة، فعندما تكون بين السنابل والأقاحي، وفي جنان أرضٍ تجري من تحتها الأنهار، وتتنسَم أريجاً يفوق المسكَ ذكاءً، فهذا طبعاً لا يُقارن بحالةٍ أخرى كأنْ تكونَ في صحراءَ قاحلةٍ، ولفحُ الشمس يخترق وجنتيك، ولا ترى حولك إلا سراباً بقِيْعةٍ يحسبه الظمآنُ ماءً، وتظنُّ الأسْلَ والسِّدرَ والصبارَ ورداً وياسمين ونرجس...

ومع ذلك نرى كثيراً من الناس يعتبون على الزمن والدهر، وبعضهم قد يصل إلى مرحلة السِّباب والشتائم، فنتذكر قولَ القائل:

نــعــيــب زمــانــنــا والــعــيــبُ فــيــنــا ومــا لــزمــانــنــا عــيــبٌ ســوانــا

# عِنْدَمَا يَحْزَنُ الشُّعَرَاءُ

كل واحد منّا ودّع في هذه الدنيا عزيزاً، أو نأى عن وطنه ففارق أماً وأباً وإخوة وأحبة، أو تراكمت فوق صدره جبالٌ من المآسي وبحارٌ من الآهات والحسرات. . . فتجلبب بجلباب الحزن الموَشَّى بلآلئ الدموع، وتدثَّر بالألم، وسال عقيق مآقيه فانتثر على وجنتيه. . .

ومَن منا لم يحزن؟ والحياة مليئةٌ بما يُشجي النفوس، ويذري الدموع، ويُلظّي الفؤاد. . .

ومن منا لم يحزن؟ والحزنُ أحد الأشياء الثمانية التي تجري على جميع الناس كما قال الشاعر:

ثمانيةٌ تجري على الناس كلِّهم ... ولا بد للإنسان يلقى الثمانيه

سرور وحزن واجتماع وفرقة ... وعسر ويسر ثم سقم وعافية

وإذا كانت أحزاننا تَظل دفينةً في شَغاف القلب، أو بين حنايا الروح أو في أعماق المقل، وفي خفايا العيون. . . فالشعراء ليسوا كذلك. . لأنهم عندما يحزنون فإنهم يُعبرون عن أحزانهم وأحزاننا، وأتراحهم وأتراحنا، فيمزجون دموعَهم بمدادهم، ويسكبونَها في بحار القوافي، وتزهر أقلامهم فيما بعد ربيعاً شعرياً تخضرُّ منه أوراقُ

الزمن، وتتراقص أفنانُه، ويُعَبِّق أريْجُه الدهرَ والخلود. . .

فالشعراء أحزانُهم لا كأحزاننا، وعبراتهم لا كعبراتنا . . . لأن أحزاننا تتلاشى مع مرور الزمن وتغورُ في غياهب النسيان، في حين نرى أن أحزانهم تبقى دموعُها تبلل الأسفار، وعويلها يُصِمُّ أسماعنا بين السطور. . . وكذلك؛ لأن عَبَراتِنا من المقل والجفون، أما عبرات الشعراء فما هي إلا قلبٌ يذوب، وروحٌ تتدفق، وشعورٌ يهمي على لُجين الضميرِ. . .

والشعراءُ في الغالب يملكون إحساساً مرهفاً، وشعوراً رقيقاً، وقلباً يعتصره الحزن، ويُذيبه الأسى، ويُضنيه العويل. . . وما الدموعُ والنواح والعويل وسحُّ العبرات في شعرهم إلا تعبيرٌ عما يجول في خواطر الناس ويعتلج في صدورهم. . . فمعظم أشعارهم ـ وإن نظموها لحالاتٍ وجدانية خاصة طغت عليهم ـ أشعارٌ مناسبة للإنسانية كلها؛ لأن الحزن لا يميز بين صغير ولا كبير، ولا غني ولا فقير، ولا بين ذكر وأنثى، ولا عربي ولا عجمي. . .

. . . بل حتى العنادلُ والبلابل واليمام والحمام والكناري، نرى أن الشاعر أخذ يرى فيها سميراً في الحزن، ونَجيّاً عند الشكوى، وسُلُوّاً للأحزان، وجَبراً لما يَصرم الضمير، ويَقد الإحساس من سيوف الأنّات، وظُبى الحسرات، ورماحِ الألم والأنين. . .

فلا غَرو ـ بعد ذلك ـ ولا عَجب أن يتقاسم الإنسان الشاعرُ أحزانَه مع أحزان اليمام، وعويلَه مع تغريد البلابل، ونواحَه مع نواح

الحمام... وأغلب ظني أنه قد لاح في فكرك ـ أيها القارئ الكريم ـ ما لاح في فكري عند ذكر الحمام والنواح والحزن شعرُ أبي فراس المشهور، وقد سمع حمامة تنوح بقربه على شجرة عالية:

أقولُ وقد ناحت بقربي حمامة        أيا جارتا: هل بات حالُك حالي؟
معاذَ الهوى ما ذقتِ طارقة الهوى        ولا خطرت منك الهمومُ ببال
أيا جارتنا ما أنصف الدهرُ بيننا        تعالي أقاسمْك الهمومَ تعالي
لقد كنت أولى منك بالدمع مُقلةً        ولكن دمعي في الحوادث غالٍ[1]

وكذلك نتذكر معاً ما قاله شقيقُ بن سليك الأسديُّ:

فقد هيَّجتْ منِّي حمامةُ أيكةٍ        منَ الوجدِ شوقاً كنتُ أكتمهُ جُهدِي[2]

إلا أن الإنسانَ عند الحزن تسحُّ دموعه، وتسيل عبراته، أما الحمام فيبكي مع الشاعر وينوح مع نواحه، بل ويُبكي الشاعرَ حتى يبوحَ بأسراره التي كان حريصاً على إخفائها، وقد يُشجيه صوتُ الحمام ويكادُ يُميته... ومع ذلك فالحمام لا تُرى له دموع تسيل، ولا عبرات تغرقه... كما قال الشاعر:

ألا يا حماماتِ اللِّوَى عُدنَ عودةً        فإنِّي إلى أصواتكنَّ حزينُ

---

(١) ديوان الأمير أبي فراس الحمداني تحقيق وشرح: د. محمد التونجي، منشورات المستشارية الثقافية للجمهورية الإسلامية الإيرانية بدمشق عام: ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧م، ص٢٤٦ ـ ١٤٧، وانظر: قرى الضيف، عبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان بن قيس الطبعة الأولى، ١٩٩٧م، تحقيق: عبد الله بن حمد المنصور ١/ ٩٢.

(٢) الزهرة، ابن داود الأصبهاني ١/ ٩٣.

فعُدنَ فلمَّا عدنَ كدنَ يُمتنَنِي وكدتُ بأسرارِي لهنَّ أُبينُ
ولمْ ترَ عيني قبلهنَّ حمائماً بَكينَ ولمْ تدمعْ لهنَّ عيونُ[(١)]

وكثيراً ما يدعو ترنُّم الحمام الشاعرَ إلى الشوق والحزن والهوى، ويتساءل الشاعرُ عن سر بكاء الحمام... هل - يا ترى - جفاه حبيبٌ أم فارقه إلف عزيز؟ فينطبق عليه قول الشاعر:

دعاني الهوَى والشَّوقُ لمَّا ترنَّمتْ علَى الأيكِ من بينِ الغصونِ طروبُ
تُجاوبها وُرقُ يُرغْنَ لصوتها وكلٌّ لكلٍّ مسعدٍ ومُجيبُ
ألا يا حمامَ الأيكِ ما لك باكياً أفارقتَ إلفاً أمْ جفاكَ حبيبُ؟[(٢)]

وما أروع ما قاله ابنُ أبي حجلة في كتابه ديوان الصبابة! حيث أطاع الجفنَ الذي قرّحته الدموعُ، وعصى فيمن يُحب كلّ معنِّف وناصح، وكتبت مدامعُه لقلبه محضراً من الدماء... فها هو يقول:

خالفتُ فيكَ معنّفاً ونصيحا وأطعت جفناً بالدموع قريحاً
فاعمل لقتلي محضراً فمدامعي كتبت لقلبي بالدما مَشروحاً
صَبٌّ على سفح المقطم دمعُهُ تَجري العيونُ به دماً مسفوحاً
لو شاهدت عيناك أحمرَ دمعه زكَّيت شاهدَ قلبه المجروحا[(٣)]

والإنسانُ في الحقيقة يشعر بارتياح بعد تذرافِ الدموع، فالدموعُ الحبيسة في العيون، والعصية عند البكاء، تُبقي في الفؤاد

---

(١) الزهرة، ابن داود الأصبهاني ١/ ٩٣.
(٢) نفس المصدر السابق، ص٩٣.
(٣) ديوان الصبابة المؤلف: ابن أبي حجلة، ص٦٩.

الحزن والأسى، أما العين الهتّانةُ، والجفن السيّال، فإنهما يساعدان صاحبهما على الراحة والسكينة والسلوان، فدواء الحزن الدموع، لذلك قال ابن عياش:

نزلت بي مصيبة أمضَّتني وأشجتني، فتذكرتُ قول ذي الرّمة:

خليلي عُوجا من صدور الرواحل     على دار مَيٍّ وابكيا في المنازل
لعل انحدارَ الدمع يعقب راحةً     من الغم أو يَشفي نجيَّ البلابل

فخلوتُ وبكيت، فسلوتُ، وقلت: رحم الله ذا الرمة، فما كان أعرفه بدواء الحزن(١).

وأصدق الدموع عاطفةً دموعُ الرثاء، وكلما كان الفقيد عزيزاً عليك كلما كانت الدموع أكثرَ حرارةً، وأصدق عاطفةً، وأشدَّ تأثيراً، وهل بعد رثاء الأم من رثاء، وبعد فراقها من فراق؟! فالشريف الرضي عند فقد أمه يقول:

أبكيكِ لو نقع الغليلَ بكائي     وأقول لو ذهب المقالُ بدائي
وأعوذ بالصبر الجميل تعزياً     لو كان في الصبر الجميل عزائي
طوراً تكاثرني الدموعُ، وتارةً     آوي إلى أُكرومتي وحيائي
كم عبرةٍ مَوَّهتُها بأناملي     وسترتها مُتجمّلاً بردائي(٢)

وكذلك لفقد الأخ وقعٌ عظيم، وأثر بالغ، فلا عجب أنْ نرى أنّ متمم بن نويرة عندما قدم العراق ـ كما قال الأصمعي ـ أقبل

(١) خاص الخاص الثعالبي ١/ ٣٥.
(٢) يتيمة الدهر، الثعالبي ١/ ٣٦٢.

لا يرى قبراً إلا بكى عليه، فقيل له: يموت أخوك بالملا، وتبكي أنت على قبرٍ بالعراق! فقال:

لقد لامني عند القبور على البكا     رفيقي لتذرافِ الدموع السّوافك
أمِن أجل قبرٍ بالملا أنت نائحٌ     على كل قبرٍ أو على كل هالك
فقلت له: إن الشجا يبعثُ الشجا     فدعني، فهذا كلُّه قبرُ مالكِ(١)

وكذلك حزن الشعراءُ كثيراً عند فراق الأحبة، وعندما تجرّعوا غَصص البين في كؤوس من الهجر، والشواهدُ على ذلك كثيرة، ومنها ما قاله الأميرُ شهابُ الملك:

واسمَحْ بدمعِك في مواطئ عِيسِهم     كسَماح عُرْوَةَ بالدّموع وعدَدِ
واشْجُ الدِيارَ كما شَجَتْك ونُحْ بها     نوحَ الحمامِ على الأرَاكِ بِثَهْمَدِ(٢)

والحديث عن الأحزان يطول وتذكرتُ قصيدة لي عنوانها: (وَمَضَيْتُ والأيَّامُ تأْكُلُ مُهْجَتِيْ) تتحدث عن الحزن والسهاد والنشيج والتباريح، أقتطف منها هذه الأبيات:

دمعي يسافرُ في دجى أهدابي     ويزورُ جفني بعد طولِ غيابي
يهمي على الخدين نهراً دامياً     فيُحيل وَجناتي كما العُنَّاب
أَرِقٌ وآهاتي يَطولُ نشيجُها     سُهدي يُكفكفُ أدمُع الأعصابِ
أشكو تباريحَ الغرام لأضلعي     لكنْ.. تُمزِّق أضلُعي أوصابي
ركبٌ لأحبابي مضى وكأنه     قبل الرحيلِ إلى الأسى أوصى بي

---

(١) الأمالي، أبو علي القالي ١/ ١٣٥.
(٢) خريدة القصر وجريدة العصر، العماد الأصبهاني ١/ ٢٨٩.

ساروا، وغابت في القفار جِمالُهُم ورجعتُ أحملُ عبرتي وعذابي[1]

**وختاماً**: فإنا نعوذ بالله من الهم والحزن ونسأله أن تبقى ديارُنا وقلوبُنا عامرةً بالمسرّات مطمئنة بنعمة الأمان والرخاء.

(١) جريدة الفداء: بتاريخ: ٢٨\٣\٢٠١٢م.

# مِنْ صَمِيْمِ الْفُؤَادِ

ـ رأيتها عجوزاً بائسةً، وعيناً غائرةً، وتجاعيدَ بعدد سنوات عمرها، تقفُ على قارعة طريق الحياة، وقد أحنت السنونَ ظهرَها، وعُكست آهاتُ الزمن وأوجاعُ الماضي المريرِ على تجاعيد وجهها... تنظرُ إلى الأفق البعيد بعينٍ قد سئمت من النظر إلى الحياة ... وكانت هذه العجوزُ تظلِّل وجهَهَا بيدها التي أضناها المنجلُ والمعولُ... إنها تنتظر وصول قافلة الأموات لتستقلها إلى العالم الآخر...

ـ خلقَنا اللهُ تعالى من الطين، ومن ماءٍ مهين، ونتكبَّر على الآخرين، ونعلوا عُلُوّاً كبيراً، فكيف لو كان خلقَنا من الذهب، والزمرّد والياقوت؟!

ـ ما أكثر العابدينَ، وما أقلَّ المخلصين!

ـ لئن كان النظرُ إلى عين الشمس يؤدّي إلى العمى، فإن النظرَ إلى عين القلب يؤدي إلى الإبصار والبصيرة، وإذا كانت الشمسُ تُكسف بين الفينة والأخرى، فإن شمسَ القلوب المشرقة لا تُكسف مدى الحياة، فاجعلوا بصائر عيونكم تنظر إلى شمس قلوبكم، فإن النظر إليها يُزيل العمى عن العيون، ويكشف الران عن القلوب !!

ـ إذا كان الناسُ يُحبون بالقلب فقط، فإن لي حبيباً عظيماً، جليلاً مَهيباً قلت فيه:

أمســيــتُ كُــلّــي قُــلــوبــا أحــبــبــتُ فــيــهــا الــحــبــيــبــا
لــــذاك نــــيــــرانُ وجــــدي غــشّــت كِــيــانــي لــهــيــبــا

ـ قد يستطيع الإنسانُ أن يجبر نفسه على الضحك، ولكنه لا يستطيع أن يجبرَها على البكاء!

ـ ما أجملَ أنْ تعيشَ بعقيدة تملأ عُقلك فكراً نيِّراً، وقلبَك إيماناً صادقاً، ونفسَك رضىً وطمأنينةً، وجوارحَك عملاً مُتقَناً مُفعَماً بنور الإخلاص!!.

ـ إنسانٌ جبهتُه على الأرض، وهامتُه تُلامس الثّرى، ولكنه تجلبب بجِلباب العزّة والكرامة، وإنسانٌ جبهتُه على الأرض، وهامتُه تلامس الثرى، ولكنْ، تكسوه الذّلّة والصغارُ والمهانةُ؟؟!!

فالأولُ يُعَفِّر وجهَهُ في التراب ساجداً لله، والثاني يسجُد لصاحب المنصب، والمال والجاه!!

ـ تُصعِّرُ خدَّك للناس، وتمشي في الأرض مرحاً، وتشمخُ بأنفك في السماء، وترتدي ثوبَ الغرور والكبرياء، وتدّعي أنك عالِمٌ بكل الأمورِ، ومع ذلك تطلب من الله أن يزرعَ محبتَك في قلوب الناس، وفي أرواح الخلق؟!

هيهاتَ هيهاتَ!! فما أحبّ الخلقُ إلا من تواضع لهم، فالنفوسُ البشريةُ جُبِلت على حب المتواضعين، وبغضِ المتكبرين المستكبرين.

ـ ما وجدت شيئاً يُريح النفسَ، ويبعث فيها الطمأنينة والراحة، عندما تدلهمُّ الخطوبُ، ويستولي على الوجه الشحوبُ، أعظمَ من مناجاة الله جلّ وعلا، في جُنح الليل البهيم، والناس في سباتٍ عميقٍ. . .

ـ تأملْ معي، وفكرْ في الأوقات التي قضيتَها في السهر والسمر، والتي ربما أضفت لسوادها سوادَ إثمك ومعاصيك، فكِّرْ مليّاً ستجدْ أنك قاتلٌ لوقتك، وظالِمٌ لنفسك.

❁ ❁ ❁

# لماذا لا نفكّرُ منْ جديدٍ؟!

هو سؤال أطرحه دائماً على نفسي، وأهمس به في أذن فكري، وكثيراً ما يجول في سفينة خواطري ولا يرسو على شاطئ الجواب، فأعينوني بقوة أجعلْ بين جبلِ السؤال وانكشافِ سهل الجواب ردماً!

ويبقى السؤال:

لماذا لا نفكر من جديد في كثير من الأمور التي تجري من حولنا؟ وفي كثير من الأفكار التي ترسبّت مع مرور الزمن في عقولنا وقلوبنا؟

لماذا لا نفكر من جديد في كثير من الصداقات التي كوّنّاها خلال السنوات الماضية؟ والتي اكتشفنا أنها كانت كسرابٍ بقِيعةٍ يحسبه الظمآنُ ماءً، أو كالباحث عن الغول والعنقاءِ!

هل فكّرنا في الحسد وما يصنع في القلوب حتى نراها تكادُ تميّز من الغيظ؟ وفي الضغينة وما تُخلِّف من أحقاد وعداوات ورزايا؟ وفي الرياء الذي أصبح فطرةً عند بعض الناس، والغيبة التي أصبحت جزءاً من لسان أقوام يحبون أكل لحوم إخوتهم وهم أمواتٌ؟ وفي النفاق الذي استشرى في صدور كثيرٍ من أبناء مجتمعاتنا، وكأن ابن أبي سلول له خلائفُ وأحفادٌ؟

لماذا لا نفكر في الكاتب الذي يظن أن كتاباتِهِ عَقِمَ القلمُ بعد أن وُلدت، وأن كلماتِه في رونقها يتيمةُ الدهر، وفي علوّها ورِفعتها مُعلَّقات هذا العصر، أمّا كتابات غيره وكلماتُهم فهي قد أكل وشربَ عليها الدهرُ؟

لماذا لا نفكر في الشاعر العجوز الهرم الذي يتحدث عن الغزل والحب زاعماً أنه خليفة عمرَ في زماننا ولكن ليس ابن الخطاب بل ابن أبي ربيعة؟!

وفي الشاعر الذي يُحدّثك عن التواضع وهو أول المتكبرين، وعن الوفاء وهو أول الخائنين، وعن الشجاعة وهو أول الجبناء الخائفين؟

هل فكَّرنا في الصحفي الذي يكتب عن الفضيلة وهو بعيد عنها، ولا يعرف إلا اسْمَها؟، وعن الثقافة ولا يعرف أصولَها ويكتب باللغة العربية ولا يعرف أبسط قواعدها، ويعالج قضايا الناس وهو بحاجة إلى من يعالج له قضاياه؟

هل فكرنا في المعلم الذي يُمضي درسه لهواً ولعباً، ويزرع سِدر السموم علقماً مرّاً في عقول طُلابه؟

وفي الطبيب الذي يجرح قلوبَ الفقراء والبائسين بتطاوله وتجبره، ويشرِّح أجسادهم بمبضعه؟

أنفكرُ في الشيخ الدعي الذي رمى بنفسه في بحر العلماء، وهو لا يزال غارقاً في أبْحُر جهله؟ أم نفكرُ في الإمَّعَات الذين يتبعون كل ناعقٍ، ويركضون وراء كل سراب؟!...

هل نفكر في المدير الفاشل الذي يضع اللوم على موظفيه عند العقاب! ويُقَلَّدُ هوَ أوسمةَ الإخلاص والتفاني في العمل عند الجزاء والثواب؟

لماذا لم نفكر في المرائين وأصحاب النقد النابع من الحقد، الذين همُّهُم في الحياة تتبُّع السَّقَطات، والنظرُ إلى الحضيض، ولست أدري، لماذا أُولعوا بحب السقطات والعثرات؟ وحدّقوا بأعينهم في وجه الذي زلت به القدم على أنه ارتكب الموبقاتِ السبعِ؟ فهؤلاء الذين ينطبق عليهم قولُ الشاعر:

فإن يرَوا هفوةً طاروا بها فرحاً     مني وما علموا من صالحٍ دفنوا

. . . وللإنصاف أيضاً، لماذا لا نفكر في الصديق الوفيّ، وبصاحب القلب النقي؟ وفي الكاتب الذي يسطّر كتاباتِه بمداد دمه الطاهر على بياض قلبه الناصع، وفلذة كبده، ونبض خافقه، يواسي المحرومين، ويمسح بيد كتاباته الحانيةِ على رؤوس الحيارى والوجلين. . .

وفي الشاعر الذي يصوغ شعرَهُ وقوافيَهُ رسالةً ومنهجاً وإخلاصاً وحبّاً ووفاءً. . .

دعونا نفكر معاً في الصحفي الذي يراه الناس مرآةً صافية تعكس آمالهم وآلامَهم، وفي المعلم النصوحِ الشفوق الذي يسقي غراسَه علماً ونوراً ومعرفةً وحكمةً. . .

وفي الطبيب الحاذق الذي يخفف بحنانه وإنسانيته دموعَ الأسى، وجراحَ القلب الحزين، قبل أن يداويَ الأجسادَ والجوارحَ. . .

وفي الشيخ العالم العاملِ الذي يدعو إلى الله على بصيرة وهدىً وكتابٍ منير. . .

لنفكرْ معاً في أصحاب العقول الحرّة التي تبحث عن الحقيقة، وترتوي من فرات المعرفة ماءَ فُراتاً سائغاً للشاربين. . . وفي المدير الذي يخرج صباحاً إلى مديريته ليرى فيها بيتَه الثاني، وأسرتَه المثالية. . .

دعونا نفكر معاً من جديد؛ لأن الأمر يتطلب منا تفكيراً جديداً بين الفينة والأخرى، حتى لا تتراكم وتترسب وتتربعَ على عرش عقولنا وقلوبنا رواسبُ الزمن وعاداتُه وتقاليدُه. . .

لنفكر في كل ما حولنا، فما أشد حاجةَ الإنسان إلى لحظة يعيدُ فيها حساباتِه، ويفكر فيها من جديد.

# كَلِمَاتٌ مُبَعْثَرَةٌ

ـ لا عجبَ أنْ نرى في بعض القلوب صحراواتٍ مقفرةً، وجبالاً جرداءَ، وأراضيَ قاحلةً ... فهذه القلوبُ تُسقى من حميم الكراهية، وأُجاجِ الحقدِ، في كؤوسٍ من الحسدِ البغيض ... فحريٌّ بها أن تكونَ على تلك الحالة من القفر والجدْبِ ...

ولا عجبَ أن نرى في بعض القلوب، رياضاً مزهرةً، وروابيَ مُخضرَّةً، وغاباتٍ وارفةَ الظلال، تشدو على أفنانها البلابلُ والعنادلُ، ويُطربنا ويُشَنِّفُ آذاننا حفيفُ أوراقها، وتسحرنا بجلالها وجمالها ... فهذه القلوبُ تُسقى من الكوثر والتسنيم، ومن ماء معين، وتسقى فرات المحبة، وقُراح الصفاء والإخاء، في كؤوسٍ من الرأفة والرحمة والإخلاص والتقى ... فحريٌّ بها أن تكونَ على هذه الحالة من الخصب والخير...

ـ قالوا: إن الوفاء لا يتجزأ، فليس من الممكن أن يكون الإنسان نصفَ وفِيٍّ ونصفَ خائنٍ!! ... ولكنْ، ليت شعري!! ألا ترى معي أن الوفاء تجزّأ في أيامنا، وتقطَّع إرْباً إرْباً!!

ـ دائماً أسال نفسي: هل ينقطعُ العلم في الجنة؟؟ أم أن الإنسان في الجنة يتعلم كلما يريد، ويحفظ كلما يشاءُ... لا شكَّ أن التعلُّم لذةٌ، وفي الجنة كل ما تشتهي الأنفسُ وما تريد!

ـ ما وجدت لذةً أعظمَ من لذة تعلُّم شيءٍ جديد، وما وجدت متعةً أفضلَ من كلمات المحبة الصادقة التي أرسلها إلى صديق وفِيٍّ ويرسلُها إلي، في زمنٍ كثر فيه الأصدقاءُ، وقلَّ فيه الأوفياءُ . . .

ـ كلما فاض قلبُ المرء باليقين، كلما قلت الشِّكايةُ، وتلاشى صوتُ الأنين. فما أشدَّ حاجتَنَا إلى إيمانٍ يباشر قلوبَنا، ويقينٍ يهوِّن علينا مصائبَ الدنيا.

ـ كم من فكرةٍ جالت في فكركَ، وطربت روحُك لجمالها وجِدَّتِهَا، ولكنْ، كنتَ على فراش النوم، وغلبك النُّعاس، وأَغمضتَ جفنَكَ للكرى، قائلاً في نفسك: سأدوِّنُها في الصباح . . . .

فما طلع عليك الفجرُ، ولاحت بوارقُه، إلا ودفنتَ تلك الفكرةَ في مقابرِ النسيان! بعد أن كُفِّنَتْ في كفن التسويف!!

ـ ما رأيت إنساناً مبدعاً إلا ورأيتُ في سيرته الذاتية، جنباً يتجافى عن المضجع، وعيناً تهجر النوم والكرى، ونفساً طموحاً أتعبتْ جسدَه، وتَعَبَاً مُرهِقاً، ونضالاً مُضْنِياً، ورأيتُ أنّه قد اجتاز جسرَ التعب، حتى وصل إلى شاطئ الراحة والأمان، ثم قيل له:

بصُرتَ بالراحة العُظمى فلم ترَها    تُنال إلا على جسرٍ من التعب

وخاطبه المتنبي:

وإذا كانت النفوسُ كباراً    تعبتْ في مُرادها الأجسامُ

طموحُ الناس على قدر هِمَمِهِم وعزائمهم، لا على قدر أعمارِهم وأجسادهم، وقد قلت في أحد أساتذتي الفضلاءِ:

قد جاوز الخمسَ والسبعين في جسدٍ    لكنَّ همّتَهُ روحُ الصِّبا فيها

## فِي الحياةِ...
## هناكَ شيءٌ جميلٌ ... وهُناكَ شيءٌ أجملُ

جميلٌ منظرُ الغروب عندما تغور الشمسُ في لُجَجِ البحر، أو تغيبُ وراء الأفق. . .

ولكن الأجمل أنها تتركُ لنا شعاعاً من ضيائها نراه في إطلالة القمر.

جميل أن تتألّم عندما ترى قلباً كسيراً، ودموعاً داميةً ليتيمٍ بائسٍ محزونٍ. . .

ولكن الأجمل من ذلك أن تَجبُر كسرَ قلبه، وتكفكفَ دموعَه الثكلى، وترسُمَ بسمةَ الأمل والرضا على ثغره وشفتيه.

جميل أن تستنيرَ بضوء السراج في العتَمَة، ولكن الأجمل أن تكون أنت سراجاً ينير للآخرين دروبَهم في حلَكِ الأيامِ، ودياجير الظلام.

شيء جميلٌ أن يعيش الإنسانُ في قلوب الناس، ولكن الأجمل أن يحافظَ على العيش في تلك المنازل حتى لا يُخرجَ منها يوماً ما.

شيءٌ جميلٌ أن يدخلَ الإنسانُ إلى قلبك، ولكن الأجملَ أن تُدخله إلى قلبك بعد أن يَخرج منه.

شيءٌ جميلٌ أن تتنسّم عبيرَ الأقاحي والورودِ، وأن ينتشي طرْفُك من سحر جمالها... ولكن الأجمل من ذلك أن تكون سيرتُك كعبيرها وشذاها، وأن تكون روحُك كجمالها ورقتها.

جميلٌ أن تبتسمَ عندما تلتقي بِمَنْ تُحب، ولكن الأجمل أن تبتسم عندما تلتقي بمن لا تُحب!

جميل أن يصبح الفقيرُ غنياً، ولكن الأجمل أن يتذكر دائماً أنه كان فقيراً يوماً من الأيام.

جميلٌ منك أن تنسى لحظاتِ المرارةِ والأسى التي تجرّعت كؤوس حنظلها لأيامٍ وأيام... ولكن الأجمل أن تتذكرها بين الفَيْنَة والأخرى حتى تشعر بآلام الآخرين ومآسيهم.

جميل أن تُحِبَّ من يبادلُك الحبَّ والمودة... ولكن الأجمل أن تحبَّ من يكرهك، وإنْ كان في ذلك إجبارٌ للنفس على ما لا تطيقُ. فمخالفة النفس ترتقي بالإنسان ليصل إلى علياء الصفاء والطهر والمودة..

جميلٌ أن يعيش الإنسان ذكرياتٍ عذبةً من الماضي، تُنعش قلبه، ويَطرب لها فكرُهُ ولُبُّهُ، وتُقِلُّهُ من الواقع الأليم إلى الماضي الرّغيد ...

ولكن الأجمل أن يعيش الإنسان مع الحقيقة لا مع الخيال، ومع المستقبل لا مع الماضي، ويعلمَ أن الماضي ما هو إلا ذكرياتٌ تَقَضَّت، وأحلامٌ تبخّرت، وسَرابٌ لا يروي الظمآن، وَوَسَنٌ لا يُغني عن الكرى...

جميل أن تعيش مع الأمل، وتجعلَ منه مطيةً لأحلامٍ تُراودك... وأمنيات لا تتحقق في المستقبل إن جلست على قارعة الزمن تنتظر من يحققها لك...

ولكن الأجمل أن تمتلك الأملَ بيدك، وتجعلَ من العمل الدؤوبِ مطيةً لتحقيق آمالك وما تصبو إليه..

# الإنسانُ الشاعرُ عندما تطولُ به الحياةُ

حقاً إن أمر الإنسان لعجيبٌ، تدعو له بطول العمر فيشعرُ بالسعادة، وتلوح بسمة الأمل والرضا على مُحيّاه، ويطول به العمر فيسأمُ من الحياة ويَملُّها وتَملُّه، وإذ به قد سئم من تكاليفها، وأخذ يردد بين الفينة والأخرى قول حكيمِ الجاهلية زهير:

سئِمتُ تكاليفَ الحياة ومن يعِشْ     ثمانين حولاً ـ لا أبا لكَ ـ يسأمِ

ومن أعجب المفارقات في حياة الإنسان أن الصغير يتمنى أن يترعرع ويكبُر بسرعة، والكبيرَ يتمنى أن يرجع به قطارُ الزمن حتى يعود صغيراً، وعلى كلّ الأحوال فالإنسان في رحلته العُمرية يمر بثلاثة أطوار جمعها الله تعالى في قوله: ﴿۞ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعۡفٖ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ ضَعۡفٖ قُوَّةٗ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٖ ضَعۡفٗا وَشَيۡبَةٗۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡقَدِيرُ ٥٤﴾ [الروم: ٥٤].

وتستمر رحلة الحياة بالإنسان: سرورٌ وحزن، وفرح وترح، وسقم وعافية، وأمل ويأس، وصفاء وكدر... ويمضي فيها، وتنقضي أيامُهُ ولياليه، وما يدري ما تخبئ له الأقدار، ولسان حاله:

أُمضي اللياليَ والأيامَ في سفرِ     ولستُ أدري بما يُخفيه لي قدري

يمتطي الأيام، وتسير به السنون، وهو يُعالج الحياة وتعالجه،

يمخر لُجج بحارها، ويغوص في كدر مستنقعها، تطربه بلابلُها وعنادلُها حيناً، وتُشجيه حمائمُها التي تسجِّع على الأفنان أحياناً أخرى، ويمر الشبابُ خُلسةً، ويتمطّى الهرمُ بصلبه فوق سنيِّ العُمْر، فيصحو المرء من سُبات دهره، وينتبّه من غفلة شروده. . . وإذ به قد وصل إلى مرحلة تسمى أرذلَ العمر، فيتذكر قوله تعالى: ﴿وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾ [الحج: ٥].

ولا تغادر فِكْرَه هذه الآيةُ: ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [يس: ٦٨].

ويصبح المرءُ وقد اشترى قوساً يُلازمه، ودفع ثمنه غالياً من دُرر العمر وجواهرِ الأيام، وتصبح حالتُهُ كما قال الشاعر:

حنتني حانياتُ الدهر حتى ... كأني خاتِلٌ أدنو لصيد
قريبُ الخطوِ يحسَب من رآني ... ولست مقيَّداً أني بقيدِ(١)

وتشتكي منه الأعضاءُ والمفاصل، فينشد مع صاحبه أبي محلم الذي عندما كبُر كان يقول:

إذا ما امرؤٌ أحصى ثمانينَ حجةً ... وعاش تشكَّى كلُّ عضوٍ ومفصل(٢)

وإذا كان أبو محلم أنشد ذلك، فإن أبا الدهماء أضاف فكرة

---

(١) بهجة المجالس وأنس المجالس، ابن عبد البر ١/ ٢٢٣.
(٢) محاضرات الأدباء، الراغب الأصفهاني ١/ ٤٦٧.

جديدة، فهو عندما كبرت سنه، أخذ يمشي على رجلٍ، ولكن ليت شعري! أيةُ رِجْلٍ؟!.. إنها مصنوعة من الخشب، وفرقٌ كبير بين ما صنعه الخلق، وبين ما صنعهُ الخالق فتبارك الله رب العالمين، لذلك قال أبو الدهماء:

وكنت أمشي على رجلين معتدلاً فصرتُ أمشي على رجل من الشجر

وقريبٌ من هذا المعنى ما قاله رجلٌ من بني عِجل:

وشانِيَ واشٍ عند ليلى سفاهةً فقالت له ليلى مقالة ذي عقل
وخبَّرها أني عرجت فلم تكن كورهاءَ تَجترُّ الملامةَ للبعل
وما بيَ من عيب الفتى غير أنني جعلت العصا رجلاً أقيم بها رجلي

وإذا كان ذانك الشاعران يستطيعان المشيَ مع القدم الثالثة، فإن شاعرنا التالي لا يستطيع القيام إلا بعد أن يتجرعَ غَصص الآلام، ويتضلعَ من حميم الأوجاع، وهذا الشاعر هو أبو ضبة الذي يقول:

وقد جعلتُ إذا ما قمتُ أوجعني ظهري، وقمتُ قيامَ الشارف الظهِرِ(١)

فالإنسان إذن عندما يبلغ من العمر عِتيّاً، ويصل إلى أرذله تتغير كثيرٌ من أحواله، فبعد الشباب شيخوخةٌ، وبعد القوة ضعفٌ، وبعد الصحة والعافية سقمٌ وبلاء... وكثيراً ما تسألُ المرءَ:

كيف حالك؟ فيقول: بصحة جيدة ولله الحمد والمنّة، ولكن عمروَ بنَ مسعود السلمي عندما سأله معاوية كيف حالك؟، أجاب بالتالي:

---

(١) البرصان والعرجان، الجاحظ ١/ ٤٧.

«ما يسأل أميرُ المؤمنين عمن سقطت ثمرتُهُ، وذبُلت بشَرتُه، وابيضَّ شعره، وانحنى ظهرُهُ، وكثُر منه ما يُحب أن يقل، وصعب منه ما كان يُحب أن يَذلّ، وترك المطعمَ وكان المنعمَ، وهجر النساء وكُنَّ الشفاءَ، وقصر خطوُهُ، وذهب لهوُهُ، وكثر سهوُهُ، وثقُل على الأرض، وقرب بعضه من بعض، فقلَّ إيحاشُهُ، وكثر ارتعاشُهُ، فنومُهُ سُبَاتٌ، وهَمُّهُ تاراتٌ»(١)

وأبو زبيدٍ الطائيُّ يرى أن طول الحياة لا خير فيه ولا سعادة، ومن الضلال أن يُؤمِّل المرء خلوداً طويلاً في الدنيا، فنراه يقول:

إنّ طُولَ الحياةِ غَيْرُ سُعودِ    وَضَلالٌ تأميلُ طُولِ الخلودِ(٢)

وبعضهم يرى أن الحياة لا تُملُّ ولا يَسأم منها الإنسانُ، فلا أحدَ يتمنى الموت، بل كما قال رَسُولَ اللهِ ﷺ في الحديث الذي رواه الشيخان: «**يَهْرَمُ ابْنُ آدَمَ وَيَشِبُّ مِنْهُ اثْنَتَانِ: الْحِرْصُ عَلَى الْعُمُرِ، وَالْحِرْصُ عَلَى الْمَالِ**» والصحيح أن الذي يُمَلُّ من الحياة عند الكِبَر هو تكاليفُها، فقد أنشد محمدُ بن محمد بن أحمد الرامشيُّ (ت٤٩٠هـ) متأسفاً قوله:

وكنت صحيحاً والشبابُ منادمي    وأنهلني صفوُ الشباب وعلّني
وزدتُ على خمسٍ ثمانين حجةً    فجاء مشيبي بالضنى وأعلّني
سئمتُ تكاليف الحياة وعِلّتي    وما في ضميري من عَسى ولعلَّني(٣)

---

(١) بهجة المجالس وأنس المجالس، ابن عبد البر ١/ ٢٢٢.
(٢) جمهرة أشعار العرب، أبو زيد القرشي ١/ ٧٣.
(٣) نوادر الفوائد من كتاب بغية الوعاة، فرج حسن البوسيفي ١/ ٢٢.

ولذلك أيضاً عندما قال زهير:

سئِمتُ تكاليفَ الحياة ومن يعِشْ ثمانين حولاً ـ لا أبا لك ـ يسأمِ

قال العلماء بالشعر: إنما سئم تكاليف الحياة لا الحياةَ، فهو أصح معنىً من قول لبيد إذ يقول:

ولقد سئِمت من الحياة وطولها ومقالِ هذا الناس كيف لبيدُ؟[1]

ولبيد كان قد عمَّر أكثر من زهير، وإنه ما قال بأنه سئم من الحياة إلا بعد أن بلغ مائة وأربعين سنة ـ على ذمة أبي زيد القرشي ـ حيث قال في الجمهرة:

«وكان لبيدُ أحد المعمرين؛ يقال: إنه لم يمت حتى حرُم عليه نكاحُ خمسمائة امرأةٍ من نساء بني عامر، وهو القائل لما بلغ تسعين حجة:

كأنّي وَقَدْ جاوَزتُ تِسْعينَ حجّةً خَلَعتُ بها عنِّي عِذارَ لجامي
رَمتني بناتُ الدَّهرِ من حيثُ لا أرَى فكَيفَ بمن يُرْمى، وليس برامي؟
ولو أنّني أُرمَى بِسَهْمٍ رأيتُها ولكنَّني أُرمَى بغَيرِ سِهامِ

وقال حين بلغ عشرين ومائة:

وغَنِيتُ دَهراً قَبلَ مَجْرى داحسٍ، لو كانَ للنّفسِ اللَّجُوجِ خُلُودُ

وقال حين بلغ أربعين ومائة:

ولقد سئِمتُ من الحَياةِ وطولِها، وسؤالِ هذا النّاسِ: كيفَ لبيدُ؟

---

(١) الوساطة بين المتنبي وخصومه، الجرجاني، باب سرقات المتنبي ١/ ١٠٢.

غَلَبَ الزّمانَ، وكانَ غَيرَ مُغَلَّب، دَهــرٌ طَــويــلٌ دائــمٌ مَــمــدُودُ
يــومٌ إذا يــأتــي عــلــيَّ، ولَــيــلَــةٌ وكـلاهُـما بَـعدَ انقضاهُ يَـعُـودُ[1]

وإذا كان أبو زيد القرشيُّ قد ذكر ذلك، فالأعجب منه ما قاله ابن قتيبة عندما تحدث عن الشاعر المستوغر حيث ذكر أنه أنه تجاوز ثلاثمائة سنة، ومما قاله ابن قتيبة عن المستوغر:

هو المستوغر بن ربيعة بن كعب بن سعد رهط الأضبط، وهو قديمٌ من المعمرين وعاش ثلاث مائة سنة وعشرين سنة، وقال:

ولَقَدْ سَئِمْتُ من الحَيَاةِ وطُولِها وعَمِرتُ من عَدَدِ السِّنِينَ مِئِينَا
مـائـةً حَـدَتْـهـا بَـعْـدَهـا مـائـتَـانِ لـي وازْدَدْتُ من بَعْد الشُّهُورِ سِنينَا
هَـلْ مـا بَـقَـى إِلّا كـمـا قـد فـاتَـنِـي يَـوْمٌ يَـمُـرُّ ولَـيْـلَـةٌ تَـحْـدُونـا؟![2]

والمرء في جميع أحواله، وسواءٌ عليه أَسئم الحياةَ أم تكاليفها، فإنه عند الكبر والهرم، لا تبارِحُ ذكرياتُ الشباب ضميره وخاطرَه، وكثيراً ما يقارن بين حالته اليوم وحالته بالأمس حيث الشبابُ والقوةُ، فها هو تميم بن مقبل العجلانيُّ يقول:

كـان الـشـبـابُ لـحـاجـاتٍ وكُـنَّ لـه فقد فرغتُ إلى حاجاتي الأخَرِ
يا حرّ أمسى سوادُ الرأس خالطَهُ شيبُ القَذالِ اختلاطَ الصفْوِ بالكدرِ
يا حرّ من يعتذرْ من أنْ يُلمَّ به رَيبُ الزمان فإني غيرُ معتذر
قالت سُليمى لأختيها وقد صدقت: لا خيرَ في العيش بعد الشيبِ والكِبَرِ[3]

---

(١) جمهرة أشعار العرب، أبو زيد القرشي ١/ ٢٢.
(٢) الشعر والشعراء، ابن قتيبة الدينوري ١/ ٧٨.
(٣) بهجة المجالس وأنس المجالس، ابن عبد البر ١/ ٢٢٣.

ومن أعاجيب القدر أن بعض الناس يتمنى أمنياتٍ في الشباب، ويُلح في طلبها، ولكنها لا تأتيه إلا عند الكبر، وذلك بعد فوات الأوان، فقد ذكروا «أن أحدَ الشعراءِ عاش مُعدماً مُفلساً، وهو في عنفوان شبابِهِ، يريدُ درهماً فلا يجدُهُ، يريدُ زوجةً فلا يحصُلُ عليها، فلمَّا كبرتْ سِنُّه وشاب رأسُه، ورقَّ عَظْمُهُ، جاءهُ المالُ من كلِّ مكانٍ، وسهُلَ أمرُ زواجهِ وسكنِه»، فتأوَّه وأنشد:

ما كنتُ أرجوهُ إذ كنتُ ابنَ عشرينا ... مُلِّكْتُهُ بعد ما جاوزتُ سبعينا
تطُوفُ بي من بناتِ التُّركِ أغْزِلةٌ ... مِثلُ الظِّباءِ على كُثبانِ يبرينا
قالوا: أنينُك طولَ الليلِ يُسْهِرُنا ... فما الذي تشتكي؟ قلتُ: الثمانينا[1]

**وختاماً**: حياتنا تمضي وآمالنا لا تنقضي، وما مضى يلوح في خواطرنا سرابَ ذكرياتٍ وحلماً يبدّدُه طلوعُ الفجر، وقد قلت في إحدى قصائدي:

تَمضي الحياة، وما تُقضى أمانينا ... وأسهُم الحزن ترمينا فتُشجينا
سماءُ آلامنا في الدهر تُمطرنا ... بوابلٍ مُدْنَفٍ يُدمي مآقينا
نهارنا، ما له يمضي كطيفِ كرىً؟ ... وليلُنا بالشقا دوماً يُغشِّينا
سُنونُنا تنقضي ثكلى على عجلٍ ... وكَرُّ أيامنا للموت يُدنينا
فآن أن تحمل الأحلامُ هودجَنا ... ونركبَ الشعرَ كي ننسى مآسينا
عسى الخيالُ الذي يَسري بخاطرنا ... لما نعانيه من همٍّ يُنسّينا
هذا هو العمرُ، والدنيا مُوَلّيَةٌ ... يَمضي ويَفنى بِحين يتبعُ الحينا
لا ريبَ أن الدُّنى ظِلٌّ يزول إذا ... ما ضمّنا اللحدُ. والأهواءُ تُغرينا

(١) صيد الخاطر، ابن الجوزي، ص٧٢.

إذا تأملتَ في الدنيا فأنت تَرى     أن السعيد الذي ما ضيّع الدينا

وفي كل الأحوال فقد كان النبيُّ ﷺ يستعيذ بالله من الغم والهم والكسل والهرم. وكان عندما يتعوَّذ بالله من شيء يقول: «**وأَعوذُ بك أنْ أُرَدَّ إلى أرذَلِ العُمر**» البخاري.

فاللَّهُمَّ بارِك لنا في أعمارنا، ولا تردَّنا إلى أرذل العمر، إنك سميع قريب.

# كُنْ عِصَاميّاً ولا تكُنْ عِظاميّاً

كان أبي... كان جدي... وفي كل مجلس ومحفِلٍ: كان أبي وكان جدي...، وإذا ما تفاخر ذوو الفخر وأولو المجد نراه يتبجَّح بأعلى صوته ويقول دائماً: كان أبي وكان جدي...

..ويبقى السؤال: صحيح أنهما كانا وكانا، ولكنْ، من أنت؟ وهل تسير على ذات الدرب التي سار عليها أبوك وجدك؟ إذا كنت كذلك ـ وكان الدربُ الذي ساروا عليه قبلك دربَ أخلاق وعلم ورقيٍّ وسموٍّ وأدبٍ ـ... فأنت نِعْم الخلفُ لخير سلفٍ، ولكن المشكلةَ تكمُن في من يفتخر في كل مجلس بأبيه وجده، وهو بعيد كلَّ البعد عن نهج أبيه ونهج جده...

وجميعنا نحفظُ بيت ابن الوردي في لاميّته المشهورة عندما يقول:

لا تقلْ: أصلي وفصلي أبداً    إنما أصلُ الفتى ما قد حصل(١)

... ونحن لا ننكر طبعاً أن صلاحَ الآباء فيه صلاحٌ للأبناء؛ لأن المتأمّل في القرآن الكريم يرى أن الله تعالى حفظَ الأبناء لصلاح الأب، وذلك عندما قال في سورة الكهف: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ

(١) الكشكول، البهاء العاملي ١/ ١١٣.

﴿يَتِيمَيْنِ فِي ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِي ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾ [الكهف: ٨٢].

وجميعنا نعلم أن أفضل شيء يرثه الولدُ عن أبيه هو الصلاحُ والذكرُ الحسنُ، وأن على الولد الصالح أن يُحيِيَ فِعال أبيه، ويكونُ ذلك بأن يُتم الولدُ بناء صرح الأخلاق الحميدة الذي بدأ به أبوه؛ لأن هناك من قال:

إنَّمَا المجدُ ما بنَى والدُ الصِّدْ ... قِ وأحيا فعالَهُ المولُودُ

وهناك من الشعراء من قال في خلافهِ:

لئنْ فخرتَ بآباءٍ ذوِي شرفٍ ... لقدْ صدقتَ، ولكنْ بئسَ ما وَلَدوا[1]

وقريبٌ منه كذلك قولُ بعضهم:

أبوك أبٌ حرٌ، وأمكَ حرّةٌ ... وقد يلِدُ الحُرّان غيرَ نجيبِ

فالإنسان هو الذي يختار لنفسه، فإما أن يكون الأولَ فيتابعُ بناءَ مجد أبيه، وإما أن يكون الثانيَ فلا يبني لنفسه مجداً.. بل لعلّه يهدم بسوء فِعاله مجد أبيه الذي بناه في سنوات وسنواتٍ!...

وكثيراً ما يُطرح التساؤل التالي: أيُّهما أهمُّ: أدبُ الرجل أم حسَبُه؟ وهل الأدب يغني عن رفعة النسب والحسب؟. أجاب بعضهم بالآتي:

«الأدبُ كالحسب، قيل: من نَهَض به أدبُه، لم يقعد به حسبُهُ.

---

(١) كتاب الصناعتين: أبو هلال العسكري ١/ ٣٢.

وقيل: شرفُ الحسب يحتاج إلى شرفِ الأدب، وشرفُ الأدب مستغنٍ عن شرف الحسب.

وقال الأحنف: من لم يكن له علمٌ ولا أدبٌ، لم يكن له حسبٌ ولا نسبٌ».

وقال شاعرٌ:

ما ضرَّ من حاز التأدُّبَ والنُّهى أن لا يكونَ من آل عبدِ مناف؟[١]

وكذلك قال الشاعر:

كنِ ابنَ من شئت واتَّخذْ أدباً يغنيكَ محمودُه عن النَّسب
إنّ الفتى من يقول: ها أنا ذا ليس الفتى من يقولُ: كان أبي[٢]

والإنسانُ العاقل اللبيب حتى وإن كرُم حسبُهُ وطابت أرُومتُهُ، فإنه لا يتّكل على أحسابه، ولا يعتمد على أنسابه، بل عليه أن يُكَوِّنَ لنفسه شخصيةً فاعلة مؤثرةً في المجتمع، ومن جميل الشعر في هذا المعنى قولُ عبدِ اللّه بن معُاويةَ بنِ عبد اللّه بن جعفر:

لَسْنا وإنْ أحسابُنا كرُمت يوماً على الأحسابِ نَتَّكِلُ
نَبْني كما كانت أوائلُنا تَبْني ونَفْعَلُ مِثْل ما فَعَلوا[٣]

وعلى الإنسان العاقل أيضاً أن يكون عصامياً لا عظامياً، فهناك فرقٌ كبير بين العصامي والعظامي، فالعظامي: يفتخرُ بعظامٍ لآبائه

---

(١) محاضرات الأدباء: الراغب الأصفهاني ١/ ٨.
(٢) غرر الخصائص الواضحة: الوطواط ١/ ٧٤.
(٣) آداب العلماء والمتعلمين: الحسين بن المنصور اليمني ١/ ١٢٥.

وأجداده ربّما تكون قد نَخِرت، والعصاميُّ: من يبني نفسَه بنفسه...

و«العِصامي: منسوبٌ إلى عصام بن شهير، حاجبِ النعمان بنِ المنذر الذي قال له النابغةُ الذبيانيُّ حين حجبه عن عيادة النعمان من قصيدةٍ له:

فإني لا ألومك في دخولٍ ولكن، ما وراءَكَ يا عصام؟

فكبيرُ الهمة عصاميٌّ يبني مجده بشرف نفسه، لا اتّكالاً على حسبه ونسبه، ولا يضيرُه أن يكون ذا نسبٍ، فحسبُه هِمّتُهُ شرفاً ونسباً»[1].

ولذلك «كان بعض العلماء إذا سألَ عن أحدٍ قال: أعصاميّ هو أم عظاميّ؟ أي: أهو ممن يفخر بآبائه وسلفه وبِمَن قد مضى من أهله، وهو خالٍ مما كانوا فيه، أم هو بنفسه؟، كما قال الشاعر:

نفسُ عصامٍ سوّدتْ عصاما وعلّمته الكَرَّ والإقداما وجعلْته مَلِكا هُماما[2]

فالسؤدَدُ والمجدُ لا يكونان بالوراثة، إنما بالفِعال الحميدة، والأخلاق النبيلة، بل إن بعض أصحاب النفوس العظيمة يأبَون أن يكون سموُّهم إرثاً ورثوه عن أب أو أم كما قال عامر بن الطفيل الجعفريُّ:

فإني وإن كنتُ ابنَ سيدِ عامرٍ وفارِسها المشهورِ في كل موكِبِ

---

(١) علو الهمة: محمد أحمد إسماعيل المقدم، المكتبة التوفيقية، ص٩١.

(٢) الفاضل المبرد ١/٣.

فما سوَّدتني عامرٌ عن وِراثة أبى اللهُ أن أسمو بأمٍّ ولا أبِ[1]

وهنا نتذكر شخصيةَ المتنبي فإنها تتميز بهذه الْمِيْزة، والمتنبي هو المشهور بتفاخره ونزعته إلى السيادة، فهو يأنف من أخيه إذا كان غيرَ كريم وماجد، ولا يرضى بأن يُنسب الفضلُ إليه إكراماً لجده، لذلك يقول:

وآنَفُ من أخي لأبي وأمّي إذا ما لم أجدْه من الكرام
ولست بقانعٍ من كلّ فضلٍ بأن أُعزَى إلى جدٍّ هُمام[2]

ويقول أيضاً:

أرى الأجْدادَ يغلِبُها كثيرٌ على الأولادِ أخلاقُ اللئامِ[3]

وأفضلُ نسب على الإطلاق ـ ويحق لصاحبه أن يفتخر به ويعتزَّ ـ هو النسبُ النبوي، ومع ذلك أراد النبيُّ ﷺ أن يُعلم البشرية جمعاء أن عمل المرء هو الأساسُ يوم الحساب، وليست الأنسابُ والألقاب، لذلك لَمَّا نَزَلَتْ آيةُ ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشعراء: ٢١٤] قَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى الصَّفَا فَقَالَ: «**يَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ: يَا صَفِيَّةُ بِنْتَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ: لا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئاً، سَلُونِي من مَالِي ما شِئْتُمْ**»[4].

وكذلك يومَ القيامة لا أنسابَ بين الناس إلا نسبُ الإيمان

---

(١) العمدة في محاسن الشعر وآدابه: ابن رشيق القيرواني ١/ ١٥٩.
(٢) معجز أحمد: أبو العلاء المعري ١/ ٤٠٠.
(٣) الوساطة بين المتنبي وخصومه: الجرجاني ١/ ٩٥.
(٤) صحيح مسلم

والعمل الصالح كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ۝١٠١ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝١٠٢ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ۝١٠٣﴾ [المؤمنون: ١٠١ ـ ١٠٣].

**وختاماً**: الإنسانُ بنفسه وبأخلاقه ومآثره، وليس بآبائه وأجداده، فكثيرٌ من الناس يعيشون مترنِّمين بأناشيد الماضي، حالِمين على أطلال أمجاد آبائهم وأجدادهم، ولكنهم ما قدّموا شيئاً يُذكَرُ...

وفي المقابل فإن كثيراً من الناس يموتون، ويفارقون الدنيا بأجسادهم فقط، أما ذكرُهُم فيظلُّ مرفوعاً يُحاكي سماءَ الفضيلة والسموِّ...

واللبيب من يأخذ بنصيحة أحمد شوقي عندما قال في رثاء مصطفى كامل:

فارفع لنفسك بعدَ موتِكَ ذكرَها      فالذكر للإنسان عمرٌ ثانِ(١)

❀ ❀ ❀

(١) جواهر الأدب، أحمد الهاشمي ٢/ ٩.

# الغُرَاْبُ عندَ العربِ.. نَذِيرُ شُؤْمٍ أمْ بَشِيرُ خَيْرٍ؟!

كلما رأينا إنساناً أضناه الهجرُ، وأثقله البينُ، وأدنفَهُ جوىً يُذيب منه الحشا، ويفجر في صدره بركانَ شوقٍ يُمزِّقُ ضلوعَهُ.. فإنه يُلقي باللوم على الغراب!

وكلما حكمت الأقدار على شخصٍ ما بفراق مُحبٍّ أو وداعِ ركبٍ علّقوا في ركابهم فؤادَه، فازداد انهمارُ الدموع ونحيبُ الأكباد... فإن ذلك الشخصَ يرى أن السببَ في ذلك هو الغرابُ...

وإن المتأمّلَ في أشعار العرب، وأسفار البلاغة والأدب، كثيراً ما يرى أن الشاعر يُلقي باللوم على غراب البَيْن، فيُكثِرُ من تقريعه وذمَّه، وكأن الغرابَ بيده مفاتيحُ الشقاء والتجافي، أو هو مطيَّةُ التَّعاسة، ومركِبٌ للبائسين... مع أن ذلك الغرابَ مسكينٌ لا يملك حولاً ولا قوةً، ولا يملك نفعاً ولا ضراً ولا هجراً ولا لقاءً...

وعندما يكون الشاعرُ متشائماً تسيطر عليه حالةٌ من السوداويةِ والكآبة نراهُ يتفنَّنُ في توبيخ الغراب، ويمطر عليه وابلاً من سحاب اللوم وغيثِ التقريع الذي قد يصل أحياناً إلى السّباب والشتائم، بل ربّما تعدا ذلك إلى القتل والفناء...

. . . ويبقى السؤال: ما ذنبُ الغراب حتى يُسمى غرابَ البين؟ وأيةَ جنايةٍ ارتكبَ حتى يضافَ اسْمُهُ إلى الهجر والقطيعة والبعد والفراق. . .؟! وهل يستطيع الغراب أن يصل ما شاءت الأقدارُ أن يُقطع، أو أن يقطع ما شاءت الأقدارُ أن يُوصَل؟. . .

. . . وإذا كانت العربُ تتشاءم بكثيرٍ من الأشياء، وترى فيها النحسَ وسوءَ الطالع، فلماذا كان الغرابُ في طليعة ما يَتشاءَمُ به الشعراءُ في أشعارهم؟! وهل ـ يا تُرى ـ سنرى في تراثنا الأدبي أن أحداً من الشعراء تفاءل بمرأى الغراب وطرب لنعيقه ورأى فيه بشيراً ورمزَ سعادة وهناء؟!

تلك أسئلةٌ كثيرةٌ، والإجابات عنها تطول، ولكن باختصار أقول:

لقد حاول كثيرٌ من الأدباء والمفكرين تعليلَ إلصاق البين والنحس والتشاؤم بالغراب، ولَهُم في ذلك آراءٌ شتّى، ولكلٍّ وِجْهةٌ هو مُوَلِّيها:

فمنهم من قال:

«الغرابُ أكثر من جميع ما يُتطيَّرُ به في باب الشؤم، ألا تراهم كلما ذكروا ممَّا يتطيرون منه شيئاً ذكروا الغرابَ معه، وقد يذكرون الغرابَ ولا يذكرون غيرَه. . .

. . . ثم إذا ذكروا كلَّ واحدٍ من هذا الباب لا يمكنهم أنْ يتطيروا منه إلّا من وجهٍ واحد، والغرابُ كثيرُ المعاني في هذا

الباب، فهو المقدَّم في الشؤم»[1].

ومنهم من حاول أن يُعلِّل ذلك نثراً وشعراً، جاعلاً لكل مسمَّىً من اسمه نصيباً، فجعل الغرابَ من الاغتراب، والبينَ من البانة والبينونة والبعد والنوى، لذلك نرى أن من أصحاب هذا الرأي من يقول:

«وإنما لزمه [أي: الغراب] هذا الاسمُ؛ لأن الغراب إذا بانَ أهلُ الدار للنُّجْعَة، وقعَ في مرابض بيوتهم يلتمس ويتقَمَّم، فيتشاءمون به ويتطيَّرون منه؛ إذْ كان لا يعتري منازلَهم إلا إذا بانوا، فسمَّوه غرابَ البين».

قال الشاعر:

وصاح غرابٌ فوق أعوادِ بانةٍ    بأخبار أحبابي فقسَّمني الفكْرُ
فقلتُ غُرابٌ باغتراب وبانةٌ    تُبين النوى تلك العِيافةُ والزَّجر
وهبت جنوبٌ باجتنابيَ منهُمُ    وهاجت صَبا قلتُ الصبابةُ والهجرُ[2]

وقريباً من ذلك التعليل، ما علل به السَّمهريُّ عندما رأى غراباً على بانةٍ ينتفُ ريشه، فلم يجد في البان إلّا البينونةَ، ووجد في الغراب جميع معاني المكروه، فقال:

رأيتُ غراباً واقعاً فوق بانةٍ    يُنتِّف أعلى ريشهِ ويُطايرُهْ
فقلت ولو أني أشاءُ زَجَرتُه    بنفسيَ للنهديِّ: هل أنت زاجرُه؟

---

(١) الحيوان الجاحظ ١/ ٢٨٣.

(٢) مجمع الأمثال الميداني، باب أشأم من غراب البين، ص١٦٨.

فقال: غرابٌ باغترابٍ من النَّوى وبالبان بَينٌ من حبيبٍ تعاشرُه

فذكر الغرابَ بأكثرَ ممَّا ذُكر به غيرُه، ثمَّ ذكرَ بعدُ شأنَ الريش وتطايره[1].

... في حين نرى أن بعض المفكرين الأدباءِ قد جعل غرابَ البين نوعين، ـ فهو في زعمه ليس غراباً واحداً ـ كما فعل الجاحظ عندما قال:

«وغرابُ البين نوعان:

**أحدهما**: غربانٌ صغارٌ معروفةٌ بالضَّعف واللُّؤم، **والآخر**: كُلُّ غرابٍ يُتَشاءَم به». وأضاف الجاحظُ إليها أيضاً غرابَ الليل الذي يشبه البومَ، والذي قال عنه:

«ومن الغِربان غرابُ الليل، وهو الذي ترك أخلاقَ الغربان، وتشبَّه بأخلاق البوم»[2].

... ولعلَ لونَ الغراب الشاحبَ، واتّشاحَه بالسّواد من أهم الأسباب التي جعلته يتجلبَبُ بالتشاؤم، ويتدثَّر بالنحْس، ولعل لونَه الكالحَ أيضاً هو الذي جعله جديراً بلوعات الفراق، وتباريح النوى...

ونحن عندما نتأمَّل في التذكرة الحمدونية نرى أن هناك شاعرةً ـ ولها قصةٌ في الكتاب مع ثلاثٍ من أخواتها وكيف قامت كلٌّ واحدة

---

(١) الحيوان الجاحظ ١/ ٢٨٣.

(٢) الحيوان الجاحظ ١/ ١٨٤.

منهن بقتل غراب بعد تعذيبه ـ تطلبُ من غراب البين أن يُبِينَ ويفصحَ عما يقوله حين يطير، وكذلك عمّا يقوله حين يقَعُ على الأرض، وتُشبّه حالتَها بحالته. . . فهي مطرودةٌ ولا ناصرَ لها مِمَّن ظلمَها، والغرابُ كذلك مطرود ولا ناصرَ له ولا معينَ، فها هي تقول:

ألا يا غُرابَ البينِ لونُك شاحبٌ وأَنْتَ بلَوْعاتِ الفِراق جَديرُ
فبيِّن لنا ما قُلْتَ إذ أَنْتَ واقعٌ وبَيِّنْ لنا ما قُلْتَ حين تطيرُ
فإن يكُ حقّاً ما تقولُ فأَصبَحَتْ هُمومُك شَتَّى والجناح قَصيرُ
ولا زِلْتَ مطروداً عديماً لناصرٍ كما ليس لي من ظالميّ نصيرُ(١)

وبعض الشعراءِ كان يتشاءم من الغراب إذا طار عن شماله، فمجرَّدُ رؤية الغراب تُشعره بالتشاؤم، فما بالكَ إذا طار الغراب عن شِمال الشخص؟!

فهذا الشاعر قيسُ بن ذريح نراه متشاءماً من الغراب بكل أحواله، فكيف به وقد رآه يطير عن شماله كلما ذَكر لُبنى؟!، سنرى في أبياته أنه يدعو عليه بأن تُشَلَّ رجلاه، وأن يضعُفَ جناحاهُ عن الطيران، فها هو يقول في وصف ذلك المشهد:

أَلَا يا غُرابَ البَيْنِ مالَكَ كُلَّما تَذَكَّرْتُ لُبْنَى طِرْتَ لي عن شِماليا؟
أعندَكَ عِلْمُ الغَيْبِ، أمْ أنتَ مُخْبِري عن الحَيِّ إلّا بالذي قد بَدا لِيا؟
فلا حَمَلَتْ رِجلاكَ عُشَّا لِبَيْضةٍ ولا زالَ عَظْمٌ من جَناحَيكَ واهِيا(٢)

---

(١) انظر: القصة والأشعار كاملة في التذكرة الحمدونية، ابن حمدون ٣/ ٨٤، وانظر: الأمالي، أبو علي القالي ١/ ٨٧.
(٢) الحماسة البصرية أبو الحسن البصري ١/ ١٤٨.

ولأجل ذلك «كانت محبوبتُه لُبنى قد نذرت ألا تقدر على غرابٍ إلا قتلتْه، وذلك لطِيَرَةِ قيسٍ منهن» ولقوله أيضاً:

أَلا يا غُرابَ البَيْنِ ويْحَكَ نَبِّنِي    بِعِلْمكَ في لُبْنَى، وأَنْتَ خَبيرُ
فإِنْ أَنْتَ لم تُخْبِرْ بشَيءٍ عَلِمْتَه    فلا طِرْتَ إِلَّا والجَناحُ كَسِيرُ
ودُرْتَ بأَعْدَاءٍ حَبِيبُكَ فيهمُ    كما قد تُراني بالحَبيبِ أَدورُ[1]

والأمر عند لبنى لم يقتصر على الدعاء على الغراب فحسبُ كما فعل قيسٌ، بل إنها نَذَرت أن تقتله كلما قدرت عليه، ووفت بنذرها، بل وبالغت في الوفاء به إلى درجة التشفّي والانتقام، وكأن الغرابَ هو سببُ تعاستها وصارمُ حبلِ وصالها...

فقد روي «أن لبنى أمرت غلاماً لها فاشترى لها أربعةَ غربان، فلما رأتهن بكت وصرخت، وكتَّفتْهن، وجعلت تضربهن بالسوط حتى مِتْنَ جميعاً، وجعلت تقول بأعلى صوتها:

لقد نادى الغُرَابُ ببَين لُبنى    فطارَ القَلبُ من حَذَرِ الغُرَابِ
فَقُلتُ: غَداً تَباعَدُ دارُ لُبنى    وَتَنْأَى بَعدَ وُدٍّ واقترَابِ
فَقُلتُ: تَعِستَ وَيحكَ من غُرَابٍ    أكُلَّ الدهرِ سَعْيُكَ في تَبابِ؟
لقَد أولِعتَ، لا لاقَيتَ خَيراً،    بِتَفرِيقِ المحِبِّ عن الحِبَابِ»[2]

ولم يقتصر الأمر على قيس ولبنى، بل كان لكُثَيِّرِ عزّةَ أيضاً نصيبٌ من الحزن والألم عندما صاح غرابُ البين مؤذناً بالفراق

---

(١) الشعر والشعراء، ابن قتيبة الدينوري ١/١٣٦.
(٢) مصارع العشاق، السرّاج القارئ ١/٤٧.

والرحيل، فقد ذكروا «أن كُثيّراً عندما استنشده ابنُ أبي عتيق أنشدَ:

أبائنةٌ سُعدى؟ نعم ستبينُ، كما انبتَّ من حبل القرين قرينُ
أأَنْ زُمّ أجمالٌ، وفارقَ جيرةٌ، وصاح غُراب البين أنت حزينُ[1]؟

إلا أن بعض الشعراء كان مُنصفاً في الحكم، ونصَّب نفسه قاضياً للدفاع عن الغراب، فأخذ يتساءل: علام الشتمُ ينهلُّ على غراب البين، والمحبُّ هو الذي فارق حبيبه ولم يأمره الغراب بذلك؟! وهذا القاضي المنصفُ لم يجعلِ الذنبَ في الفراق والبعد على الغراب، وأتى بالأدلة المنطقية على دعواه، وذلك كما فعل الشاعرُ أحمد بن مَيَّة ـ وهو أحد الظرفاء ـ عندما قال:

يسبُّ غرابَ البين ظلماً معاشرٌ وهم آثروا بُعدَ الحبيب على القرْبِ
وما لغرابِ البين ذنبٌ فأبتدي بسبِّ غرابِ البَين، لكنه ذنبي
فيا شوقُ لا تنفَدْ، ويا دمعُ فِضْ وزِدْ ويا حبُّ راوِح بين جنبٍ إلى جنب
ويا عاذلي لُمْني، ويا عائدي الْحُنِي عصيتُكما حتى أُغَيَّبَ في التُّرْبِ
إذا كان ربي عالماً بسريرتي فما الناس في عيني بأعظمَ من ربي[2]

والمتأمل في الشعر العربي يرى أن التشاؤم لم يقتصر عند الشعراء على الغراب فقط، فهناك من تشاءم بالبوم، وهناك من تشاءم بالأفعى، ومنهم من تشاءم بالنُّوق بل وأخذ أيضاً يدافع عن الغراب، فالنوق ـ كما يزعم ـ هي التي تحملُ الأحبةَ وتُغَيّب هوادجَهم في القفار والصحارى، فهي إذن من يشتِّت شملهم، ويفرِّق جمعهم،

---

(١) الموشى، الوشاء ١/ ٤٧.

(٢) الجليس الصالح والأنيس الناصح، المعافى بن زكريا ١/ ١٦٥.

لذلك نرى أن شاعرنا يُغَلِّط الذين يلومون الغرابَ ونعيقَه، وما لومهم له إلا بسبب جهلهم، فإن الذنب الحقيقيَّ للجمال وليس للغراب، وذلك عندما قال:

غلط الذين رأيتُهم بجهالةٍ يلحَوْنَ كلُّهُمُ غراباً ينعِقُ
ما الذنبُ إلا للجِمال فإنها ممّا يُشتّت شملَهم ويفرّق
إن الغراب بيُمْنه يُدني النّوى وتُشتت الشملَ الجميعَ الأنْيُقُ[1]

وكذلك فعل أبو منصور ظافرُ بن القاسم عندما نأى أحبابُه، وسحّت دموعُه حتى كاد أن يَغرقَ فيها، حيث لم يجعل اللومَ الحقيقيَّ على الغراب، بل جعل اللومَ على البين ومَن ساعد عليه كالنّياق والمطايا؛ لأن النياقَ والمطايا والمراكبَ هي التي أبعدت عنه الأحباب، وسرت بهم تَمخُر عُباب البيداء، وتشق طريقها موغلةً في غياهِب الرمال:

نَأَوْا فالأسى يُجْري غُروبَ مدامعي على الخدِّ حتى كدتُ فيه أغوصُ
أَلومُ غُرابَ البَيْنِ عند فراقهم وما البينُ إلا مَرْكَبٌ وقَلُوص[2]

ونحن عندما تأمّلنا معاً وغُصنا في لُجج الأدب العربي رأينا أن كثيراً من الشعراء قد ربط بين الغراب وبين التشاؤم والطِّيَرة، وخاصةً في العصر الجاهلي، ولعل ذلك يعود إلى كثير من المعتقدات الجاهلية التي كانوا عليها، حيث كانوا يتشاءمون من الهامَة، ومن شهر صفرَ ومن الطِّيَرة، ثم أتى الإسلام فبدّدها، وقال رسول الله ﷺ:

---

(١) المحاسن والأضداد، الجاحظ ١/ ٢٠.
(٢) خريدة القصر وجريدة العصر، العماد الأصبهاني ٢/ ٣٠٧.

«**لا عدوى ولا طيرةَ ولا هامَةَ ولا صفر**»[1].

ويبقى الغرابُ عند بعض الشعراء وبعض الناس نذيرَ شؤمٍ كالبوم يُنَبّئُ بالخراب، ومَن يدري؟ فربما يدفع الغلوُّ في هذا الأمر، والإيغالُ في التشاؤم من الغراب بناقدٍ يُطِلُّ علينا ليقولَ لنا:

إن ذِكرَ الغراب في داليّة النابغة الشهيرةِ هو الذي جعل فيها عيباً من عيوب القوافي [وهو الإقواء]، لذلك كانت القصيدة كلُّها تسير على نمط عذبٍ متسلسلٍ، بِرَويٍّ مكسورٍ ومطلعها:

أمِنَ آلِ ميَّةَ رائحٌ أو مُغتدِي     عَجلانَ، ذا زادٍ وغيرَ مزوّدِ؟

حتى إذا ما ذَكَرَ الشاعرُ غرابَ الشؤم حصل معه الإقواء، فأتى البيتُ كالتالي:

زَعم البوارح أن رحلتنا غداً     وبذاك خبَّرنا الغرابُ الأسودُ[2]

فكان هناك خللٌ في موسيقى البيت مَجّتْه الآذان، ونفرت منه النفوس. . .

طبعاً نقول من يدري؟ فلعل ناقداً يقولُ ذلك!!

وقبل أن نختم هذا المقالَ، علينا أن نذكُرَ أيضاً أن بعض الشعراء رأوا في الغراب فألاً حسناً، ومبشراً بخيرٍ لا نذيرَ شؤم، وأوردوا أمثلةً على ذلك، ومنها ما قاله الجاحظ حيث تحدث عن دفاع صاحب الغراب عن الغراب فقال:

---

(١) رواه البخاري.

(٢) انظر ما قيل عن الإقواء في: طبقات فحول الشعراء، ابن سلام الجمحي، ١/ ١٠، وانظر: الزهرة، ابن داود الأصبهاني ١/ ٢٣٥.

«قال صاحبُ الغراب: الغرابُ وغير الغراب في ذلك سواءٌ [أي: في الشؤم]، والأعرابيُّ إن شاء اشتقَّ من الكلمة، وتَوهَّمَ فيها الخيرَ، وإن شاء اشتقَّ منها الشرّ، وكلُّ كلمة تحتملُ وجوهاً.

ولذلك قال الشاعرُ ابنُ قيس الرُّقيَّات:

بَشَّر الظَّبيُ والغُرابُ بُسعْدى مرحباً بالذي يقول الغرابُ»[1]

**وختاماً**: كثيراً ما يُبدع الشعراء ويأتون بصورٍ جميلة ذُكر فيها الغرابُ وسوادُه، حتى وإن كانت في الهجاء، فنحن ننظر إلى الصورة فنراها في غاية الجمال والطرافة. والأمثلة كثيرة في هذا المجال، ومنها ما قالهُ الشاعرُ العباسُ بنُ يزيد الكنديُّ:

لو اطَّلع الغُراب على تَمِيمٍ وما فيها من السَّوْءَاتِ شَابَا[2]

والذي يتبيَّن في نهاية المطاف ـ طبعاً وهذا الرأي لا ينتطحُ فيه عنزان، ولا يتمارى فيه اثنان ـ أن الغراب مظلومٌ في إلصاق الشؤم به، والتطيرِ منه، وما هي إلا معتقداتٌ جاهليةٌ ـ كما أسلفنا ـ معتقداتٌ سادت ثم بادت، وأصبحت من الماضي، فكلنا نعلم أن ما قدره الله كائن لا محالة، وسواءٌ أشاءَ الغرابُ ذلك أم أبى؟!!

❁ ❁ ❁

---

(١) الحيوان الجاحظ ١/ ٢٨٣ ـ ٢٨٤.

(٢) ربيع الأبرار، الزمخشري ١/ ١٧٠.

# النَّدمُ... بَيْنَ الشَّريعةِ والأدَبِ

كل واحدٍ منا قد يندم على فعل أمرٍ ما، أو على فواتِ أمرٍ ما، فتراه يُكثر من قوله:

ليتني فعلت كذا، ولو فعلت كذا لما حصل معي كذا...

فنقول له: هوِّن على نفسك، وقل: قدر الله وما شاء فعل، وتذكر دائماً أنه: «ما كلُّ ما يتمناه المرء يُدركه»، وكم من أمرٍ ندم الإنسان على فواته فكان فواتُهُ خيراً له!، وكم من مُتَمَنٍّ كانت مَنِيَّتُهُ في أمنيّته، فما عليك إلا أن تكرر هذه الآية الكريمة: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

... ثم إن ارتشافَ الندم، وتجرُّعَ الحسراتِ، ولهيبَ الآهات، وجمرَ الزفرات، لا يُفيد في أيّ شيء، وهي أشياءُ لا تزيد صاحبَها إلا أسىً ولوعة، وأشجاناً وانتحاباً، لأنها لن تُغيِّر من قضاء الله وقدره أيَّ شيء، فكلُّ مُصيبةٍ مقدَّرةٌ في كتاب عند الله قبل وجودها، سواءٌ أكانت المصيبةُ في النفس أم في الأرض، وسواء أرضيَ الإنسان بها أم سخط، لذلك قال تعالى في كتابه العزيز: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴿٢٢﴾ لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا

فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾﴾ [الحديد: ٢٢، ٢٣] وعلى الإنسان العاقل أن يعلمَ أن ما أصابه لم يكن ليخطئَه، وما أخطأه لم يكن ليصيبَه، كما قال كعبُ بن أُبَيٍّ لابن الدّيلمي:

«وَلَوْ أَنْفَقْتَ جَبَلَ أُحُدٍ ذَهَباً فِي سَبِيلِ اللهِ ﷻ، ما قَبِلَهُ اللهُ مِنْكَ حَتَّى تُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ، وَتَعْلَمَ أَنَّ ما أَصَابَكَ لم يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَمَا أَخْطَأَكَ لم يَكُنْ لِيُصِيبَكَ»(١).

ومن أجمل الوصايا التي يجب على المرء أن يأخذ بها، ويعلّمها لمن يُحب، تلك الوصيةُ الخالدة التي أوصى بها النبي ﷺ ابن عباس، والتي يرويها لنا ابن عباس رضي الله عنه، فيقول:

كُنْتُ خَلْفَ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَوْماً فَقَالَ: «**يَا غُلَامُ، إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ: احْفَظْ اللهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظْ اللهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلْ اللهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لم يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لم يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتْ الْأَقْلَامُ، وَجَفَّتْ الصُّحُفُ**»(٢).

فالإنسانُ المؤمن يقيناً بالقدرِ لا يُقلّبُ كفيه على ما فاته من الأمور، ولا يُتبِعُ الأمرَ الفائتَ بـ(ليت، وهلّا) ويتمثّل قول القاضي الْجُرجاني:

---

(١) رواه أحمد في المسند.

(٢) رواه الترمذي وقال: حسن صحيح.

وإني إذا ما فاتني الأمر لم أبتْ أقلبُ كفي إثرهُ متندما
ولكنه إنْ جاء عفواً قبلتُهُ وإنْ مال لم أتبعهُ هلا وليتما[1]

ثم إن العجلةَ، واتباعَ الهوى، وتسويلَ النفس، ووساوسَ الشيطان هي المطايا التي تُوصل من امتطى متنَها إلى بيداء الندامة، فقابيلُ ما ارتكب جريمة القتل إلا بعد أن سوّلت له نفسه، ثم أصبح فيما بعدُ من النادمين، ولكن بعد ماذا؟! بعد ما ارتكب جريمة القتل العمْد، وليته ندم على ارتكابه جريمةَ القتل، بل ندمَ لأنه لم يعرفْ ماذا يفعل بسوءة أخيه، وكيف يُواريها بعد أن تعب من حمل أخيه ميْتاً كما في بعض التفاسير، وانظر كيف صور الله ﷻ لنا هذا المشهد:

﴿فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَـٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَـٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّـٰدِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ [المائدة: ٣٠، ٣١]. وكذلك فعل القتّال الكلابيُّ عبيدُ بنُ مجيب بنِ المضرحيّ، ندم، ولكن بعد أن قتلَ، واحمرت يده من الدماء، وماذا ستنفع الندامة؟ قال:

فلمَّا رَأَيتُ أَنَّه غيرُ مُنْتَه أَمَلْتُ له كَفِّي بلَدْن مُقَوَّم
فلمَّا رَأَيتُ أَنَّني قد قَتَلْتُهُ نَدِمْتُ عليهِ، أَيَّ ساعَةِ مَنْدَمِ[2]

. . . هذا في عيون الشريعة الغراء، لكنّ الأمرَ قد يختلف

---

(١) التذكرة السعدية، العبيدي، ١/ ٣٧.
(٢) الحماسة البصرية، أبو الحسن البصري ١/ ١٥.

بعض الشيء في عيون الشعراء وأهل الأدب والأمثال، فهم فقط يهتمون بجانب النحيبِ والحسرات، وإظهار التندّم على ما فات، وقليلاً ما يذكرُ أحدُهم أن ما تَمَّ من أمورٍ هو بقضاءٍ من الله وقدرٍ، وذلك كما فعل الإمام الشافعي في مطلع قصيدته المشهورة، حيث يقولُ:

دعِ الأيامَ تفعل ما تشاءُ وطبْ نفساً إذا حكم القضاء

وهذا طبعاً؛ لأن الإمام الشافعيَّ هو إمامٌ في الشريعة، بل وصاحب مذهب، وهو كذلك يعتبر أن الشعر يزري بالعلماء، ولولا ذلك لكان أشعرَ من لبيد كما قال!.

وفي كتب الأدب نرى أن هناك شخصاً كلما ذكر الندم يذكر معه، وهو ممن اشتُهر بندمه حتى ضُرب به المثلُ، وهذا الشخص اسمه: (الكُسَعِيّ)، حتى قيل في المثل: أندمُ من الكسعي. وقيل أيضاً: ندم ندامةَ الكُسعي، فمن هو هذا الرجل؟ وما قصته؟

.. إنه محارب بن قيس، ومن حديثه كما ذكروا:

أنه كان يرعى إبلاً له، فبصر بنبعةٍ [شجرة] في صخرةٍ، فأعجبته؛ وقال:

ينبغي أن تكون هذه قوساً، فجعل يتعهّدها ويرقُبُها، حتى إذا أدركت، قطعها وجفّفها؛ فلما جفت اتخذ منها قوساً وأسهُماً... ثم خرج حتى أتى غرةً على مواردِ حميرِ وحشٍ، فكمن ليلاً فيها، فمرَّ قطيع منها، فرماه، فمرق منه السهمُ، فظن أنه أخطأ، ثم لم يزل يفعلُ ذلك حتى أفنى الأسهمَ الخمسةَ في أعيارٍ خمسة، وقد أصابها

كلَّها، ومرقَ منها سهمُهُ، فأصابَ الصخرةَ فأجج ناراً، وهو يظن أنه أخطأها. . .

. . ثم عمد إلى القوس، فضربَ بَها حجراً، وكسرها ونام. . .

فلما أصبح نظر إلى الأعيار مصرعةً حولَه، ونظر إلى أسهمه مضرجةً بالدم؛ فندم على كسر القوس، فشد على إبهامه، فقطعها، وأنشأ يقول:

نـدمـتُ نـدامـةً لـو أن نـفـسـي تطاوعني، إذن لقطعتُ خَمسي
تَـبَـيّـنَ لـي سـفـاهُ الـرأيِ مـنّـي لعمرُ أبيك حين كسرتُ قوسي

وسارت ندامتُه مثلاً في كل نادمٍ على ما جنته يداه(١).

لذلك قال الشاعر مخاطباً أحد النادمين:

نـدمـتَ نـدامـةَ الـكُـسـعـيِّ لـمـا رأت عيناكَ ما صنعت يداك(٢)

وكذلك عندما طلَّق الفرزدقُ زوجتَه النوار قال أيضاً:

نَـدِمْـتُ نَـدَامـةَ الـكُـسَـعِـيِّ لَـمَّـا مَـضَـتْ مِـنِّـي مُـطَـلَّـقـةً نَـوَارُ
وَكـانَـتْ جَـنَّـةً فَـخَـرجْـتُ مِـنْـهَـا كـآدَمَ حِـيـنَ أخْـرَجَـهُ الـضِّـرَارُ
وَكُـنْـتُ كَـفَـاقِـئٍ عَـيْـنَـيْـه عَـمْـداً فـأصْـبَـحَ مَـا يُـضِـيء بـه الـنَّـهَـارُ
وَلَـوْ ضَـنَّـتْ يَـدَايَ بـهَـا ونَـفْـسِـي لَـكَـان عَـلـيَّ لِـلـقَـدَرِ الـخِـيَـارُ

---

(١) ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، الثعالبي ١/ ٤١، وانظر الكتاب: كتاب جمهرة الأمثال، أبي هلال العسكري الطبعة الثانية، ١٩٨٨م، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم وعبد المجيد قطامش ٢/ ٣٢٥ ـ ٣٢٦.

(٢) حياة الحيوان الكبرى، الدميري ٢/ ١٣٢.

وَمَا فَارَقتُها شِبَعاً، ولكِنْ رأيتُ الدَّهرَ يَأْخُذُ ما يُعارُ[1]

ولكنْ، وحتى نعالج هذا الأمرَ بإنصافٍ فإننا نقول: على الإنسان أن يندم أحياناً، وأحياناً عليه أنْ لا يشعرَ بالندم، فكيف ذلك؟

يأتي الجواب كالتالي:

إذا كان الأمر فوقَ طاقة الإنسان، ومن الأمور الغيبيّة المقدَّرة عليه، فلا ندامةَ ولا حسراتٍ؛ لأن ذلك لن يُغير من القدر شيئاً، ولن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا، وذلك كالموتِ والأمراض، وما يعتري الإنسانَ من آفاتٍ جراءَ الزلال والبراكين، وباختصار: كلُّ ما لا طاقة للإنسان فيه...

وأما إذا كان الأمرُ الذي لا يُريدهُ المرءُ قد حصل بسبب تقصيرٍ منه، وعدمِ أخذه بالأسباب، ولولا تقصيرُهُ لما حصل له ما يكره ـ كطالبٍ رسبَ في الامتحان لأنه لم يدرسْ جيداً ـ فلا مانع من الندم في هذه الحالة وأمثالها؛ لأن الندمَ في مثل هذه الحالاتِ يشحذُ الهمم، ويَمضي بأصحابها في دروب التقدم والطموح...

... وكذلك العبد الذي عصى ربه يوماً ما، فإن الندم في مثل هذه الحالة واجبٌ عليه شرعاً، وعليه أن يُسرع في الندم قبل أن يُغرغرَ؛ لأن عليه أن يتوبَ، وقد قال النبي ﷺ: «**الندم توبة**»[2].

---

(١) طبقات فحول الشعراء، ابن سلام الجمحي ١/ ٤٢.
(٢) رواه أحمد في المسند، وانظره في: المعجم الصغير للطبراني: ١/ ٨٣.

**وختاماً** نقول: اللَّهُمَّ لا تُكلّفنا ما لا طاقة لنا به، والطفْ بنا في ما جرت به المقاديرُ، ولا تجعلنا من النادمين، يومَ لا ينفع ندمٌ، ولا مالٌ ولا بنون، إلا من أتى الله بقلبٍ سليمٍ.

❁ ❁ ❁

# قلوبٌ بلا دِماءٍ

إذا قيل لك: إن إنساناً يعيش بلا قلبٍ فهل تصدقُ؟! أم أن علاماتِ الاستفهام سترتسم على نظرات عينك المحدّقة في دهشة، ولسانُ حالها يقول: هل من المعقولِ هذا؟

وإذا ما همس في أذنك إنسانٌ، وقال لك: إن هناك قلوباً في صدور أصحابها، ولكنها لا تنبض، ومع ذلك فهم لا يزالون على قيد الحياة. فهل سيسيطر عليك التعجّب، وتغرق في بحار الاستغرابِ؟

وإذا ما طرحنا سؤالاً جديداً عليك، والسؤال يقول: هل رأيت قلباً بلا دماءٍ، أو جفّت شرايينُه فغدا صحراءَ مجدِبةً، وجرداءَ مقفرةً؟! فبماذا سوف تجيب على تلك الأسئلة؟

... قد تشعر بالغرابة والحيرة والدهشة للوهلة الأولى عند سماعك لتلك الأسئلة، ولكن ربما بعد قليل قد تزول شكوكُك، ويطمئن قلبُك، ويتلاشى تعجّبُك، ويضمحل استغرابُك.

أما الأناس الذين يعيشون بلا قلوبٍ فإنهم كُثُر، ومنهم على سبيل المثال لا الحصر: رجلٌ نُزعت الرحمةُ من قلبه، فضرّج عجوزاً هرماً بدمائه، وأمطر طفلاً بريئاً بوابل رصاصه، وقتل آلاف الأبرياء،

ومثّل بمئات الْجُثث، وشرّد الآمنين في ديارهم بعد أن أحرق منازلَهم عن بَكرة أبيها، وخلَّفها ملاعبَ لألسنة اللهبِ المتلظّي، ومسارحَ تُعرض على خشباتِها مواقفُ الذعر والخوف والهول، وحَوَّل أيْكَها ورياضَها إلى مهامِهَ موحشةٍ بعد أن ذبح حمائمَها وعنادِلَها، وأضحت أنهارُها شراباً ذا غُصّة، وحميماً لا يُطاق ولا يُستساغ، فهل لهؤلاء قلوبٌ؟

وكثيرة هي القلوبُ التي في الصدور، ولكنْ قليلٌ منها ما ينبض، فالنبض دليلُ الحياة، وأمارة القوة والأمل، والحياة تعني الكرامةَ والعيش العزيز، وكم من إنسان يعيش ذليلاً، ويحيا بلا كرامة، يتجلبب بالضعف، ويقدّ خيوط الأمل، ولا يعرف معنى الحياة!

وكم من إنسانٍ يعيش حياتَه بلا هدف، لاهياً عابثاً، ليلُه سُباتٌ، ونهارُه فراغٌ، وماؤُهُ سراب... فأنّى لقلبه أن ينبضَ؟ وأنى لخافقه أن يخفقَ؟ فهذا وأمثالُه، لهم قلوبٌ لا يفقهون بها، ولهم قلوبٌ لا تنبض، ومع ذلك فهم لا يزالون على قيد الحياة، إلا أنهم أحياءُ الأجساد وأمواتُ القلوب.

وماذا سنتحدث عن القلوب التي لا دماءَ فيها؟، في زمنٍ جفَّت فيه دماءُ الحياء في قلوب كثير ممن يُطأطئون رأسهم أمام سادتهم من اليهود، والصهاينة المعتدين...

ماذا سأخبركم عن قلوب جفّت منها دماءُ الأمانة والفضيلة، وارتوت من أُجاج الخيانة والرذيلة والخزي والعار؟!...

قلوبٌ استبدلت بدماء الإباء والرفعة دماءَ الذل والخنوع والهوان. . .

قلوبٌ يسري فساد الضمير في دمائها منتشراً كانتشار النار في الهشيم. . .

قلوبٌ تُسقى من صديد الضلال، وتعيش على دِمَنِ الإفك والبهتان، وترتوي من معين الفكر المنحرفِ، وتعُبُّ الحقد عَبّاً، وتشرب الحسد والضغينة شُرْبَ الْهِيْم، وترتشف خمرةَ السكر الذهني الْمَقيت، فلا بد لهذه القلوبِ أن تُنبتَ أشواكَ النفاق على أغصان الكراهية، في أشجار التقليد الأعمى، وسط مفاوز الزور والتضليل التي تحتويها غياهب تلك القلوبُ. . .

وعلى كل حالٍ، فلا تزال الحياةُ مليئةً بأناس قلوبُهم حيةٌ بالمودة، وأفئدتهم نقية، وخوافقهم سنية، وقلوبُهم مفعمَة بدماء الطهر والإخلاص والحب الصادق والعفاف. . . ولا بد لأبابيل الحق أن ترميَ الباطل بحجارة من سجيل. . .

كما أتمنى أن يبقى العنوان (قلوبٌ بلا دماء) في الفكر وعلى الورق والأسطر فقط، وعلى المجاز لا على الحقيقة، وفي الخيال لا في الواقع. . . حتى نعيش معاً بمحبة القلوب النابضة بدماءِ الحياة البهية.

# هكذا علّمتني الأيام ...

• علَّمَتْني الأيامُ أنَّ الإنسان عندما يحبُّ عليه أن يخلص في حبِّه.. ولكنْ عندما يكرَه عليه ألَّا يَكره بكلِّ قلبه، بل عليه أن يجعلَ للحبِّ مَوضعاً. فكم من عدوٍّ انقلبَ حبيباً! وكم من حبيبٍ انقلب عدوّاً.

• علّمتني الأيام أن القلوبَ قد تتغيرُ مع مرور الزمن إلَّا قلب الحسود فإنه ثابتٌ على البغض والحقد، لا تغيره الأيام، ولا السنون والأعوام!

• علّمتني الأيام أن النجاح في الحياة لا ينتهي، فكلُّ نجاحٍ بعدَهُ نجاح، وغالباً ما تكون شروطُ النجاح الثاني أصعبَ من الأوَّل، فلا راحةَ للإنسان إلَّا بملاقاة الديَّان.

• علمتني الأيامُ أنَّ الابتسامة تزيل بُغضَ القلوب، وأنَّ التوبةَ النصوح تمحو الذنوب، وأن الصلاة على النبي ﷺ تفرِّجُ الكروب، وأن الإنسان مهما طغى وتكبّرَ فمصيره إلى علّام الغيوب.

• علَّمتني الأيامُ ألَّا أغترَّ بضحك كثيرٍ من الناس في وجهي، فكم من إنسان يضحك في وجهي، وأرى في ضحكهِ المكرَ والخداع، وكم من إنسان كنتُ أحسبُه حَملاً وديعاً فإذا به ذئب ماكر، وثعبان مبين.

• علمتني أنّ المؤمنَ لا يُلدغ من جُحرٍ مرتَين، ولكن أليس من الأَوْلى ألا يلدغَ على الإطلاق! فكم من إنسانٍ لُدغَ من جحر مرة، ثم لدغ بعد هُنيهة من الجُحر ذاته.

• علَّمتني الحياة أنَّ العاقل يستفيد من أخطاء الآخرين، فنظرهُ إليهم عِبرة، وما يحدثُ معهم يكون له عِظةً، فأخطاءُ الآخرينَ حُفرٌ في طريق الحياة، علِمنا مكانَها، ورأينا من وقع فيها أمامَنا، فحريٌّ بنا أن نَحيد عنها ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً.

• علمتني الأيام أن الأيامَ تسير بنا إلى المجهول، وأنها مطايا توصلنا إلى أقدار الله تعالى، وأنَّ الأيام لا تتشابَهُ إلا بالمسمَّى، فمِن المُحال أن يمر عليك يوم في المستقبل مثل اليوم الذي كنت تعيش فيه.

• علَّمتني الأيام أن الإنسانَ الذي لا يُرتجى منه العطاءُ وُجودُه؛ مثلُ عدَمهِ، بل ربَّما كان عدمُه خيراً من وجوده، لأنه بوجوده أخذ حيزاً ضِمن الموجودات، وما هو في الحقيقة إلا عدم!!

• علمتني الأيامُ أنَّ سنين التعب، وساعاتِ الإرهاق، ومجافاة الكَرى، وهجر المضاجع، كلّها تَفنى ولا تبقى إلَّا لذةُ الأشياء النافعة التي حققتها في الحياة.

.. فأنت اليومَ أيُّها الإنسانُ نفسكَ ذلكَ الإنسانُ الذي كان يَشقَى، ويتجرَّعُ علقمَ الأيام، ومرارة العَيش، وضنكَ الحياة، ولكن ـ ليت شعري ـ ألا تلاحظ أن ذلك قد ذهبَ وبقيتَ أنت، أنت الإنسان الناجح، الذي رضي عنهُ مَولاهُ، وحصل على نعيم الحياةِ واطمئنانِ الانتقال إلى الله؟

• علمتني الأيام أنّ على الإنسان أن يخالطَ جميعَ أصنافِ البشر، ويأخذَ منهم الدروس والعِبر، فكثيرٌ من الناس يأتي إلى الحياةِ ويذهب منها وهو لم يتعرف إلى حقيقةِ كثيرٍ من الناس.

• علَّمتني الأيام أنَّ كثيراً من الناس يعيشُ لنفسهِ ويَحْيا لنفسه، وهو يظنُّ أنّ السعادة تلاحقُه، والهناءَ يحيطُ به، والسرور يطغى عليه، وكأن هذا الإنسانَ لم يعلمْ أنه فقدَ جزءاً كبيراً من السعادة، ألا وهي صحبة الخُلَّان، والإحسان إلى أخيه الإنسان.

علمتني الأيام أن قلب الحسود مُغَشَّى بالسواد، ولن يحمل لك المحبة والوداد، وأنه ينطبق عليه أحد قولي رب العزة:

﴿قُلْ مُوتُوا۟ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [آل عمران: ١١٩].

أو قوله: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾ [الفلق: ٥].

❊ ❊ ❊

## ... لِأَنَّ الْحيَاةَ لا تَنْتَظِرُ، وقِطَارَ الزَّمَنِ لا يَتَوَقَّفُ!

ـ الحيرةُ تتملّك عقلَك، والوجومُ يُخَيّمُ فوقَ ظلِّ صمتِكَ، ينتابُك شعورٌ بالقلق، وتخوض في بحرٍ لُجّيٍّ من الشك. فقل لي: متى سترسو سفينةُ شكوككَ على شواطئِ اليقين؟ ومتى ستصلُ ـ بعد طول الطريقِ ـ إلى كهف السكينة، وغارِ الطمأنينة؟!

ـ ما لكَ تجلببتَ بالأسى؟، ولأيِّ سببٍ اتّشحْتَ بسوادٍ يغشاك، وسيطرتْ على لُبّك حالةٌ من السوداويةِ والتّشاؤم، وأخذتْ سُحُبُ الاكتئاب تُمطرك بغيثٍ من الشَّجَنِ، ووابلٍ من الأحزان؟ وعلامَ تَحمل فوق سفح صدرك جبالاً شامخةً من الهموم؟، وأنت قادرٌ في لحظةٍ من اليقين والرضا أن تجعلها كالعِهن المنفوش، وأن تنسِفَها من خيالك وصدرك نسفاً، فتُصبحَ قاعاً صفصفاً، لا ترى فيها عوجاً ولا أمْتاً...

ـ إلى متى ستبقى على هذه الحال؟ حياتُك عابثةٌ لاهيةٌ، وأوقاتُك هازلةٌ لا مكان فيها للجِدية، إنما هي هَزْل في هزل، وسراب يتبع سراباً... تمر أيامُك ببطءٍ شديدٍ، ولياليك يُكلّلها سوادُ قلبك، فهي سوادٌ في سواد، وحلَكٌ يغشاه الدجى، وتُحيط به الدياجير...

ـ ... تعلمُ علمَ اليقين بأن الحياةَ لا تنتظرُ، وقطارَ الزمن

لا يتوقف ولا يستريح، وأنّ ما مضى من عمرك فلن يعودَ. . . وفي الـوقـت ذاتـه، يـضـيـعُ وقـتُـك سـدىً، وتُـمـضـي أيـامَـك فـي هـوىً ويا لَلمفاجأةِ!، فبعد أن كنت تلهثُ وراء زُلال الحقيقة لتنهلَ من معينها، تكتشف أنك إنما كنتَ تركض وراء سراب الوهم، وعُدتَ مُتضلّعاً من شراب الحرمان، وحميم الشقاء !. .

ـ إلى متى سيخدعكَ الزَّيفُ البَرّاق ظانّاً أن كل ما يلمعُ ذهبٌ؟، وإلام ستُقِلُّك الأماني على أجنحة الأمل لِتحيا مع الآتي، فكُنْ على يقينٍ أنّ كلَّ ما يُراود خيالَك ما هو إلا رجْمٌ بالغيبِ؟! هل ستظلُّ مبحراً في مياه الغياهبِ، وتتهادى بك مراكبُ أحلام المستقبل يمنةً ويسرةً، وتتقاذفُك أمواجُ الحياة العاتيةِ بلا بصيصِ رحمةٍ، ولا أدنى شفقةٍ.؟!. .

فحتّامَ ترنو بناظر المترقّب إلى ما تأتي به السنونَ؟، ومتى ستترجّل بعد أن كنتَ تمتطي جناحَ الآمال، وخيولَ الأُمنيات؟، وهل سترسو بك مراكبُ أحلامك بعد أن كانت تتهادى ذاتَ اليمين وذاتَ الشمال؟ وأين تلك اليدُ الحانية ذاتُ اللمسةِ السحرية التي تنشُلك من براثن الأمواج الغاضبة، وصخَب البحر الهادر؟.

ـ هل رأيت دموعاً عادت إلى مآقيها بعد أن ذُرفت منها؟ وهل رأيت قطراتِ مطرٍ عادت إلى عيون السّحب بعد أن سحَت منها؟ هل شاهدت عينُك دخاناً تبتلعه الأرض بدل أن يصّاعدَ في السماء؟. . . فما لكَ ترجعُ القهقرى؟، وما لِنفسك تعود إلى ما كنتَ عليه بعد طول غيابٍ عنه، ومُضيّ زمنٍ سحيقٍ على عهدٍ به؟، وما لِقلبك

يصبح جلموداً، ويعود إلى قسوته بأن كان غضّاً طريّاً ليّناً، وما له لا تؤثّرُ فيه النُّذُرُ، ولا تنفعُه الذكرى؟، وها هو قد جفّت أجفانه، بعد أن كان سريعَ العَبرة، ينتصحُ بالعِبْرة! وما لعينك أصبح دمعُها عصيّاً، بعد أن كان طيّعاً مُنساباً؟ !.

ـ إلى متى ستبقى شارداً عن طريق الهدى، سادراً في قِفار اللهوِ المجدبةِ، غارقاً في مستنقع الآثام الماجن الآسِن؟! عجباً لأمرك! تستنيرُ بالظلام وقد زُيِّن لك على أنه نورٌ وهّاج، وتتبع عتَمة المعاصي ودياجيرها، وأنت تظن أنك تتبع شمسَ التقى وبدور الهدى ووميضَ الفضيلة؟.

ـ حَرِيٌّ بدموعكَ أن تعودَ إلى أخاديدِ وجنتيك ـ التي حفّرتْها بِمِنجَل السَّحَر ـ بعد طول جفاف!، وحريٌّ بأوردتك وشرايينك أن تنبض بالحب والصفاء، بعد أن سئمت من الكراهية والبغضاء، وبعد فترة كُمُونٍ ويَباس! وحريٌّ بك أن تنزِع لباس الغدر الفاضح وتتدثّر بل تكتسي بالوفاء !... وعليك أن تكونَ قد تعلمت من الأيام:

أن أعمال الإخلاصِ تستمرُّ، وتصبحُ هباءً أعمالُ الرّياء.

ـ ما لك تَمَلُّ من الحياة وخاصةً عندما تتكاثر عليك خطوبُها، ويَجلّ مصابُها، ويُضنيك الأنينُ، وتعاديك الأيامُ، وتُرمى في الصميم بسهام من قِسِيِّ السنين؟... فعلامَ إذاً تتمنى الموت وناجيه؟! أظن لأنك ترى فيه راحةَ البال، وسعادةَ الضمير، وطمأنينةَ الروح،... ولكن ذلك ـ ربما ـ لن يكونَ، ألا تتذكرُ ما اقترفت يداك، وما جنيتَ على نفسك؟، أغرّك عفوُ ربك، أم تظن أن ربك كان نسيّاً؟

أم اطّلعتَ الغيبَ بأنك ناجٍ، أم اتَّخذت عند الرحمٰن عهداً؟.

ـ . . . حياتُك عذابٌ، ومعيشتك ضنكٌ، لأنك تعيش في غفلةٍ عن الله، وبعدٍ عن نهجه القويم، وصراطه المستقيم. . . فيهمسُ الإيمان في أذن قلبك:

نعم، لقد آن الأوانُ أن تصطلح مع الله، وتعودَ إلى جداول الهداية مياهُها العذبةُ، لتنبتَ فيك غراسُ التّقى وتترعرعَ من جديدٍ!.

❁ ❁ ❁

# آمالٌ تموتُ وآمالٌ تَحيا؟!

الأملُ كلمةٌ تنبض بالحياة، يخترق الإنسانُ من خلالها ما وراء الْحُجُب، ويهرب بها من الحاضر ليعيش مع المستقبل البعيد...

الأمل كلمة تحطِّم جبروتَ اليأس وبؤسَه، فلولا خيوطُ الآمال التي ننسجُها لما عشنا إلا في الكآبة والحزن، ولما تجرّعنا إلا كؤوسَ الشقاء والحرمان !!.

الأمل هو أعظم مفارقةٍ في الحياة لأنّ أمل الطفل إسراعُ عجلة الزمن في جريها حتى يصبح شابّا فَرجُلاً... وأملَ العجوز الهرم أنْ تعود به عجلةُ الزمن إلى الوراء، إلى عالم الطفولة البريئة!!.

الأمل هو الذي يجعل مضيق الحياة بحراً، وضيقَها فُسحةً، وسقمها بُرءاً...

أعللُ النفس بالآمال أرقُبُها ... ما أضيق العيشَ لولا فسحةُ الأمل

لم أرضَ بالعيش والأيامُ مقبلةٌ ... فكيف أرضى وقد ولتْ على عجل؟

الأملُ هو الذي يزرع البسمةَ في وجه الكئيب الحزين، والهمّة في نفس العجوز الذي سئم النظرَ إلى الحياة، وهو المحفِّزُ على الجدّ والعمل، ومن هنا قيل: لولا الأملُ لبطل العمل...

ولطالما نظرتُ متأمِّلا في وجوه كثيرٍ من الناس ممن أحنتِ

السنون ظهرَهم، وبيَّض سوادُ أيامهم شعرَ رؤوسهم، فرأيتُ آمالهم قد تحولت إلى آلام، وأحلامَ يقظتهم تلاشت واضمحلت، ولم تبقِ الآلام والأحلام إلا مآسيَ متواريةً خلف تجاعيد الخدود، التي أبت إلا بالظهور. . .

والآمالُ هي التي تجعلُ المرارة في حياتنا عسلاً مصفًّى، وتنقلنا من واقع اللحظات الدامية الدامعة إلى بشاشة اللحظات السعيدة وهنائها. . .

وكما تولدُ الآمال فإن معظمها يموت في الصغر، بل ربما مات وهو لا يزال في رحم الأفكار، وعالم الخيال، وقد يقضي على الآمال صارِمُ حبلها، ومشتِّتُ شملها، وهادمُ بنيانها، ألا وهو الموت. . . . ورحم الله من قال:

نؤمِّل آمالاً ونرجو نَتَاجَها ... وعلَّ الردى مما نُرجِّيه أقربُ
ونبني القصور المشْمَخِرّاتِ في الهوى ... وفي علمنا أنَّا نموت وتخربُ(١)

وكم كان الأصمعيُّ صادقاً عندما قال:

بلغني أن بعض الحكماء كان يقول: واعلموا أن الدنيا سرورُها أحزانٌ، وإقبالُها إدبارٌ، آخرُ حياتها الموتُ، فكم من مستقبلٍ يوماً لا يستكملُه، ومنتظِرٍ غداً لا يبلغُه؛ ولو تنظرون إلى الأجل ومسيره، لأبغضتم الأملَ وغرورَهُ(٢).

---

(١) إلى الذين أسرفوا على أنفسهم، عائض القرني، ط١، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م، دار ابن حزم، ص٢١٧.
(٢) الأمالي، أبو علي القالي ١/ ١٥٩.

والمرءُ دائما يقوّي آمالَه ويبسُطها، والنفس تسرح وتمرح معها، إلا أن الدهرَ يقبض الآمال بعد بسْطٍ، ويطويها الموتُ بعد نشْرٍ:

وَلِلنُّفُوسِ وَإِنْ كَانَتْ عَلَى وَجَلٍ مِنْ الْمَنِيَّةِ آمَالٌ تُقَوِّيهَا
فَالْمَرْءُ يَبْسُطُهَا وَالدَّهْرُ يَقْبِضُهَا وَالنَّفْسُ تَنْشُرُهَا وَالْمَوْتُ يَطْوِيهَا(١)

فكلُّ وداع يعيش الإنسان بعده على أمل اللقاء، إلا وداعَ من يموت فإنه لا أمل في اللقاء بعد الموت!! مع أنّ الكثيرين قد اغترّوا بالدنيا وآمالها، وأمسى حالُهُم كما قال الشاعر:

قد غرَّ أكثر هذا العالَمَ الأملُ وكلهم بسوافي روحه أجلُ
وإنما المرءُ طيفٌ والحياة له كالآلِ والموت وِرد شرعُهُ عَلل
فلا تغرّنّك الدنيا وزينتُها فإنها زخرفٌ يا أيها الرجلُ(٢)

ويبقى الأمل هو الذي يرفع القصور، ويبني الدور، ويساهم في العمران؛ «فَلِذَلِكَ ما أَرْفَقَ اللهَ تَعَالَى خَلْقَهُ بِاتِّسَاعِ الْآمَالِ إلَّا حَتَّى عَمَّرَ بِهِ الدُّنْيَا فَعَمَّ صَلَاحُهَا وَصَارَتْ تَنْتَقِلُ بِعُمْرَانِهَا إلَى قَرْنٍ بَعْدَ قَرْنٍ، فَيُتِمُّ الثَّانِيَ ما أَبْقَاهُ الْأَوَّلُ من عِمَارَتِهَا، وَيُرَمِّمُ الثَّالِثُ ما أَحْدَثَهُ الثَّانِي من شَعَثِهَا لِتَكُونَ أَحْوَالُهَا عَلَى الْأَعْصَارِ مُلْتَئِمَةً، وَأُمُورُهَا عَلَى

---

(١) أدب الدنيا والدين، أبو الحسن الماوردي، ت: محمد أبي محمد بن فريد، المكتبة التوفيقية، ص١٨٢.

(٢) شذرات من كتب مفقودة في التاريخ، استخرجها وحققها الدكتور إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت الجزء: ٢، الطبعة: ٣، ١٩٨٨م، ص٣٦٧.

مَمَرِّ الدُّهُورِ مُنْتَظِمَةً. وَلَوْ قَصُرت الْآمَالُ ما تَجَاوَزَ الْوَاحِدُ حَاجَةَ يَوْمِهِ، ولا تَعَدَّى ضَرُورَةَ وَقْتِهِ، وَلَكَانَتْ تَنْتَقِلُ إلَى من بَعْدَهُ خَرَاباً لا يَجِدُ فِيهَا بُلْغَةً، ولا يُدْرِكُ مِنْهَا حَاجَةً.

ثُمَّ تَنْتَقِلُ إلَى من بَعْدُ بِأَسْوَأَ من ذَلِكَ حَالاً حَتَّى لا يُنْمَى بِهَا نَبْتٌ، ولا يُمْكِنُ فِيهَا لُبْثٌ» فلآمالُ هي التي تصنع الرجال[1].

وإذا كان الموت يقطع حبالَ الآمال ويصرمها، فإن هناك شيئاً آخرَ يقلِّل مآربها، ويُخمد لهيبَ نارها، وهو الشيبُ، لذلك قال أحمد بنُ خلف أبو العباس المعريُّ المعروفُ بالممتع:

وما تزال بنا الآمالُ مائلةً  إلى المطامع في وجدٍ وفي عدم
إذا الشبيبةُ بانت عن أخي أربٍ  فلا مآربَ بعد الشيب والهرمِ[2]

والآمال قد تورقُ، وتسقى من ماء الوعودِ، فكثيراً ما يُوعد الإنسانُ بوعدٍ من الوعود فيحيا قلبُه بهذا الوعد، ويعيش مع آمال وأحلام عظامٍ حتى يأتي الموعود، فإما أن يكون مع الورق ثمرٌ، أو ورقٌ بلا ثمر، وهذا ما عبَّر عنه الْعَتَّابِيُّ بقوله:

قَدْ أَوْرَقَتْ فِيك آمَالِي بِوَعْدِك لِي  وَلَيْسَ فِي وَرَقِ الْآمَالِ لِي ثَمَرُ نفسه

وكم من الشعراء من جعل أمله في الحياة نظرةً إلى نور

---

(١) أدب الدنيا والدين، أبو الحسن الماوردي، ت: محمد أبي محمد بن فريد، المكتبة التوفيقية، ص١٨٢.

(٢) شذرات من كتب مفقودة في التاريخ، استخرجها وحققها الدكتور إحسان عباس، ص٣٧٤.

من يُحب، حتى يكحل برؤيتهم جفنُه، فهو يظلُّ مع آلامه وأحزانه حتى يرى الأحباب:

أعيش دهـري مع الأيام في أملٍ وصرتُ من منهَل الأحزان أنتهِل
للناس في العيش آمالٌ تؤمِّلها ونظرةٌ من سناهُـم عنديَ الأملُ
متى أراهـم عِيانا، آهِ من لهَفِي!؟ وجَفنُ عيني بنور النور يكتحِل

**ختاماً**: تظل آمالُنا متواريةً خلف حجاب المجهول، وبعضها يكونُ كسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاء حَتَّى إِذَا جَاءهُ لم يَجِدْهُ شَيْئاً، وبعضُها يلتحم مع الطموح للوصول إلى المبتغى، وأهم شيء أنْ لا ندفنَ آمالنا وهي حيةٌ كالموؤودةِ، بل نمضي معها، لا تموت إلا بموتنا، ولا تفارقنا إلا عندما نفارقُ الحياةَ...

# أيّهَا الدّعَاةُ إلى الله

نصيحةٌ من قلبي لنفسي قبلَ أنفسكم، ومن خافقي أودّ أن تمتزجَ بخوافقكم، ومن روحي إلى صميم أرواحكم، وآملُ أن تسمعوها بأذنِ قلوبكم وإخلاصكم قبل السمع بالآذان المعهودةِ. . .

إن قسوتُ في كلامي فإنني أقسو على نفسي لا عليكم. . .

وإن وجهتُ نصحاً أو إرشاداً، فإلى نفسي قبل أنفسكم، وليس من باب الإرشاد أو التوجيه، بل من باب التذكير والمناصحةِ في الدين، وذكّر فإن الذكرى تنفع المؤمنين. . .

تعلمون أن الدربَ طويلٌ، والليلَ ساجٍ، والظلامَ دامس، والخطبَ جَلل، والدياجيرَ مدلهمةٌ، والمهمة صعبة، لكني على يقين تام ـ بعونه تعالى ـ أن إخلاصَكم يقصر الدربَ، وينير الليل، ويُطيح بالظلام، ويجعل الخطب الجلل ذلولاً، والعقبةَ الكؤودَ سهلاً لا أشواكَ فيها ولا عقبات. . .

فلا تغرنكم سحابةُ الصيف فإنها عن قريبٍ ستنقشع، ولا يغرنكم مطرُ الصيف فإنه سريعُ الجفاف، ولا يغرنكم طولُ سواد الليل، فبعدَ الليل فجرٌ يبزُغُ، وصبحٌ يتنفسُ و. . . .

ولا تيأسوا لكثرة الراكبين في فلكِ الغفلةِ، ولا تُغرقوا سفينتهم

بخرقها حتى لا تكونوا قد جئتم شيئاً نكراً... فالبحرُ خِضَمٌّ، والأمواجُ عاتيةٌ، والظلماتُ بعضُها فوق بعض، إذا أخرج الإنسان فيها يده لم يكدْ يراها، فتعاونوا على الإطاحةِ بالظلام، وخوضِ غِمار البحار، وركوبِ أمواج الهداية والمحبة والتآخي والتشاور...، فالشمعةُ إلى الشمعة، والسراجُ إلى السراج يصنعون نهاراً مشرقاً بالإيمان في دياجير الظلام...

تعلَّموا قبل أنْ تسودوا، وتيقنوا قبل أن تشكّوا، وأخلصوا فالإخلاص سرٌّ من أسرار الله، مكمنُهُ القلبُ، وملامحُهُ باديةٌ على الوجه واللسان...

عيشوا مع الماضي في الكتب والسيَر والتاريخ والأيام والوقائع، ومع الحاضرِ بقرآننا الصالح لكل زمان ومكان، وبسُنَّة نبينا العدنانِ عليه الصلاة والسلام...

... ومع الحاضر بعلومه وأحداثه وأخبارِه وأفراحه وشجونه ومآسيه....

مع الحاضر في زرع البسمة في وجه المحزون، والهدايةِ في قلب الضالّ، والطمأنينةِ في فؤاد الخائف الوجِل، واليقينِ في فكر المتحيّر، والرضا في ضمير المفجوع، والأملِ في قلب اليائس، والشجاعةِ في قلب الجبان، والأمانِة فيمن تسوّل له نفسه بالخيانة...

مع الحاضر بيدٍ حانية، ونظرةِ عطفٍ ورحمةٍ وشفقةٍ، بلسان يداوم ذكر الله، وقلب يرحم أهل البلاء،كما قال عيسى ابنُ مريم

ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «**لا تُكْثِرُوا الكلام بغيرِ ذِكْرِ الله، فَتَقْسوَ قلوبُكم، فإن القَلْبَ القاسيَ بعيد من الله، ولكن لا تعلمون.**

**ولا تنظروا في ذُنُوب الناس كأنَّكم أرباب، وانظروا في ذُنُوبكم كأنكم عبيد، فإنما الناسُ مُبْتَلىً ومعافىً، فارحمُوا أهلَ البلاءِ، واحْمَدوا الله على العافِيةِ**».

وكونوا مع المستقبل بآماله وأمنياته، ونظرة المتفائل، فالخير في هذه الأمة إلى يوم القيامة. . .

لنحملْ معاً هومَ البائسينَ في قلوبنا، ولنمسحْ دموعَ اليتامى بعطفِ قلوبِنا وأياديْنا، ولندعُ إلى الله على بصيرة وهدىً وكتابٍ منير. . .

لتكنْ دعوتُنا بقلبٍ يحترق أسفاً على العصاة، ويعتصره الحزنُ والألم على أهل الغفلة، حتى نأخذَ بزمام سفينتهم إلى مراسي الحقيقة والخيرِ والنجاةِ. . . فليست النائحةُ كالثكلى، وليس الشَّجِيُّ كالخلي، ولنعلمْ أنه عما قريبٍ سيصبح يومُنا ماضياً سحيقاً، وغداً طواه الزمنُ، وسنندم على كل لحظة لم ندعُ فيها إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة. . .

لا تنفِّروا الناس من الدين بأفكار ضالةٍ، أو بشطحاتٍ خيالية، أو بتصرفات فردية قد تؤثر سلباً على الجميع، وكونوا كالشامة في أعين الناس. . .

لا تهتموا بصغارِ الأمور وسفاسفها، أو بالنقد الهدام الذي تتربع على عرشه الضغينةُ، وإياكم أن تتبعوا السقطاتِ والهفواتِ،

وتتصيدوا الأخطاءَ، وتفرحوا بالعثراتِ، وتدفِنوا الصالحاتِ، وتُميتوا الحسناتِ، ولا تنتعشوا عندما يبتئس الآخرون، ولا تضحكوا عندما يبكي الباقون...

أيها الدعاة إلى الله:

حياتُنا لا مكان للعب فيها، فالجِدُّ رياضُه لا يتسكع في أفيائها الهازلون، وقافلةُ الإيمان تمضي ولم يلحق بها الحالمون... وحياتُنا تجد بنا المسيرَ، وسنواتُنا لحظات، وماضينا حلمٌ انقضى، وآجالنا مكتوبة وقد جفَّ مِدادها، ووقتنا كنز نفيس، فما أشد احتياجَنا إلى علو الهمم، والوصول أعالي القمم، قبل المشيب والهرم... عمرنا لا مُتسع فيه للخصام، وقلوبُنا لا ينبغي أن تشحنها البغضاء، وأعمالنا حذارِ أن يحبط ثوابَها الرياءُ... نحذّر من الغيبة ونأكلُ لحوم بعضنا البعض، ثم نتذرع بعلم الجرح والتعديل...

ونحسدُ بعضنا البعض وللحسد في لساننا تأويلٌ وألفُ دليل...

وبعضنا ثابتٌ لا تحركه عواصفُ الفتن، وبعضنا يميل مع الريح حيثُ تميل...

الأمر منا يتطلب جدةً في العمل، وإخلاصاً في القلوب، وحُرقة على الشاردين، ونظرةَ عطف حانيةً على السادرين، وآخرُ دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين.

❊ ❊ ❊

# لصوصُ الإنترنت وسارِقو الفِكْرِ والإبداعِ... مَنْ يُحَاسِبهم؟!

ماذا تفعلُ إذا أمضيتَ عدة أيامٍ وأنت مُطرقٌ متأمّلٌ، ولك جَفنٌ مؤرَّقٌ، وفكر متّقد، وجَنْبكَ يُجافي الكرى، وعينكَ تهجرُ الوسَنَ. . . إلى أنْ انتهيتَ من كتابةِ دراسةٍ فريدةٍ في غاية الإبداع وقمة الإتقان أو مقالةٍ كالشّمسِ وضحاها. . .

. . . ولكنْ فجأةً، وبينما كنتَ تُقلب صفحاتِ الشّابكة العنكبوتية (الإنترنت). . . وجدت أن أحدهم قد سرق تلك الدراسةَ، ونسبها نسباً غيرَ شرعيٍّ إلى نفسه، وليتَه سرقها خُلسةً، وهو يمشي على استحياءٍ كما هي عادة اللصوص، بل سرقها جِهاراً نهاراً مُعلناً للملأ أنه السارق، حيث لصق اسمَه بجانب تلك الدراسة، وقام بمسح اسمك. . .

. . ثم إن ذلك اللصَّ شعرَ بالإعياء والتعب بعد أن بذل ذلك الجهدَ الجهيدَ في النسخ واللصق. . . فما كان منه إلا أن رسمَ بسمةَ رضاً صفراءَ على شفتيه، وأقنعَ نفسه بأنه حقاً هو صاحبُ تلك الدراسة الإبداعية. . ومن ثَمَّ أسلَم جفونَه للنوم، وذهب في سبات عميق. . بعد طول سهرٍ، ومعاناةِ سُهد، وتمحيصٍ وتدقيق. . . ؟!!

وماذا تفعل ـ أيّها الشاعرُ المبدعُ ـ إذا سكبتَ أحاسيسك ومشاعركَ في بُحور الشعر المفعمةِ بالحب، ومزجتَ عواطفك الحرَّى بدماء دموعك، ومداد يراعِك، ثم غرست فسائلَ إبداعكَ في ضميرك ووحي قلمك، فنبتتْ في بستان فكرك قصيدةٌ مفعَمةٌ بالوجدان، تُبهر الألبابَ، وتُطرب الفؤادَ، وتوقظ الوسنانَ، وتشنِّفُ الآذان. . .

. . . وبينما كنتَ تُقلّب صفحاتِ الإنترنت وجدتَ أيضاً أن أحدهم قد قام بسرقة تلك القصيدة منك، سرقها بكلِّ ما تحويه من عواطفك وأحاسيسكَ، ونسَبَ القصيدة نسباً غير شرعيٍّ إلى نفسه، ولم يَرْعَ حُرمة لعِرض الشّعرِ، وشرفِ بناتِ الأفكار، ولم يُخْفِ جرائمَه الشنيعةَ تلك، بل وضع اسمه في نهاية القصيدة، ونسيَ أو تناسى أن الإنسان إذا بُلي بارتكاب المعاصي عليه أن يستترَ؟!

لا ريب ـ أيها المفكرُ والأديبُ والشاعرُ ـ أنك ستشعر بالغضب، بل تكادُ تَمَيّز من الغيظ، وقد تَهمس في سرِّ نفسك، وتناجي طيفَ فكرك:

رحم الله لصوصَ تلك الأيام، وما أشدَّ حياءَ لصوصِ الأموال، وسارقي النفائسِ!، حيث كانوا يتخفَّوْن ويسرقون ووجوهُهُم مصفَرّةٌ، وفرائصُهُم ترتعدُ، وأياديهم ترتجفُ خوفاً وقلقاً. . . فأحدهم عندما يسرق مالاً أو ذهباً أو كنزاً يحاول جاهداً أنْ لا يتركَ أيَّ أثرٍ يدل على فَعلتِهِ الشنيعةِ تلك، وما رأينا سارقاً وضع قُصاصة ورقيةً بعد عملية السرقة ووضَّح فيها اسْمَه، ونسب السرقة إليه. . .

. . . أما في الإنترنت فإن اللصوصَ كُثُرٌ، وخاصةً إذا لم يكن هناك رادعٌ من الله يردعهم، وعقوبة من الْخَلْقِ تزجرهم، فسارق المال تُقطعُ يدُه كما قال تعالى في كتابه العزيز: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾﴾ [المائدة: ٣٨]، أما لصُّ الإنترنت، وسارقُ أفكار البشر ومواهبِهم فمَن يقطع يده؟، ومن يحاسبه؟، وإذا لم يَخف من الله فمن أيِّ أحد سيخاف؟!..

هذا مع أننا نعلم أن السرقةَ سرقةٌ، وأن اللص لص سواءٌ أكانت الأشياءُ المسروقةُ مالاً أم فكراً أم أيَّ شيءٍ آخرَ.. بل إن سرقةَ الفكر تكون أشدَّ خطراً من سرقة المال؛ لأن المال قد يحصل عليه أيُّ شخصٍ، فهو في متناولِ الجميع... أما الإبداعُ السامي، والفكرُ المتألّق، والعاطفةُ المشبوبة بلوعة كاتبها لتخرج قصيدةً كحديقة ذاتِ بهجة، والمقالُ المتجدّد، والدراسةُ الجادّةُ الفريدةُ، فهذه الأشياء لا يستطيع أيُّ شخص أن يحصل عليها، لذلك هي أشياءُ خاصةٌ بالمبدعين والمفكرين، وليست مشاعاً يَرتعُ فيه كلُّ من يريد، ولا شراباً سائغاً لكلّ الشاربين...

فبابُ السرقة في الإنترنت مفتوحٌ لكل من لا خوفَ من الله يحجبه، ولا ضميرَ يردعه؛ لأن الشابكة العنكبوتية مرتع خِصبٌ للأدعياء، وهي في الوقت ذاته مستنقعٌ آسنٌ لكلِّ من يَعُبُّ منه ويردُ أُجَاجَهُ من لصوصِ الفكر، وسارقي المواهب، وقُطّاع طريق النّتاج الأدبي والثقافي والفكري، ففي الإنترنت يَكتب من شاء ما شاء، ويسرق من يريد لكل من يريد، أما في المجلات العلمية والصحف

والكتب فقد نجد في حالات نادرة أن أحدهم قام بسرقة قصيدةٍ أو رواية أو مقالة ونشرها في تلك الصحيفة أو المجلة أو الكِتاب، ولكنْ، حتى وإن نشرها فإنه سرعانَ ما يُفتضح أمرُه، ويردُّ عليه الكثيرون من أنصار رد الحقوق إلى أصحابها، وخاصةً إذا كانت القصيدةُ مشهورةً، وكان السارقُ ـ بالإضافة إلى سرقته ـ مُغفّلاً، ويظن أنْ لا أحدَ يعلم من هو صاحب القصيدة ومبدعُها . . .

وعلى كل الأحوال، ليست النائحةُ كالثكلى، والخليقةُ التي تكسو صاحبَها مهما حاول أن يُخفيَها فلا بد أن تظهر يوماً ما للملإ. . .

وعلى المنتحِل والسارق أن يعلم علم اليقين أن كلَّ قصيدةٍ أو مقالة أو دراسةٍ تَرِثُ بالفطرة لغةَ وعواطفَ وفكرَ وأحاسيسَ وأسلوبَ كاتبها، فالمتمرسون بالنقد الأدبي والتذوق الفطري للنصوص يعرفون من النظرة الأولى كاتبَ النتاج الأدبي، وذلك قبل قراءة اسمه؛ لأن لكل كاتب وشاعر في كتاباته سماتٍ وخصائصَ وُسِمَ بها، ومِيْزاتٍ تُميِّزه عن غيره من الكُتّاب والأدباء والشعراء، اللَّهُمَّ إلا من بدأ بكتابته مقلداً للآخرين، وتقمَّص أساليبَهم فإن الأمر قد يلتبس أحياناً على من لا خبرة عنده. . . وكذلك قد يلتبس الأمر إذا كان الكاتبُ في بدايات كتاباته، ولم يقرأ له الناسُ إلا قليلاً. . .

. . أظن أن الرسالةَ والنصيحةَ قد وصلت، وإن كانت تُساورني بعض الشكوك أني قد أجدُ في المستقبل من قام بسرقة هذه المقالة، ومحا اسمي ولصق اسمه!!

فأُذَكّرُ كلَّ من تسوّل له نفسُه بالسرقة ـ مهما كان نوعُها، وأخصُّ هنا السرقاتِ الأدبيةَ والفكريةَ ـ أن الله مُطّلع عليه، وأنه يعلم السرّ وأخفى، وأذكّره أن يُكرر دائماً قولَ الشاعر:

وما من كاتبٍ إلا سَيَفْنَى ... ويَبقى الدَّهْرَ ما كتبتْ يداهُ
فلا تكتبْ بكفِّك غيرَ شيءٍ ... يَسُرُّكَ في القيامةِ أنْ تراهُ

وعليه أن يعلم أن الله يراه، وأن يجعل نصب عينيه قولَ القائل:

وإذا خلوتَ بريبةٍ في ظلمةٍ ... والنفسُ داعيةٌ إلى الطغيان
فاستحيِ من نظر الإلٰه وقل لها: ... إن الذي خلق الظلامَ يراني

وفي الختام حبذا لو وُجد من المفكرين والمثقفين والمبدعين والمنصفين من يُجَنّد نفسه ليُعيد الحقوق المسروقة إلى أصحابها، ويُظهر عوار السارقين، ويفضحَ سرقاتِهم على رؤوس الأشهاد، وأجرُه وثوابُه على الله.

❁ ❁ ❁

# قراءة في كتاب:
# (عَصرُنا والعَيشُ في زَمانِهِ الصَّعبِ)

عنوانٌ يحمل بين طياته الكثيرَ من التساؤلات؟

هل عصرُنا يختلف عن العصور السابقة؟؟

وهل كان العيش سهلاً في العصور السابقة حتى رأينا العيش صعباً في زماننا؟؟

أم أن العصر يبقى حقبةً زمنيةً والناس هم الذين يختلفون؟

أم كما قال الشاعر:

نعيبُ زماننا والعيبُ فينا    وما لزماننا عيبٌ سوانا؟

وغيرُها من الأسئلة الكثير الكثير...

(عَصرُنا والعَيشُ في زَمانِهِ الصَّعبِ) هو عنوانُ كتاب للأستاذ الدكتور عبدِ الكريم بكار، حاول المؤلف من خلاله تسليطَ الضوء على كثيرٍ من القضايا الشائكة والحساسة في زماننا وعصرنا، سلّط الضوء على أوضاعه وملامحه، وعلى العيش فيه، والصعوبات التي يواجهها المسلمُ الملتزم بالقيام بأمر الله تعالى في ظل ظروف وأوضاع كثيراً ما تكون غيرَ مواتية، وأتى المؤلف بالحلول المناسبة للعيش في زماننا الصعب، وما يحتاجه هذا الواقعُ من تطوير وتحسُّنٍ

للأبعاد العقلية والنفسية والجسمية والاجتماعية، بالإضافة إلى تحسين إدارة شؤون العيش.

وهذا الكتاب يعالج كثيراً من القضايا الأساسية في زماننا، وعندما قرأتُه رأيتُ أنه يجب أن يكون في كل بيت، وفي كل مؤسسة وشركة ومكتبٍ ومكان عمل...

الكتابُ يتألف من مقدمة في صفحة واحدة، ذكر المؤلف فيها سبب تأليفه للكتاب، ثم قسّمه إلى خمسة أبواب، وكلُّ باب يحتوي على عدة فصول على النحو التالي:

## الباب الأول

## (عصرُنا وملامحُهُ وأوضاعه)

وهو يتألف من فصلين:

**الفصل الأول:** أتى على صيغة سؤال: هل يعيش العالم عصراً واحداً؟ وأتى فيه بالنتيجة التالية: (في الحديث الصحيح: «**لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ من قَبْلَكُمْ شِبْراً بِشِبْرٍ، وَذِرَاعاً بِذِرَاعٍ، حَتَّى لَوْ سَلَكُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَسَلَكْتُمُوهُ**». قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى؟ قَالَ: «**فَمَنْ؟**»).

إن السير خلف الآخرين خطوةً خطوة، ـ حتى ولو دخلوا مداخل ضيقة ومهلكةً، وعملوا أعمالاً لا خير فيها، ولا معنى لها ـ لم يتحقق في عصرٍ من العصور كتحققه في هذا العصر. إن الحديثَ يشير إلى أمم تقود، وشعوب تتبعُ، والذي ينظر اليوم في نَهَمِ الشعوب الضعيفة إلى استيراد كلّ شيء من الدول التي تقود

الحضارة، ما هو نافع وما هو ضارٌّ ـ على حد سواءٍ ـ يتأكد له دقةُ التشبيه بدخول جحر الضبّ!

. . . على مقدار ما تسهم الشعوبُ المقودةُ في إنتاج قيمٍ ونظم وأدوات، تسهِّل الحياة، وتحلُّ المشكلاتِ، تترك بصماتها على العصر الذي نعيش فيه، وتبلغ رسالتها ورؤيتها في الحياة.

ثم تحدّث عن علاقتنا مع الغرب، وتعاظمِ الاحتكاك بين الإسلام والنصرانية عبر محورين:

**الأول**: المحورُ الفكريُّ: حيث تأثّر الأوروبيون تأثراً بالغاً بالفكر الحضاري الإسلامي عبر تعلم العربية، وعبر تعلم الترجمات من العربية إلى اللاتينية. . .

**الثاني**: فقد كان يتمثل في الحروب الصليبية التي بدأت قبل نهاية القرن الخامس، ولم تنتهِ إلا قبيل انتهاء القرن السابع الهجري، عندما تم تصفيةُ النفوذ الصليبيِّ في الشام، وما يصاحبه من الانهيار الغربي بالحضارة الإسلامية، ورأى أن صورةَ الإسلام في ذهن الغربيين صورةٌ غامضةٌ، يكتنفها الكثيرُ من الجهل والتشويش، وانتهى إلى أن الغرب غربٌ والشرق شرقٌ، ولا يمكن لهما أن يصبحا شيئاً واحداً، ولكنْ سيكون بإمكان كل واحد منهما أن يستفيدَ من الآخر إذا ما راعى كلٌّ منهما حقوق الطرف الآخر، وخصوصيتَه الحضارية. . . وسنظل نأملُ بحصول ذلك مهما كانت المعطياتُ السائدة باعثةً على التشاؤم.

**والفصل الثاني**: تحدَّث فيه عن قيمٍ ومفاهيمَ وأوضاع سائدةٍ،

وأنّ فهم العصر الذي نعيش فيه، هو الخطوةُ الأولى التي يجب أن نخطوها نحو التمكُّن من العيش فيه على نحو مقبول وفعّال. . . وتطرق فيه إلى مسائلَ هامةٍ، هي على الترتيب:

من التفاؤل إلى العدمية، ضياعُ الهدف النهائي، التأزّمُ الخُلُقي، تقدّم بلا حدود، تغيّر في المفاهيم، العنف وإرادةُ القوة، التحدّي والاستجابة، انتشارُ نظام التجارة، وجنون الاستهلاك، شافعاً كلّ ذلك بالأدلة العقلية والنقلية على صحة ما يقول، وتوضيح تلك المسائل.

## الباب الثاني

## (العيشُ في الزمان الصّعب)

وهو من أربعة فصولٍ:

**الفصل الأول:** تحدَّث فيه عن عصرِ العيش الصعب، ولماذا زماننا صعبٌ؟؟ وسلط الضوءَ على ما يراه في جملة الأسباب المهمة لصعوبة العيش في زماننا هذا، وذلك باختصار لم يفصِّل فيه، ذاكراً من الأسباب:

انتقالَ مركز السيطرة من الإنسان إلى الأشياء، وصيرورةَ كثير من الأشياء الكمالية أشياءَ أساسية، فأكثر من (٩٥٪) من أثاث المنزل الآن كان يُعد في الماضي من جملة الكماليات، بل كثيرٌ منه لم يكن معروفاً أصلاً، والحاجة إلى المزيد من المهارة، والتغيرات السريعة التي قسَّمت العالمَ، وزيادة السأم من الحياة، والإحساس بالكرب والضغط النفسي، مع ذكر بعض الإحصائيات عن الجرائم

في بعض الدول الغربية، واليأس من صلاح الأحوال، وتدهور الحياة البيئية. . .

**الفصل الثاني**: تحدَّث فيه عن العيش خارج العصر، فالعيش خارجَ العصر ـ كما يرى ـ لا يحتاج إلى تخطيط، ولا إلى جهد، فهو الأصلُ، والعيش داخل العصر هو الذي يتطلب الكثير من الفهم والعناء والبذلِ. . .

وذكر أهمَّ السماتِ للذين يعيشون خارج العصر، منها:

التكبلُ بالأوهام، ومنشأُ هذه الأوهام، والتخفّف من القيود الأخلاقية، والتشتّتُ بين الماضي والمستقبل، وفقدُ المبادرة الشخصية، والإعراضُ عن النقد الذاتي، وعدمُ الاهتمام بالوقت والإهمال والفوضى. . .

**الفصل الثالثُ**: خصّصه للحديث عن المسلم المعاصر، وجعل منه نموذجاً وأسوةً حسنة، ولفت النظر إلى بعض المسارات والمهارات التي يرى أنها تحتل مكانة خاصةً في نموذج المسلم المعاصر على النحو التالي:

توجيهُ جميع المناشط نحو الغاية العليا، وعدمُ المساواة في المبدأ، والمحافظةُ على الصورة الكلية، والتحرّرُ الدائم، والتفوّق على الذات، والشعورُ بالتأنّق الذي كثيراً ما يرتقي بالإنسان ـ على نحو ما ـ إلى درجة الريادة، حيث يضْحي قدوةً لغيره، وأنْ يسير نحو الهدف في وضوح تامّ، وسلوك منطقي، وأن يحرص على النجاح مهما كان صغيراً، ومن الصفات المهمة للمسلم المعاصر سمةُ

الإيجابية وهي مغايرة لصفة السلبية، وتعني الإيجابية: القدرةَ على التحكم في العواطف، والفهمَ العميقَ لتحديات العصر ومطالبه، وجعل المؤلف الصحةَ النفسية أهمَّ ركن من أركان الإيجابية، ثم جعل التقييمَ الذاتي هو الأصلَ في مفهوم الإنسان لذاته، فعلى المسلم اليوم أن يمتلك القدرة على إعادة فهم ذاته . . .

**الفصل الرابعُ**: تحدَّث فيه عن قضايا هامة وعامة، فهو يرى أن المدينةَ الفاضلة وَهْمٌ فليس في هذه الأرض مدينةٌ مثاليةٌ للعيش؛ لأن هذه الدنيا دارُ ابتلاء، ودارُ زرع، وتحدث فيه عن إضاعة الوقت وأسباب ضياعه، وعن بعض المبادئ والآليات في الاستفادة من الوقت، وتحسين الإنتاجية ومبادئ تحسينها، ومواجهةِ المشكلات، والاهتمام بالمستقبل، ورسمِ بعض الأفكار التي تساعد على رسم خطة شخصية، ولم ينسَ الحديث عن السعادة والرضا، ومصدرِ الشعور السعادة والإحساس بالرضا، وعن السبق والتقاعس وسمات السباقين والمتقاعسين، وجعلَ لكل شيء ثمناً، وأسهبَ في الحديث عن الدقة وبعض المطالب المتناقضة. . .

## الباب الثالث

## (العيشُ في الزمان الصعب البعدُ العقلي والبعدُ النفسي)

وهو من ثلاثة فصول:

**الفصل الأولُ**: تحدَّث فيه عن البعد العقلي، وعن العقل وأهميته المزايدة، وتحدث عنه شكلاً ومضموناً، فشكلُهُ الإمكاناتُ والقدرات التي زوّد الله بها دماغنا، ومضمونُهُ المبادئُ الفطرية،

وبعضها المكتسب، المرتبط بالثقافة، ثم شرح العقلانية شرحاً وافياً.

**الفصل الثاني**: تجديد البعد العقلي وشرطُ هذا التجديد، واستخدام العلاج الإدراكي، وركَّز على قضايا مهمةٍ للفهم كالنظرة المتعمقة، والاستماع الجيدِ، وتنشيط الذاكرة، والمرونة الذهنيةِ، وتحسن التفكير عن طريق القبعات الستِ، والتي هي مواقف نفسية عقلية يجري تقمصها خلال جلسات الحوار والمناقشة...

**الفصل الثالث**: تحدث فيه عن التفكير المعوجّ، وذلك من خلال إصدار الأحكام المسبقة، وسوء التعامل مع المعلومات غيرِ الملائمة، والضلالِ في تفسير الظواهر، وتأثيرِ الانطباعات الأولى، وتأثيرِ الهالة، والمبالغة، والقراءاتِ القاصرة...

**الفصل الرابع**: تحدث فيه عن البعد النفسيِّ وتجديده من خلال تخليص النفس من أمراضها، وتخفيفِ القلق، والتخلص من الاكتئاب، والثقةِ بالنفس واحترامها، والإرادة الصلبة، وحسم الصراع الداخليِّ، وأنْ يكافِئ الإنسانُ نفسه، ويسيطرَ على انفعالاته...

## الباب الرابع

## (العيشُ في الزمان الصعب البعدُ الخلقي والبعدُ البدني وإدارةُ شؤون العيش)

ويتألف من ثلاثة فصول:

**الفصل الأول**: تجديدُ البعد الخلقي، من خلال التمسك بالسُّنَّة، وتجسيد المبادئ الأخلاقية، والحثِّ على الأخلاق الشفيفة،

والتأبي الخلقي، واللياقة الخلقية من خلال إغناء الحياة العامة وفضيلة الاهتمام وخلق التسامح، ثم تكلم عن ضرورة اكتساب عاداتٍ جديدة، والتخلصِ من التسويف، والخروج من دائرة الكلالة، والانهماك في الأعمال الصغيرة، والشعور بالواجب. . .

**الفصل الثاني**: تجديد البعد البدني، وأنّ هناك تحدياتٍ جديدةً في الحياة، ووضع قواعدَ لحفظ الصحة العامة تتجلى فيما يلي:

١ ـ النظرةُ إلى وضعية الحياة.

٢ ـ التوازنُ.

٣ ـ توجيهات شرعية:

أ ـ أكلُ الطيبات باعتدال.

ب ـ التداوي.

ج ـ الامتناعُ عن المحرمات.

د ـ النظافةُ.

٤ ـ الغذاءُ المتوازن.

٥ ـ التخلص من البدانة.

٦ ـ الإقلاع عن التدخين.

٧ ـ الراحة النفسية.

٨ ـ ممارسة الرياضة.

**الفصل الثالث**: إدارة شؤون العيش من خلال أمرين:

المنطلقُ النظري: ويقوم على أن الله تعالى ضامنٌ لرزق العباد، والعملَ في الحصول على الرزق عبادةٌ، والأكل من عمل اليد،

والغني الشاكرُ أم الفقير الصابرُ؟ وأسباب الفقر في العالم الإسلامي، والتوسط في الإنفاق...

أساليبُ ووسائل في تدبير شؤون العيش: وتقوم على الاستقامة والالتزام، والتفوق، ومحاولة تحسن الدخل واكتساب المهارات، واغتنامِ الفرص المتاحة، فالسفر بابٌ من أبواب الرزق، وعدم تجميد الأموال، وختمها أن العلاقة الحسنة مصدرُ الرزق.

## الباب الخامس

## (العيشُ في الزمان الصعب العلاقات الاجتماعية)

وهو يتألف من أربعة فصول:

**الفصل الأولُ**: أهميةُ العلاقات الاجتماعية، والمساعدةُ على فهم العالم، وإشباع الحاجات العاطفية، وأوضحَ أنّ من سمات اللبنة الصالحة، الالتزامَ والتواضع والصبرَ والرحمة والمبادرة الفردية والألفةَ التي تأتي من خلال طيب الكلام والجدارة بالثقة، والوضوحِ وتقبل النقد، وعدم إفهام الناقد أنه مخطئ...

**الفصل الثاني**: الاتصال الإنساني من خلال تعريف الاتصال وكيف يكون جيداً وذلك عن طريق: تكوينِ الانطباع الأولي، ومعرفة النفس، والدقة في استخدام اللغة، والاتصال عبر الهاتف، والخطابِ المؤثر والإصغاءِ الجيد...

**الفصل الثالث**: مبادئُ ومفاهيمُ في العلاقات الاجتماعية، ومن خلال رعاية العلاقة الخاصة، وأن يعرف الإنسان هذه القضايا:

ندرةُ الطراز الرفيع من الإخوان، أسبابُ انعدام الصداقة الحميمة، ما يجب توفره في الصديق...

ومن مبادئ العلاقات الأسرية: ركودُ الحياة الزوجية، وعزلُ متاعب الحياة عن المنزل، وعلاقةُ الزوجين تقوم على التخالف، والانسحابُ من الحوار، وحبذُ الاستهلاك عند المرأة...

**الفصل الرابع**: التعامل مع الاختلاف، فأسبابُ وجود الاختلاف كثيرة، ويمكن أن تنحصر في عدة أمور:

اختلافُ القيم والأفكار، التنوعُ وكثرة الخيارات، اجتماعُ الناس يولّد التوتراتِ ومحدودية الموارد. أما كيف نقلل من الاختلاف مع الآخرين؟؟ فالإجابة تكون بتقليل الاعتمادِ على الآخرين، وعدمِ الإسراف في إعطاء الوعود، والتخلصِ من سوء الفهم ومن الغضب، والبحث عن الحلول عوضاً عن اللوم، والتقليل من إصدار الأحكام.

أما حل الخلاف فيكون بتحديد نقاط الخلاف، والجوِّ النفسي للحل، والمحافظة على الهدوء، وتجاوزِ الماضي إلى الحاضر، والاعترافِ بالخطأ...

ثم وضع المؤلّف بعد الباب الخامس خاتمةً خلص منها إلى أنّ أفكار الكتاب تجعل القارئ معاصراً لزمانه وأحداثه، وكفئاً في التعامل معها، وأنها تتجه نحو تفعيل الإمكانات الشخصية للمسلم المعاصرِ...

ثم وضع فهرساً للمراجع والمصادر، وفهرساً للأفكار

والمقولات العامة، وفهرساً لمواضيع الكتاب فجزى الله المؤلف عنا كل خير، إنه سميع قريب.

* * *

- **الكتاب: عصرنا والعيش في زمانه الصعب**
- **المؤلف: الدكتور عبد الكريم بكار**
- **الطبعة الثالثة، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م دار القلم، دمشق، بيروت**

# قراءة في كتاب
# (بصائرٌ للمُسْلِمِ الْمُعَاصِرِ)

أحبّتي وإخوتي  إليكمو هديتي  إليكمو نصيحتي
إليكمو وصيّتي  إليكمو محبتي  مضمومةً في باقتي
هديتي بصائرْ  للمسلم المعاصرْ  على طريق الصحوةِ
نصيحتي زواجرْ  للمسلم المخاطرْ  في غفلة البصيرةِ

نداءُ قلبٍ حزينٍ:

«يا شبابَ الإسلام، ويا طلائع البناء الجديد، ويا حباتِ قلوب الأمة الإسلامية المجيدة:

ليكنْ في علمكم أن دهاةَ الكيد العالميّين قد بالغوا في الكلام على الصحوة الإسلامية في العالم الإسلامي، وهوّلوا أمرَها لهدفين:

١ـ ليورّطوا شباب الإسلام وطلائع البناء الجديد في رعوناتٍ تسحق هذه الصحوةَ، وتعيد المسلمين إلى سُباتهم.

٢ ـ وليدُقُّوا ناقوس الخطر في آذان دول العالم الغربي وسائر الدول التي تخشى عودة الإسلام إلى الظهور والقوة في الأرض... وظهورِ كيان الأمة الإسلامية الواحدة.

لا تغتروا بمن يخادعكم ليستدرجَكم، ولا يقودنَّكم أحداثُ

الأحلام، ولا المراهقون في فهم الإسلام، ولا تعتبروا كلّ من يخالفكم في الرأي خصماً لكم، ولا كلَّ من يوافقكم في الرأي صديقاً لكم...

لا تشتروا الثمار على أشجارها قبل أن يبدوَ صلاحُها، فريحٌ باردةٌ أو شديدة تُسقطها وهي غيرُ صالحة للانتفاع بها... واتقوا الله في أعمالكم، إن الله مع المتقين.

بتلك الأبياتِ العذبة أهدى كتابه وبدأه، وبذلك النداء من القلب الحزين الجريحِ ثنَّى، ثم ثلّث بفاتحة لقاءٍ مع الإخوة، هكذا فعل الشيخُ العالم الداعيةُ عبد الرحمٰن حسن حبنكة الميدانيُّ في كتابه القيم: «بصائرٌ للمسلم المعاصر» الذي هو فعلاً سراجُ نورٍ وهداية، طريقُ علمٍ ومعرفة، ونبراسٌ وضّاءٌ في ظلام ليلٍ حالكٍ معاصرٍ، وإشعاعُ أملٍ في قلوب بائسةٍ، وتذكيرٌ بحديث سيد الكائنات: «**لا تَزَال طَائِفَة من أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقّ حَتَّى يَأْتِي أَمْر اللَّه**»...

سنمضي اليوم على بصيرة ونور في دراسة هذا الكتاب دراسةً تعبّر عن محتواه، وتُرشد إلى فحواه، فنقول وبالله التوفيق:

بعد الإهداء الذي ذكرناه، ونداءِ ذلك القلب الحزين، وفاتحةِ لقاءٍ مع الإخوة، قسّم المؤلف كتابَه إلى أربعة أبواب، وكلَّ بابٍ إلى عدة فصول:

## الباب الأول

بدأه بنظراتٍ حول أسباب الأخطاء، وصورِ الجنوح الفكري عن إدراك الحقيقة، ثم قسّمه إلى أربعة فصول:

**الفصل الأول**: تحدّث فيه عن حدود حقائق الأشياء ومقاديرها، فلكلِّ أمرٍ حقيقةٌ، ولكل حقيقة حدودٌ ومقاديرُ، وقسّمها إلى خمسة وجوه، ثم تكلم عن الحقائق فمنها أزليةٌ، ومنها مجعولةٌ، ومنها بسيطةٌ، ومنها مركّبةٌ، . . .

**الفصل الثاني**: تحدّث فيه عن مكانة الحقّ في مفهوم الدين، وعن الصراع بين الحقّ والباطل، وخلص إلى عدة حقائق، وهي على الترتيب:

الله هو الحقُّ، لا يقول إلا الحقَّ، يُحق الحق بكلماته، يقصّ الحق، يقضي بالحق، يخلق بالحق، وعدُ الله حقٌّ، أنزل الله كتابه بالحق، أرسل الله رسوله بالحق وبدين الحق، ليس بعد الحق إلا الضلالُ، وأيَّد كلَّ ذلك بالشواهد المناسبة من كتاب الله، ومن سُنَّة رسول الله ﷺ. . .

**الفصل الثالثُ**: تحدّث فيه عن صور الإدراك بين الخطأ والصواب، وهي ستُ صورٍ:

١ ـ إدراكُ الحقيقة إدراكاً كاملاً. . .

٢ ـ إدراك الحقيقة إدراكاً ناقصاً. . .

٣ ـ إدراكٌ تختلط فيه حدودُ الحقائق. . .

٤ ـ الزيادة على حدود الحقيقة، مع ادّعاء أن الزيادةَ داخلةٌ في حدود الحقيقة. . .

ثم تكلّم عن التعميم الفاسد، وأتى بأمثلة من التعميمات الفاسدة، منها: إدخالُ النتائج في الأحكام الخاصة بالمقدمات، واختلافُ

الآراء الاجتهادية في الأحكام الفقهية، ثم طرح سؤالاً وأجاب عليه، وهو: هل الحق يتعدد بتعدد المقبول من الاجتهادات الفقهية؟

ومن الأمثلة أيضاً: الحكمُ على كل معطيات الحضارة الغربية بالصحة أو بالفساد، ورفضُ كل دين لأنّ ما يُطلق عليه اسمُ دينٍ هو باطل، والحكمُ على كل عناصر مذهبٍ إنساني بالصحة أو بالفساد، تعميمُ الحرية وإطلاقُها من غير قيود، تعميم المساواة وإطلاقها من غير قيود، رفضُ كل ما عند المذاهب المخافة لأن بعضها باطلٌ، رفضُ تعليل كل الأحكام الشرعية لأن بعضها تعبديةٌ محضةٌ، اعتبار سببٍ واحد من عدة أسباب هو السببَ الوحيدَ، اعتبارُ كل نتائج التوجه لاتباع السُّنَّة هو الحق.

٥ ـ الإدراكُ المنحرف عن مطابقة رقعة الحقيقة مع التلاقي الجزئي، وأتى بأمثلة على ذلك؛ كالأخطاء في مفهوم الزهد، وأخطاءٍ حول مفهوم القضاء والقدر. . .

٦ ـ الإدراكُ المجانب للحقيقة مجانبةً كليةً، كمن يشير إلى رقعة مكة المكرمة في الخريطة فيقول: هذه رقعة دمشقَ، وقول الذين قالوا: لا إلهَ، والوجودُ كله مادةٌ أزليةٌ، إلى غير ذلك من أمورٍ باطلةٍ كثيرةٍ ليس بينها وبين رقعة الحقيقة أيُّ تلاقٍ جزئيٍّ. . .

**الفصلُ الرابع**: تحدَّث فيه عن أسباب الخطأ والجنوح الفكريِّ عن إدراك الحقيقة، وأتى فيه بمقولتين شرحَ في الأولى أسبابَ الخطأ والجنوحِ الفكري عن إدراك الحقيقة، ولخّص هذه الأسبابَ في أحد عشرَ سبباً:

**الأول**: الوهمُ الناشئ عن اضطرابٍ نفسي أو عدم اتّزان فكري.

**الثاني**: ضعفُ أداة الإدراك، أو وسيلتُه مع الغرور بالنفس.

**الثالث**: انحرافُ النظر عن حدود رقعة الحقيقة.

**الرابع**: اشتباهُ الحقيقة بما جاورها.

**الخامس**: تشابه الحقائق في صفاتها ولو تباعدت.

**السادس**: ردود الأفعال الفكريةِ السريعةِ بمؤثراتٍ نفسية.

**السابع**: سوابقُ الأفكار.

**الثامن**: التعصّب لشخص أو قومٍ أو حزبٍ.

**التاسع**: التسرّع في الحكم مع عدم وضوح الرؤية.

**العاشر**: مؤثّراتُ الأهواء والشهوات والمصالح الخاصة.

**الحادي عشر**: التقليدُ الأعمى.

**المقولة الثانية**: عرض فيها أمثلةَ الأغاليط الناشئةِ عن الخطأ أو الجنوح الفكري عن إدراك الحقيقة، وحلّل مقولة (الإنسانُ خليفةُ الله في الأرض)، وأثبت بطلانَها من خلال عدة أمور: البيانُ التحليلي، الخلافةُ فيها معنى الوكالة، ما ينتج الناس من صناعات ومبتكرات من خلق الله، التسخيرُ ليس تفويضاً ولا توكيلاً ولا خلافةً عن الله، فكرةُ الخلافة عن الله مزلقٌ خطيرٌ، هل الإنسان مستخلَفٌ عن الله في المال؟؟، فكرةُ خلافة الإنسان عن الله بدعةٌ محدثةٌ، ثم أتى بما قرره الإمام ابن تيمية حول هذه المقولة، ثم أتى بكلامٍ في غاية الروعة عن الأغاليط الشائعة لدى بعض الشّبان فقال:

«من الأغاليط الشائعة لدى بعض الشبان التحمّسُ لإقامة الحكم الإسلاميِّ وتصورُهم أن الطريقَ الأقرب لإصلاح المجتمع هو إقامةُ الحكم الإسلامي أولاً، وأن الطريقَ الأقربَ لإقامة الحكم الإسلامي، هو طريقُ الثورة والقتال، ويتصورون أنّ إصلاح المجتمع عن طريق الدعوة إلى الله والإقناع الفردي والجماهيري، وبناءِ الأجيال المؤمنة المسلمة طريقٌ طويلٌ، وأن أعداء الإسلام لا يمكِّنون الدعاة من متابعة دعوتهم، وإصلاحِ المجتمع عن طريق الدعوة والتربية والبِناء»، وأثبت بالأدلة النقلية والعقلية أن طرق الدعوة والحكمة والموعظة الحسنة أنفعُ وأجدى. . .

ثم تحدَّث عن مقولة للشيخ أبي الحسن الندوي حول الثورة الشيعية، وتحدث عن تعظيم الصغائر، وتكفير من لم يحكم بما أنزل الله، والتجرّؤِ على أحكام الدين بإصدار الفتاوى على غير هدىً. . .

## البابُ الثاني

بدأه بالفهم الإسلامي الصحيح لقضية اتخاذ الأسباب مع التوكل على الله، وهو مكوَّنٌ من ثلاثة فصول:

**الفصل الأول**: أتى بمفاهيمَ وأمثلة عامّة عالج فيها عدة قضايا، منها: التوكل على الله وظيفةٌ إيمانية، واتخاذُ الأسباب وظيفةٌ علمية، ثم تحدث عن دافِعَي اتخاذِ الأسباب الكونيّة وهما: الانسجامُ مع سنن الله الكونية، والطاعة لله في أحكامه التشريعية، ومنها: تأثير التوكل على الله في الإمداد بقوى معنوية عالية لدى اتخاذ الأسباب،

اتخاذ الأسباب طاعة لسنن الله، وطاعة لشرائعه، والتوكل على الله تعبير إيماني وطاعة قلبية، وأتى ببعض النتائج التي تكون غير سارّة للأغاليط في هذا الموضوع...

**الفصل الثاني**: أدلةٌ قرآنيةٌ وشرْحُها، حيث شرح قولَه تعالى في سورة القمر: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾﴾ [القمر: ٩ ـ ١٤]، وقولَه تعالى في سورة البقرة: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾ ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾ وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾﴾ [البقرة: ١٩٠ ـ ١٩٥].

وغيرها من الآيات شرحاً وافياً تفصيلاً، واستنبط منها بعضَ الأحكام...

**الفصلُ الثالث**: تكلَّم فيه عن وجوه النصر وأدلته في العهد المكيّ والمدني، ولم يتعدَّ هذا الموضوعَ.

## البابُ الثالث

بدأه بالحديث عن موضوعٍ مهمٍّ وهو أنّ الدين الحقَّ منهجٌ متوسطٌ بين التفريط والغلو، وهو يتكون من ستة فصولٍ:

**الفصل الأول**: أتى فيه بتمهيدٍ عام حول الحقائق والنظر إليها، وأتى بأمثلة على ذلك، وبكلامٍ نفيس لابن تيمية يتكلم فيه أنّ الحلال ما أحلّه الله ورسولُه، والحرامَ ما حرّمه الله ورسولُه ﷺ، وحول قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ۝١٥٣﴾ [الأنعام: ١٥٣].

**الفصل الثاني**: تمهيدٌ حول مفاهيم التفريط والغلوّ، وذلك بأمثلة عامة، وذكر أن هناك قسماً من الحقائق تضيق مسافةُ حدودها، ثم تكلم عن التفريط والغلو في الدين، مع الأدلة والأمثلة على كل ما يأتي به...

**الفصل الثالث**: تحدّث فيه عن التفريط والغلوِّ في العقائد والمفاهيم الأساسية للدين، وأكّد كلامه بخمسة أمثلة وهي:

الغلو في تعظيم الرسول ﷺ، غلوُّ الجبريين وغلو المعتزلة، غلوّ بعض الجهلة المنتمين للسلفية، وغلوّ المشركين، وغلوّ الجهلة من عوام المسلمين...

**الفصل الرابع**: بيان التفريط والغلو في الأحكام التشريعية، ثم أتى بأدلة قرآنية على ذلك؛ كالذين يحرّمون زينة الله التي أخرج لعباده، وذكر قوله تعالى: ﴿۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ۝٣١ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ

ﭐلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأعراف: ٣١ ـ ٣٣].

ففي هذا النص تنديدٌ بالذين يحرّمون من زينة الحياة الدنيا ما لم يحرِّمْه الله تعالى، ثم تكلم عن غلوّ النصارى في الأحكام...

**الفصل الخامس**: بيان التفريط والغلو في السلوك الديني، وذكر أمثلةً للغلو، ونصوصاً في بيان المنهج النبوي القصد، كالحديث الذي رواه البخاريُّ ومسلم، عن أنس رضي الله عنه قال: جَاءَ ثَلاثَةُ رَهْطٍ إِلَى بُيُوتِ أَزْوَاجِ النَّبِي ﷺ يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَةِ النَّبِي ﷺ، فَلَمَّا أُخْبِرُوا، كَأَنَّهُمْ تَقَالُّوهَا، فَقَالُوا: وَأَيْنَ نَحْنُ من النَّبِي ﷺ، قَدْ غُفِرَ لَهُ ما تَقَدَّمَ من ذَنْبِهِ وما تَأَخَّرَ، فَقَالَ أَحَدُهُمْ: أَمَّا أَنا، فَإِنِّي أُصَلِّي اللَّيْلَ أَبداً، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ ولا أُفْطِرُ، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ فَلا أَتَزَوَّجُ أَبداً. فَجَاءَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَيْهِمْ، فَقَالَ: **«أَنْتُمُ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا، وَكَذَا، أَمَا وَاللهِ إِنِّي لأخْشَاكُمْ لِلَّهِ، وَأَتْقَاكُمْ لَهُ، ولَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي»**.

**الفصل السادس**: بيان التفريط والغلو في الولاء، ويكون بعدة أمور، هي:

بمجاوزةِ حد الحق في المناصرة والتأييد، بإعطاءِ بعض صفات الله أكثرَ من حقها، بكراهية الأديان الربانيّة الأخرى، بحبّ

الرسول أكثرَ من حب الله، بادّعاء أن القرآن هو الكتابُ الوحيدُ المنزّلُ، بالمناصرةِ بالباطل لشخصٍ أو جماعة أو حزب، ثم تحدث عن قضيتين هامتين: النجاة من الغلو الحزبي، والغلو في الولاء إلى الإسلام على غير بصيرة

## الباب الرابع

وهو مخصّصٌ للحديث عن الجهاد في سبيل الله، ويتكون من أربعة فصول:

**الفصل الأولُ:** في تعريف الجهاد ومجالاته، واستعراضِ الآيات القرآنية في الجهاد، في العهد المكيِّ والعهد المدنيِّ...

**الفصل الثاني:** تحدث فيه عن أهداف الجهاد في سبيل الله، وعناصرِه وشروطه وفق سبعة أمورٍ:

موجباتِه من الواقع البشري، غايةِ الجهاد في سبيل الله، خطواتِ الجهاد في سبيل الله ووسائله، الدعوةِ إلى الجهاد في سبيل الله في التوراة والإنجيل والقرآن، شروطِ الجهاد في سبيل الله بالقتال، الروحِ المعنوية لدى المجاهدين في سبيل الله، الجهادُ في سبيل الله في تاريخ بناةُ الحضارة الإسلامية...

**الفصل الثالث:** تحدَّث فيه عن محاولات التحريف في مفاهيم الجهاد في سبيل الله، أيضاً وفق سبعة أمور:

١ ـ مقدمة تحدّث فيها عن محاولات التحريف بشكل عام.

٢ ـ استغلال ردود الأفعال الناتجة عن توجيه الاتهام.

٣ ـ خطة تفريغ الجهاد في سبيل الله من مضامينه باصطناع البدائل.

٤ ـ خطة الربط الدوري بين الجهاد في سبيل الله بالقتال، وبين إقامة الحكم الإسلاميِّ.

٥ ـ خطة اصطناع المنظمات العميلة الأجيرة «البهائية ـ القاديانية».

٦ ـ خطة التوريط والإحباط.

٧ ـ خطة تقديم صورٍ مصطنعة من جهاد منفِّرٍ.

**الفصل الرابع**: توجيهٌ حول قضيتنا الفلسطينية المعاصرة، من خلال ستة أمور:

إن عدونا لخطيرٌ، ومع شدة خطره يهون أمره بالتزام الإسلام، ليس أثقالُ القوى العسكرية أخطرَ أسلحةِ عدوِّنا الشيطان، أثرُ الشعارات والمذاهب الفكرية المعاصرة في جعلنا مطايا لعدونا، لا سبيلَ إلى تحرير فلسطين إلا بالجهاد في سبيل الله بعد اتّخاذ الوسائل الكافية له، السّلم مع العود استسلامٌ وخنوعٌ، . . .

ثم وضع المؤلفُ خاتمةً عامةً للكتاب، وذكر أنه كتب هذه البصائرَ وهو ممتلئٌ بالحزن والهمّ والغمّ من أجل أمته، وختمها بقوله:

وأكرر أنني أوجّه هذه البصائرَ لنفسي أولاً، ثم إلى إخواني في الدين، الباحثين عن الحق، والذين يبتغون رضوانَ الله وجناتِ النعيم. . . ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُۚ وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨].

ثم وضع فهرساً عاماً للكتاب.

فجزى اللهُ المؤلفَ عنا كلَّ خير على هذه البصائر، التي تنير الدرب في الظلام الحالك.

* * *

- **الكتاب: بصائرٌ للمُسْلِمِ الْمُعَاصِرِ**
- **المؤلف: عبد الرحمٰن حسن حبنكة الميداني**
- **ط: ٣، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م، دار القلم، دمشق**

# قراءة في كتاب:
# (كِذْبَةُ نيسانَ في الميزان)

للوهلة الأولى يظن القارئُ الكريمُ أنّ العنوانَ السابق هو عنوانُ مقال، تناولتُ فيه نيسانَ وكذبته، ووضعتها في الميزان. . .

لكن، عندما يقرأ المضمون فإنه سيرى أن هذا ليس مقالاً مكوّناً من كلماتٍ معدودة، بل هو كتابٌ كاملٌ يحمل ذلك العنوان. . . وفي طياته أسئلةٌ كثيرةٌ يجيبنا عنها:

ها قد أتى شهرُ نيسانَ، فهل لهذا الشهر ميزةٌ على غيره من الشهور؟؟

ولماذا كلما أتى هذا الشهرُ المظلومُ، رأينا بعضهم يكذبون في أوله؟!!

وهل الكذبُ جائزٌ في بداية نيسانَ، ومحرَّم في آخره؟؟

ونرى بعضَ الناس يمزح بالكذب القبيحِ، فيضحكُ عندما يحزن الآخرون، ويُسَرُّ عندما يغتاظ الآخرون. . .

متى يكون الكذبُ مُباحاً؟؟

ومن هو أولُ من كذب، وسنّ هذه السُّنةَ السيئة، والعادةَ القبيحةَ، واخترع كذبة نيسانَ؟؟

هذه الأسئلةُ وغيرُها نرى أجوبتها في الميزان الذي وضعه العلامةُ محمدُ خير رمضان يوسفُ صاحبُ المصنفات والمؤلفات والتحقيقاتِ، فقد ألّف كتاباً سماه: (كذبةُ نيسان في الميزان).

وهذا الكتابُ يتألف من (١٢٦) صفحةً، بدأه المؤلفُ بحوارٍ بينه وبين أحد أنصار الكذبِ، وهذا الحوارُ شيِّقٌ حيث ينتصر كلٌّ لرأيه، ثم ذكر المؤلفُ بعد ذلك سببَ تأليفه لهذا الكتابِ عندما قال: «ولا أُخفي عليك، فإن الذي بعث هذه الأوراقَ القديمةَ من رقادها، ما لجأ إليه زميلٌ في العمل، من إشاعة كذبة في أول هذا العامِ الميلادي ـ كان ذلك عام (١٩٩٧م) ـ وكان في الستينَ من عمره أو ينوف! فتعجبت.. وعلمتُ إلى أي مدىً تستحكم العادةُ السيئة في الإنسان» (ص٩).

ـ وهذا الكتابُ يتألف من فصلين، الفصلُ الأول من (ص١٣) إلى (ص٧٦) والفصل الثاني من (ص٧٩) إلى (ص١٢٠).

ـ بدأ المؤلفُ الفصلَ الأول بتعريفِ الكذب، ثم قال: «وهو حرامٌ فإن عُلم الضررُ فيه كان من الكبائر، وإلا فمن الصغائر» (ص١٣).

ثم تحدث بعد ذلك عن حقيقة الكذب، ودلالته، وأسبابه ودوافعه، وعن الكذبة الأولى التي سيُردفُها بثانية وثالثة، حتى يصبحَ الكذبُ عنده رذيلة متأصلةً!

ثم ذكر الآياتِ والأحاديثَ التي تُرَهِّب من الكذب وتحذِّر منه، فمن الآيات مثلاً، قولُه تعالى: ﴿إِنَّمَا يَفۡتَرِي ٱلۡكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ

بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [النحل: ١٠٥]، ومن الأحاديث قولُه عليه الصلاةُ والسلامُ: «**إياكم والكذبَ فإنه مع الفجورِ، وهما في النار**» (ص٢١).

ثم تحدث عن صور الكذب ومظاهره، ومنها:

النفاقُ، وشهادة الزور، والكذبُ في البيع والشراء، والكذب المقرونُ بالحسد، والكذب في البحوث العلمية، وغيرُها من مظاهر الكذب وصوره، (ص٢٧ ـ ٣١). ولم ينسَ المؤلف ـ حفظه الله ـ مبالغاتِ المديح، وخاصة عند بعض الشعراء، (ص٣٢ ـ ٣٦)، وبعد ذلك أكَّد على ضرورة الدقة، وتحرِّي الصدقِ حتى مع الأطفال الصِّغار، وأجاب على سؤال يقول فيه: متى يُباح الكذبُ؟

وذكر ضمن الإجابة حديثَ النبيِّ عليه الصلاةُ والسلام الذي يقول فيه: «**ليس الكذَّابُ الذي يُصلح بين الناس فيَنْمي خيراً أو يقولُ خيراً**»، (ص٤٢).

ثم تحدث عن الفرق بين المزاح والكذب، فقال: «لعل الذي يكذب في أول نيسانَ يقول: إني كنت أمزح؟ وفرق بين المزح والكذب، والكذب لا يكون مزاحاً، كما نهي عن المزاح بالكذب»، (ص٤٦).

ثم تحدث عن المعاريض ـ وهو خلافُ التصريح ـ وعن خطورة الكذب وضرره، وعن عقوبة الكذاب، وعلاج الكذب، مع ذكر بعض النصائح في ذمِّ الكذب، ولزوم الصدق، والآثارِ الحميدة للصدق، وذكر طامَّةَ الكذب في الغرب ف ٩١٪ من الأمريكيين

الذين شملهم استطلاع أُجريَ على ألفي شخص يكذبون بصفة متواصلةٍ، (ص٦٧).

وفي نهاية هذا الفصل تحدث عن الكذب حتى في الأبحاث العلمية! وأورد أمثلةً على ذلك (ص٧١ ـ ٧٥).

ـ وأما الفصل الثاني فقد بدأه المؤلفُ بالحديث عن شهر نيسانَ والتعريف به، ثم ذكر أنَّ أقدمَ كذبة ورد ذكرُها في اللغة الإنكليزية في مجلة كانت تعرف بمجلة (دريك) عام (١٦٩٨م).

ثم ذكر (ص٩٣) أن الصحف في الغرب تتبارى في الكذب وكذلك بعضَ قنوات التلفاز، وبعضَ محطات الراديو، وذكر مثالاً على ذلك الخبرَ الكاذبَ الذي أذاعته محطة (راديو سود) في منطقة الجنوب الغربي الفرنسي (ص٩٤)، ثم ذكر أمثلة على الكذب بشتى أنواعه (ص٩٦ ـ ١٠١).

تحدث عما جرى للأديب إبراهيمَ عبدِ القادر المازني في أول نيسان، وكيف كذب عليه بعضُ أصدقائه حتى كادوا يوقعون الفتنة بينه وبين زوجته، (ص١٠٢ ـ ١٠٦).

ثم جاء بأمثلةٍ كثيرة عن الكذب السخيف بين بعض الأصدقاء في أول هذا الشهرِ، وخاصة عندما تكون الأضرارُ كبيرةً جداً كما في (ص١٠٧ ـ ١٠٨).

وفي نهاية الكتاب وضع المؤلفُ كلمة تحذيرية حذَّر فيها من الكذب بشكل عام، ومن كذبة نيسانَ بشكل خاص، وكان مما قال: (كم رأينا وسمعنا لهذه الكذبة من عواقبَ سيئةٍ وحقدٍ وضغائنَ

وتقاطعٍ وتدابرٍ بين الناس!! وكم جرَّت هذه الكذبةُ على الناس من ويلات بين الإخوة، وبين أهل البيت الواحد!! وكم عطَّلت على الناس من مصالحَ نتيجةَ ذلك! وكم أوقعتهم في خسائرَ ماديةٍ ومعنوية وغيرِ ذلك بسبب هذا التقليد المتبعِ من عهد قديمٍ في معظم الدول الأوربية) (ص١١٩).

ثم وضع المؤلفُ فهرس المراجع والدوريات ثم فهرسَ الموضوعات، وأكثرَ من مائة عنوان من الكتب التي حققها وألّفها، (ص١٢٧ ـ ١٢٩).

فجزاه الله عنا كل خير، ونسأل الله تعالى أن يطهر قلوبَنا من النفاق، وأعمالنا من الرياء، وألسنتَنا من الكذب، وأعينَنَا من الخيانة، فإنه يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

* * *

- **الكتاب: كذبة نيسان في الميزان**
- **المؤلف: محمد خير رمضان يوسف**
- **الناشر: دار ابن حزم ـ بيروت**

## قراءة في كتاب:
## (المنهجُ المفيدُ في بناءِ الإيمانِ والعقيدة)

فعلاً إنه منهجٌ مفيد، وركنٌ شديدٌ رشيد، في بناء الإيمان، وإرساء دعائم العقيدة، وعنوانُه يدل على مضمونه: (المنهجُ المفيد في بناء الإيمان والعقيدة)، وقد بدأه مؤلفُه العلامةُ الشيخُ إسماعيلُ المجذوبُ ـ حفظه الله تعالى ـ بمقدمةٍ رائعة تدل على المحتوى، وكان مما قال في المقدمة: «إن معرفة العقيدة الصحيحة أهمُّ جوانب المعرفة، وخطرُ الجهل في العقيدة أعظمُ الأخطار، وأكبرُ الجهالات.

ولما رأيتُ كثيراً من الناس أخذوا دينهم إرثاً ورثوه عن آبائهم دون علم ولا بصيرة، أحببت أن يكون لي نصيبٌ من خدمتهم، بكتابة رسالةٍ في العقيدة، تكون صغيرةً في الحجم، مؤيدةً بالدليل، تبيّن عقيدةَ أهل الحق ليكونوا على بصيرة في دينهم.

وستكون هذه الرسالةُ ـ إن شاء الله تعالى ـ قريبةً لمنهج الصحابة ﭫ، والتابعين، والأئمة المجتهدين، وخاليةً من التعقيد، بعيدةً عن علم الكلام، وعن منطق وفلسفة اليونان...

ومن العافية أيضاً عندما نرى مسائلَ جدليةً يختلف الناس فيها

أنْ نرجع إلى أحوال الذين ربَّاهم النبيُّ ﷺ وزكاهم، فنقتبسَ من أحوالهم قدوة صالحة نتبعهم فيها».

وقد قسَّم المؤلف الكتابَ إلى أربعة فصول، الفصلُ الأول: من (ص٨ ـ ١٣)، عرَّف فيه علمَ العقيدة بأنه (العلمُ الذي تُعرف به العقائدُ الدينية التي جاء بها رسولُ الله ﷺ بالأدلة اليقينية)، ثم ذكر بعضَ خصائصها، وأتى ببعض الإضاءات العلمية الضرورية، التي تبعدنا عن الانحرافات، وتجعلنا على بصيرة في ديننا الحنيف منها:

ـ الإسلامُ دين المعرفة والبرهان.

ـ واهتمامُ الإسلام بالجانب العقلي.

ـ وبيانُ وسائل العلم والمعرفة.

ـ الإلهامُ والرؤيا الصالحةُ لا ينتج عنهما علم.

ـ إيمانُنا بالغيب يعتمد على المنهج العلمي.

ـ لا مستندَ في أمور الغيب إلا بالوحي.

وقد أتى بالأدلة الصحيحة من الكتاب والسُّنَّة على كل الإضاءات السابقة.

ـ والفصل الثاني من (ص١٤) إلى ص (١٠٢):

بدأه المؤلف ـ حفظه الله تعالى ـ بالحديث عن الإيمان بشكل مجمَل، ثم دخل في تفصيل أركان الإيمان، بادئاً بالركن الأول: الإيمانِ بالله تعالى وحدَه، وكان تركيزُه على ثلاث أفكارٍ، وهي:

١ ـ الإيمانُ بالله فطرةٌ وبديهة.

٢ ـ البرهانُ والدليل العقلي ركيزةُ الإيمان بالله تعالى.

٣ ـ معرفة صفات الله تعالى، وهذه المعرفة جعلها في ثلاثة مباحثَ، معتمداً فيها على ما جاء في القرآن الكريم، وفي سُنَّة النبي ﷺ:

**المبحثُ الأولُ**: في طريق معرفة صفات الله تعالى.

وجعل لها طريقين، الأولُ: التأملُ في مخلوقات الله تعالى، والثاني: الوحيُ الذي جاءنا به النبيّ ﷺ.

**المبحثُ الثاني**: أسسُ معرفة صفات الله تعالى.

**المبحثُ الثالثُ**: الإيمان بما فُصِّل في القرآن والسُّنَّة من صفات الله تعالى.

وقد تحدَّث فيه عن وحدانية الله تعالى، وأنه فعّالٌ لما يريد، وهو خالقُ كل شيء، فالله الخالق وللعباد الكسبُ، والله هو الغنيُّ الحميدُ الحيُّ القيوم الغفورُ الرحيم السميع البصير الأولُ الآخر، وهو ليس كمثله شيءٌ... ثم تحدث عن أركان الإيمان بالتفصيل المؤيَّدِ بالأدلة القرآنية والنبوية والعقلية...

وأنهى الفصلَ الثانيَ بالحديث عن محبة أهل البيت، والصحابة والسابقين والأولين، وأنْ لا أحدَ على الإطلاق يبلغ درجةَ الصحابة رضي الله عنهم أجمعين.

**الفصلُ الثالث**: أفرده المؤلف بالحديث عن ميزان الإيمان، وجعل لهذا الميزان جانبين:

**الأولُ**: الأحوالُ والصفات والأعمال التي أرشدنا الله إليها، ومدحَ أهلَها، وهي شعبُ الإيمان.

**والثاني**: الأحوالُ والصفات والأعمال التي حرّمها الله علينا، وذمّها وذمّ أهلها، وهي المحرماتُ والفواحشُ، وهذا الفصلُ من (ص١٠٣) إلى (ص١٠٥).

أما الفصلُ الرابعُ والأخير، فهو من (ص١٠٦) إلى (ص١٤٠)، وقد جعل فيه المؤلف ملحقاتٍ من أجل إتمام الفائدة، وهي سبعُ ملحقاتٍ:

١ ـ حوارُ هرقلَ ملكِ الروم مع أبي سفيان قبل أن يسلم.

٢ ـ الإلهام والرؤيا الصالحةُ لا ينتج عنهما علمٌ، وهو في مسألتين؛ الأولى: لا يصح الاعتمادُ على الإلهام، والثانية: لا يصح الاعتمادُ على الرؤية الصالحة في الأحكام الشرعية، وحذَّر بشدةٍ من المضلّين.

٣ ـ في بطلان دعوى وجودِ الكون بالصدفة، وبطلانِ الإلحاد وقال: «ربطُ أنظمة المخلوقات بالصدفة أو بالطبيعة طفولةٌ غبيةٌ»...

٤ ـ في ردّ شبهات إنكار حجية أحاديث الآحاد.

٥ ـ تنوير القلوب وإحياؤُها وسقايتُها بذكر الله تعالى من الإيمان.

٦ ـ في التحذير من تكفير المسلم لأخيه.

٧ ـ نماذجُ من معجزات رسول الله ﷺ.

ثم وضع خاتمةً للكتاب، هي خلاصةُ ما جاء فيه، ومنها أقتطفُ للقارئ الكريم: «إن ما ذكر في هذا الكتابِ يحتوي بفضل الله تعالى على أهمّ ما يحتاج إليه المسلم المعاصرُ من المعلومات التي

تجعله من حيث المعلوماتُ على بصيرة في دينه، ويحميه ـ إن شاء الله تعالى ـ من الزيغ. ومضِلّات الفتن. . .

ومن الأسباب التي تعين العبدَ على تحصيل هذا الخير، أنْ يتفقّد إيمانَه، ويزنَهُ بما ذُكر في القرآن والسُّنَّة من الأحوال والأعمال التي أمر الله تعالى بها، ومدحها، وزكّى أهلها أو نهى الله عنها، وذم أهلها. . .».

ثم ختمه بفهرس شامل للموضوعات. ولقد قرأتُ الكتاب كله، وهو جديرٌ بالقراءة، ومن أجمل ما فيه، أنّ أسلوبه سهل مبسط، ويستطيع أيُّ مؤمن أن يأخذَ منه الخيرَ العميمَ، كل ذلك أتى مع الأدلة المعزوَّةِ إلى مصادرها، فجزى الله المؤلفَ القديرَ على هذا الكتاب، وعلى سائر كتبه النافعة الهادفة، التي تنقل الإنسان إلى شاطئ الهداية والإيمان.

* * *

- **الكتاب: المنهج المفيد في بناء الإيمان والعقيدة**
- **المؤلف: الشيخ إسماعيل المجذوب.**
- **الطبعة الأولى: ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م، دار الكلم الطيب، دمشق**

# قراءة في كتاب:
# (الأربعونَ الرّياضيةُ)

لقد تطورت الرياضةُ كثيراً في هذا العصر، ولم تعدْ قاصرة على التنمية البدنية من حيث اللياقةُ والقوامُ الصحيحُ، بل تعدتها إلى أهداف معرفية، وترويحية، ونفسية، واجتماعية، وتربوية، وعلاجية، وغاب عن معظمها ـ إن لم يكن كلها ـ جمالُ الإسلام وأحكامُه الشرعية التهذيبيةُ التي تكسبها سلامة في التربية، ونقاء في الغاية، وسموّاً في الهدف... بهذه الكلمات بدأ الناشرُ للكتاب الذي سوف نتحدث عنه اليوم، وقد نقلتُها كما هي لواقعيتها ووضوحها وعذوبتها.. وكلُّكُم تعلمون بدايةً أنّ الذين كتبوا في الأربعين على مر التاريخ كُثُرٌ، منهم على سبيل المثال لا الحصر:

الإمام النووي: الأربعون النووية، ابن عساكر: الأربعون البلدانية، الحافظ العلائي: الأربعون الإلٰهيّة، الحافظ العراقي: الأربعون الجهاديّة، عبد الله الغماري: الأربعون الغمارية، الإمام العجلوني: الأربعون العجلونية... وغيرهم ممن يطول ذكرهم...

ولكن العلامةَ محمد خير رمضان يوسف، أتانا كعادته بعنوان طريف بديع، يثير انتباهَ القارئ الكريم؛ لأنه يتحدث عن الرياضة، التي احتلت مساحةً واسعة في عقول كثير من شبابنا وشاباتنا، فيريد

الشابُّ المسلمُ أن يعرف ما للرياضة وما عليها، فيقرأُ العنوانَ التالي: (الأربعون الرياضية أربعون حديثاً في فضائل الرياضة)، فيبادر إلى قراءته، والتعرفِ على أحكامه وشرحه الوافي...

والمؤلف ـ حفظه الله تعالى ـ لم يكتب هذا الكتابَ بروحٍ رياضيةٍ، فما السرُّ في ذلك؟!

أجابنا عن استفهامنا في مقدمة الكتاب عندما قال:

«وكانت لي جولةٌ بين أحاديثَ نبويةٍ شريفة تحث على النشاط والقوة، فآثرت جمع أربعين منها في كتاب، مع التعليق عليها. وأعترف أن هذا الشرحَ أو التعليق لم يكن بـ«روحٍ رياضية»، وقد دلفت على الشيخوخة، وصار أصعب دواء يوصَف لي هو «رياضة المشي»! ولكني عالجته بروح الفقيه والمحدث، مع فوائدَ جاريةٍ يبشُّ لها طالبُ العلم، ويرتاح لها الرياضيُّ المسلم، ويستعد لها شبابُ الإسلام، وأثبتُّ ضوابطَ فقهيةً لممارسة الرياضة وألعابها، وكلُّها نقولاتٌ من أهل العلم والاختصاص، جزاهم الله خيراً...

وهذا الكتابُ ليس شاملاً لأنواع الرياضات في الإسلام، ولا هو معالجة موضوعية لجوانبها المتعددة، بل هو مساهمة وتذكير لجوانبَ منها بما يدل على مجموعة من الأحاديث النبوية الكريمة الصحيحة. ومن أراد التوسّع فعليه الرجوعُ إلى الكتب المختصة في ذلك، وقد ذكرت مجموعةً منها في المراجع».

بدأ المؤلفُ ـ حفظه الله تعالى ـ كتابَه بالأمر بالقوة وترك العجز، مستشهداً بالحديث الذي رواه الإمامُ مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ

قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ من الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ، احْرِصْ عَلَى ما يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ ولا تَعْجِزْ...**».

وذكر أن باحثاً معاصراً فسّر القوة في الحديث بأربعة أشياء:

القوةِ الإيمانية، القوةِ العلمية، القوةِ الإرادية النفسية، القوةِ البدنية.

ثم انتقل المؤلفُ إلى الحديث عن حقوق الجسد، شارحاً لحديث النبي ﷺ: «**إن لجسدك عليك حقاً**».

ثم تحدث عن رياضة المشي، وذكر الحديثَ الذي رواه البخاريُّ أن النبي ﷺ كان يأتي قباء راكباً وماشياً، وعنونَ فيما بعد: الهرولةُ دليلُ القوة، وأتى بالأدلة، وتحدث عن المسابقة بالجري، وكيف سبقت السيدةُ عائشةُ النبيّ ﷺ ثم سبقها فقال: هذه بتلك. وذكر اللعب بالرماح والحراب والتحديَ والتشجيعَ على التدريب والفروسية والسباحة، وذكر الحديث الذي رواه الطبرانيُّ في الأوسط والكبير، عن النبي ﷺ قال: «**كلّ شيء ليس من ذكر الله فهو لهوٌ وسهوٌ إلا أربعَ خصال: مشيُ الرجل بين الغرضين، وتأديبُهُ فرسَهُ وملاعبتُهُ أهلَه، وتعلّمُ السباحة**».

وانتقل إلى رياضة الصيد، والمصارعة وكيف صرع النبيُّ ﷺ رُكانةَ، ومصارعةِ الفتَيَانِ سمرةَ بنِ جندبَ ورافعِ بنِ خديجٍ، وذكرِ الملاكمة، وضرورة اجتناب الوجه، والحثّ على المسابقات الرياضية، كما في الحديث الصحيح: لا سبق إلا في نصلٍ أو خفٍّ

أو حافرٍ، وأن الخيل في نواصيها الخيرُ إلى يوم القيامة، وكيف هشّ النبي ﷺ لفرس يقال له «سبحة» عندما سبق غيره، وذكر المؤلف سباقَ النوق، والمبارزةَ، وأكد أن القوة هي الرميُ، وحث عليها وذمّ من نسي الرمي، ثم ذكر الأحاديثَ التي تدعو إلى الرفق بالحيوان، وكيف لعن رسولُ الله من اتّخذ شيئاً فيه الروحُ غَرَضاً.

ولم ينسَ المؤلف في نهاية الكتاب أن يتحدث عن الأخلاق التي يجب أن يتحلى بها الرياضيون، وعن التربية الرياضية، وختم أحاديثَه بحديث حسن يُذكِّر فيه أهل الرياضة، بأنْ لا يجعلوها ديدنهم، وتلهيهم عن أهم واجباتهم، وهو قول النبي ﷺ: «**ليس يتحسر أهل الجنة إلا على ساعة مرت بهم لم يذكروا الله فيها**».

هذا الكتاب يتألف من مائة وخمس عشرةَ صفحةً.

وفي النهاية وضع المؤلفُ فهرساً لأطراف الأحاديث، وفهرساً للمراجع، وفهرساً للموضوعات، فجزاه الله عنّا كلّ خير.

* * *

- **الكتاب: الأربعون الرياضية**
- **المؤلف: محمد خير رمضان يوسف**
- **دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض ط: (١) ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م**

# قراءة في كتاب
# (صَفَحَاتٌ مُضِيئَةٌ في التصوّرِ والسّلوكِ الدّينِي)

لقد كثرتْ في زماننا تصوراتٌ في أذهان المسلمين عن بعض الأمور الدينية، وعن سلوكِ بعض المسلمين وتصرفاتهم، وكثرت الآراءُ، وتعددت الاجتهاداتُ، مع أن الحقَّ واضحٌ وواحدٌ، وهو ما كان عليه رسولُ الله ﷺ، الذي ترك فينا أمرين لن نضلَّ ما تمسكنا بهما، كتابَ الله وسُنَّةَ رسوله ﷺ. . .

ونرى في زماننا كثيراً من الناس قد انحرفوا عن جادّة الصواب، وابتعدوا عن المنهج القويم، وخاصةً في قضايا شائكةٍ كالكرامات والأولياء وطُرُق ذكر الله، وغيرها من الأمور. . .

ولكنّ العلامةَ الشيخَ إسماعيلَ المجذوب ـ حفظه الله تعالى ـ هذا العالمُ المنصف المحدّث ناقش هذه القضايا بأسلوب علمي دقيقٍ موضحٍ بالأدلة من كتاب الله وسُنَّة رسول الله ﷺ، وقد ألَّف كتاباً سماه: (صفحاتٌ مضيئةٌ في التصور والسلوك الديني)، وعالج فيه كلَّ هذه القضايا بالعلم والإنصاف. . .

لقد قسَّم المؤلفُ كتابه إلى سبعة فصول، وناقش في كل فصل قضايا في غاية الأهمية، وقد ذكر في البداية مقدمةً تحدث فيها عن

كثرة الرؤوس الجهَّال التي حذّر منها النبي ﷺ، وبيَّن فيها غايته من هذا الكتابِ، فقال: (وقد رأيتُ من المفيد أن أكتبَ رسالة للطيبين الراغبين في اتّباع الحق، والحريصين على سلوك السبيل التي عاش عليها الصحابةُ ﵃، الذين ربّاهم وزكّاهم أعظمُ المربّين ﷺ، وعاش عليها التابعون وأتباعُهم، والأئمة المجتهدون وأتباعهم، على منهج العلم والمعرفة.

وأذكر في هذه الرسالة ـ التي أرجو أن تكون تذكرةً للمهتمين بدينهم بشكلٍ عام، وللشباب بشكل خاصٍّ ـ بعضَ ما أراه نافعاً من الأسس والقواعد التي قد تغيب عن كثيرٍ من الإخوة، وبغيابها فيما أرى تكثر الانحرافاتُ، وتكثر دواعي الصراع والشحناء، والخلاف السلبيِّ بين المسلمين، ولعلَّ معرفةَ هذه القواعد والأسس ومراجعتَها تكون سبباً للعافية، فكثيراً ما تكون المراجعة والمدارسة عند المنصفين الموفقين سبباً مهماً في التمييز بين الحق والباطل، وفي إزالة كثيرٍ من دوافع التشنُّج والتنافر من الإخوة، عندما يبدون آراءهم ويتخذون مواقفَهم.

كما أذكر فيها أموراً ونصائحَ، أرجو أن يجعل الله تعالى فيها نفعاً لطُلَّاب العلم الشرعي المختصين، ولغيرهم من طلاب العلم غير المختصين، لتكون ـ إن شاء الله تعالى ـ تذكرةً نافعةً تساعد على السير في طريق الاستقامة، وتحمي من الانحراف إلى طُرُق تُبعد عن سواء السبيل).

ثم أتى بتذكرة للقارئ الكريم، يبيّن فيها أن المؤمن يجب أن

يعلم أنه لا عُذر لمن ضل عن الحق بسبب غلبة الهوى، وقال:

(وليس ميزانُ الحق رأيي ولا رأيَ غيري، ولا ما ترجَّح عندي، ولا ما ترجَّح عندك، إنما الميزان هو الحقُّ الذي جاء من عند الله تعالى).

ثم أتى بتذكرة خاصة لطالب العلم، أرشده فيها أن يبحثَ عن الحقيقة فقط...

أما فصول الكتاب فهي على النحو التالي:

**الفصل الأولُ**: ديننا دينُ الأُلفة والمحبة:

وهو يتألف من نقطتين:

**الأولى**: المؤمنون المتقربون إلى الله تعالى شأنُهُم الألفةُ والمودة، وهذا شأن الذين تربَّوْا على يد النبي ﷺ، قال تعالى: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [الأنفال: ٦٣].

وقال أيضاً: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ۚ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [آل عمران: ١٠٣، ١٠٤].

**الثانية**: العواملُ الموصلة إلى الألفة، ومنها:

طلبُ العلم الشرعيِّ بمنهج الموفَّقين الصالحين، والتأنِّي والتثبت عند التكلم في الأمور الدينية، وذكر هنا قولَ التابعي الجليل

عبدِ الرحمٰن بنِ أبي ليلى: لقد أدركتُ في هذا المسجد عشرين ومائةً من الأنصار من أصحاب رسول الله ﷺ، ما منهم أحدٌ يُحدِّثُ بحديثٍ إلا ودَّ أن أخاه كفاه الفُتيا.

ثم تكلم عن مراقبة الله تعالى وخشيته، والخوفِ من سوء الحساب، وضرورةِ المحافظة على جانب الأخوّة والمحبة في الله تعالى، ولهذه الأخوّة حقوقٌ منها:

المحافظةُ على صلاح ذات البَين، واحترامُ المسلم لأخيه، وحسنُ الظن بأخيه، وإنصافُ الآخرين، وأن يراعي الإنسان حسن الخلق، وحسن الأسلوب، والتبيُّن والتثبت من الأخبار والإشاعات، والحذرُ من الوقوع في الغيبة والبهتان في حق أخيه، ثم تكلم عن الاشتغال بأبواب الخير، وتركِ الاهتمامات الجزئية، وخطورةِ الكلمة والمسؤولية عنها وعن آثارها، وعن التجرد والموضوعيةِ وعدم التعصب، وذكر هنا من مظاهر التعصب:

١ ـ التعصّبُ للمذهب.

٢ ـ التعصّب للانتماءات.

٣ ـ التعصّب للشيوخ، والثقةُ العمياءُ بهم، وإنكارُ وجود عيبٍ فيهم...

وتكلم عن ضرورة الانتماء للإسلام وترك انتماءات التصنيف، ذاكراً قولَه تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ [الحج: ٧٨].

والذي يدفعنا إلى اختيار الانتماء للإسلام، يُسْرُ تمسكنا به،

وكثرةُ الآثار الضارة لانتماءات التصنيف، والتي منها عدمُ التوازن بسبب ضغوط الانتماءات. . .

**الفصلُ الثاني**: منهج بناء الإيمان:

فالعقيدة الإسلاميةُ تُلائم العقلَ والكرامةَ الإنسانية، ومن أسس البناء المتين للإيمان، أن نبنيَ إيماننا بالله تعالى بالبرهان العلميِّ على منهج القرآن الكريم، ونبنيَ إيمانَنَا برسول الله ﷺ على البرهانِ العلميِّ، وكذلك نبني عقيدتنا على القرآن والسُّنَّة، ونبتعد في بناء عقيدتنا عن منهج الفلاسفة وعلم الكلام، فمع الأدلة والبراهين عقيدتُنا نورٌ في القلوب، ويجبُ أن نبتعد في صفات الله تعالى عن التأويل، ومعتمدُنا في الأحكام والتوجيهات الدينية على القرآنِ والسُّنَّة، فلا اعتماد على الرؤيا الصالحةِ، ولا اعتماد على الإلهامِ، ثم تكلم عن التحذير من تكفير المسلم لأخيه المسلم. . .

**الفصل الثالثُ**: في التقليد والاجتهاد:

حيث بيّن شروط المجتهد، وما لا يصحّ فيه الاجتهادُ، والمسائلَ التي يكون فيها الاجتهاد، وأكد أن من سعة التشريع أنه يجوز للمجتهد أن يقلد، ولا يجوز لمن قصُر عن أهلية الاجتهاد أن يجتهد، ثم تساءل؟ هل يصح تقليد مجتهدٍ معينٍ؟ وأجاب على ذلك بالأدلة العلمية، المعقولِ منها والمنقول، وذكر أن باب الاجتهاد لم يُغلق، ولا حرج على المقلِّد أن يترك مذهبَ إمامه ليعمل بحديثٍ بشروطٍ معينةٍ، وحذّر من الغرائب، وبيّن تحذير العلماء منها مع الأمثلة، وأكّد أن العاميَّ لا مذهبَ له، ولا حرجَ عليه في سؤال

من تيسر له من العلماء، ولا إنكارَ في مسألة اختلف فيها الأئمةُ المجتهدون، وبيَّن أخيراً أن المسائل التي يلتبس فيها الأمرُ على العامة لا يأمر ولا ينهى فيها إلا العلماءُ، ويبتعد عن ذلك المبتدئون في طلب العلم، فالضرر في أمرهم ونهيهم أكثرُ من النفع.

**الفصلُ الرابع**: الاهتمام بدراسة علم الإسناد والانتفاع به.

وتناول هذا الموضوعَ من خلال عدة نقاط:

**النقطة الأولى**: فوائدُ علم مصطلح الحديث.

**النقطة الثانية**: الموقفُ الصحيح من بعض أهل الفضل المخالفين لمقتضيات علم الإسناد، وذكر هنا بعضَ ما حذّر من روايته الإمامُ السيوطي والكتاني، وما حذر من روايته ابنُ حجر في لسان الميزان، والسخاويُّ في المقاصد الحسنة. . .

**النقطة الثالثة**: التساهلُ في الرواية يتنافى مع توجيه رسول الله ﷺ.

**النقطة الرابعة**: يجبُ بيانُ الحق وإن سخط بعضُ الناس.

**الفصل الخامس**: الابتعادُ عن المحدثات التي حذر منها رسولُ الله ﷺ أيضاً من خلال عدّة نقاط:

**الأولى**: الخيرُ في التمسك بالسُّنَّة واتّباع السابقين الأولين.

**الثانية**: كثيرٌ من المتحدثين عن البدعة الحسنة والسيئة يتخبطون.

**الثالثة**: البدعة لها استعمالان لغويٌّ، وشرعيٌّ.

**الرابعة**: التمييز بين أكثر البدع والمحدثات من عمل المجتهدين.

**الفصل السادسُ**: الأولياءُ والكرامات:

وهو فصل مهم حيث ارتبطت عند كثير من الناس كلمةُ الأولياء بالكرامات، واختلفت تصوراتُ الناس عن ذلك وتنوّعت، وقامت في أذهان بعض المسلمين تصوراتٌ للولاية والأولياء والكرامات غريبةٌ عجيبةٌ، لم تُبن على الأدلة الشرعية المعتبرة، ولم يذكرها رسول الله ﷺ، ولا أحدٌ من أصحابه رضي الله عنهم، ونتجت عن تلك التصورات أنواعٌ من السلوك والعمل غيرِ الموافق للشرع، تُبعد المسلم عن الصراط المستقيم...

فبيّن المؤلف في هذا الكتاب هذه القضايا، فعرّف الوليّ والأولياء بتعريف شاملٍ من كتاب الله، وقال عن الأولياء: هم الذين اجتمع فيهم وصفان ذكرهما الله تعالى في كتابه بقوله: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ۝٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ۝٦٣﴾ [يونس: ٦٢، ٦٣].

بعد تعريف الأولياء، تحدث عن ميزان الإيمان والولاية، وتعريف الكرامة والمعجزة، وذكر أنه لا تلازمَ بين الولاية والأمرِ الخارق للعادة، وأن أعظمَ الكرامات الاستقامةُ على هدي النبيِّ ﷺ، ونحن لا نجزم بولاية إنسانٍ إلا عن طريق الوحي، وأكد بطلان توهُّم أن بعض الأولياء يتصرفون في الكون، ولا يصح اعتبار المعتوه أو المجنون من الأولياء.

**الفصل السابع**: ذكر الله تعالى:

خصّصه للحديث عن ذكر الله تعالى، وضرورةِ الذكر وفضله وفضل الاجتماع عليه، ثم تكلم عن شروط الذكر المقبول:

وأولُ ما تجب مراعاته ما هو شرطٌ للقبول، وهو أمران:

**الأول**: الإخلاصُ، فمن المعروف أن الرّياء يُبطل ثواب الأعمال، والأدلة على ذلك كثيرةٌ، ومنها حديثُ الصحيحين: «**إنما الأعمالُ بالنّياتِ، وإنما لكل امرئٍ ما نوى**».

**الثاني**: أن يكون الذكرُ موافقاً لشرع النبي ﷺ، ومن الأدلة على ذلك حديثُ الصحيحين أيضاً: «**من عمل عملاً ليس عليه أمرُنا فهو رَدٌّ**».

فإذا كان الذكر مخالفاً للشرع فلا يكون مقبولاً.

ومن الأمثلة على ذلك ما يقوم به بعض الإخوة من ذكرٍ يريدون به التقربَ إلى الله تعالى، ويكونُ ذكرهم مخالفاً لتوجيهات الشرع، عندما يبتعدون في نطقهم باسم الله تعالى عما يجب لهذا الاسمِ من النطق الصحيح والتعظيم، فيقولون في ذكرهم: (آه) أو (أه) أو نحو ذلك.

وقد ذكر بعضَ آداب الذكر، وشروطَ الذكر المشروع، وحذر من تحريف اسم الله تعالى، الذي يحصل في بعض حلقات الذكر، فجاء بأبيات الإمام الأخضري:

والرقصُ والصّراخ والتصفيقُ عمداً بذكر اللّه لا يليقُ
وإنما المطلوبُ في الأذكار الذكرُ بالخشوع والوقارِ

ورأى أن هذا التحريفَ للاسم الكريم سببُهُ اتّخاذُ الْجُهّال شيوخاً يقتدون بهم، ويرجعون إلى رأيهم، فحذّر من اتخاذهم شيوخاً لهم وأكمل الأبيات فقال:

واتخذوا مشايخا جُهالا    لم يعرفوا الحرامَ والحلالا
لم يقفوا عند حدودِ اللَّه    وسُنَّةِ الهادي رسول اللَّه
فنفّروهم من دُعاة الدين    أولي التقى والعلمِ واليقين
وأعرضوا عن سُبل الرّحمٰن    واتّبعوا مسالكَ الشّيطان
وهدموا قواعدَ الإسلام    واعتبروا خرائفَ الأوهام

ثم تحدّث عن نصيب القلبِ من الذكر، وأهمية الأذكار الثابتة في القرآن والسُّنَّة، وإبقاء الأذكار المأثورة كما كانت، وضرورة الذكر لطالب العلم، والجهر بالذكر والدعاء والاجتماع عليه...

ثم وضع خاتمةً كان مما جاء فيها:

بعد كتابة هذه الصفحات أُذكِّر القارئ الكريم بأني لم أكتبْها من باب الدراسة النظرية، بل كتبتها بلسماً مُركّباً من توجيهات القرآن الكريم وسُنّة النبيّ الأمين ﷺ، ومن أحوال وتوجيه الصحابة الكرام، ومَنْ سار على نهجهم من الأئمة الراسخين في العلم من وُرّاث النبيّ عليه الصلاة والسلام.

وختمها بقوله تعالى: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُۚ وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨].

ثم وضع خلاصةَ وأفكارَ وفوائدَ هذا الكتاب، وفهرساً للمواضيع العامة.

فنسأل الله تعالى أن يُرينا الحقَّ حقاً ويرزقَنا اتّباعَهُ، ويُريَنا الباطلَ باطلاً ويرزقنا اجتنابه، إنه سميعٌ قريبٌ مجيبٌ.

* * *

- **الكتاب: صفحات مضيئة في التصور والسلوك الديني**
- **المؤلف: إسماعيل المجذوب**
- **ط١، ٢٠٠٤م، مطبعة اليمامة، حمص**

# قراءة في كتاب:
# (حُرْمَةُ أَهْلِ الْعِلْمِ)

أهلُ العلم، بدورُ هدايةٍ عندما يضلّ الإنسانُ الطريق، ويحيدُ عن الصواب...

أهل العلم، سُرُجُ نورٍ وضاءةٍ، ومصابيحُ هداية، وشموسُ تقىً، ونجومُ إرشادٍ وتوجيه، وهدايةِ الحائرين إلى الصراط المستقيم...

أهل العلم، ثالث ثلاثة أقسم الله ﷻ بهم عندما قال:

﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾ [آل عمران: ١٨].

أهل العلم، أشدُّ الناس خشيةً لله، ومعرفةً بالله، كذلك «**إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ من عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ**».

وأهلُ العلم هم الذين رفعهم الله الدرجاتِ العلى، وبوّأهم المنازلَ الرفيعةَ، فهو سبحانه القائل: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ﴾ [المجادلة: ١١].

أهلُ العلم همُ الفرقة التي تنفر في سبيل الله، لتعود بعد فترة إلى قومها، ليفقهوهم في الدين، مبشّرين ومنذرين، كما قال تعالى:

﴿۞وَمَا كَانَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةٗۚ فَلَوۡلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرۡقَةٖ مِّنۡهُمۡ طَآئِفَةٞ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوۡمَهُمۡ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَحۡذَرُونَ ١٢٢﴾ [التوبة: ١٢٢].

بين أيدينا كتابٌ يشدّ الانتباهَ من العنوان، كتابٌ حساسٌ في موضوعه، وعظيمٌ في محتواه، كتابٌ ما أشدّ حاجتنا إليه في زمن قلّ فيه العلماء، وكثر فيه الأدعياءُ، وكثر فيه الذين يطعنون في العلماء، وأين الثّرى من الثريا؟! وما أجمل قولَ الشاعر:

إذا وصف الطائيَّ بالبخل ماردٌ     وعيّر قساً بالفهاهة باقلُ
وطاولت الأرضُ السماءَ سفاهةً     وفاخرت الشهبَ الحصى والجنادلُ
فيا موتُ زُر إنَّ الحياة ذميمةٌ     ويا نفسُ جِدي إنَّ دهرَك هازلُ

وهذا الكتاب عنوانُه (حرمة أهل العلم) للمؤلف القدير الدكتور محمد أحمد إسماعيل المقدم، وهو كتاب فريدٌ في موضوعه، وسنتنقل بين أشجار رياضه وأزهاره، متنسّمين عبقها، ومرتشِفين رحيقَها...

والكتابُ يتألف من مقدمة، وثلاثة أبواب وخاتمة.

أما المقدمة:

فقد بدأها المؤلفُ بالحديث عن حسن الخلق، والأدبِ مع العلماء، وعدمِ الإساءة إليهم، ومما قال فيها: «إن المسيءَ إلى العلماء، والطاعنَ عليهم بغياً وعدواً قد ركب متنَ الشطط، ووقع في أقبح الغلط؛ لأن حرمة العلماء مضاعفةٌ، وحقوقَهم متعددةٌ، فلهم كلُّ ما ثبت من حقوق المسلم على أخيه المسلم، ولهم حقوقُ

المسنين والأكابر، ولهم حقوقُ حملة القرآن، ولهم حقوقُ العلماء العاملين. . .

## وأما الباب الأول

فيتألف من ستة فصول:

**الفصلُ الأول:** ذكر فيه أن من أعظم حقوق المسلم، صيانةَ عرضه، ورعايةَ حرمته، وأن الغيبةَ من أعظم الذنوب، وعرّف الغيبة بتعريف النبي ﷺ لها بِالْحَدِيثِ الْمَشْهُورِ الَّذِي أَخْرَجَهُ مُسْلِم وَأَصْحَاب السُّنَن عَنْ أَبِي هُرَيْرَة رَفَعَهُ: «**أَتَدْرُونَ ما الْغِيبَة؟** قَالُوا: الله وَرَسُوله أَعْلَم. قَالَ: **ذِكْرك أَخَاك بِمَا يَكْرَههُ**. قَالَ: أَفَرَأَيْت إِنْ كَانَ فِي أَخِي ما أَقُول؟ قَالَ: **إِنْ كَانَ فِي أَخِيك ما تَقُول فَقَدْ اِغْتَبْته، وَإِنْ لم يَكُنْ فِيهِ ما تَقُول فَقَدْ بَهَتّه**».

وأما أدلةُ تحريمها فهي كثيرةٌ، منها الآيةُ الكريمةُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ ﴿١٢﴾﴾ [الحجرات: ١١، ١٢].

ومنها حديثُ النبي ﷺ الذي رواه الإمامُ أحمدُ، قال رسول الله ﷺ: «**يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبَه، لا تغتابوا المسلمين، ولا تتبعوا عوراتِهم، فإنه من يتبعْ عوراتِهم**

**يتبع الله عورتَه، ومن يتبع الله عورته يفضحْه في بيته»**.

وذكر أحاديث تصوّر بعضَ المشاهد من عقاب المغتابين يوم القيامة، كقوله عليه الصلاة والسلام: «**لَمَّا عُرِجَ بِي مَرَرْت بِقَوْمٍ لَهُمْ أَظْفَار من نُحَاس يَخْمُشُونَ بِهَا وُجُوههمْ وَصُدُورهمْ. قُلْت: من هَؤُلَاءِ يَا جِبْرِيل؟ قَالَ: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ لُحُوم النَّاس وَيَقَعُونَ فِي أَعْرَاضهمْ**». رواه الإمام أحمد، ثم تحدث عما تكون به الغيبة، وأثر الغيبة في الطهارة والصوم، وأن مستمع الغيبة والمغتاب شريكان في الإثم . . .

**الفصلُ الثاني**: تحدث فيه عن أولوية الاشتغال بعيوب النفس، وأن الإنسان يبصر القذى في عين أخيه، وينسى الجذع في عينه. . . ولم يعرِّج في هذا الفصل على غير هذا الموضوع.

**الفصلُ الثالث**: تحدث فيه عن وجوب حفظ اللسان، وعن فضيلة الصمت، ذاكراً حديث النبي ﷺ «**مَنْ كَانَ يُؤْمِن بِاَللَّهِ وَالْيَوْم الْآخِر فَلْيَقُلْ خَيْراً أو لِيَصْمُتْ**»، وموازناً بين الصمت والكلام، وأتى ببعض النصوص الشريفة، وآثارِ السّلف، في وجوب حفظ اللسان، والكفِّ عن أذية الخلق، مؤيداً كلامه بحديث النبي ﷺ: «**إِنَّ العبد لَيَتَكَلَّم بِالْكَلِمَةِ ما يَتَبَيَّن ما فِيهَا يُهْوَى بِهَا فِي النَّار، أبعد ما بين المشرق والمغرب**».

**الفصل الرابع**: بدأه بالحديث عن مجاهدة النّفس قي ترك الغيبة، وحفظ اللسان، ذاكراً أنّ قلة المخالطة وقايةٌ من الغيبة، متمثلاً بقول الشاعر:

لقاء الناس ليس يُفيد شيئاً    سوى الهذيانِ من قيلٍ وقالِ
فأقلِلْ من لقاءِ الناس إلا    لأخذ العلمِ أو إصلاح حالِ

**الفصلُ الخامس**: وهو فيما يجب على من حضر مجلسَ غيبة، وكيف عليه أن يرد عن عِرض أخيه المسلم، حيث قال النبيُّ ﷺ: «**من ردَّ عن عرض أخيه المسلم، كان حقاً على الله ﷻ أن يردّ عنه نارَ جهنمَ يوم القيامة**» وتكلم عن بعض المنزَّهين عن الغيبة، فهذا أبو عاصم النبيل رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: «ما اغتبتُ مسلماً منذ علمت أن الله حرّم الغيبةَ».

**الفصلُ السادسُ**: طرح سؤالاً وأجاب عليه، كيف تكون التوبةُ من الغيبة؟ وتحدث عن استحباب الإبراء من الغيبة، وكيفية التخلص من داء الغيبة، ويكون ذلك بعلاج الأسباب التي تفضي إليها، ومنها:

الحسد، المجاملة، إرادة المغتاب أن يمدحَ نفسه، المزاح، التنافس في الدنيا، الحزبيةُ والعصبية الجاهلية، ويكون علاجها: بمجاهدة النفس على لزوم الصمت، والفرار من مجالس الغيبة، واستحضارِ حال المغتاب يوم القيامة، وشكرِ نعمة اللسان، وكثرةِ ذكر الموت والقبور... فعن البراءِ بنِ عازب قال: بينما نحن مع رسولِ الله ﷺ إذ بصُر بجماعة، فقال: «**علام اجتمع عليه هؤلاء؟**» قيل: على قبرٍ يحفرونه. قال: ففزع رسول الله ﷺ فبدر بين يدي أصحابه مسرعاً حتى انتهى إلى القبر، فجثا عليه قال: فاستقبلته من بين يديه لأنظرَ ما يصنع، فبكى حتى بل الثّرى من دموعه، ثم أقبل علينا، قال: «**أيْ إخواني: لمثل هذا اليوم فاعدُّوا**»...

## الباب الثاني

يتألف من سبعة فصول:

**الفصلُ الأول**: تحدث فيه عن أهمية الأدب، وشدة الحاجة إليه، واهتمامِ السف الصالح بالأدب، مع ذكر بعض آثارهم بالحثِّ على التأدّب، كقول عبد الله بن المبارك رحمه الله: من تهاون بالأدب عُوقب بحرمان السُّنن، ومن تهاون بالسُّنن عُوقب بحرمان الفرائض، ومن تهاون بالفرائض عُوقب بحرمان المعرفة، كما ذكر أن السلفَ كانوا يرجّحون الأدبَ على العلم، وكانوا حريصين على ملازمة الشيوخ والمؤدبين، وختمه بذكر ثلاث فوائد عن الأدب...

**الفصلُ الثّاني**: تحدَّث فيه عن أدب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وعن أدب سيدنا موسى عليه السلام مع الخضر، وأدب سيدنا إبراهيمَ في مخاطبة ربه، وأدبِ نبينا عليه الصلاة والسلام، ثم انتقل إلى أدب الصحابة رضي الله عنهم مع النبي ﷺ، ذاكراً قولَه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝٢ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ۝٣ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝٤﴾ [الحجرات: ١ ـ ٤].

وكيف قيل للعباس: أيهما أكبرُ أنت أم النبي ﷺ؟ فقال: هو أكبرُ مني، وأنا وُلدت قبله. وكان العباس أسنّ من النبي ﷺ ولد

قبل الفيل بثلاث سنين.، ثم تحدث عن أدب العلماء مع النبي ﷺ فالقاضي عياض يقول: «واعلم أن حرمةَ النبي ﷺ بعد موته وتوقيرَه وتعظيمَه لازمٌ كما كان حال حياته، وذلك عند ذكره ﷺ وذكرِ حديثه وسُنّته، وسماع اسمه وسيرته، ومعاملة آله وعترته، وتعظيم أهل بيته، وصحابته، قال أبو إبراهيم التجيبيُّ: واجبٌ على كل مؤمن متى ذكره أو ذُكر عنده أن يخضعَ ويخشع ويتوقَّر، ويسكنَ من حركته، ويأخذ في هيبته وإجلاله بما كان يأخذ به نفسه لو كان بين يديه، ويتأدبَ بما أدّبنا الله به».

**الفصلُ الثالث**: بدأه بفضل العلماء، والثناء عليهم، وذكرَ قولَ شيخ الإسلام ابن تيمية الذي يقول فيه:

وقد كان النبيُّ ﷺ وخلفاؤه الراشدون يسوسون الناسَ في دينهم ودنياهم، ثم بعد ذلك تفرّقت الأمور، فصار أمراءُ الحرب يسوسون الناس في أمر الدنيا والدين الظاهر، وشيوخُ العلم والدين يسوسون الناس فيما يرجع إليهم فيه من العلم والدين، وهؤلاء أولوا أمرٍ تجب طاعتُهم فيما يأمرون به من طاعة الله...

وقال في موضع آخرَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وأولوا الأمر؛ أصحابُ الأمر وذووه، وهم الذين يأمرون الناس، وذلك يشترك فيه أهلُ اليد والقدرة، وأهلُ العلم والكلام، فلهذا كان أولوا الأمر صنفين: «العلماءَ والأمراءَ، فإذا صلحوا صلح الناس، وإذا فسدوا فسد الناس».

وتحدَّث عن أدب الأئمة مع شيوخهم، ومع بعضهم البعض،

ومنها أن يحيى بنِ سعيد، كان يُجالس ربيعة، فإذا غاب ربيعة، حدّثهم يحيى أحسن الحديث. وكان كثير الحديث، فإذا حضر ربيعة، كفّ يحيى إجلالاً لربيعةَ، وليس ربيعةُ أسنَّ منه، وهو فيما هو فيه، وكان كلُّ واحدٍ منهما مبجّلاً لصاحبه. ثم انتقل إلى الحديث عن النصرة والولاء بين العلماء، في ثناء بعضهم على بعض، ودفاعِ بعضهم عن بعض، وحزنهم لموت الواحد منهم...

**الفصلُ الرابع**: الأدبُ مع العلماء، وبدأه بحديث رسول الله ﷺ الذي قال فيه: «**ليس من أمتي من لم يُجلَّ كبيرنا، ويرحمَ صغيرَنا، ويعرفَ لعالمنا حقَّه**»، وذكر جملةً من آداب طالب العلم، منها ما ذكره سيدُنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: «من حق العالم عليك إذا أتيته أن تسلّم عليه خاصّة، وعلى القوم عامّة، وتجلسَ قُدامه، ولا تُشرْ بيديك، ولا تغمز بعينيك، ولا تقل: قال فلان خلافَ قولك، ولا تأخذْ بثوبه، ولا تُلحَّ عليه في السؤال؛ فإنه بمنزلة النخلة المرطِبة لا يزال يسقط عليك منها شيءٌ».

ولا بدَّ من تقدير العالم وهيبته، وتواضعِ الطالب لشيخه، وأدبه مع شيخه عند مخاطبته، وزجر الطالب الذي حاد عن الأدب...

**الفصلُ الخامسُ**: خصصه للحديث عن آداب السؤال، ومداراةِ العالم والصبر على جفوته، ومراحل تنبيه العالم على خطئه، وذمِّ كثرة السؤال، وبعض الآثار في ذلك، والنهيِ عن السؤال عما لم يقعْ، وبيانِ ما يُحمد من الأسئلة وما يُذم، والمواضعِ التي يكره فيها السؤالُ، وأكّد أن النهيَ في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا

﴿تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ [المائدة: ١٠١] مقيّدٌ بما لا تدعو إليه الحاجةُ، كما حذّر من إبرام الشيخ وإضجاره، ومن الجدل والمراء، وقسّم الجدال إلى قسمين: محمودٍ ومذمومٍ، ونهى عن الأغلوطات، . . .

**الفصل السادس**: للحديث عن الأدب مع حامل القرآن الكريم، ولم يخرجْ فيه عن هذا الموضوع. . .

**الفصل السابع**: الأدبُ مع الأكابر، وذكر عدةَ أحاديثَ تدل على ذلك، منها قول رَسُولِ اللهِ ﷺ: «**يَؤُمُّ الْقَوْمَ أَقْرَؤُهُمْ لِكِتَابِ اللَّهِ فَإِنْ كَانُوا فِي الْقِرَاءَةِ سَوَاءً فَأَعْلَمُهُمْ بِالسُّنَّةِ فَإِنْ كَانُوا فِي السُّنَّةِ سَوَاءً فَأَقْدَمُهُمْ هِجْرَةً فَإِنْ كَانُوا فِي الْهِجْرَةِ سَوَاءً فَأَقْدَمُهُمْ سِلْماً...**» رواه مسلم.

وذكر في هذا المجال أبياتَ شعرٍ للقاضي عبدِ الوهاب المذكور وهي:

متى يصلِ العطاشُ إلى ارتواءٍ ... إذا استقت البحارُ من الرّكايا
ومن يثني الأصاغرَ عن مُرادٍ ... وقد جلس الأكابرُ في الزّوايا
وإنّ ترفّع الوُضَعاء يوماً ... على الرُّفعاء من إحدى الرّزايا
إذا استوت الأسافلُ والأعالي ... فقد طابت منادمةُ المنايا

## الباب الثالث

ويتألف من خمسة فصول:

**الفصلُ الأول**: تحدّث فيه عن حرمة العلماء بين أخلاق السلف، وواقع الخلف، وأتى بصورٍ من عدوان المنسلخين عن

أخلاق السلف، وشكوى العلماء منهم، بدعوى الغيرة على الحق، مع أن الغيرةَ على الحق لا تسوّغ العدوان على الفضلاء، ووقف وقفة مع أحد المتهورين في ثلب الأئمة، ونماذج من تطاوله على بعض العلماء، وختمها بقوله: إنما نحترمُك ما احترمت الأئمة...

**الفصل الثاني**: خطرُ الطعن على العلماء، وشؤمُ الحطّ من مقدارهم، فالجناية على العلماء خرقٌ في الدين، والوقيعة فيهم من الكبائر؛ لأن الطاعنين على العلماء يستجلبون لأنفسهم أخبثَ الأوصاف، وأشأمَ العواقب، ويُخشى على الطاعن من سوء الخاتمة، كما تحدث عن تصدّر المترئسين بالجهالة، وانتهاك الحرمات، وأتى بقصص واقعية تدل على أنّ من الوقيعة ما قتل...

**الفصل الثالث**: تحدّث فيه عن أسباب ظاهرة التطاول على العلماء، وجعلها ثلاثةَ عشرَ سبباً وهي:

١ ـ تشييخُ الصحيفة، وافتقاد القدوة.

٢ ـ استعجالُ التصدر قبل تحصيل الحد الأدنى من العلم الشرعي بحجة الدعوة.

٣ ـ التعالم وتصدر الأحداث.

٤ ـ الاغترارُ بكلام العلماء بعضِهم في بعض.

٥ ـ الاغترار بمسلك الإمام ابن حزم في شدته على الأئمة.

٦ ـ جهل المنتقدين بأقدار من ينتقدونهم من العلماء.

٧ ـ التأثّر بفوضوية الغربيين ونعراتهم.

٨ ـ التعصُّب الحزبيُّ والبغي، وعقد الولاء على غير الكتاب والسُّنَّة.

٩ ـ التحاسدُ والتنافس على العلو والرياسة.

١٠ ـ عدم التثبت في النقل.

١١ ـ الفراغ.

١٢ ـ الجحود وعدم الإنصاف.

١٣ ـ استثمارُ المغرضين لزلات العلماء.

**الفصل الرابع**: تحدّث فيه عن زلة العالم، والضابط التقريبي لزلة العالم، والتحذيرِ من زلات العلماء، وبيان آثارها، والموقفِ المذموم من زلة العالم، وضوابطِ الموقف الصحيح من زلة العالم، وخَتَمَ بقاعدةٍ عظيمةٍ: كل مجتهدٍ استفرغَ وُسعه للوصول إلى الحق استحقّ الثوابَ وإن أخطأ.

**الفصلُ الخامسُ**: حذَّر فيه من القول على الله بغير علم، ومن التعالم، فينبغي لمن يتصدى للإفتاء أن يكونَ أهلاً لذلك، ومَن هو العالمُ؟؟ وكيف نعرفُه؟؟ وحتى لا يتشبّه العلماء بغيرهم، كما تحدث عن ضرورة إنصاف شباب الصحوة الإسلاميّة المعاصرة، وأنّ أسعد الدعاة والمفكرين والطلاب بالمنهج السويِّ أشدُّهم التحاماً بالعلم والعلماء...

ثم ختم الكتابَ بخاتمة جميلة مفيدةٍ، ووضع فهرساً لموضوعات الكتاب، وما علينا في الختام إلا أن نذكر حديثَ النبي ﷺ الذي يرويه الإمامُ مسلم:

«الْمُفْلِسُ من أُمَّتِي من يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاة وَصِيَام وَزَكَاة، وَيَأْتِي وَقَدْ شَتَمَ هَذَا وَسَفَكَ دَم هَذَا وَأَكَلَ مَال هَذَا فَيُعْطَى هَذَا

من حَسَنَاتِهِ وَهَذَا من حَسَنَاتِهِ فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يَقْضِيَ ما عَلَيْهِ أُخِذَ من خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ وَطُرِحَ فِي النَّارِ» فنسأل الله السلامة، وأن يعرِّفنا قدر أنفسنا إنه سميع قريب.

* * *

- **الكتاب: حُرمة أهل العلم**
- **المؤلف: محمد أحمد إسماعيل المقدم**
- **الطبعة السادسة، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، دار العقيدة**

# قراءة في كتاب:
# (لَحَظَاتٌ قَبْلَ الْمَوْتِ)

هي اللحظاتُ التي يفارق فيها الحبيبُ حبيبَه، والخليلُ خليلهُ، ويفارق فيها الولدُ أمّه، والوالدُ ولدَه، هي اللحظاتُ التي بعدها تُرَمَّل الزوجةُ، وتثكلُ الأمُّ، ويُيَتَّمُ الولدُ...

هي اللحظات التي تُختم بها حياة الإنسان في الحياة الدنيا، إما بخاتمة حسنى، وإما بخاتمة سيئة، والعياذُ بالله...

هي لحظاتُ الانتقال من الحياة إلى عالم البرزخ والآخرة، فمن مات فقد قامت قيامته...

هي اللحظات التي يعرق فيها الجبينُ، ويكثر فيها الأنين، ويعجز عندها الطبيب، ويحار اللبيب، ويكثر البكاء والنحيبُ...

هي اللحظات التي تعبِّر عن عمر مديد، والإنسان عندها شقيٌّ أو سعيد...

هي اللحظات التي ينقطع بها الأملُ، ولا يصلح بعدها العملُ... وأمنية الكافر بعدها: رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ ﴿كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٠].

هي لحظاتٌ طالما انتظرها المؤمنُ لأنها تقرّبه إلى الله، وطالما خاف منها الفاجر لعظيم ما قدمت يداه...

ـ منذُ الصغر وأنا أحب أن أقرأ عن المحتضَرين، وأحوالهم، وأحوالِ من حولهم، وأتذكر قوله تعالى: ﴿فَلَوۡلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلۡحُلۡقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمۡ حِينَئِذٖ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُبۡصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوۡلَآ إِن كُنتُمۡ غَيۡرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرۡجِعُونَهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الواقعة: ٨٣ ـ ٨٧]، فالقراءة عن المحتضرين تُذكِّر بالآخرة، وتليِّن القلب، وتُدمع العين، وتشحذ همة المؤمن من جديد...

... وبقيت على هذه الحالة، أتتبع أخبارَهم في هذا الكتاب وذاك، وكم كانت فرحتي عظيمةً عندما قرأت عنواناً لكتابٍ اسمُه (لحظاتٌ قبل الموت)، وكانت فرحتي أشدَّ عندما علمت أن المؤلفَ هو العلامةُ محمد خير رمضان يوسف؛ لأن له باعاً طويلا في هذا المجال، فهو عالم مؤلفٌ بحّاثةٌ جمّاعةٌ، فقرأت الكتاب في تسع ساعات، مع أنه (٣٧٨) صفحةً، فالقارئُ لا يشعر بالوقت؛ لأنه يعيش تارةً مع الأحياء، وأخرى مع الأموات!!...

ـ بدأ المؤلف كتابه بمقدمة أدبية تَسيل من حروفها الدموعُ، جاء فيها: «وهذه مجموعةٌ من أقوال ومواقف وحكايات من حضرهم الموت، فنطقوا بما هو عبرة للآخرين، من خير وشر، ومن مهانة وكِبْر، ومن سلامة إلى مذلة، ومن شوق إلى خوف، بل ومن إيمانٍ وكفر، حيث يغلب على المحتضر ما كان حاله في الحياة، ويبعث على ما مات عليه...

وجاء متنوعاً، يفيد أهل الإيمان، والعلم والأدب، ممن يتشوّق إلى لقاء الله الكريم، وقد جاهد وعبد، وقاسى وتعب، ثم سدد وقارب، وأحكم الرّبط لئلا يغرق. أو ممن يخاف القدوم عليه، وقد فرّط وأسرف، وأنساه النّعيم قصف الموت، فغرق في اللذات، وتمرّغ في الشهوات، وأجل التوبة حتى لم يقدر على النطق بكلمة الإخلاص، أو عمل وهو ينتظر رحمة الله، ويخشى أن تفوته».

وقد ذكر المؤلف أنه بدأ بجمع هذا الكتابِ بعد أن انتهى من تحقيق كتاب «المحتضَرين» لابن أبي الدنيا، وطبعاً ما يميز هذا الكتابَ عن كتاب ابن أبي الدنيا، أن ابن أبي الدنيا من أعلام القرن الثالث الهجري، فقد ذكر أحوال المحتضرين إلى عصره فقط، أما كتابنا الذي نتحدث عنه فإن مؤلفه معاصرٌ ـ أطال الله في عمره ـ هذا يعني أنه قد ذكر أحوال المحتضرين، وآخرَ لحظات حياتهم إلى القرن الخامس الهجري...

ـ بعد مقدمة الكتاب المحزنة المبكيةِ أتى المؤلفُ بآيات تتحدث عن الاحتضار، منها قولُه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [المؤمنون: ٩٩، ١٠٠]، ثم بأحاديث في الاحتضار...

وانتقل إلى الحديث عن المحتضرين، فبدأ بما قبل الإسلام؛ كسيدنا نوح وذي القرنين ولقمان الحكيم وامرئ القيس، وحاتم الطائي، وزهير بن أبي سلمى...

ثم تحدّث عن القرن الأول فالثاني فالثالث. . . فالخامسَ عشر.

وسنكتفي بذكر مثالٍ عن كل قرن، وقد اخترتُها مختصرةً، وأحياناً آخذ موقف الاحتضار فقط، وأحياناً يكون الموقفُ حسن خاتمة لصاحبه، وأحياناً يكون سوء خاتمة والعياذ با|لله\، هذا مع ذكر رقم الصفحة، والعنوانِ الذي وضعه المؤلف:

ما قبل الإسلام: حائرٌ. . لم يطمئنّ قلبُه بالإيمان

قيل لرجل من الماضين: كيف وجدت الأمرَ؟

قال: دخلت الدنيا جاهلاً، وعشت متحيراً، وخرجت منها كارهاً. (ص١٢).

**القرنُ الأول: لا تبكوا عليّ.**

أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، أخو رسول الله ﷺ من الرضاعة، أرضعته حليمةُ السعدية. . لما حضرته الوفاةُ قال لأهله: لا تبكوا علي، فإني لم أتنطق بخطيئة منذ أسلمت. (ص٣٨).

**القرن الثاني: الحسنُ البصريُّ.**

أُغمي عليه عند موته، ثم أفاق فقال: لقد نبهتموني من جناتٍ وعيون ومقام كريم! (ص٨٣).

**القرن الثالث: المنتصرُ بالله.**

الخليفةُ المنتصر العباسيُّ، لما حضرته الوفاةُ أنشد:

وما فرحتْ نفسي بدنيا أخذتها ولكنْ إلى الربِّ الكريم أصير

(ص١٤٦).

**القرن الرابع: حارسٌ أمينٌ.**

قيل للكناني لما حضرته الوفاةُ: ما كان عملُك؟

فقال: لو لم يقترب أجلي ما خبرتكم به! وقفت على باب قلبي أربعين سنةَ، فكلما مرَّ فيه غيرُ الله حجبته عنه. (ص١٨٧).

**القرن الخامس: جبلان من نار.**

احتضر رجلٌ، فإذا هو يقول: جبلين من نار، جبلين من نار!

فسئل أهلُه عن عمله، فقالوا: كان له مكيالان، يكيل بأحدهما، ويكتال بالآخر! (ص٢٠٥).

**القرن السادس: العِماد المقْدِسِيُّ.**

حُكي عنه أنه لما جاءه الموتُ جعل يقول: يا حيُّ يا قيوم لا إلٰه إلا أنت، برحمتك أستغيث. واستقبل القبلة وتشهَّد. (ص٢٢٥).

**القرن السابع: الإمامُ النوويُّ.**

روي أن الإمام النوويَّ رَحِمَهُ اللَّهُ أنشد أبياتاً عند الوفاة، منها هذان البيتانِ، وزيد ما بعدهما:

تباشر قلبي في قدومي عليهمُ ... وبالسير روحي يومَ تسري إليهمُ
وفي رحلتي يصفو مقامي وحبذا ... مقامٌ به حَطُّ الرحال لديهمُ
ولا زاد لي إلا يقيني بأنهمْ ... لهم كَرَمٌ يُغني الوفودَ عليهمُ

(ص٢٣٤).

**القرن الثامن: شحاذون وتجارٌ.**

قال ابن القيّم رَحِمَهُ اللَّهُ:

أخبرني من حضر بعض الشحاذين عند موته، فجعل يقول: لله فُليس ولله فليس. حتى قضى... وكذلك تاجر يقول: هذه القطعة رخيصةٌ... (ص١٤٢_ ١٤٣).

**القرن التاسع: عبدُ الرحيم البرعيُّ.**

قال رَحِمَهُ اللهُ عندما مرِض مرَض الموت وهو في طريقه إلى الحج:

يا راحلين إلى منىً بقيادي    هيجتمُ يومَ الرحيل فؤادي

والقصيدة خمسة عشر بيتاً (ص١٤٨ ـ ١٤٩).

**القرن العاشر: نفسُهُ رهينةٌ.**

عالم مالكي... اسمه زينُ بن أحمدَ الجيزيُّ. كان يلحُّ في الدعاء أن يختم عمره بحجة، فتوفي منصرفه من الحج والزيارة سنة (٩٧٧هـ)، وكان ينشد بعد هذه الحجة كثيراً:

أصبحت نفسي رهينة    بين مكة والمدينة

(ص١٦١_ ١٦٢).

**القرن الحادي عشر: يُحب ربَّه.**

شيخٌ صالح من دمشق اسمُهُ عليُّ بن عمر العقبيُّ... سُمع يقول وهو في سكرات الموت: يا سيدي يا حبيبي يا ربي: والله إنك لتعلم أني أحبك. ثم مات عشية ذلك اليوم. (ص١٦٢).

**القرن الثاني عشر: شهدَ اللهُ.**

الشيخ أحمد بنُ عبد اللطيف التونسيُّ، بدأ في قراءة ﴿شَهِدَ

ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [آل عمران: ١٨] إلى آخر الآية، ثم سلَّم الروحَ إلى بارئها. (ص١٦٨).

**القرن الثالث عشر: عالِمٌ مسمومٌ.**

عالم من مدينة صبياء بالسعودية... وضع له من كان يظنه صديقاً سُمّاً في مشروب قدمه له، فقال مُوَرِّياً:

سألتُ الناس هل سمى طبيبي لعلتيَ التي أضنته مِمّا
وما النوع الذي أضنى عظامي وقد وهنت، فقال الناسُ: سُمّا

(ص٢٧١).

**القرن الرابع عشر: مستشرقٌ.**

المستشرق الألماني أروين جراف متخصصٌ في الفقه الإسلامي... ألقى محاضرةً في جامعة توبنجن بعنوان: «تصورات الموتِ في إطار الأنثروبولوجيا الإسلاميةِ» وعلى إثرها توفي. (ص١٩٦).

**القرن الخامس عشر: أنورُ الجندي.**

مفكر وكاتبٌ وداعية إسلامي كبيرٌ... مرض مرضاً شديداً قبيل وفاته، وكان آخرَ ما قاله: «يا رسول الله أنا أنورُ الجندي قادم إليك من الصعيد»!. وبشهادة طبيبه الخاص: مات وهو يصلي مضطجعاً على شقّه الأيمن. (ص٣٣٠).

هذا وقد ختم المؤلفُ كتابَه بفهرس للأعلام المحتَضَرين، ثم بفهرس للموضوعات.

**وختاماً**: أسأل الله العليَّ القدير أن يُحسن ختامنا جميعاً، وأن نلقاه وهو عنا راضٍ، إنه سميع قريب مجيب.

* * *


- **الكتاب: لحظات قبل الموت**
- **المؤلف: محمد خير رمضان يوسف**
- **دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ط(١) ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م**

# قراءة في كتاب:
# (الإسلامُ الْحِصْنُ الْأَمِينُ من أَمْرَاضِ العَصْرِ)

كثرتِ الأمراض في زماننا، وانتشرت انتشار النار في الهشيم، وفي كل يوم يطالعنا اسمٌ جديد من الأوبئة والأمراض التي ما سمعنا بها في آبائنا الأولين، ولم تكن معلومةً لديهم، وفعلاً كما قال النبيُّ ﷺ: «**لَمْ تَظْهَرِ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا إِلَّا فَشَا فِيهِمُ الطَّاعُونُ وَالأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فِي أَسْلَافِهِمُ الَّذِينَ مَضَوْا**»...

وها نحن اليوم نرى مرض أنفلونزا الخنازير، الذي ينتشر انتشاراً سريعاً، فنسأل الله السلامةَ...

وكثيرٌ من الكُتّاب من كتب عن هذه الأمراض والأوبئة، وكثيرةٌ هي الندواتُ والمحاضرات، والبرامج الإذاعية والمرئيةُ، التي تُخصّص وقتاً كبيراً للوقاية من هذه الأمراض...

وبين يدينا كتابٌ قيّم، فريدٌ في نوعه، فريدٌ في مؤلّفه، أما النوع فلأنه يحدّثنا عن كثيرٍ من الأمراض المعاصرة، ذاكراً أسبابها،، وشارحاً أعراضَها، وسبلَ الوقاية منها، وذلك بأسلوبٍ علميٍ بسيط مشرق جميلٍ...

وأما المؤلف فلأنه عالمٌ جليل، وطبيبٌ فاضل حاذقٌ، ومن هنا يأخذ الكتاب أهميةً أخرى بالتوسع في دراسة الأمراض من الناحية الطبية، بالإضافة إلى الناحية الشرعية، (الإسلام الحصن الأمين من أمراض العصر)، كتابٌ ألّفه الدكتور منير غندور، وصدّره بثلاث آياتٍ من كتاب الله ﷻ، وهي قوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَـٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾ [الفرقان: ٤٣، ٤٤].

وقوله: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾﴾ [القصص: ٥٠].

وقوله: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَـٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الجاثية: ٢٣].

ثم قسّم الكتاب إلى سبعة أبواب، وتناول فيها مواضيعَ في غاية الأهمية، وهي كالتالي:

## البابُ الأول

أتى فيه بمقدمة وتمهيد، وكلمةٍ عامة عن مهلكات الأمم، وكان مما قال في المقدمة:

(لقد ابتليت مجتمعاتُ القرن العشرين بأوبئةِ الحضارة الحديثة... هذه الأوبئة عامةٌ شاملةٌ تكاد تعمّ الأرض بأطرافها،

والأممَ بأسرها، تزيد في بيئة، وتخفّ في أخرى، وتنشط في قطر، وتقلّ في آخر، حسب هوية ذلك القطر، وحسب اعتقادات سكّانه، وحالهم الخلقية والاجتماعيةِ، والمادية، وحسب عاداتهم وتقاليدهم الموروثة على ما فيها من خيرٍ وشرٍّ).

ثم تحدث عن الرّبا، وعن قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾﴾ [البقرة: ٢٧٥، ٢٧٦].

ثم تكلّم عن خلافة الإنسان لله في الأرض، وأنّ الله وهب الإنسان من الطاقات الخيرَ الكثيرَ، ثم تكلم عن الإنسان بين فتنة الاستنساخ وفطرةِ الإنسانية، وقال بأن معطياتِ العلوم الحاليةَ للإنسان، بشتى صورها وفوائدها، وما قد ينجم من أضرارها وخبائثها إنما هي فتنةٌ، ولا بد أن يكون العلمُ في أيدٍ أمينة مؤمنةٍ من العلماء من بني الإنسان ليكون الخير في أيديهم، وإلا فستكون فتنُ العلم أضرَّ على أهله، وعلى الإنسانية من كل ضررٍ سابق...

وتكلّم عن عناية الإسلام بصحة الفرد والمجتمع، فهدف الدين صحةٌ في إيمان ويقينٍ، وعن يُسر الوقاية الصحية في الإسلام، وعدم الإفراط والتفريط، وسؤالِ الله العافية في الدنيا والآخرة...

## الباب الثاني

أتى فيه بكلمةٍ موجزةٍ عن أمراض العصر أو مهلكات الأمم، ثم تحدث عن الطرق غيرِ المباشرة للوقاية من هذه الأمراض، والتي حثّنا الإسلامُ عليها، ورغبنا فيها؛ كالطهارة، والغُسل، ونظافةِ البدن، والخِتان، مؤيداً كلامه بالآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ﴾ [المائدة: ٦].

وحديثِ النبي ﷺ الذي رواه مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِي ﷺ قَالَ: «**الْفِطْرَةُ خَمْسٌ ـ أَوْ خَمْسٌ من الْفِطْرَةِ ـ الْخِتَانُ وَالِاسْتِحْدَادُ وَتَقْلِيمُ الأَظْفَارِ وَنَتْفُ الإِبْطِ وَقَصُّ الشَّارِبِ**».

ثم تحدّث عن نظافة السبيلين، ونظافة اليدين، والفم والسّواك، ونظافة الأنف، ونظافة الشّعر. . .

ثم تكلم عن الصلاة والوضوء لها، وأنها تُذهب الأدران، وذكر حديثَ النبي ﷺ الذي يَقُولُ فيه: «**أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ نَهْراً بِبَابِ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ مِنْهُ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ هَلْ يَبْقَى من دَرَنِهِ شَيْءٌ؟**». قَالُوا: لا يَبْقَى من دَرَنِهِ شَيْءٌ.

قَالَ: «**فَذَلِكَ مَثَلُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ يَمْحُو اللهُ بِهِنَّ الْخَطَايَا**». رواه مسلم.

وتكلم عن الصوم ومزاياه وفوائده، وعن الشَّرَه والسَّرف ونتائجهما، وذكر أن من أسباب الوقاية من أمراض العصر أيضاً:

اعتزالَ النساء مدة الحيض، كما قال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾ [البقرة: ٢٢٢].

وتجنبَ زواج الأقارب، وخاصةً في حال وجود أمراض وراثية، وذلك للحدِّ منها، والوقاية من نتائجها، وقسّم الأمراض الوراثية الأسريةَ إلى زمر، وتحدث عن كل زمرة...

ثم تحدث عن النوم المبكر والاستيقاظ المبكر، وأذكار النوم، ولم ينسَ الحديث عن الرياضة البدنية، وما لها من فوائد جَمَّة.....

## الباب الثالث

تحدّث فيه عن الخبائث، ومخاطرها ونتائجها وطرق الوقاية منها، والعفّة والمروءة في الإسلام، وتكلم عن الكبت والإباحية عند عدوّ الإنسانية (فرويد)، وضرورة تجنّب الاختلاط، والتوجيه القويم...

## الباب الرابع

تحدّث فيه عن الأمراض الجنسية، بادئاً حديثَه بالأمراض الزُّهرية؛ كالداء الإفرنجي الزهري، وأدوارِه الثلاثة: دور القرحة، ودور الانتشار والشمول، ودورِ تفاقم المرض، وتحدث عن السيَلان البنّي، وعن اللواط وأضراره الفاحشة، وأن نسبة الانحراف

الأخلاقي في المجتمعات الغربية، قد وصلت إلى أكثر من ٨٠٪...

ثم تكلّم عن طاعون العصر، الإيدز (فقد المناعة المكتسبة أو العوز المناعي البشري)، فعرَّف المرض، وأنه اكتشف عام (١٩٨٥م)، وذكر صفاتِهِ ومراحلَه، والعدوى، فهو ينتقل عن طريق الاتّصال الجنسيِّ بين أفراد الجنس الواحد، أو الجنسين؛ أي: بالزنا واللواط، وهو النمط الرئيسُ للانتقال، ويشكل (٩٠ ـ ٩٥٪) من حالات العدوى، فهو مرض ينتقل جنسياً بسبب الفاحشة، وقد ينتقل عن طريق الدّم الملوث وذلك بنسبة (٥٪) من مجموع الحالات...

ثم تحدّث عن طُرُق مكافحة هذا المرض، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ وَسَآءَ سَبِيلٗا ۝٣٢﴾ [الإسراء: ٣٢].

ثم ذكر بعضَ الإحصائيات عن إصابات الإيدز في العالم، وهي فعلاً أرقامٌ مخيفةٌ، وذكر أيضاً بعض الإحصائيات عن الولادات غيرِ الشرعية في العالم الغربي، وحديث النبيِّ ﷺ: «**لَمْ تَظْهَرِ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا إِلَّا فَشَا فِيهِمُ الطَّاعُونُ وَالأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فِي أَسْلَافِهِمُ الَّذِينَ مَضَوْا**» ابن ماجه

## الباب الخامس

تحدّث فيه عن المخدرات، وعن مراحل الاعتياد عليها، وذكر أن النبي ﷺ نهى عن كل مُسكرٍ ومُفترٍ، وأتى بالأدلة على تحريم المخدرات، كقوله تعالى: ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأعراف: ١٥٧] وقول النبي ﷺ: «**لا ضَرَرَ ولا ضِرار**»...

ثم تكلّم عن الْمُسكرات، أو الخمور أو الأشربة الغولية، وعن مراحل تحريم الخمر بالتدرج إلى أن نزل قولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾ [المائدة: ٩٠، ٩١].

وذكر حديث رَسُولِ اللهِ ﷺ: «**كُلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ إِنَّ عَلَى اللَّهِ** ﷻ **عَهْداً لِمَنْ يَشْرَبُ الْمُسْكِرَ أَنْ يَسْقِيَهُ من طِينَةِ الْخَبَالِ**». قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ وما طِينَةُ الْخَبَالِ قَالَ: «**عَرَقُ أَهْلِ النَّارِ أَوْ عُصَارَةُ أَهْلِ النَّارِ**». رواه مسلم.

وأكّد أنه لا توجد بيرةٌ بدون كحول، فالبيرة المسمّاة بدون كحول تحوي: ٢ ـ ٣٪ من الكحول، ونبيّنا ﷺ يقول: «**مَا أَسْكَرَ الْفَرَقُ مِنْهُ فَمِلْءُ الْكَفِّ مِنْهُ حَرَامٌ**» الترمذي.

ثم تكلم عن أضرار المسكرات، والأشربة الغُولية في البدن، وأن الله تعالى لم يجعل شفاءَنا فيما حرّم علينا، وتكلم عن عواقب الإدمان على المسكرات، ومكافحة الإدمان على المسكرات والوقاية منها، وأتى بإحصائياتٍ مذهلةٍ عن الأمم التي ستهزمها المسكرات والمخدرات...

## الباب السادس

تكلّم فيه عن التَّبغ والتدخين، فعرّف التَّبغ، والموادّ الضارة في التبغ، وأن ١٠/١غ من النيكوتين يكفي لقتل كلبٍ، وثمانيَ قطرات منه تُحقَن تحت جلد الحصان تقتله بعد أربع دقائقَ، ثم تكلم عن

التسمم الحادّ بالتبغ، وأعراض التسمم الحاد، وأضرار عادة التدخين، فله مضارٌّ في جهاز التنفس حيث يُنقص الوظائف التنفسية، ويعطِّل وسائل الدفاع في الطرق التنفسية، ويؤدّي إلى انتفاخ الرئة، وسرطان المجاري التنفسية، وأكّد أن التصفية بما يسمى الفلتر لا تمنع حدوث السرطان...

ثم ذكر مضارّه على جهاز الدوران، ومضارّه على جهاز الهضم، ومضاره في الجملة العصبية والحواس، وفي جهازَي التناسل والبول...

ولم ينسَ الحديث عن المدخن السلبيِّ، فإن الجلوسَ لأربع ساعات في غرفة مغلقة وفيها مدخنون يعادل تدخين عشرِ لفافاتٍ يومياً!!

وذكر أن بعض الناس يلجأ إلى سُعوط التبغ؛ أي: وضعه في المنخر، والبعض يمضغه، وذكر أحكام التدخين وفق قواعد الشريعة الإسلامية، وأن الحكم الحقيقيَّ هو التحريمُ بناءً على المعطيات التي ذكرها...

وختم هذا البابَ بالحديث عن سُبل الإقلاع عن التدخين... وبياناتٍ وأرقامٍ عن عدد الوفيات في العالم، حيث يموت كل [١٣] ثانيةً شخصٌ مدخنٍ...

فحريٌّ بالإنسان العاقل بعد وضوح الآثار الضارة للتبغ والدخان ألا يقع أسيراً لعادة التدخين غيرِ الحميدة التي تذهب المال إسرافاً، وتجلب كثيراً من الشرور إلى البدن...

## الباب السابع

خصَّصه للحديث عن الهجرة والإقامة والتجنّس، وقال:

إن الواقع الذي نحياه، والذي أُشير إليه وأكتب عنه في هذا الفصل، هو أمرٌ واقعي جُرِّب خلال خمسين عاماً، فكانت نتائجُه ما كانت عليه من إهلاكٍ للأمة، وإفناءٍ لإمكانياتها البشرية، وضياعٍ لحقوق أبنائها، وصورٍ مختلفة قاتمة، من المآسي العائلية، والفرقة والخلاف، بل الجريمة، مما لا يمكن إنكارُه، ولا التغاضي عن نتائجه...

وقد بيَّن لنا الواقعُ الذي عشناه خلال نصف قرن، أن أكثرَ من ٩٥٪ من الزواج من الكتابيات كان فاشلاً، نعم هناك زيجاتٌ قليلةٌ لا تتجاوز ٢ ـ ٣٪ كانت غيرَ فاشلة، ولكنها لم تكن سعيدةً، ولا ناجحة تماماً، ولم تكن في سعادتها وبناء الأسرة فيها، كمن يتزوج من أهل بلده ودينه، بل فيها من المنغصِّات الشيءُ الكثير...

ثم تحدّث عن الإقامة والتجنُّس في بلاد الكفر؛ لأن المسلم قد ينجرّ بسبب الإقامة المستمرة إلى محرمات فكريةٍ واعتقاديةٍ، وإلى محرماتٍ سلوكيةٍ، ثم أتى بنماذجَ وأمثلة واقعيةٍ عن الذين أقاموا في تلك البلاد، وعن الذين تزوّجوا من الكتابيات...

ثم أنهى كتابَه بخاتمةٍ لطيفةٍ، حثّ فيها على اتّباع النهج الإلٰهيِّ السليم، الذي أكرم الله به البشريةَ جمعاءَ، والذي هو الحصن الأمين من كافّة المهالك...

ووضع فهرساً لموضوعات الكتاب.

فجزاه الله عن الإسلام والمسلمين كلَّ خير.

* * *

- **الكتاب: الإسلام الحصن الأمين من أمراض العصر**
- **المؤلف: د. منير غندور**
- **ط. ١، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، دار الفارابي، دمشق**

# قراءة في كتاب
# (فلسفةُ إِقْبَالٍ والثقافةُ الإسلاميّةُ فيْ الهنْدِ والباكِسْتانِ)

محمدُ إقبال فيلسوفٌ من فلاسفة الإسلام، وشاعرٌ من شعراء الحكمة، وعالمٌ من علماء الإسلام، ومجاهدٌ في سبيل رفع راية لا إلٰـه إلا الله، خفاقةً في أصقاع البوذيين والهندوس، وعُبّاد الأصنام...

محمد إقبال في شعره حيويةُ المعاني، ورقةُ الألفاظ، وبراعةُ الأداء، هو قلبٌ خافقٌ، ونفسٌ حرةٌ تأبى الظلم والضيم، وروحٌ عامرةٌ ومطمئنة باليقين...

«تكون نجوى روح لروحٍ، وهمسَ قلبٍ لقلب، وفهم نفسٍ لنفس، إذا ما شمل النفسين شعورٌ، وغمر القلبين نورٌ، وجمع الروحين هدفٌ، واتحد مثلٌ.

وبذاك يتحدث الإفريقي الدارِ، العربيُّ اللسانِ، عن «إقبال» الآسيويِّ الموطن، الأورديّ اللغة، ولو لم يهتف «إقبال» بالعربية، أو يتحركْ لساني بالفارسية أو الأوردية... إذ تناجى بالإسلام روحان، وتهامس بالإيمان القلبان، وتآلف على الحق النفسان... وتمَّت كلمة ربّك... ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا

مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [الأنفال: ٦٣].

بهذه الكلمات، بمناجاة الروح، قدّم الأستاذُ الكبير: أمينُ الخولي لكتاب: «فلسفةُ إقبال، والثقافة الإسلاميةُ في الهند والباكستان»، الذي ألّفه كلٌّ من الأستاذ: محمد حسن الأعظميِّ، عميدِ كلية اللغة العربية بكراتشي، والأستاذِ: الصاوي علي شعلان الحاصلِ على دبلوم اللغات الشرقية من جامعة فؤاد الأول...

وهذا الكتاب في الحقيقة يتألف من ثلاثة كتُب، الكتابُ الأول: «في فلسفة إقبال» والكتابُ الثاني: «في المتفرقات»، والكتابُ الثالث: «في الثقافة الإسلامية في الهند والباكستان»، وسنقوم بدراسة يسيرة لهذه الكتب الثلاثة:

## الكتابُ الأول

## (في فلسفة إقبال)

بدأه المؤلفان بسبع صفحاتٍ عن حياة الشاعر محمد إقبال، بعنوان: (إقبال شاعر الباكستان)، نوجزها فيما يلي:

كان مولد الدكتور محمد إقبال سنةَ (١٨٧٦م)، من أسرة برهميّةِ الأصل، اعتنقت الإسلامَ منذ ثلاثة قرون، وهاجرت من كشميرَ أمام الحوادث إلى البنجاب، حيث استقرت بها آمنةً مطمئنةً، وبدت عليه مخايلُ النبوغ منذ الصغر، فكان يتفوق على لِداته، ويفوز بالجوائز العلمية... وأكمل دراستَه بالكلية بلاهور، ثم وقَع عليه الاختيارُ لتدريس الفلسفة في الكلية نفسِها... وفي سنة

(١٩٠٥م) سافر إلى كمبردجَ، ثم إلى ميونخَ، ونال درجةَ الدكتوراه في الفلسفة، وألقى في أوروبا عدةَ محاضراتٍ مظهراً فيها مزايا الإسلام، وكذلك في إنكلترا، ثم عاد إلى الهند سنة (١٩٠هـ)، ووقف بيانَه وتفكيرَه وشعوره لإعلاء كلمة الإسلام، ثم امتهن المحاماةَ في لاهورَ، ثم والى بعد ذلك رحلاتِه إلى مختلف بلدان المشرق والمغرب...

... كان إقبال يُنشد الشعر بالأردية والفارسية، وجمع ديواناً سمّاه (بانك درا) أي: «صلصلة الجرس» وله عدة كتبٍ منها: أسرار خودي ورموز بي خودي «أسرار الذاتية ورموزُ الذاتية»، وهي بالفارسية، ومن كتبه أيضاً بالأردية، وقد وافته المنيّةُ وهو ينظم كتابَه «أرمغان حجاز» ونصفُه بالفارسية، والنصفُ الآخر بالأردية، وقد طبع هذا الكتاب بعد وفاته.

ثم تحدّث المؤلفان عن موته ـ وقد أخّرنا الحديث عن تاريخ وفاته لآخر هذه الدراسة ـ، وذكرا نصَّ الخطبة التي ألقاها العلامةُ محمد إقبال في الحفلة السنوية للرابطة الإسلامية، بمدينة الله آباد بالهند، سنة: (١٩٣٠م)، وقدّم فيها فكرة الدعوة إلى قيام باكستان، وكانت خطبةً طويلة تحدث فيها عن الإسلام والقومية، وضرورة اتحاد الهند القومية، وكان مما قال: «قد لا يكون بالإمكان أن نجمعَ شعوبَ البشرية لننهض بها طفرةً إلى حياةٍ واحدةٍ، ولكنْ، في الإمكان أن نجمعَ الأسرة الإسلاميةَ على صراطٍ مستقيم...» وتحدث عن ضرورة قيام هندٍ إسلامية «باكستان»، وعن دستور الهند،

مؤكداً على ضرورة وحدة المسلمين؛ لأن اختلافهم دمارٌ لأمّتهم. . .

ثم تحدث المؤلفان عن إقبال والبرّ بالفقراء، وقولِهِ: «ليس طريقي طريقَ المستكبرين بل طريق الفقراء»، وبدأ ينشد للمسلمين الحريةَ الاقتصادية ليفك أسرَاهم من سلاسل يهود الهند. . .

ثم انتقلا إلى الحديث عن العشق والجمال، من كتاب روح إقبال، وعن خلود الحياة في فلسفته، ويصف ذلك المسلمَ الذي ينطلق كالسهم النافذ إلى العدو، فيقولُ:

ذلك المؤمنُ المجاهدُ يغشى غمرةَ الحربِ والرّدى يغشاهُ
تحت ظلِّ السيوف ماضٍ قويٌّ درعُه لا إلٰه إلا اللَّه

ثم تحدّث عن الظواهر الكونية بلغةٍ ساحرةٍ، وأنها تعطينا درساً بليغاً، فليس الموتُ إلا غروباً لشمس الروح، ثم تسطعُ بعد ذلك في صبح الخلود الذي لا فناء بعده:

يزعمُ الجاهلون أنّ المنايا مغربٌ فيه للحياة انقضاءُ
أفلم ينظروا إلى الشمس يبدو نورُها بعدما طواها المساءُ
تغرب النفسُ ثم يشرق صبحٌ فيه للنفس بالخلود ارتقاءُ

ثم ذكر أنّ قيمة الوقت ليست بقصرِها وطولِها، ولكنّ قيمتَها في أعمالها ولذّتَها في جهادها:

بنور الجهاد الحيِّ سار محمدٌ بجيشٍ على راياته الفوزُ إكليلُ
يكبِّر جندُ اللَّه حولَ ركابِه فيهتف بالبشرى وبالنصر جبريلُ

ثم تحدّث المؤلفان عن قصيدتين تُعدّان في طليعة ما نظم إقبالُ في اللغة الأردية، حاول بهما أن يستحثَّ هممَ المسلمين إلى طلب

الرفعة، واستخلاصِ تراثِ الماضي من بين براثن الدهرِ، والعودةِ بالركب الإسلامي إلى قافلة الحياة الدائبة في سيرها صوبَ الكمال... وهاتان القصيدتان هما: (شكوى) و(جوابُ الشكوى)، وهما في غاية الروعة.

مطلع الأولى:

شكوايَ أم نجوايَ في هذا الدُّجى ونجومُ ليلي حُسَّدي أم عُوّدي
أمسيت في الماضي أعيش كأنما قطعَ الزمانُ طريقَ أمسي عن غدي

وفي منتصفها يقول:

مَنْ غيرُناهدم التماثيلَ التي كانت تُقدّسُها جهالاتُ الورى؟
حتى هوت صورُ المعابد سُجّداً لجلالِ من خلق الوجودَ وصوّرا

ومطلعُ الثانية:

كلامُ الرّوح للأرواح يسري وتدركُه القلوبُ بلا عناءِ
هتفتُ به فطار بلا جناحٍ وشقَّ أنينَه صدرُ الفضاءِ

وفي ختامها يخاطب النبيَّ محمداً ﷺ قائلاً:

نداؤُك في العناصر مستجابٌ إذا دوَّى بصوتٍ من بلالِ
وعقلُك في الخطوب أجلُّ درعٍ وعشقُك خيرُ سيفٍ للنضالِ

ثم ذكر المؤلفان عدةَ قصائدَ له، منها: فاطمةُ الزهراء، وصوتُ إقبال إلى الأمة العربية، وفقهُ الصالحين، وتصويرُ الألم وتجديد الأمل، وعزيمةُ المسلم، والنشيدُ الإسلامي، ونشيدُ الأخوة الإسلامية، وفي الحقيقة كلُّها قصائدُ في غاية الروعة والبيان، والسلاسة والعذوبة...

# الكتابُ الثّاني

## (في المتفرّقات)

بدأه المؤلفان بأمثلةٍ من شعر إقبال، والتي اختارها الدكتورُ عبد الوهاب بك عزام، وهذه الأمثلة تتألف من أربعة عشر مثلاً، وهي على الترتيب:

الحياةُ، اليراعة، الحقيقة، الحكمة والشعر، الوحدةُ، نسيم الصباح، العشق، نغمة حادي الحجاز، جمعية الأقوام، نيتشة، جلال الدين الرومي وهيجلُ، نهرُ الكنج وهملايا، قصة الطائر الذي أنهكه العطش، في الكلام على الوقت...

ثم نقرأُ عنوان (في حفلة الذكرى)، وهي كلمةٌ لصاحب السعادة محمدِ علي علوبة باشا سفيرِ مصرَ في الباكستان، تحدّث فيها عن لقائه مع إقبال، وروعة هذا اللقاء...

وبعد ذلك (شعرُ إقبال)، وهي أيضاً كلمةٌ للأستاذ سيد عبد الواحد مدير الغابات في الباكستان، تحدث فيها عن إقبال شاعراً إسلامياً، يتخذ من الشعر وسيلةً لهدي الناس إلى السبيل السويِّ، ويدلّهم إلى طريق الصواب، فالشعرُ إذا لم يُثِر في الناس الشعورَ بالصواب والحقِّ لا يؤدي الغرض المتوخَّى منه...

ثم نقرأ: (محمد إقبال شاعر الإسلام، ولمعةٌ من تاريخ اللغة الأوردية)، وهي محاضرةٌ ألقاها الأستاذ الأعظميُّ، ونُشرت في عدد جمادى الأولى سنة (١٣٥٨هـ) بمجلة الأزهر، تحدث فيها عن دخول الإسلام إلى الهند، وكيف تأثرت اللغةُ الأردية باللغة العربية، وعن أوجُهِ المقاربة بين الأشعار الأردية والعربية، وذكر أن من أهم

أسباب انتشار الشعرِ في الهند هو المشاعرةَ؛ أي: المطارحةَ الشعريةَ، ثم تحدث عن صورةٍ إجمالية لألمعيّة إقبال، في قصيدته المميزة (طلوع الإسلام).

ونرى أيضاً قصيدةً عصماءَ لصاحب السعادة السيد عبد الحميد الخطيب، سفيرِ المملكة العربية السعودية في الباكستان، نظمها بعد مطالعته لكتاب: (الحياة والموت في فلسفة إقبال)، منها:

أنعم بفلسفةٍ إقبالُ مصدرُها ... تُبدي الحقيقةَ في أجلى معانيها
عن الحياة وعن موتٍ به انهلعتْ ... كلُّ القلوب وحدّت من أمانيها
وجاء إقبالُ يدعوها لمعرفةٍ ... تُزيل عنها الأسى حقاً وتهديها

وختم هذا الكتابَ بقصيدة أيضاً لمحمد باشا الشريفي، تحدث فيها عن إقبال وفلسفته.

## الكتابُ الثالث

## (في الثقافة الإسلاميةِ في الهند والباكستان)

أولُ عنوانٍ نطالعُهُ في هذا الكتاب: (أحسنُ السِّيَر)، وهو موضوعٌ للعلامة الكبير والمؤرخ الشهير، شبلي نعماني، ويتحدث فيه عن مقتطفات من حياة سيدِنا محمدٍ ﷺ، بأسلوبٍ أدبيٍ مشوقٍ جميل. . .

ثم نطالع مقالاً بقلم العالم الهنديِّ المحقق السيد سليمانَ الندويِّ، يتحدث فيه عن السيدة عائشةَ أمِّ المؤمنين رضي الله عنها، عن ولادتها وطفولتها، وعن زواجها وزفافها رضي الله عنها، وكذلك بأسلوبٍ في غاية الروعة والبيان. . .

ثم يجيب السيدُ سليمان الندويُّ رئيسُ ندوة العلماء في الهند عن سؤال حول حكمة التكرار في آيات القرآن الكريم، مدعّماً إجابتَه

بالشواهد المناسبة من الشعر العربي القديم، وبأقوالِ علماء البلاغة والعربية، وتحدث بعد ذلك العالم الندويُّ عن مقام المرأة في الإسلام، أمّاً وزوجةً وأختاً ومجاهدةً وشاعرةً. . .

وختم هذا الكتابَ بقصيدةٍ عامرةٍ عنوانُها: (المؤاخاةُ في الإسلام) كتبها العالمُ الكبير: «دل محمد»، عميدُ الكلية الإسلامية سابقاً بلاهور، منها:

غرسُ الأخوة أصلُهُ من يثربِ    هي جنةُ المأوى وغارسُها النّبي
إن ضلّتِ الدنيا أعاد صوابَها    نورُ المدينة لا شعاعُ الكوكبِ
بعث النبيُّ بها الجماعةَ موكباً    فإذا الملائكُ في صفوف الموكبِ
وسقى الأخوةَ كوثراً من نورِه    فالظامئُ الحيرانُ من لم يشربِ

وبذلك يكون قد انتهى الكتابُ الثالث، وانتهى الحديث عن كتابنا: «فلسفةُ إقبال، والثقافة الإسلاميةُ في الهند والباكستان».

أما إقبالُ فقد انتقل إلى رحمة الله، في اليوم الحادي والعشرين من إبريل سنة (١٩٨٣م)، الساعة الخامسة صباحاً، في مدينة لاهور، واحتشدت عشراتُ الألوف تودّعه بالبكاء والزفرات، ثم غربت شمسُ إقبال في جدثها، وأُدرجت الحكمةُ والشعر والحرية تحت أطباق الثرى. . . فرحمه الله، وجزاه الله عن الإسلام والمسلمين خيراً.

* * *

- **الكتاب: فلسفة إقبال والثقافة الإسلامية في الهند والباكستان**
- **المؤلف: محمد حسن الأعظمي، الصاوي علي شعلان**
- **ط: ١٣٦٩هـ/١٩٥٠م، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه**

# قراءة في كتاب:
# (سفينة الفرَجِ فيما هبَّ ودبَّ ودرجَ)

سنتحدث اليوم عن سفينة، ولكنها ليست كباقي السفن، فلا هي ذاتُ ألواحٍ ودُسُرٍ، وليست من الجوار المنشآت كالبحر في الأعلام...

وهي سفينةٌ ـ على الرَّغم من عظمها ـ تستطيع حملها أينما يَمَّمْت، وفي أي مكان كنت، فهي سفينةُ الصحراء والخضراء، والبرّ والبحر بل والفضاء...

إنها سفينة تمخُر عُبَاب الزمن لتحمل لنا من حناياه وأسرارِه موعظةً وحكمة وشعراً ونثراً، وأدباً رفيعاً، وقولاً بديعاً، بالإضافة إلى ما فيها من الطرائف والفُكاهة، ومواقفَ للعلماء والحكماء تدل على الفطنة والنباهة...

هي سفينة تفرِّج الهموم، وتداوي المكلوم، بما تحمله من روائع العلوم.

... هذه السفينة هي كتاب: (سفينة الفرَجِ فيما هبَّ ودبَّ ودرجَ)، الذي صنّفه الشيخُ الأديب: محمدُ سعيد بن قاسم القاسميُّ الدمشقي المتوفى سنة: (١٣١٧هـ)، وحقَّق هذا الكتابَ، وكان ربّانَ

هذه السفينة الحاذقَ، ومرشدَها الْمُلهَمَ، صاحبُ التصانيف، والمؤلفات، وعالي العزائم والهمم، العلامةُ محمدُ خير رمضان يوسف، حفظه الله.

وسأحاول ـ باختصار ـ أن أُبيّن بعض مزايا هذا الكتاب، فأقول وبالله التوفيق:

ـ المؤلف: هو الشيخُ الأديب: محمد سعيد بن قاسم القاسمي الدمشقي، وُلِدَ في أوائل شهر المحرم من سنة (١٢٥٩هـ) بدمشقَ، وتُوفِّيَ في صباح يوم الجمعة: ١٣ شوال سنة (١٣١٧هـ)، وأُحيلك ـ أيها القارئُ الكريم ـ إلى الصفحة (١١، ١٢) لتطلع على المزيد.

ـ الأصول المعتمدةُ في التحقيق: اعتمد المحقق على النسختين المخطوطتين منه في مكتبة آل القاسمي بدمشق، أولاهما بخط المؤلف، والثانيةُ بخط محمدِ ابنِ الشيخ عبدِ القادر المجذوبِ.

وللأمانة: فقد أجاد المحققُ وأفاد، وهذَّب وشذَّب، واعتنى به عنايةً فائقة، حتى خرج إلينا في أجمل حُلّة، وأبهى ثوب، وها هو يقول في مقدمته في الصفحة (١٧): «وقد هذبتُ الكتاب كما قدمت، وعلقت على بعض ما يلزم، وركزت على تخريج أحاديثه، وبيانِ حكمها، وشرحت ألفاظه الغريبةَ، وترجمت لبعض أعلامه، وشكَّلت أواخرَ الكلمات، ورقَّمْت فقراتِه كلَّها، ووضعت لمجموعاتٍ منها عناوينَ جانبيةً، وعملت له فيها فهارسَ مفيدةً، بينها فهرسٌ بأهم موضوعاته، بما يعطي مفهوماً للعناية به وتنقيحه، والحمد لله الذي

أعانني على هذا»، وقد وَفَى المحقق بما قال، ورأيتُ ذلك عندما قرأت الكتاب.

ـ ومقدمة المحقق ـ جزاه الله خيراً ـ قد اشتملت على عدة أمور مهمةٍ، وهي:

عرَّف العنوان، ومصطلحَ (سفينة) وذكر سُفُناً (كتباً) أخرى بهذا الاسم، ونقل كلامَ الشيخ جمالِ الدين القاسميِّ ابنِ المؤلف عن الكتاب، وتحدَّث المحقق عن منهجه وعمله بالكتاب، وما يُؤخذ على الكتاب، وترجم للمؤلف، وذكر الأصول المعتمدة في التحقيق، مع صور المخطوط، (ص١٨ـ ٢١).

والكتاب يتألف من ثلاثة أجزاء في مجلد واحد:

ـ **الجزء الأول**: من الصفحة (٢٥) إلى الصفحة (٢٠٣)، احتوى على فوائدَ وحكاياتٍ وأشعار، ولم يخلُ من الغرائب والطرائف، كما في الصفحات (٤٧ ـ ٥٢)، ثم تحدَّث عن اتِّباع القرآن والسُّنَّة، من كلام الصحابة والتابعين، والأئمة الأربعة، وبعض أئمة التصوف الأعلامِ، ثم تحدث عن الهوى العفيفِ، والمحبة الصادقة، وذكر عظاتٍ بليغةً وحكماً جليلة، ثم تحدث عن الشكر والإنعام، والولاة والْحُكام، يُوَشِّي كل ذلك بأشعار احتوت على حكم راقية، كما ذكر في هذا الجزء شيئاً من فقه الجنايات، وبعضَ الأحاديث، وتطرَّق إلى الجغرافية، ولم ينسَ حكام الشام من سلاطين آل عثمانَ ووزرائهم، وذكر وقائعَ تاريخيةً مهمة، وأرَّخها، وختم الجزء الأول بباقةٍ من الأشعار التي يفوح شذاها، ويضوع أريجُها.

ـ **أما الجزء الثاني**: فقد بدأه المصنف بوقفات للذكرى، ثم ببعض الخرافات، كما كانوا يفعلون عند خسوف القمر، وأتبعها بفوائدَ وعبرٍ، وحوادثَ تاريخيةٍ عظيمة خطيرة؛ كحادثة حريق المسجد الأموي، واحتوى على حكم وأشعار جمَّة، تُقال في بعض المواقف، وتحدث عن القضاء والقدر، والزواجر والعبر، وقد ذكر بعضَ القصص الوعظية الجدية منها والهزلية بطريقة شعرية، كما في قصة (حال الموْصِلِيِّ مع زوجته) (ص٣٠٢)، أو القصة التي جرت بين أبي تمام وابن المعدَّل، (ص٣١٠). وتحدث ـ أحياناً ـ عن انتحار العشاق.

وفي هذا الجزء قصيدةٌ جميلة عن فصل الشتاء، (ص٣٤٠ ـ ٣٤٥)، وأتبعها بقصيدة هزْلية، كما أن هنالك قصائدَ في النقد الاجتماعي كقصيدة: كُبراء مفاليس، (ص٣٥٠)، وختم هذا الجزء أيضاً بأشعار في مناسبات مختلفة، وتتحدث عن أشياءَ نفيسة مليئةٍ بالحكم، فعلى القارئ الكريمِ أن يتضلع من زمزم مائها، وقُراح شرابها.

ـ **في الجزء الثالث**: ـ وهو أوسع الأجزاء ـ يبدأ القاسميُّ الدمشقي بكلام عن معرفة الله ـ جلَّ وعلا ـ ثم بوقائعَ جرت لأبي حنيفةَ ﵁، ويذكر بعد ذلك بعض الأحاجيِّ والفكاهات والبداهة، (ص٣٧٦ ـ ٣٨١)، وعجائبَ، وعبراً من التاريخ، وهو مكتظٌّ بمنثور الحكم والمناظرات، والفوائد والأخبار العلمية، والمقطعات الشعرية النادرة، والوصف العجيب؛ كقصيدة (ابن الأعمى) في وصف بيتٍ قديم يوشك على السقوط، (ص٥٠٠ ـ ٥٠٢)، ولم يخلُ أيضاً

من قصص بعض الأنبياء، والفوائد الدينية، واللغوية، والأسئلة العويصة وإجاباتها، (ص ٥١٧ ـ ٥٢٠)، والفوائدِ الطبية والوصايا والأمثال وبعض ما قيل في الصحبة والصداقة، وشرح بعض الأحاديث القدسية، وفي آخره مطوَّلاتٌ جميلةٌ، ومن أجمل ما قرأت منظومةٌ لإبراهيمَ الأندلسيِّ عن العلم والأدب وأخلاق العلماء، (ص٦١٩ ـ ٦٢٥).

ـ بعد ذلك وضع المحقق الفهارسَ العامة وهي في غاية الدقة، وذكر مراجع التحقيق، وفهرسَ الموضوعات ثم الفهرسَ الإجمالي.

هذا والمحقق ـ حفظه الله ـ قد ألَّف وحقَّق ما يربو على مائة وأربعين كتاباً، ومحا عنها غبار الزمن، واستخرجها من بحر العلوم اللُّجِّيِّ، فجزاه الله عن الإسلام والمسلمين خيراً.

ـ إلى هنا وترسو سفينةُ قلمي، وهي لم تزل بعدُ على الشاطئ، وآمل أن يقرأ الكتابَ كلُّ مثقَّفٍ لبيب، وأديب وخطيب، فهو تاجٌ تُزَيَّنُ به المكتباتُ، ويبقى سميرَك مدى الحياة، وعلماً نافعاً مفيداً بعد الممات.

ـ طبع الكتاب في شركة البشائر الإسلامية، بيروت، الطبعة الأولى عام ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.

❁ ❁ ❁

# قراءة في كتاب:
# (دفاعٌ عنْ أبي هُرَيْرَة رضي الله عنه)

أبو هريرة رضي الله عنه... قبسٌ من أنوار الإسلام...

أبو هريرة رضي الله عنه... نورٌ يضيء القلوب...

واحدٌ من قادة الإسلام الروّاد الذين ساهموا في إرساء قواعد دولة الإسلام الأولى ....

ورمزٌ ومثالٌ لمعلمي الأمة الذين وجّهوا نهضتها الفكريةَ، وشرحوا لها قرآنَها، ووصفوا لها سيرةَ نبيّها صلى الله عليه وسلم...

وحددت مروياتُه جزئياتِ العقيدة، ورسمت صورة التفكير الملتزمِ بالتوجيهات الربانية، وحفظت الأخلاقَ، وأجّجت روح الجهاد...

ومن أجل ذلك ركّز عليه الأعداءُ الهجوم...

ومن أجل ذلك يكرهُهُ أصحابُ الأهواء والشهوات...

ومن أجل ذلك يحبّه كلّ مؤمن غيورٍ على الإسلام، ومصالح أمة الإسلام(١).

---

(١) انظر: ص٤٥٩ من الكتاب.

وحاول البعضُ الطعنَ في روايات أبي هريرة لكثرتها، فكانت محاولاتُهم:

كناطحٍ صخرةً يوماً ليوهِنَها    فلم يضرْها وأوهى قرنَهُ الوعِلُ

... جميعنا يعلم أن القرآن الكريم محفوظٌ في الصدور والسطور، وقد تكفَّل الله ﷻ بحفظه. فلم يستطع أعداءُ الإسلام أن يُدخلوا فيه حرفاً أو ينقصوه، وباءت كلُّ محاولاتهم بالفشل، (ولكنّ اليهود وأعوانهم وأتباعهم لم يلقوا السلاح، ولم ينصرفوا عن حربهم للإسلام، فسلكوا مسلكاً آخرَ يقوم على التشكيك في رواة السُّنَّة النبوية، ولا سيما المكثرين منهم، وإثارةِ الشبهات حولهم، والطعنِ في أمانتهم وصدقهم بحجة النقد العلمي، والبحثِ الموضوعيّ، والرأي الحرّ... وكان نصيبُ الصحابي الجليل، راويةِ الإسلام، وحبيبِ المؤمنين، أبي هريرة ﷺ، من هذا الكيد الجديدِ الشيءَ الكثيرَ؛ لأنه ﷺ من أكثر الصحابة روايةً للحديث، نظراً لأنه كان من أكثر الصحابة ملازمةً لمجلس رسول الله ﷺ، فسمع ما لم يسمع غيرُه، إضافة إلى مسموعاته من غيره من الصحابة، فصار عنده الشيءُ الكثير، يرويه للناس ويعلمهم إياه[1].

واستطاع اليهودُ والمستشرقون أن ينشروا سمومهم في عقول أذنابهم من العرب، فأخذوا بالطعن في أبي هريرة أكثر من المستشرقين أنفسِهم، وذلك كما فعل الشيخُ محمودُ أبو رية في

---

(١) انظر: ص٧ ـ ٨ من الكتاب.

كتاب ألّفه وسمّاه: (أضواءٌ على السُّنَّة المحمدية) وهو في حقيقته ظلامٌ دامسٌ، وضلالٌ مبينٌ. . .

وانبرى كثيرٌ من المسلمين والعلماء الأجلاء الغيورين على الدين للدفاع عن أبي هريرة رضي الله عنه مفنِّدين الشبهاتِ، ومبطلين تلك الدعاوى بالأدلةِ والبراهين، والكلام العلمي الدقيق، منهم: الدكتور محمد أبو شهبة رحمه الله في كتابه: (دفاعٌ عن السُّنَّة)، والدكتور مصطفى السباعي رحمه الله في كتابه: (السُّنَّةُ ومكانتها في التشريع الإسلامي)، والدكتور محمد أبو زهو في كتابه: (الحديثُ والمحدثون)، والأستاذ محمد عجاج الخطيب في كتابه: (أبو هريرة راوية الإسلام) وغيرُهم الكثير من العلماء أمثال: الدكتور محمد السماحي، والشيخ المحقق عبدِ الرحمٰن العلمي اليماني رحمه الله مديرِ مكتبة الحرم المكي، والشيخِ محمد عبد الرزاق حمزة رحمه الله مديرِ دار الحديث بمكة المكرمة. . .

ثم جاء بعدهم الأستاذُ عبد المنعم صالح العلي العزّي، الذي ألَّف كتاباً جامعاً شاملاً سمّاه (دفاعٌ عن أبي هريرة)، فاستحق التقدّم في هذا المضمار؛ لأنه انتهج لنفسه نهجاً جديداً في العمل، حيث بدأ بجمع النقول، ثم نسّقها، وقارنَها بعمل أولئك العلماء، فأضاف ما غفلوا عنه، واستعان بما أنشأوه من التعليقات، وجرَدَ جرداً ـ كما قال ـ معظمَ كتب الحديث، وكتب الرجال، وكتب الرجال الشيعية صفحة صفحةً، وراجع فصولاً دون أخرى في كتب كثيرةٍ متنوعة في الحديث وأصوله، والتاريخ، والفقه. . . فحوى الكتابُ جميع ما يهم موضوعَ أبي هريرة رضي الله عنه، وتمكن من وضع حقائق، واكتشافات

جديدة، أمام أنظار محبّي أبي هريرة لم يوردها غيرُه من العلماء. . .

بعد المقدمة قسّم المؤلفُ كتابه إلى ثلاثة أقسام:

**القسم الأول**: من (ص١٧) إلى (ص١٧٠):

تحدّث فيه عن اسمه في الجاهلية والإسلام، ونسبته إلى دَوْس، وسبب كنيته الغريبة التي منها ما أخرجه الترمذيُّ عنه قال: «كنتُ أرعى غنم أهلي، فكانت لي هريرةٌ صغيرةٌ، فكنت أضعها بالليل في الشجرة، فإذا كان النهارُ ذهبت بها معي فلعبت بها، فكنّوني بأبي هريرة»، وكان رسول الله ﷺ يدعوه أبا هرّ، ويدعوه الناس أبا هريرة. . . ثم تحدّث عن صفته وإسلامه وهجرته ومدة صحبته وهي أربعُ سنين وزيادة

وذكر بعد ذلك تتابعَ الفضل على أبي هريرة ومن هذا الفضل:

نيلُهُ فضلَ الصحبة المطلقة، ونيله شرفَ دعوة النبي ﷺ لدوسٍ بالهداية، ونيلُه شرف اليمن وأهلها آنذاك، ونيلُه شرف دعوة وتوثيق النبي ﷺ له، ولحوق شرف الفقر، وسكنى صفة المسجد به، وحبه النبيَّ ﷺ وملازمتُهُ له، وجوعه وجهاده، وشهودُه غزوةَ خيبر وقتال وادي القرى، وعمرة القضاء، وذات الرقاع وإجلاءَ بعض يهود المدينة، والفتحَ الأكبر وحنين والطائف، وتبوك ومؤتةَ، واشتراكه في قمع المرتدين، وشهودُه اليرموك، وغزوات أرمينية وجهات جرجان. . .

ثم تحدث عن تحلّيه بأخلاق المؤمنين؛ كعنايته بالقرآن الكريم وحفظه له، وكثرةِ تعبُّدِه وأمره بالمعروف، وبرّه بأمه، وتواضعه

العلمي وعدم اغتراره، وتثبتهِ في الفتوى، وأهليته لها، وكرمه وعتقه العبيدَ، وإحسانه لمواليه، وكفالته الأيتامَ، وتربيته الصالحة لأولاده ودعابته. . .

ثم تحدث عن أبي هريرة الحافظِ الثقة، وتوثيق النبيّ ﷺ له بالحديث الذي رواه البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّهُ قَالَ: قِيلَ يَا رَسُولَ اللهِ، من أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَقَدْ ظَنَنْتُ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَنْ لا يَسْأَلَنِي عَنْ هَذَا الْحَدِيثِ أَحَدٌ أَوَّلُ مِنْكَ، لِمَا رَأَيْتُ من حِرْصِكَ عَلَى الْحَدِيثِ، أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ من قَالَ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، خَالِصاً من قَلْبِهِ أَوْ نَفْسِهِ**».

وغيرِه من الأحاديث، وتوثيقِ الصحابة له؛ كطلحة وأُبيّ بن كعب وابنِ عمر وحذيفةَ بنِ اليمان، واعتمادِ أبي بكر له، وقبول عمر لشهادته، والصنيع العمليِّ من الصحابة الدالِّ على توثيق أبي هريرة، ومجالستهِ لابن عباس، وقبولِ ابن عباس معارضته واتباعِه له، وغيره الكثير. . .

وذكر أن أهل المدينة قبلوا جميعاً تصدُّرَ أبي هريرةَ للفتوى ثلاثاً وعشرين سنة، وتوثيقَ التابعين والذين بعدهم، وفنَّد الأقوال التي تُنسب إلى الخلفاء الراشدين في تكذيب أبي هريرة، وأظهر بطلانها. . .

ثم انتقل إلى الحديث عن أبي هريرة بعد وفاة النبي ﷺ حيث كان مع العلاء بن الحضرميّ في زمن أبي بكر رضي الله عنه، ومع قُدامة بنِ

مظعون في زمن سيدنا عمرَ وولّاه الفاروقُ أميراً على البحرين بعد هذا التدرّج. . .

وذكر موقفَه الصائبَ في محنة عثمانَ رضي الله عنه، وحيادَه أثناء فتنة القتال بين علي ومعاوية رضي الله عنهما، ثم عن علاقته بمروانَ بنِ الحكم والأمويين. . . وعن زواجه وأولاده وأقاربه ومواليه. . .

وختم المؤلفُ هذا القسمَ بوداع أبي هريرة للدنيا، واختلاف العلماء في سنة وفاته ما بين سبع وخمسين وتسع وخمسين.

**القسم الثاني**: من (ص١٧١) إلى (ص٢٦٠):

بدأه المؤلف بحب أبي هريرة لعلي وفاطمةَ، وللحسن والحسين رضي الله عنهم وبالأحاديث التي يرويها في حبِّ الحسن والحسين معاً، ثم تحدث عن رواية أبناءِ سيدنا علي رضي الله عنه وفرسانه وأصحابِهِ ومواليه وجماهيرِ الشيعة الأوائل عن أبي هريرة رضي الله عنه، وذلك كروايةِ الإمام زينِ العابدين والباقرِ والصادقِ وابنِ الحنفية ومديرِ شرطة أمير المؤمنين وعظيم خواصّه وكاتبه وأمينِ سره، والشيعةِ من أتباع التابعين وتابعيهم أيضاً، وذكر منهم سليمانَ بنَ مهران الأعمش الشيعيَّ، ومنصورَ بنَ المعتمر وابن فضيل وأبا أحمد الزبيريَّ، وكيف أن الشيعة وثَّقوا صهرَ أبي هريرة، وأشهرَ تلامذته سعيدَ بنَ المسيَّب. . .

وذكر أن الحسن والحسين رضي الله عنهما أمسكا عن جرحه، وكذلك أبناءهم والعقيليين الذين يعفّ لسانهم، والجعفريين والعباسيين، وسكوت أصحاب علي من الصحابة عن جرح أبي هريرة. . .

وتحدّث بعد ذلك عن الاستدراكات التي بيَّن أنها من باب السؤال والاستفسار.

وعن استدراكات ضعافِ الإيمان على بعض الأحاديث الصحيحة، كحديث الذباب، ونفي العدوى، وتحاججِ الجنة والنار، وحديث خلق آدمَ على صورته...

أما **القسم الثالث**: فهو من (ص٢٦٧) إلى (ص٤٤٩):

وقد خصصه المؤلفُ للحديث عن رواية الثقات عن أبي هريرة رضي الله عنه، فذكر قائمةً موحدةً بأسماء الذين روَوْا عن أبي هريرة، وأرقامَ الذين أخرج البخاريُّ رواياتِهم عن أبي هريرة في صحيحه، وأرقامَ الذين زادهم مسلمٌ والنسائي وأبو داود والترمذي وابن ماجة والإمام أحمدُ، ومن زاد إسحاقُ بن راهويه على الكتب السبعة، وزياداتٍ أخرى، ورسم خوارطَ أسانيد البخاري ومسلم إلى أبي هريرة بإحكام وإتقان، ووضع قائمةً بأسماء الرواة الواردة في الخوارط...

ثم تحدّث عن الوضع على أبي هريرة، ومسند أبي هريرة كما يرويه البخاري.

والخاتمة بدأها المؤلفُ بأبي هريرة في شعر المؤمنين، حيث ذكر عدةَ قصائدَ في مدح أبي هريرة رضي الله عنه، منها قصيدةٌ لوليد الأعظمي عنوانها: (سيدي أبا هريرة) مطلعها:

حباك النبيُّ بألطافه وعشتَ سعيداً بقرْب النبي

وقصيدةٌ لمحمود دللي آل جعفر عنوانها: (إلى صحابي)، ومطلعُها:

من أجل بعثِ هدى الإسلامِ معتكفُ		ومن عذوبة ذاك النبعِ مغترفُ

وقصيدةٌ للأستاذ عبدِ الجليل رشيد عنوانها: (أبو هريرة تاريخٌ ومفخرةٌ) مطلعُها:

أشدو بذكركَ شدوَ الطير في السحَرِ		وأقبسُ الهديَ من تاريخِكَ العطِرِ

وغيرُها من القصائد الرائعة.

ثم ذكر قائمةً بأسماء المصادر والمراجع.

فجزى اللهُ المؤلفَ كلّ خير لدفاعه عن سُنَّة النبي ﷺ، وعن صحابيٍ من خيرة أصحابه رضي الله عنهم أجمعين، وجعل ما كتب في ميزان حسناته يوم العرض عليه. إنه سميع قريب.

* * *

- **الكتاب: دفاعٌ عن أبي هريرة**
- **المؤلف: عبد المنعم صالح العلي العزي**
- **ط. (٢) عام ١٩٨١م، دار القلم، بيروت ـ لبنان**

# قراءة في كتاب:
# (اصْطِنَاعُ الْمَعْرُوفِ)

ما أجملَ أن تُدخل الحبور والسعادة على قلوب البائسين والمحرومين، والأراملِ واليتامى!!، وتمسحَ بيدٍ حانيةٍ دموعهم، وتضمّد جراحهم، وما أجمل أن تزرع البسمة على شفاه المحتاجين! وتصنعَ في الدنيا معروفاً وإحساناً يخلِّد ذكرك بين الكرماء المحسنين في الدنيا، ويجازيك الله بالإحسان إحساناً في الآخرة، فهل جزاءُ الإحسان إلا الإحسان؟؟

وكلنا نحفظ قول الشاعر:

من يفعلِ الخير لا يعدم جوازيَه ... لا يذهب العرفُ بين اللَّه والناس

ونعلم جميعاً أنّ مجردَ نية المعروف والهمّ به يثاب عليها صاحبها:

لأشكرنك معروفاً هممتَ به ... فإن همَّك بالمعروف معروفُ

ولا أذمُّ ـ وإنْ لم يُمضهِ قدرٌ ـ ... والشيءُ بالقدر المحتوم مصروفُ

بين يدينا اليوم كتابٌ اسمه (اصطناعُ المعروف) وهو من الكتب القيّمة لابن أبي الدنيا رحمه الله تعالى، وقد كانت هذه اللؤلؤةُ الثمينة، والدرةُ النفيسة، في خضمّ الزمن والنسيان، مغمورةً

مطموسة، فاستخرجها المحققُ الجهبذ العلامة محمد خير رمضان يوسفُ، وصانها وحماها وصقلها، فخرجت لنا درّةً موشّاةً بالياقوت والزبرجد، بعد أن كُسيت حُلّة من التحقيق العلمي الدقيق، فما أبهاها من درة!!

ـ المؤلف: هو الحافظ أبو بكر عبدُ الله بنُ محمد بنِ عبيد بنِ أبي الدنيا، واعظٌ حكيم، ومحدثٌ صدوقٌ، وأخباريٌ مؤدبٌ، توفي في بغدادَ عاصمةِ الخلافة العباسية سنة (٢٨١هـ)، بعد أن عمَّر أكثر من سبعين عاماً، وكتابه هذا فيه الجديد من الأخبار والآثار، وفيه رواياتُ الأحاديث تتفاوت بين الصحة والضعف.

الأصل المعتمد في التحقيق:

قال المحقق: «والمخطوط المعتمد تحقيقُهُ نسخةٌ وحيدةٌ لا أعرف لها ثانية، وهي من منتقيات مكتبة (لا له لي) بتركيا ضمن مجموع برقم: (١٣٦٦٤/ ٥) حصلت على مصوَّرتها من الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة» كما تحدث عن ناسخها وعن مقابلتها فقال: «وناسخُها أحمدُ بنُ عبد الله بنِ أبي الغنائم (ت٦٦٦هـ) كتبها عام (٦٣٩هـ). وهي نسخة مقابلة مصحَّحةٌ، عليها سماعاتٌ وإجازاتٌ».

وهذه الصورة ـ كما ذكر المحقق ـ مشوّهة قد نال الطمسُ أوراقاً عديدة منها، وأتت الرطوبة على جوانبَ من المخطوطة كلها، لذلك نراه أحياناً يذكر رقم الحديث فقط ثم يضع نقاطاً بعد الرقم كما في (ص٣٢)، وأحياناً يضع نقاطاً في بداية الباب، ويذكر

المقدار المطموسَ في الهامش كما في (ص٤٧)، وأحياناً يذكر عدم وضوح الورقة في المخطوط، ويدوّن ذلك في حاشية الكتاب، وخاصة عندما يكون المطموسُ اسماً لأحد الرواة في سند الحديث أو الأثر كما في (ص٣٢). كما لم ينس المحقق أن يزوّد الكتاب ببعض الصور لأوراق المخطوط ص (١١ـ ١٤٩).

وهذا الكتاب أعمّ من كتاب (قضاء الحوائج) للمؤلف نفسِه؛ لأن كتابَ قضاء الحوائج يُعد فرعاً من كتاب اصطناع المعروف.

ولقد بلغ التحقيقُ ـ على ما رأيتُ ـ ضعفي حجم الكتاب، مع اعتماد المحقق على أكثر من (١٦٩) مرجعاً للتحقيق، وهي من أمهات الكتب فأحيلك إلى الصفحات (١٩٦ـ ٢٠٤) لتقرأ أسماءَ هذه المراجع ومؤلفيها ومحققيها مع تاريخ الطبعة ودار النشر ففي التعرّف على هذه المراجع خيرٌ كثير، وزادٌ وفير.

لقد كان عملُ المحقق في الكتاب يقوم على شرحٍ لبعض الكلمات الغريبة، وتعليقِ بعض التعليقات الفريدة والثمينة، لكنّ اهتمامه الأكبرَ كان في الأحاديث، فالكتاب معظمه أحاديثُ وآثارٌ وأخبارٌ، ومن عمله بها كما قال: الضبط والتحقيق والتوثيقُ والتخريج وبيانُ درجة الأحاديث من خلال أقوال علماء الحديث واستنتاجُ الأحكام منها، مع عمل الفهارس العلمية لها.

ـ والكتاب يتألف من جزأين:

أ ـ الجزءُ الأول يتألف من أربعة أبواب معنونةٍ، والمحقق هو الذي وضع عنوان الباب الأول كما ذكر في المقدمة (ص٥).

والجزءُ الثاني يتألف من ثلاثة أبواب، وسأتحدث باختصار شديدٍ عن أبواب هذا الكتاب فأقول:

**الباب الأول**: عنوانُه: **(فضل اصطناع المعروف)** وفيه ٢٥ حديثاً: تحثّ على اصطناع المعروف، وتتحدث عن فضل ذلك، فاصطناع المعروف من الصدقات العظيمة، والله ﷻ يغفرُ لصانعي المعروف، وبدأه المؤلف بالحديث التالي: قال رسول الله ﷺ: «**كلُّ معروفٍ صدقةٌ، والمعروف يقي سبعين نوعاً من البلاء، ويقي ميتة السوء، والمعروف والمنكر خُلُقان منصوبان للناس يوم القيامة، فالمعروف لازمٌ لأهله، يقودهم ويسوقهم إلى الجنة، والمنكر لازمٌ لأهله يقودهم ويسوقهم إلى النار**».

وهذا الباب من (ص١٨) إلى (ص٣٦).

**الباب الثاني**: عنوانُه: **(الضحك)** وفيه (١٨) حديثاً: كلُّها تدل على فضل طلاقة الوجه والتبسم، وتذكر أن النبيّ ﷺ كان أكثرَ الناس تبسماً (ص٣٩)، وهذا الباب من (ص٣٧) إلى (ص٤٦).

**الباب الثالث**: عنوانه: **(اصطناع المعروف إلى من هو أهلُه)** واحتوى على (٣١) حديثاً: تدلّ على أن اصطناع المعروف يجب أن يكون إلى إنسانٍ عارف ومقدِّر لقيمة هذا المعروف، لا إلى إنسانٍ أحمقَ أو فاحشٍ أو لئيم، وتحدث عن سبب ذلك (ص٥٢).

وفي هذا الباب أشعارٌ جميلة تتحدث عن اصطناع المعروف إلى أهله، وعن صنيعة الخير، (ص٤٨ ـ ٥٦)، ومنها أسوق لك هذه الأبيات:

إن الصنيعةَ لا تكون صنيعةً حتى يصابَ بها طريقُ المصنع
فإذا صنعتَ صنيعةً فاعمد بها للَّه أو لذوي القرابة أو دَعِ

ومنها:

ولقد ضربنا في البلاد فلم نجد أحداً سواك إلى المكارم يُنسبُ
فاصبرْ لعادتك التي عوّدتنا أو لا، فأرشدنا إلى من نذهب

وكم في قوله: «أو لا فأرشدنا إلى من نذهب» من وقعٍ جميل لطيف محبب، ولله درّ البيتين ما أروعهما في الاستعطاف والاستلطاف!!

وهذا الباب يقع من (ص٤٧) إلى (ص٦٤).

**الباب الرابع**: عنوانه: **(في الحوائج)**، احتوى على ١٤ حديثاً؛ معظمها ضعيفٌ أو ضعيف جداً، وتتقوى الأحاديث الضعيفة ببعضها البعض كما هو معلوم عند علماء مصطلح الحديث الشريف.

وصدَّر المؤلفُ هذا الباب بحديث عظيم يحثّ على التعاون وتقديم الخير والمعروف إلى كل إنسان، حيث روي عن النبي ﷺ أنه قال: «**الخلق كلُّهم عيالُ الله، فأحبّهم إلى الله تعالى أنفعُهم لعياله**» (ص٦٥).

وهذا الباب يقع من (ص٦٥) إلى (ص٧٣).

ثم يتابع المؤلف هذا البابَ من بداية الجزء الثاني إلى (ص٩١).

ب ـ الجزء الثاني:

**الباب الأول**: عنوانه: **(طلبُ الحوائج عند حسان الوجوه)**، واحتوى على ١٩ حديثاً؛ تدلّ على طلب الحوائج عند حسان

الوجوه، فهم في الأغلب من الكرام، وصانعي المعروف، وذُكرت فيه أشعارٌ تعبّر عن ذلك (ص٩٦، ٩٧) على سبيل المثال، وهذا الباب من (ص٩٢) إلى (ص١٠٤).

**الباب الثاني**: عنوانه: **(في شكر الصنيعة)**، وفيه ٢٧ حديثاً؛ بدأها المؤلف بحديث: «**من لا يشكر الناس لا يشكر الله**»، وقال عنه الترمذي: حسن صحيحٌ، واحتوى البابُ على أشعار حسنةٍ تحث على حسن الصنيعة وشكرها، منها:

لو كنتُ أعرف فوقَ الشكر منزلةً     أعلى من الشكر عند اللَّه في الثمنِ
إذا منحتُكها مني مهذَّبَةً     حذوي على حذو ما أوليتَ من حسن

وهذا الباب من (ص ك ١٠٥) إلى (ص١٢٢).

**الباب الثالث**: عنوانُه: **(من أنظر معسراً)**، يحتوي على ٢٦ حديثاً؛ تدلّ على فضل إنظار المعسِر، وتنفيس الكرب عن المكروب، وبدأه المؤلف بحديث صحيحٍ يذكر فيه فضل ذلك، والحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**من ستر على مسلم عورةً ستره الله عز وجل في الدنيا والآخرة، ومن يسّر على مسلم يسر الله عز وجل عليه في الدنيا والآخرة، والله تعالى في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه، ومن بطّأ به عملُه لم يسرع به نسبُه، ومن نفَّس عن مسلم كربةً نفس الله عز وجل عنه كربة من كُرَب يوم القيامة، ومن أقال مسلماً أقال الله عز وجل عثرتَه يوم القيامة**».

وإليك أيضاً هذا الحديث حيث يكافئ المعروفُ صاحبه يوم القيامة:

قال رسول الله ﷺ: «**إن أهل المعروف في الدنيا هم أهلُ المعروف في الآخرة، وأهلَ المنكر في الدنيا هم أهل المنكر في الآخرة، وإن الله ليبعث أهل المعروف يوم القيامة في صورة الرجل المسافر، فيأتي صاحبَه إذا انشقّ عنه قبرُه فيمسح عن وجهه الترابَ ويقول: أبشر يا وليَّ الله بأمان الله وكرامته، ولا يهولنّك ما ترى من أهوال يوم القيامة، فلا يزال يقول له: احذر هذا، واتقِ هذا فيسكِّن بذلك روعَه، حتى يجاوز به الصراطَ، فإذا جاوز الصراطَ عدل وليُّ الله إلى منازله في الجنة، ثم ينثني عنه المعروف، فيتعلق به فيقول: يا عبد الله من أنت؟؟ خذلني الخلائقُ في أهوال يوم القيامة غيرَك، فمن أنت؟ فيقول: أما تعرفني؟ فيقول: لا، فيقول: أنا المعروفُ الذي عملتَه في الدنيا بعثني الله خلقاً ليجازيَك به في يوم القيامة**».

وفي الباب أيضاً أشعارٌ جميلة بهذا الصدد، منها: حدثنا عبد الله قال: حدثنا الحسين بن عبد الرحمٰن قال: دخل زيادٌ الأعجم على عبد الله بن عامر بن كريز فأنشده:

أخٌ لك لا تراه الدهرَ إلا ... على العِلات بسّاماً جوادا
أخٌ لك ما مودتُهُ بِمِذْقٍ ... إذا ما عاد فقرُ أخيه عادا
سألناه الجزيل فما تلكّا ... فأعطى فوق مُنيتنا وزادا
وأحسنَ ثم أحسنَ ثم عُدنا ... فأحسن ثم عدتُ له فعادا
مراراً لا أعودُ إليه إلا ... تبسّم ضاحكاً وثنى الوِسادا

وهو من (ص١٢٣) إلى (ص١٤٢).

بعد هذه الأبواب وضع المحقق ملحقاً (ص١٤٣)، ثم وضع الفهارس العامة وهي على الترتيب:

فهرسُ الآيات القرآنية، الأماكن، الأحاديث الشريفة (فهرس أطراف الحديث ويشتمل على المتن والهامش)، فهرسُ الأخبار والآثار، الشعر والأعلام، المراجع، الموضوعات.

وواجبنا بدورنا أن نشكرَ المؤلف والعلامةَ المحققَ على هذا المعروف حيث وضعا بين أيدينا كتاباً من أهم الكتب التي تحثّ على الأخلاق الحسنة الفاضلة، وعلى رأسها اصطناعُ المعروف، وإغاثةُ الملهوف، وشكرُنا يأتي تطبيقاً للحديث المذكورِ في الكتاب: «**من لم يشكر الناسَ لم يشكرِ الله**»، فجزاهما الله عنا كلّ خير، إنه سميع قريب.

* * *

- **الكتاب: اصطناع المعروف**
- **المؤلف: ابن أبي الدنيا**
- **المحقق: محمد خير رمضان يوسف**
- **الناشر: دار ابن حزم ت، بيروت، ط. ١، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م**

## أصحابُ الآراء الشّاذّةِ، من أين أتونا بها؟!

بين الفينة والأخرى يخرج إلينا إنسانٌ جديد يدّعي أنه مفكّر ـ وليته لم يفكر ـ وأنه أتى برأي بعد جهد ولَأْيٍ وإرهاق وهجرٍ للكَرى... أتى برأي يُبهر الألباب، ويُنير العقول، ويفتح آفاقاً فكرية علميةً جديدة للبشرية جمعاءَ!

أتى برأي سَبق العالَمَ كلَّه إليه، ولم يقل به أحدٌ قبله من العالمين، ولسان حاله يقول:

إن الكونَ كان يعيش في ظلام الجهل والضلال، وتغشاه أمواجٌ لُجِّيَّةٌ من الجمود والكسل والخمول، فأتيتكُم برأي جديدٍ سيحوّل ـ حسب اعتقاده ـ ظلام الكون الدامسَ إلى شموسٍ من النور الفكريّ، وسوف يُشكل نهضة ثقافية فكرية ما عهدت لها البشريةُ من مثيل!

ومن هؤلاء الشاذين الفكريين من يكون مغموراً لا يعرفه أحد، ولكنه في الوقت نفسه يحب الشهرة والظّهور، ولا أحدَ يساعده على تحقيق مبتغاه، فيحدّث نفسه مرة أخرى قائلاً:

لم لا أُنقِّب في بطون الكتب، وأفتِّش في أعماق الزمان، وأقرأ سِيَرَ المشاهير؟... لعلّي بعد ذلك البحثِ والتنقيب سأجد رأياً

شاذّاً خالف فيه أحدُهم ـ ولو سهواً أو خطأً ـ آراءَ السواد الأعظم من العلماء، والذي ساروا عليه لقرون وقرون، ولم يردَّ أحد عليهم، ولم يعترض أحد على أفكارهم وآرائهم، بل تلقتها الأمةُ كلُّها بالقَبول والاحترام. . . ، ليس لي سبيل إلى الشهرة إلا إذا خالفتُ آراهم، ونقدتُها وفندتُها، وكما قالوا في المثل: (خالِفْ تُعْرَفْ). . .

وفي الحقيقة ـ أيها القارئ المنْصِفُ ـ إنّ المتصفحَ للتاريخ ورجاله وعلمائه، يرى أن القِلّة القليلةَ هي التي خالفت في بعض الآراء، ولكنْ، كما قلنا هذا يكون في النادر القليل. . .

ولكنّ الذي يُمعِنُ النظر في العصر الحديث، وينظر بعين قلبه الحيِّ النابض بالحقيقة، فإنه سوف يرى ولادة أناس يدَّعون العلم والمعرفة، والحجّة والإقناع، وهم في الميزان العلمي بعيدون كل البعد عن أبسط قواعد العلم الصحيح، والمنهج المعتمد، والرأي السديد، وُلد في العصر الحديث أناسٌ ساعدتهم أموالُهُم، وتعصُّبُهُم وجهلُهُم على طرح العديد من الآراء الشاذّة في القنوات والكتب والصحف وعقول البُسَطاء. . . تراهم يُكَفِّرون الناس لمجرد ارتكاب ذنبٍ صغير، وكأنهم أَغلقوا باب التوبة الذي فتحه الله لنا على مصراعيه، وكأنهم خلائفُ ـ في شذوذ أفكارهم وضلالهم ـ للخوارجِ والمعتزلة، ومَن سار على نهجهم، واتّبع سَنَنَهُم. . . تراهم يظنون أن علماء الأمة الإسلامية كلَّهم على ضلال، وهذه الفئة الصغيرة الْمُحْدَثَةُ التي ليس لها جذر ضارب في التاريخ هم العلماء، وعنهم حصراً يُؤخذ العلم الحق، والتوحيد الحق، والعبادة الحق، وعن سواهم يُؤخذُ الكفر والفسوق، والبهتان والعصيان. . .

أصحاب الآراء الشاذة، يتوارثونها جيلاً بعد جيلٍ، بتقليدٍ أعمى مَقيتٍ، وكأنّ أحدهم إِمَّعَةً. . . حصروا العلم كلَّه في خمسة إلى ستة علماء وأئمة، وما عدا هذا النفرَ من العلماء فهم علماءُ سَوْءٍ، وغارقون في الجهل، يكفرون ولا يشعرون!، فيا عجباً من هذا البهتان العظيم، والافتراء والزَّيف الْمُبين!!

. . . أسمع إلى رأي أحدهم فأغوص في يَمِّ الدهر باحثاً عمَّن أَخذَ هذا العالِمُ المحدَث قوله البديع!، أو ما دليله على رأيه الشاذ الذي يتفوّه به؟، والدليل مطلوبٌ ـ كما يعلم القارئُ الكريم ـ على حسب القاعدة العلمية المشهورة (إن كنتَ ناقلاً فالصحة، أو مُدّعياً فالدليلُ).

فأراه لم يأخذ بدليل، بل قد أبدع رأيه هذا من بنات أفكاره المنحرفاتِ، أو اتّكأ على آراء بعض الشاذين الفكريين أمثاله، فوافق شَنٌّ طبَقَة!

أصحاب الآراء الشاذّة، وبتأمّل سريع هُمْ أحد هؤلاء حسب ما أرى ـ وقد أصيب وأخطئ ـ ورحم الله امرأً أهدى إلي عيوبي:

• قلّة نادرة لا يعبأ بها أحد، وَوُجِد الآن لها أنصارٌ من المستشرقين والمستغربين.

• إنسانٌ حَرَّف القاعدة المشهورة التي تقول: (رأيي صحيح ويحتمل الخطأ، ورأي غيري خطأ يحتمل الصواب)، وجعل القاعدة السابقة كالتالي: (رأيي صحيح ولا يحتمل الخطأ، ورأي غيري خطأ، ولا يحتمل الصحة)!!

• مقلِّد أعمى، لا يقبل الحوار ولا النقاش مع أحد؛ لأنه يُفضّل أن يبقى على شذوذه الفكري، وعقله التكفيري.

• وآخرُ، شذوذُ آرائه لمصلحة شخصية آنيّة تتحقق له من خلال رأيه، فإذا ما رأى مصلحة جديدةً أكثرَ عطاءً ونوالاً فإنه سيأتي بفكر شاذّ آخرَ يخالف فكره الأول.

• ذَنَب للغرب، إلا أن الغربَ قطعوه في بلادنا لكي لا يذهب معهم إلى الغرب، فأصبح لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء!.

• قارئ بغير أُستاذ، دائماً يلوم شوقي على قوله: قُم للمعلم وَفِّهِ التبجيلا... يأخذ العلم كحاطب ليلٍ من هنا وهناك، وقد يحمل في ليله بين الحطب أفعى ستلدغُه وهو يحملها، أو ستلدغ غيرَه عن قريب...

• متكبّر لا يتواضع لطلب العلم، أو جامعُ كتُب ينطبق عليه قول القائل:

إِذَا لَمْ يُذَاكِرْ ذُو الْعُلُومِ بِعِلْمِهِ وَلَمْ يَسْتَفِدْ عِلْماً نَسِي مَا تَعَلَّمَا
فَكَمْ جَامِعٍ لِلْكُتُبِ فِي كُلِّ مَذْهَبٍ يَزِيدُ مَعَ الْأَيَّامِ فِي جَمْعِهِ عَمَى

• والآخر نقول له: قالت الأمة كلها بجواز هذا الرأي، فيقول متعجباً: ولكن عندي أن هذا الرأيَ غيرُ جائز، فذكرني بقول الشاعر:

يقولون: هذا جائزٌ عند غيرنا ومن أنتمُ حتى يقالَ لكم عِنْدُ؟!

• الشاذ الفكري يُعجبه جمع الأفكار الشاذة للتباهي بها، ويظن بذلك أنه أعلم من غيره، لكنه عرف شيئاً وغابت عنه أشياء!

● الشاذ الفكري يتبع زُحَلَ، ويترك الشمس، فيقول له الناصح:

خذْ ما علمتَ، ودع شيئاً سمعتَ به — في طلعة الشمس ما يُغنيك عن زحل

**ختاماً**: إن الحديث ليطول عن أصحاب الآراء الشاذة، ولا نستطيع أن نحصرها في هذه الورقات الصغيرة، خاصّةً وأنها تتوالد وتتكاثر من جديد، وكم أتمنى أن يكون هناك بَتْرٌ فكريٌّ، كلما رأى هناك شذوذاً فكرياً يُضل به بعضُ المغفلين، قام بقطع هذا الفكر المنحرف من جذوره حتى لا يترعرع من جديد.

فعلى الإنسان أن يكون مع الجماعة، فإنما يأكل الذئبُ من الغنم القاصيةَ.

❊ ❊ ❊

## أَصدَقُ الدُّموعِ فِي رِثاءِ الإِخْوَةِ..

كلُّ واحدٍ منا في هذه الدنيا تجرّع كأس الفراق، وذاق علقم الفقد، ولوعة الوداع، وسكب عبراتٍ حرّى من القلوب، وذرف دماءً سخينةً من المقل والعيون... وكلّ واحد منا فقد أمّا رؤوماً، أو أباً عطوفاً، أو أخاً شفيقاً، أو زوجاً حنوناً أو صديقاً حميماً...

والإنسان عندما يودِّع مسافراً فإنه يعيشُ على أمل اللقاء به ولو بعد حين، أما عندما يُودِع إنساناً تحت أطباق الثرى، فإنه لا أملَ له في لقائه بهذه الدنيا، فكأسُ الفراق مرُّ المذاق...

وعند فراق الأحبة، يُعبّر كل إنسان عما يجيش في نفسه بطريقته، فهذا بالنحيب، وذاك بالبكاء والدموع، وغيرُه بالعويل، والآخر بالصبر والسُّلوان... أما الشعراءُ فتتحول دموعهم إلى مراثٍ حزينةٍ، حروفُها الأحزانُ، وسِفرها قلبٌ مُضنى، وقافيتُها اللوعة والأسى، وبحرُها من فيضانات الدموع وبحورِ العبرات والحسراتِ...

وكلما كان الفقيدُ عزيزاً كلما كان شعرُ الرثاء أصدقَ دموعاً وعاطفةً، وأشد تأثيراً، وأرهفَ إحساساً، وأصفى شعوراً، وأشدَّ حُرقةً... فمعلومٌ أن النائحةَ ليست كالثكلى...

والأشعارُ التي فيها رثاءٌ من أخٍ لأخيه تكون من أصدق العواطف في الشعر؛ لأن لفقد الأخ وقعاً خاصاً في النفوس، فالأخ هو الصديق وتِرْبُ الطفولةِ وسميرُ الوحدة، ومكمَنُ الأسرار، وهو النجيُّ قبلَ النوم، وهو ظلُّك في مراتع الصِّبا حيثُ الضحكاتُ البريئةُ والعيشُ الرغيد بقلوبٍ لا يُكدّرُ صفوَها هَمٌّ ولا كراهيةٌ؛ لأن تلك القلوبَ صافيةٌ كماء السماء...

وبما أن الأمر كذلك، فلا غَرو بعد ذلك ولا عجبَ أن نرى،أن هناك قصيدةً سمَّوها أمَّ المراثي، وهي مرثيةُ متمم بنِ نُويرة التي رثى فيها أخاهُ مالكاً، وما سُمّيت بأم المراثي، إلا لروعتها، واحتوائها على عظيم المعاني والصفات، ولذاك نرى أن ابن سلَّام الْجُمحيَّ في طبقاته عندما جعل أصحاب المراثي طبقاتٍ جعلَ أولَهُم متممَ بنِ نُويرة، فيقول الجمحي:

«وصيّرنا أصحاب المراثي طبقةً بعد العشر الطبقات.

**أولهم**: مُتمم بن نويرة بنِ جمرة بنِ شداد بن عبيد بن ثعلبة بن يربوع، رثى أخاه مالكاً... والمقدّم عندنا متممُ بن نويرة، ويُكنّى أبا نهشل، رثى أخاه مالك بن نويرة»[1].

وقد ذكر القصيدةَ كاملةً أبو زيد القرشيُّ في جمهرته في الجزء الأول، وقد اخترتُ منها هذه الأبيات، بعدما وقعتُ في حَيْرة من أمري عندما أردتُ الاختيار، فكلُّ بيتٍ حديقةُ وردٍ

(١) طبقات فحول الشعراء، ابن سلام الجمحي ١/ ٢٧.

تُذهلك روعةُ أزهارها، ويشدُّك آسِراً إياك أريجُ أزهارها، فاخترت منها:

لَعَمْرِي وما دَهْـرِي بتأبين هـالكٍ ... ولا جَـزعـاً مـمّـا أَلـمّ فَـأَوْجَـعَـا
لقد غَيَّب ٱلمِنْهَـالُ تحت رِدَائه ... فَتىً غَيرَ مبطَـانِ العَشيّات أَرْوعَا
وما كان وَقّافاً إذا الْخَيْل أحْجَمت ... ولا طالباً من خَشْية ٱلمَوتِ مَفْزَعا
وأنّي متى ما أَدْعُ باسمك لم تُجب ... وكُنتَ حرِيّاً أن تُجيب وتُسمعا
تَـحِيَّتَـه منّـي وإن كـان نـائـيـاً ... وأمسى تُراباً فوقَه الأرضُ بَلْقَعا
فـإن تَـكُـنِ الأيّـام فَـرقْـن بَـيْـنـنـا ... فقَد بان مَحْموداً أخِي حِين وَدَّعا
وكُنَّا كَنَدْمَانَي جَذِيمة حِقْبَةً ... من الدَهر حتى قِيل: لن يَتَصَدَّعا
فـلـمّـا تَـفـرقْـنـا كـأنِّـي ومـالِـكـاً ... لِطُول اجتماعٍ لم نَبِت ليلةً معا

ولمتممٍ هذا قصائدُ كثيرةٌ في رثاء أخيه، منها أيضاً قصيدتُهُ الكافيَّة التي قالها عندما قدم العراق ـ كما قال الأصمعي ـ حيث أقبل لا يرى قبراً إلا بكى عليه، فقيل له: يموت أخوك بالملا، وتبكي أنت على قبرٍ بالعراق! فقال:

لقد لامني عند القبور على البُكا ... رفيقي لتذرافِ الدموع السّوافك
أمِن أجل قبرٍ بالملا أنت نائحٌ ... على كل قبرٍ أو على كل هالك؟
فقلت له: إن الشّجا يبعثُ الشجا ... فدعني، فهذا كلُّه قبرُ مالكِ(١)

ولصدق مشاعره ورقّة شعره سنرى بعد قليل، ـ وفي قصيدة أخرى أيضاً ـ كيف أن سيدنا أبا بكر الصديقَ ﵁ طلبَ منه

(١) الأمالي، أبو علي القالي ١/ ١٣٥.

الزيادة مصغياً لأبيات الرثاء، وكيف أن سيدنا عمرَ بنِ الخطاب رضي الله عنه قال له: لوددتُ أني رثَيتُ أخي بما رثَيت به أخاك.

فقد ذكروا أن: «متممَ بنِ نُويرة دخل على أبي بكر، وهو يصلي بالناس، وكان متممُ رجلاً ذميماً أعورَ، فاتّكأَ على سِيةِ قوسه [ما عُطِفَ من طَرَفَيْها، ولها سِيَتَان] ثم قال يرثي أخاه مالكاً:

نعم القتيلُ إذا الرياحُ تناوحتْ خلف السُّتورِ قتلتَ يا ابنَ الأزور

فقال أبو بكر: زِد، فبكى متمم، وانحط على سِية قوسه حتى دمعت عينُه العوراءُ، ثم قال:

لا يُمسكُ العوراءَ تحت ثيابه حلوٌ شمائلُهُ عفيفُ المئزَرِ
ولنعم حشوُ الدرع كنتَ وخاسراً ولنعم مأوى الطارقِ المتنوِّرِ

فقام إليه عمر بن الخطاب، وقال: لوددت أني رثيت أخي بما رثيت به أخاك.

فقال له متمم: رَفِّهْ عنك أبا حفص، فلو صار أخي حيث صار أخوك ما رثيتُه.

فقال عمر: ما عزّاني أحد عن أخي بمثل تعزيتك.

وكان زيدُ بن الخطاب استُشهد يوم مسيلمة[1].

وإذا كانت قصائدُ ابن نويرة قد ذاع صيتُها، وسارت بها الركبان، وخاصةً أم المراثي، فإن القصائدَ التي قيلت في رثاء الإخوة كثيرة في تراثنا العربي، وما على الباحث إلا أن ينفضَ عنها

---

(١) الحور العين، نشوان الحميري ١/ ٣٥.

غبارَ الزمن المتراكمَ، ويغورَ في غياهب أسفارها، ولُجج أبحارها، حتى يلتقطَ منها دُرراً نادرةً ما زادها مرورُ الزمن إلا إشراقاً وصفاءً. . . فهذا كعبُ بنُ سعد الغنويُّ، يرثي أخاه بقصيدة في غايةِ الروعة والبهاء وذكر فيها محامدَ أخيه ومحاسنَه من كرم وشجاعة، ولو كان الميتُ يُفدى لفداه بكل ما يعز على النفس، بل بالنفس ذاتِها، ومن هذه القصيدة قولُه:

لعمري لئن كانتْ أصابتْ منيةٌ أخِي، والمنايا للرجالِ شَعوبُ
لقد عجَمتْ مني المنيةُ ماجداً عروفاً لريبِ الدهرِ حينَ يريبُ
فلو كان ميْتٌ يُفتدى لفديته بما لم تكنْ عنه النفوسُ تطيبُ
فإنْ تكنِ الأيامُ أحسنَّ مرةً إليَّ فقد عادتْ لهنَّ ذنوبُ
أخٌ كان يكفيني وكان يُعينني على نائباتِ الدهرِ حين تنوبُ
أخي ما أخي! لا فاحشٌ عند بيتِهِ ولا ورعٌ عند اللقاءِ هيوبُ
حليفُ الندى يدعو الندى فيجيبهُ سريعاً ويدعوهُ الندى فيجيبُ
أخُو شتواتِ يعلمُ الحيُّ أنه سيَكثرُ ما في قدرهِ ويَطيبُ
ليبككَ عانٍ لم يجدْ من يعينُه وطاوِي الحشا نائي المزارِ غريبُ
وإني لباكيهِ وإني لصادِقٌ عليه، وبعضُ القائلينَ كذوبُ[1]

فالأخ يكون مع أخيه وبين أهله وذويه، وفجأةً إذ به يُمسي تحت أطباق الثرى، كما حصل مع داودَ بن أبي داود الإيادي عندما قال يرثي أخاه:

فبات فينا، وأمسى تحت هاديةٍ يا بعدَ يومك من مَمْسى وإصباح

(١) مختارات شعراء العرب، ابن الشجري، ص٩ ـ ١٠.

لا يصحب الغيّ إلا حيث فارقه    إلى الرشاد ولا يصغي إلى اللاحي[1]

وذكر الآمديُّ شخصاً اسمُهُ الرواغُ، وأن له أخاً اسمُه مِربعُ، فلما مات مربع أخذت عينُ الرواغ تبكي بكل حرقةٍ عليه، وذكر أن جفنه سيظل سيالاً بأحرِّ الدموع...

قال الآمدي: الرواغ ها هنا اسمُ رجل قال يرثي أخاه مربعاً:

لقد كنتُ أنأى عن بنيّ وأخوتي    على ثقةٍ ما كان في الحي مربعُ
ولولا اعترافٌ بالذي ليس تاركاً    أخا أحدٍ ما زالت العينُ تدمع[2]

وممن رثى أخاه أعشى باهلةَ، رثى المنتشرَ بنِ وهب الباهليَّ، قتيلَ بني الحارث بن كعب، رثاه بقصيدة من روائع شعر الرثاء، ومما جاء فيها:

لا يَأمَنُ الناسُ مُمْسَاهُ ومُصْبَحَهُ    مِن كلّ أَوْبٍ وإنْ لم يَغْزُ يُنْتَظَرُ
لا يَغْمِزُ السَّاقَ من أَيْنٍ ولا وَجَعٍ    ولا يَـزَالُ أمـامَ الـقـوْمِ يَـقْـتَـفِـرُ
إنّـي أَشُـدُّ حَـزيـمـي ثُـمّ يُـدْرِكـنـي    مِـنْك الـبَـلَاءُ ومِـنْ آلائِك الـذِّكَـرُ
فإن جَزِعْنا فمثْلُ الشَّرِّ أَجْزَعَنَا    وإنْ صَـبَـرْنَـا فَـإنَّـا مـعْـشَـرٌ صُـبُـرُ
إمَّا سَلَكْتَ سبيلاً كُنْتَ سالِكَها    فَاذْهبْ فَلَا يُبْعِدَنْك اللَّه مُنْتَشِرُ
لا يُصْعِبُ الأَمْرَ إلا رَيْثَ يَرْكَبُه    وكُلَّ أمْرٍ سِوَى الفَحْشاءِ يأتَمِرُ

وهناك قصيدةٌ لا بد أن نذكرها في هذا المضمار، وهي قصيدة

---

(١) المؤتلف والمختلف في أسماء الشعراء، الآمدي ١/ ٥١،

(٢) المؤتلف والمختلف في أسماء الشعراء، الآمدي ١/ ٥٧.

كعب بنِ سعد الغنوي، التي رثى فيها أخاه أبا المغوار، وهو أيضاً كعادة العرب يذكرُ فضائل أخيه وسجاياه من كرمٍ وشجاعةٍ، ويتمنى أن يفديَه بنفسه، ومنها:

فَخبَّرتُماني أَنَّما الموتُ بالقُرَى فكيفَ وهذي رَوْضَةٌ وكَثِيبُ!؟
وماءُ سَماءٍ كان غَيْرَ مَحَمَّةٍ بِدَاويَّةٍ تَجْري عليه جَنوبُ
ومَنْزِلَةٍ في دَارِ صِدْقٍ وغِبْطَةٍ وما اقْتَألَ في حُكْمٍ عَلَيَّ طَبيبُ
فلو كانَتِ المَوْتَى تُباعُ اُشْتَريتُه بما لم تَكُنْ عنه النُّفُوس تَطيبُ
بِعَيْنِيَّ أو كِلْتَا يَدَيَّ وقيل لي: هُوَ الغانِمُ الجَذْلانُ حين يَؤُوبُ
ودَاعٍ دَعَا: يَا من يُجيبُ إلى النَّدَى؟ فَلَمْ يَسْتَجِبْهُ عند ذَاك مُجِيبُ
فَقُلْتُ: ادْعُ أُخْرَى وارْفَع الصَّوْتَ دَعْوةً لعلَّ أبَا المِغْوارِ مِنْكَ قَرِيبُ[1]

ومع أن الخوارج اشتُهروا بقسوتهم، إلا أن قلوبهم عند الرثاء تلين، ومن الشعراء الخوارج الشاعرُ شُمَّرُ بن عبد الله اليشكريُّ الذي رثى أخاه الرَّيان، حيث أصبح شاعرنا وحيداً بعد فقد أخيه، بل وفجع كل الناس بموته، فقال يرثي أخاه الريانَ:

ولقد فُجِعتُ بسادةٍ وفوارسٍ للحرب سعْرٍ من بني شيبانِ
إعتاقهم ريبُ الزمان فغالَهم وتُركتُ فرداً غيرَ ذي إخوان[2]

وشعرُ رثاء الإخوة لم يقتصر على أخ رثى أخاه؛ لأن هناك من الشواعر أيضاً من رثت أخاها، وتتبادر الخنساءُ على الفور إلى

---

(١) نفسه، ١/٢٨.
(٢) شعر الخوارج، إحسان عباس، ط٣، ١٩٧٤م، دار الثقافة، بيروت، ١/١٩٩.

أذهاننا، وهي التي دبَّجت في أخيها صخرٍ أروع قصائد الرثاء، منها البائية التي مطلعها:

يا عينُ ما لكِ لا تبكين تسكابا إذ راب دهرٌ وكان الدهر ريَّابا[1]؟

ومنها الرائية المشهورة التي منها:

وإن صخراً لوالينا وسيدُنا وإن صخرا إذا نشتو لنحّار
وإن صخراً لتأتم الهداةُ به كأنه علمٌ في رأسه نارُ[2]

وكما بكت الخنساء أخاها صخراً فإنها بكت كذلك أخاها معاويةَ الذي فجعت به. [مع أن قصائدها في صخر كانت أكثرَ شهرةً] وإذا كان صخر قد قتلته بنو أسد، فإن معاوية قد قتلته بنو مرة غطفان. فقالت في رثاء أخيها معاوية قصيدة ومنها:

فما بالُ عَينِيَ ما بالُها؟ لقد أخضل الدمعُ سِرْبالَها
فآليتُ آسى على هالكٍ وأسألُ نائحةً ما لها[3]؟

والشواعرُ اللائي رثيْن إخوتَهن كثيراتٌ جداً، وإن كانت الخنساء فاقتهُنّ في الشهرة...

... ومنهن على سبيل المثال لا الحصر، فارعةُ بنت شدّاد التي قالت ترثي أخاها مسعودَ بن شداد:

يا عينُ بكّي لمسعودِ بن شدّادِ بكاءَ ذي عبراتٍ شجوُهُ بادي

---

(١) ديوان الخنساء إصدار: دار كرم بدمشق، ص١٩.
(٢) ديوان الخنساء، ص٤٤ ـ ٤٥.
(٣) الأغاني، أبو الفرج الأصبهاني ١/ ٢١٣.

مَن لا يُذاب له شحمُ السّديف ولا    يجفو العيالَ إذا ما ضنّ بالزّاد[1]

ومنهن كذلك زينبُ بنتُ الطثرية التي رثت أخاها بقولها:

أرى الأثلَ من بطن العقيق مُجاوري    مقيماً، وقد غالت يزيدَ غوائلُهْ
فتىً قدْ قدَّ السيفَ لا متضائلٌ    ولا رهِلٌ لبّاتُهُ وأباجلُهْ[2]

وأختم بالشاعرة أختِ الفارس عمروِ بنِ عبد ودٍّ العامري، وهو الذي قتله أمير المؤمنين علي بن أبي طالب فرثته أخته، ولكنها عزَّت نفسَها بكلام مقنع نوعاً ما، وذلك بأنَّ من قتله هو أشجعُ العرب، وهذه مِيتةٌ لا يُعاب بها فارسٌ، فكان مما قالت:

لو كان قاتلُ عمروٍ غيرَ قاتله    بكيتُهُ ما أقام الروح في جسدي
لكنَّ قاتلَهُ من لا يُعاب به    وكان يُدعى قديماً بيضةَ البلدِ[3]

وهكذا نلاحظ أن شعر رثاء الإخوة من أصدق الأشعار دموعاً وعاطفةً، ومن أشدها لوعةً وحزناً ونحيباً، ورأينا أن الحزن عندما يُصاغ شعرَ رثاءٍ فإنه لا يفرق بين ذكر وأنثى...

وتبقى قصائدُ رثاء الإخوة بعاطفتها المشبوبةِ قلائدَ مرصّعَةً يُزيِّنُ بها أدبُنا العربيُّ جيده، ويُلْبِسُها لنحر الزمن الخالد، وستبقى قوافي شعر الرثاء هتّانةً بالدمع والمآسي، ومفعمةً بالعويل، ومترعةً بالآهات ومثقلة بالحسرات...

---

(١) الأمالي، أبو علي القالي ١/ ٢٨٥.
(٢) شرح ديوان الحماسة، المرزوقي ١/ ٣٢٢.
(٣) نفسه ١/ ٢٤٩.

# الشَّيْبُ... يَضْحَكُ فَيُبْكِيْ

الشيبُ: ثلجٌ يلوحُ في سواد الرأس، وسنا بدرٍ يشعّ في ظلام الليل، ونذيرٌ للإنسان أنّ مرحلة جديدة بدأت في حياته...

الشيب: هو الضيف الذي لا يقال له: أهلاً ومرحباً، فبمجيئه يرحل الشبابُ، ويكثر الإنسان من النظر إلى المقابر والتراب.

رحل الشبابُ وليته لم يرحلِ　　　والشيبُ حلّ وليته لم يحلُلِ

الشيب هو الذي من أروع ما قيل فيه:

والشيبُ ينهض في الشباب كأنّه　　　ليلٌ يسيرُ بجانبيه نهارُ

الشيب هو النارُ الذي تشتعل في الرأس، وهو من أمارات الضعف والانكسار بين يدي رب العزة، فسيدنا زكريا عندما نادى ربّه نداءً خفياً ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾﴾ [مريم: ٤].

ولكَم تضرع الإنسان إلى خالقه، ذاكراً كِبَرَه وضعفَه وشيبَه، آتياً بالصورة البديعة التاليةِ في دعائه:

إن الملوكَ إذا شابت عبيدُهُمُ　　　في رقهم أعتقوهم عَتْقَ أحرارِ

وأنت يا سيدي أولى بذا كرماً　　　قد شِبتُ في الرِّق فاعتُقني من النار

وهذا الشاعرُ الآخرُ جعل الشيبَ من الخلائق الأربعِ التي تنهى الإنسان عن الفحش والعصيان، فتراه يقول:

وإني لتنهاني خلائقُ أربعٌ عن الفحش فيها للكريم روادِعُ
حياءٌ وإسلامٌ وشيبٌ وعفةٌ وما المرءُ إلا ما حبته الطبائع
وقد كنت في عصر الشباب مُجانباً صبايَ فأنى الآن والشيبُ شائع

ومع أنّ من طبع الكريم حبَّ الضيف، والترحيبَ به، وإظهارَ البشر بقدومه، إلا أنّ الشيب ضيفٌ غيرُ مرحَّبٍ به، وكثيراً ما كان الصاحبُ بن عبادٍ يردد قبل موته هذين البيتين:

أناخَ الشيب ضيفاً لم أردْه ولكنْ لا أُطيق له مَردّا
رداءٌ للردى فيه دليلٌ تردّى من به يوماً تردّى(١)

وأكثرُ ما يتحسّر الإنسان في حياته على أيام الشباب وعهد الفتوة، عندما يلوحُ الشيب برأسه؛ لأن الشيب نذيرُ الهرم، فيبكي لعهد صباه، مع أن الشيب يضحكُ في رأسه:

أبكي لعهدِ الصبا والشيبُ يضحك بي يا للرجالِ سبتْ جِدّي ملاعبُهُ
ولن ترى كالهوى، أشجاهُ سالفُه ولا كوعد المُنى، أحلاه كاذبُه
وهمةُ المرء تُغليه وتُرخصه من عزَّ نفساً لقد عزت مطالبُه

ويتمنى الإنسان بعد المشيب أن يعود إليه الشبابُ، ولكن هيهاتَ هيهات !! فتراه يسكب العبراتِ، ويتجرَّعُ الحسراتِ قائلاً:

---

(١) لحظات قبل الموت محمد خير رمضان يوسف، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط١، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م، ص١٧٧.

عُريت من الشباب وكنتُ غصناً	كما يَعرى من الورق القضيبُ
ونُحتُ على الشباب بدمع عيني	فما نفع البكاءُ ولا النحيبُ
فيا ليت الشبابَ يعودُ يوماً	فأخبرَه بما فعل المشيبُ

أما أحمدُ بنُ خلف أبو العباس المعريُّ المعروفُ بالممتِّع، فإنه جعل نهاية المآرب والآمال عندما يرحل الشباب، ويخلف وراءه شيباً وهرماً:

وما تزال بنا الآمالُ مائلةً	إلى المطامع في وجدٍ وفي عدم
إذا الشبيبةُ بانت عن أخي أربٍ	فلا مآربَ بعد الشيب والهرمِ[1]

ويبقى الإنسانُ بعد المشيب يرتقب أجلَه، وينتظرُ ساعة رحيله، فلا شيبُهُ يزول، ولا شبابه يعود:

تمرُّ بنا الأيام تترى وإنما	نُساق إلى الآجال والعينُ تنظر
فلا عائدٌ ذاك الشبابُ الذي مضى	ولا زائلٌ هذا المشيبُ المكدِّرُ

فالشيب يرافق الإنسان إلى حين الممات:

وفكرتُ في شيب الفتى وشبابه	فأيقنتُ أن الحق للشيب واجبُ
يصاحبني شرْخُ الشباب فينقضي	وشيبي إلى حين الممات مصاحبُ

والشباب والصحة، من أهم ركائز العلم والعمل، أما الهرم والشيب ففيهما تكثرُ العلل، ويسأم الإنسان بهما من تكاليف الحياة، فقد أنشد محمدُ بن محمد بن أحمد الرامشيُّ (ت٤٩٠هـ) متأسفاً بقوله:

---

(١) شذرات من كتب مفقودة في التاريخ، استخرجها وحققها الدكتور إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت الجزء ٢، الطبعة ٣، ١٩٨٨م، ص٣٧٤.

وكنت صحيحاً والشبابُ منادمي وأنهلني صفوُ الشباب وعلّني
وزدتُ على خمسٍ ثمانين حجةً فجاء مشيبي بالضنى وأعلّني
سئمتُ تكاليف الحياة وعِلتي وما في ضميري من عَسى ولعلَّني[1]

والبعض يحاول أن يسلّيَ نفسه عندما يحل به الشيب، وما يرى فيه إلا الوقارَ والنضج، فيكرر دائماً:

عيّرتني بالشيب وهو وقارُ ليتها عيَّرتْ بما هو عارُ

فيجيبه الآخرُ بالحقيقة الصارخة، من غير مقدمة وبلا مجاملة:

وأيُّ وقارٍ لامرئٍ عُرِّيَ الصِّبا ومن خلفه شيبٌ وقُدّامُه شيبُ

ويأتي بدويُّ الجبل ليذكر أن القلب لا يشيب، حتى وإن شاب رأس الإنسان فيقول:

يبقى الشبابُ نديّاً في شمائله فلم يشبْ قلبُهُ إنْ شاب فوداهُ

في حين نرى أن من حلَّت به مصيبة ما، قد يشيب قلبُهُ، وإن كان شعرُه كالحَ اللون، يحاكي سوادَ الليل، فنراه يقول:

إلا يشبْ رأسي بعظم مُصابه بالأكرمين فإن قلبي أشيبُ

ويبقى للشعراء تعليلاتُهُم في الشيب، وهذه التعليلاتُ ـ وللأمانة ـ جعلتهم يأتون بصورٍ بديعة فريدة، في غاية الروعة والجمال، فشهابُ الدين الظاهريُّ، يرى أن الشيب ما هو إلا ضوءُ المحبوبة وسناها، الذي كان متربّعاً على عرش قلبه وفي ثناياه، لكنه أبى إلا بالظهور على وجنتيه، قال:

---

(١) نوادر الفوائد من كتاب بغية الوعاة، فرج حسن البوسيفي ١/ ٢٢.

رأت شيبتي قالت: عجبتُ مع الصِّبا مشيبُك هذا! صفْهُ لي بحياتي
فقلت لها: ما ذاك شيبٌ وإنما سناك بقلبي لاح في وَجناتي[(١)]

وعندما استَنّ أهلُ الأندلس لُبسَ البياض عادةً في الحزن على موتاهم، ـ وذلك من عهد بني أمية قصداً لمخالفة بني العباس في لباسهم السوادَ ـ قال الأستاذ النحويُّ أبو الحسن الحصري:

إذا كانَ البياضُ لباسَ حزن بأندلسٍ فذاك من الصَّواب
ألم تَرنِي لبستُ بياضَ شَيبي لأني قد حَزِنت على الشَّبَابِ[(٢)]

ورأى بعضُ الشعراء في بياض الشيب سواداً للوجه، فحاول أن يلجأ إلى الحيلة والخداع، وقرر أن يقضي على بياض الشيب بسواد الخضاب، وظن أنه سيعيد بذلك الشبابَ وقوته، ولكنْ، ليت شعري! هل يصلح العطار ما أفسد الدهرُ؟!

فابن الروميّ يقول:

يا بياضَ المَشِيبِ سَوَّدْتَ وَجْهي عند بيضِ الوجوه سُودِ القرونِ
فلعمري لأخفينَّك جَهْدِي عن عِياني وعن عِيان العيونِ
ولعمري لأمنعنّك أن تَض ـحك في رَأسِ آسفٍ محزون
بسوادِ فيه ابيضَاضٌ لوجهي وسوادٌ لوَجْهِكَ المَلْعُونِ

(١) دكانة الكتب رحلة إلى جزر التراث، محمد خير رمضان يوسف، ط١، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، دار ابن حزم، بيروت، ص١٨٩.
(٢) المطرب من أشعار أهل المغرب، ابن دحية الكلبي، باب المرواني الطليق ١/٢٢.

وهذا الشاعر يقولُ:

قالت أراكَ خضبتَ الشيبَ قلتُ لها سترتُهُ عنك يا سمعي ويا بَصري
فقهقهت ثم قالتْ من تعجُّبها: تكاثر الغِشُّ حتى صار في الشَّعَر

ومن الأشياء التي استحسنها الشعراءُ والنقادُ، وأكثروا التعجب منها قولُ دِعبُل: (ضحكَ المشيبُ برأسهِ فبكى) قال محمود بن حُميد: كنَّا عند الأصمعي، فأنشده رجلٌ أبياتَ دعبل:

لا تعجبي يا سلمُ من رجلٍ ضحكَ المشيبُ برأسهِ فبكى
يا سلمُ ما بالشيبِ مَنْقصةٌ لا سُوقةً يُبقي ولا مَلِكا

قال: فاستحسنها كلُّ من في المجلس، وأكثروا التَّعجُّب من قوله: ضحكَ المشيبُ برأسهِ فبكى[1].

**ختاماً**، الحديثُ عن الشيب يذكّرنا بيومٍ يجعل الولدان شيباً، ويذكّرنا بمراحل عمر الإنسان، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾﴾ [الروم: ٥٤].

ف«يا من أدركه المشيبُ، اترُكِ الغزل والنسيب، وارجع إلى الله من قريب، ولُذ بالمتاب واعدل عن الخضاب، واخشَ نصول الفضول، ودع من يزور ثم يزول. ولا تطمع بوصل الحِسان، واكتب لهن تسريحاً بإحسان، واحذر منهنَّ العدو الأزرق، واسبق إلى منعهن من قبل أن تُسبَق.

(١) الأمالي، يموت بن المزرع، ١/٦ بتصرف.

عـذر الـكـواعـبِ أنـهـن كـواكـبٌ    لا يجتمعن مع الصباح إذا بدا»[(١)]

وتذَّكرْ دائماً قول ابنِ الجوزي في كتابه: (تنبيهِ النائم الغمر على مواسم العمر):

غَـرَرنـا بِـالـشَّـبـابِ الـمُـستَـعـارِ    أفـقـنـا بِـالـمَـشـيـبِ مـن الـخَـمـارِ
تَـعـالَـوا نَـبـكِ مـا قَـد كـانَ مِـنّـا    وَقـومـوا فـي الـدَيـاجـي بِـاعـتِـذارِ

واجعل ـ يا أخي ـ بياضَ شيبك انعكاساً لبياض قلبك... واعلم أنك كما ودّعتَ طفولتَك ستودع شبابك، وكما ودعت شبابَك ستودِّع هرمك، وكما ودعت هرمك ستودع الحياة!!

❁ ❁ ❁

(١) نسيم الصبا، ابن حبيب الحلبي، باب في الشيب والخضاب ١/١٩.

# المكفوفونَ في الأدب العربي

# البصيرة قبل البصر

إن من أعظم نعم الله ﷻ التي امتنّ بها علينا نعمةَ البصر، وهل يستوي الأعمى والبصير؟

والدنيا ـ كما هو معلوم ـ دارُ ابتلاء وامتحان، قد يبتلي الله فيها الإنسانَ بفقد البصر، ولكنه ـ جل وعلا ـ يعوّضه الجنة، فعَنْ أَنَسِ بنِ مَالِكٍ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، يَقُولُ: قَالَ اللهُ ﷻ: «**إِذَا ابْتَلَيْتُ عَبْدِي بِحَبِيبَتَيْهِ، ثُمَّ صَبَرَ عَوَّضْتُهُ الْجَنَّةَ ـ يُرِيدُ عَيْنَيْهِ**»(١).

ومع ذلك تبقى البصيرةُ هي المقياسَ والأساس، فكثيرٌ من الناس لهم أعينٌ لا يبصرون بها، فيكون أعمى في هذه الدنيا ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْأَخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾﴾ [الإسراء: ٧٢]، وتراه معرضاً عن ذكر الله، وربُّ العزة يقول: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾ [طه: ١٢٤].

وكثير من الناس من حُرم نعمة البصر، ونورَ العين، لكنه

---

(١) حديث صحيح. انظر: شرح السُّنَّة للبغوي، ٣/٢١.

ما حُرم نورَ القلب، وذكاءَ العقل، وفصاحةَ اللسان، فابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما بعد ما ذهب بصرهُ يقولُ:

إنْ يأخُذِ اللَّهُ من عينيَّ نُورَهُما ... ففِي لِسانِي وقلبي مِنْهُما نورُ
قلبي ذَكيٌّ وعَقلي غَيْرُ ذي دَخلٍ ... وفي فمي صارمٌ كالسَّيفِ مأثورُ[1]

وفي نفس المعنى، بل بتوافقٍ في الشطر الأول من البيت الأول قال عز الدين أحمد بن عبد الدائم:

إن يُذهبِ اللَّه من عينيّ نورَهما ... فإن قلبي بصيرٌ ما به ضررُ
أرى بقلبي دنياي وآخرتي ... والقلبُ يُدرك ما لا يدرك البصرُ[2]

وأحدُ الخطباء المعاصرين كان أعمى، وسئل مرة: هل تجلس أمام التلفاز؟ فأجاب: إن الله تبارك وتعالى أكرمني بفقد البصر حتى لا أرى ما يغضبه. ثم أنشأ يقول:

رأيت العمى أجراً وذخراً وعصمة ... وإني إلى تلك الثلاث فقيرُ
يعيّرني الأعداءُ والعيبُ فيهمُ ... وليس بعيبٍ أن يُقال ضريرُ
إذا أبصر المرءُ المروءة والوفا ... فإنّ عمى العينين ليس يَضير[3]

والشاعر الضريرُ نصر علي سعيد يرى أن كثيراً من المبصرين يمشون في درب الحياة بلا هدف ولا هدى، ويرى كثيراً من العميان متوهجين في بصيرتهم، ويملؤون الدنيا عطاءً وعطاء، وها هو يبحث

---

(١) الحيوان، الجاحظ، باب شعر في الخصب والجدب ٢١٦/١.
(٢) نكث الهميان في نكت العميان، الصفدي، ص٢٤، ٢٥.
(٣) آخر لقاء مع (٢٠) عالماً ومفكراً إسلامياً، جمع وإعداد: محمد خير رمضان يوسف، ط١، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م، دار ابن حزم، ص٥١.

عن قلبٍ لا حرابَ فيه في زمن الذئاب البشرية يقول:

كم من ضريرٍ مبصرٍ متوهّجٍ يعطي ويعطي والمدى وهّابُ
وترى ألوف المبصرين بلا هدىً لكأنما فوق العيون حجابُ
وأسيرُ في درب الحياة لعلَّني أحظى بقلبٍ ليس فيه حِراب
فالناس تنهش بعضها بشراهةٍ لكأنهم ـ ياويلتاهُ ـ ذئابُ[1]

ويأتينا الشاعرُ علي بن عبد الغني الحصريُّ بصورةٍ بديعة عندما جعل سوادَ العين يزيد سواد القلب، ليصبحا مجتمعين على الفهم والفطنة:

وقالوا قد عَميتَ فقلت: كلا وإني اليوم أبصَرُ من بصيرِ
سوادُ العين زاد سوادَ قلبي ليجتمعا على فهم الأمورِ[2]

ـ وقد يولد الإنسانُ أعمى، وقد يفقد بصرَه فيما بعد، فمن الحالة الأولى الشاعر بشار بن برد، حيث وُلد وهو أعمى بل حتى وهو جنين كما يقول، وأخذ يعلل ذلك بالذكاء، وأن ضياءَ العين عندما غاض أتى مرادفاً ورافداً للقلب، قال:

عَمِيتُ جنيناً والذَّكاءُ من العَمَى فجِئتُ عجيبَ الظَنِّ للعِلم موئلا
وغاضَ ضياءُ العينِ للعلمِ رافداً لقلبٍ إذا ما ضيَّع الناسُ حَصَّلا
وشِعرٍ كَنَوْرِ الرَّوْضِ لاءَمْتُ بَيْنَهُ بقولٍ إذا ما أحزَنَ الشِّعرُ أَسْهلا[3]

ومن الحالة الثانية الشاعرُ صالح بنُ عبد القدوس، الذي فقد

---

(١) جريدة الفداء. عدد ١١٩٥٧ تاريخ ١٥/ ١٠/ ٢٠٠٢م.
(٢) نكث الهميان في نكت العميان، الصفدي، ص٢٤.
(٣) نور القبس، المرزباني ١/ ٥٤.

عينه فرثاها بأروع كلمات الرثاء، وأودع قصيدته التاليةَ روائع الحكم:

عـزاءكِ أيـهـا الـعـينُ الـسكـوبُ ... ودمـعـك إنـهـا نُـوَبٌ تـنـوبُ
وكنتِ كريمتي وسراجَ وجهي ... وكانت لي بك الدنيا تطيب
فإن أكُ قد ثكلتكِ في حياتي ... وفارقني بك الإلف الحبيبُ
فـكـلّ قـريـنـة لا بُـد يـومـاً ... سيشعب إلفَها عنها شعوب
على الدنيا السلامُ فما لشيخ ... ضريرِ العين في الدنيا نصيبُ
يموت المرءُ وهو يُعدّ حياً ... ويخلف ظنَّه الأملُ الكذوب
يمنّيني الطبيبُ شفاء عيني ... وما غير الإلٰه لها طبيب
إذا ما مات بعضك فابكِ بعضاً ... فإن البعض من بعضٍ قريبُ(١)

وإننا عندما نتأمل في شعر العميان نرى أن بعضهم أتى بصورٍ يعجز عنها المبصرون، مما يجعلنا في غاية التعجب! ونقول: كيف لو كان هذا الأعمى مبصراً؟!! وفارس هذا المضمار رهينُ المحبسين أبو العلاء المعريُّ، الذي كلما تحدث أحدٌ عن الشعر والعمى يخطر على البال، والذي عناه المتنبي ـ كما يقول ـ في بيته المشهور:

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي ... وأسمعت كلماتي من به صممُ

وحسبُك من وصفه قصيدتُه التي يصف فيها الليل وعروسه الزّنجية، ومنها قوله:

لـيـلـتـي هـذه عـروسٌ مـن الـزّن ... ج عـلـيـهـا قـلائـدٌ مـن جـمـان

(١) المستطرف في كل فن مستظرف: شهاب الدين محمد بن أحمد أبي الفتح الأبشيهي، ط٣، دار صادر، ص٦٦٩ ـ ٦٧٠.

وسهيلٌ كوجنة الحبّ في اللو ن وقلب المحب في الخفقان
ثم شاب الدّجى وخاف من الهج ـر فغطى المشيب بالزعفران(١)

وكثيرةٌ هي الصور الفريدة البديعة التي أتى بها الشعراءُ العميان، والتي يعجز عنها المبصرون..

ـ ونطرح سؤالاً هنا؟ هل الحب والعشق مقصور على المبصرين؟؟ والجواب: طبعاً لا؛ لأن العشق لا يميز بين أعمى وبصير، وما أروع قولَ بشار بن برد في هذا المجال:

يا قَوْمِ أُذْنِي لِبَعْضِ الحيِّ عَاشِقَةٌ والأُذْنُ تَعْشَقُ قَبْلَ العَيْنِ أَحْيَانا
قَالُوا: بِمَنْ لَا تَرَى تَهْذِي؟ فَقُلتُ لَهُمْ: الأُذْنُ كالْعَيْنِ تُوفي القَلبَ مَا كانَا(٢)

والإنسان يحب عادة فتاة حوراءَ عيناءَ، نجلاءَ كحلاءَ، فهل هناك من الشعراء أحب فتاة عمياءَ؟!.

ويأتي الجواب أيضاً بأن الحب لا يعرف أعمى ولا بصيراً، فهذا الشاعر أحبَّ امرأة عمياء، وأتى بتعليل لطيفٍ وهو أن محبوبته العمياءَ لا ترى الشيبَ عندما يلوح في فَوديه، يقول ابنُ قزل يتغزل في عمياء:

قالوا: تعشّقتها عمياءَ قلت لهم ما شانها ذاك في عيني ولا قدحا
بل زاد وجديَ فيها أنها أبداً لا تعرف الشيبَ في فَودي إذا وضحا
إن يجرحِ السيفُ مسلولاً فلا عجبٌ وإنما أعجبْ لسيف مغمدٍ جرحا(٣)

---

(١) وانظر: ربيع الأبرار، الزمخشري ١/ ٤١٣.
(٢) نصرة الثائر على المثل السائر، الصفدي ١/ ٤٤.
(٣) خزانة الأدب، عبد القادر البغدادي ١/ ٣٨٥.

ـ ونرى أن بعض الشعراء العميان حالتُهُم تُدمع العين، وتُحزن الفؤاد فابن التعاويذي، يرى نفسه مقبوراً في منزله، ليلُه ونهارُه سواءٌ، وحالته تبكي العذول، وتُدمع العيون، يقول:

فها أنا كالمقبور في كسر منزلي سواءٌ صباحي عنده ومسائي
يرق ويبكي حاسدي ليَ رحمةً وبُعداً لها من رقةٍ وبكاء[1]

وهكذا كنا في جولة سريعة مع من فقد بصره، ولا يزال نور شعره متوهّجاً مدى الأيام، بل لا يزيده مرورُ الأيام إلا صقلاً وجمالاً وبهاء...

وما علينا في الختام إلا أن نحمد الله على نعمه وآلائه، وعلى نعمة البصر العظيمة، ولكن ـ كما قلنا ـ البصرُ ليس كلَّ شيء فالأهمُّ البصيرة، ولا عجبَ عندما نرى في الدنيا بصيراً يسقط في حفرة، وأعمىً يمشي بلا اصطدام، وما أروع ما قاله الشاعرُ إبراهيم علي بديوي:

قل للبصير وكان يحذر حفرة فهوى بها من ذا الذي أهواكا؟
بل سائل الأعمى خطا بين الزَّحا م بلا اصطدامٍ: من يقود خطاكا؟

فاللَّهُمَّ متِّعْنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا، واجعله الوارث منّا، وارزقنا نعمة البصيرة المنيرة، والهديَ المستقيم، إنك سميع مجيب.

❀ ❀ ❀

(١) نكث الهميان في نكت العميان، الصفدي، ص٢٥.

# بيني وبين صديقي الشاعر صهيب يوسف

التقيتُ به للمرة الأولى في دمشق، فانسابت روحي في روحه، ودخل شَغاف القلب من غير استئذان، وبسرعة النار في الهشيم، نما الحب في الله بيننا وترعرع، وأينع بستانُ المحبة أشجاراً باسقةً تطاول سماء الإخلاص، وضاربةً جذورُها في أعماق الوفاء...

وتمر الأيام سريعةً، ونتخرج من الجامعة، وتفترق أجسادنا تاركةً وراءها لوعةَ الاشتياق، ودموعَ الفراق، ومرارة الهجر والبعاد، واتصالَ الأرواح في عالم الإخوة في الله...

وكلما تذكرتُ تلك الأيامَ، وتلك السنواتِ أُكرِّر مع الشاعر:

ثم انقضت تلك السنونَ وأهلُها فكأنها وكأنهم أحلامُ

وكلما ذهبت من حماةَ إلى دمشقَ، يتسارع إلى مخيلتي هذان البيتانِ:

ولقد مررتُ على المنازل بعدَهم أبكي وأسأل عنهمُ وأنوحُ
وأقول إن سألوا بحالي في النَّوى: ... ما حالُ جسم فارقتْه الروح

... ثم سافر إلى السعودية للعمل هناك، وحيثُ مسكنُ أهله... وبقيتُ هنا، وظلت الرسائلُ بيني وبينه، بمناسبات وبلا مناسبات...

طبعاً تريدون أن تعرفوا من هو؟ وما اسمهُ؟؟

إنه الشاعرُ الأديب الأريب صهيبُ محمد خير رمضان يوسفُ، الذي جمع إلى مجده وبلاغته مجدَ أبيه وسؤدَدَه، فأبوه هو العلامة المشهور صاحبُ المصنفات والمؤلفات والتحقيقات: محمدُ خير رمضان يوسف حفظه الله...

... ومن محاسن الجوال والإنترنت أنهما سهّلا الاتصال، رغم المسافات الشاسعة، فكتبتُ له وكتب لي الكثيرَ من الرسائل، وبما أنه شاعر، فقد كانت معظمُ الرسائل بيننا شعراً منبعُه صميمُ الروح، وبحرُه الحب في الله...

... وها هو شهر رمضان يلوِّح بالرحيل، فتأتيني منه هذه الأبياتُ الرائعة:

أرى الأيام تسرع بارتحالِ وبدرَ الشهر صار إلى هلال
فبادر باغتنام الأجر فيما بقي من هذه العشر الفِضال
ولا تترك محبَّك من دعاءٍ فإن ذنوبَه مثلُ الجبال
لعل ملائكَ الرّحمٰن تُثني عليك بمثله من ذي الجلال

ثم يأتي عيدُ الفطر فإذا به يقول لي:

أدام اللَّه لكم الأعيادَ دهورا وألبسكم من التقوى نورا

وتمر الأيام مسرعة سكرى، ويحل علينا عيدُ الأضحى المباركُ، ومع إشراق صباحه، أرى على جوالي:

صباحُ الخير والأضحى مبارَكْ وعَمَّر ربُّنا بالحب دارَكْ
عزيزي.. إن تفرقنا الليالي فإنَّ القلبَ لم يتركْ مزارَكْ

إنه سبّاقٌ إلى الخير، فغالباً ما يكون صاحبَ المبادرة في الإرسال، شعراً مُدَبَّجاً في غاية الروعة، أما رسائلي له فقد تكون نثراً، وقد تكون شعراً لا يرتقي إلى مستوى شعره وبيانه. . .

ولا أدري لماذا أحبني هذا الحبَّ ـ على الرغم من كل عيوبي ومساوئي ـ؟؟ على كلٍّ فهو أحدُ أمرين، إما أنه يحسن ظنَّه فِيَّ، ـ وطبعاً، الإنسانُ لا يُحسن ظنه بالآخرين إلا إذا كانت أفعالُه حسنةً ـ أو لأنّ روحي وروحَه التقتا في عالم الأرواح، فحصل التآلفُ لأن الأرواحَ جنودٌ مجندة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف، وكثيراً ما كان يسميني شيخه في شعره، ـ وهذا طبعاً من باب المداعبات الشعرية ـ ويثني عليَّ بعبارات لستُ أهلاً لها، وقد كنت لا أريد ذكرَ هذه الأبيات، إلا أنَّ بلاغتها وروعتها أبت إلا أن تظهرها للجميع.

فها هو يقول:

لشيخيَ في قلبي (أمورٌ كثيرة!!) فأولها شوقي إلى وجهه الدّرِّي
وآخرُها أني أراه كأنني ظلامٌ وشيخي الفجر، بل غرةُ الفجر
وبينهما لا تسأل القلبَ عن أسى يعاودني دوماً إذا غرد القمري

وها هي تقارير الهوى والحب، تنقل له من مصدرها الثقةِ أنه يحبني، وقد أتى بهذه الأبيات الجميلة عندما قال:

أُنبئت أن تقارير الهوى كتبت ـ عن مصدر ثقةٍ ـ أني مريدُكُمُ
وليس في ذاك شكٌّ. . غير أنهمو نسوا بأن يكتبوا؟ أني أحبكم !
من مخبرٌ لبني عباسٍ أن فتىً من الأعاجم مطلوبٌ لأمنهِمُ

وكان يأتي أحياناً بمحسنات بديعية، غيرِ متكلفة تأتي على سجيتها مثل قوله:

أشتاقكم يا أهل ودي وبيننا فراسخ
أما حبُّكم في فؤادي فراسخ

فأجبته محاولاً تقليده في شيءٍ ما:

شيخي:
قرأت شعرك فهمتُ عندما فهمتُ
وأحياني فغابت فيه أحياني
وصرت أبثُّ أشجاني
شقيقَ الروح: سامحني إذا أضناك هذياني
وشعري صار سخريةً فصاح الويلَ شيطاني

إلا أنه أجاب على الفور:

على ثغرٍ أراك تردُّ عنّا كل شيطاني
تُقَضِّي العيش في كدٍّ وإخلاص وإيمان
فمن أُهدي إذا لم أهدكم شعري وألحاني؟!

... وقد رأيت في الرؤيا، أنه في سوريا وأني أعانقه عناقاً حاراً، فأرسلت له أخبره بهذه الرؤيا، وأنها أضغاث أحلام؛ لأنه لم يكن قد قرر أن يأتي إلى سوريا .. وسبحان الله!! !! كانَ جوابه كالتالي: (ما هي بأضغاث أحلام!! وأفتيك بأني سأكون في سوريا بعد شهرٍ وأسبوع ـ بمشيئته ـ.. قررت ذلك البارحة فما أسفر الصبحُ إلا وقد (كُشفت) لكم الحجبُ!!).

فسررت بهذا الخبر، وأصبحت كل يوم أتشوَّق إلى اليوم الذي يليه. . .

حتى جاء اليوم الموعودُ. . . والتقينا عندي في مدينة حماة في حي كازو وهو الحي الذي أعيش فيه، فيا لحرارةِ اللقاء!! وعناقِ المحبة والإخاء!! وقضينا يومين من أجمل أيام العمر ثم ودعني إلى محافظة القامشلي في سوريا، وعندما وصلها، أرسل لي يقول:

هاكَ أشواقَ الوفا يا سيدي ودعاءً من مريد كمِدِ
غاب عنكم ساعة فاشتاقكم يا ترى. . كيف به يوم غد؟!
ليت أشياخي بقامشلي رأوا ما رأت عينايَ بالأمس الندي
لن تراهم غيرَ أفواج مضت نحو كازو بخطاكم تقتدي!

وبقي عدة أيام في صيف عام (٢٠٠٨م) في سوريا ثم قرر أن يعودَ إلى السعودية، وفي طريق عودته وعند الحدود، أرسلتُ له:

رحلتم وقلبي في شغاف قلوبكم فردُّوا أحبابَ الهوى لحظة قلبي

فأكمل ببيتٍ صادقٍ كدمع الدرب الذي ذكره وقال:

فأواهُ. . ما أقسى الرحيلَ أحبتي وأصدقُ دمع العين ما سال في الدرب

ثم شاءت لي الأقدارُ، وأذن العزيز الغفار، في أن أحجَّ البيت الحرامَ، في نفس العام، فأخبرته وقرر أن يذهب للحج حتى نلتقيَ، ولكن القدرَ ما سمح له بذلك فقال لي:

تخلفنا عن البلد الحرام وما فيه من النعم الجِسام
وفاز بفضله إخوانُ صدقٍ لنا نهضوا مع الوفد الكرام

وعندما كنت على أطلال مكةَ، والدموع تغمرني، وسيرة المصطفى ﷺ تمرُّ في خاطري، جاءني منه ما يلي:

إيهِ يا مكةُ.. ها شيخي أطل | فاحضنيه بعيون ومقلْ
قربي الركن اليمانيَّ له | فشفاءُ الروح في تلك القبلْ
قدمي من زمزمٍ وِرْداً له | واتركيه حين يسعى في عجل
.. كم تمنى أن يراها في الكرى | ولها صاغ دموعاً وجملْ
وهو الآن لديها خاشعٌ | دامع العينين شكراً للأجل

وبعد وصولي إلى مكة بيوم أرسل لي:

بين الحطيم وزمزمْ | هام الفؤادُ المتيمْ
حار المحبُّ ولما | أراد يقدمُ أحجم
فعقله مدنيٌّ | والقلب لبَّى وأحرم!
يمضي إلى الفجر شيخي | مُظللا بالملائكْ
خلف المقام يصلي | على هدى أنبيائكْ
يا رب: فاقبل دعاهُ | فقد أتى لدعائكْ

فحاولتُ أن أرد له على الوزن نفسه فقلت:

آهٍ متى القلبُ يسلمْ | ونارُه تتضرّم
بيانُ وجديَ أبكمْ | وأدمعي تتكلّم
على الحبيب المعظمْ | صلى الإلٰه وسلّم

وبقيت أكثر من شهر في مكة والمدينة، مرت كأنها سحابةُ صيف، وكانت أجملَ أيام عمري على الإطلاق... ثم غادرت المدينة مودِّعاً لها، ومتذكراً قول الشاعر:

قالت ومدت يداً نحوي تودعني ولوعةُ البين تأبى أن تمدَّ يدا
أميِّت أنت أم حيٌّ؟ فقلت لها: من لم يمت يوم بين لم يمت أبدا

وعندما وصلت على الحدود السعودية الأردنية جاءتني منه أبياتٌ في غاية الروعة وجمال التصوير، ورصانة التعبير والتحبير:

عدتَ والقلبُ حاملٌ ألفَ ذكرى واللآلي من المدامع تترى
كعبةٌ، زمزم، مقامٌ، حطيم والصفا، والأذانُ يصدح فجرا
دعواتٌ على حمى عرفاتٍ والْمُنى في مِنى تحققن طرا
روضة، قبةٌ على حجرات بينها أبصرت عيونُك بدرا
قال شعري ـ ومقلةُ العين سهرى ـ: شيخَنا يا سواد عينيَ.. عذرا

وهكذا رأينا كيف أبدعت المحبة الصادقة في الله، من هذا الشاعر الأديب، أروع ما كتب البيان، وفاض به الجنان... وما هذا الذي ذكرته إلا غيض من فيض، وهو ما يسمح به المقام.

ولا تزال محبته عالقة في قلبي، ما سجى ليل، وأعقبه فجر، حتى نكون من السبعة الذين يظلّهم الله في ظلِّه يوم لا ظلّ إلا ظلّه، وسيبقى توأم الروح، وشقيق الفؤاد، ومؤنس قلبي المضنى، فمن خلاله عرفت معنى كلمة المحبة في الله(١)...

❁ ❁ ❁

(١) كان ذلك بتاريخ ٢٠٠٨/٦/٧م.

# أُمُورٌ تَعَجَّبْتُ مِنْهَا!!!

ـ لكم تعجبتُ عندما سمعتُ أن الإنسان قد يدفن بعضَه، وبعضُهُ الآخرُ على قيد الحياة !!، وسرعان مازال عجبي عندما دفنت ولداً من أولادي تحت أطباق الثرى، عندها أيقنت أني دفنت فلذةً من كبدي، وجزءاً من سويداء قلبي...

ـ طالما تعجبت في صغري عندما كنتُ أسمع العبارة التالية: «دموعُ الفرح»، وأقول في نفسي: وهل للفرح دموعٌ، وللحزن دموعٌ؟! فإنني ما عرفت إلا دموعَ البكاء والأحزان، والنحيبِ والأشجان...

ولكنْ... ها أنا اليوم أرى للفرح أنواعاً شتّى من الدموع، وللبكاء أنواعاً شتى من الدموع، فلله درُّ الدموع !! نبكي فنذرفها من العيون، ونفرح فتفيض بها المآقي والجفونُ!.

ـ تعجبت عندما قرأت عنوان الكتاب التالي: «بحرُ الدموع»، لمؤلفه ابن الجوزي فقلت: سبحان الله!! وهل للدموع أيضاً بحرٌ؟!.

فما انتهيت من قراءته حتى قلت في نفسي: ليته سماهُ «بحارَ الدموع»!!.

ـ عجبت من الصخور الصماءِ التي تتفجّر منها الأنهارُ،

وعجبت من الصدور التي تحتوي على قلوبٍ أقسى من الأحجار!!

ـ عجبت من إنسان يملك قلباً لا يلينُ، وعيناً لا تدمعُ، ونفساً لا تشبعُ، ويداً إلى الله متضرعةً لا تُرفع!!

ـ عجبتُ ممن أعطاه الله قلباً نابضاً، فأحبَّ فيه الأغيارَ، ونسي العزيزَ الجبار!!

ـ عجبت ممن يعيشُ حياتَه بلا هدف، ويمضي في الدنيا بلا عقيدةٍ!!

ـ عجبت ممن يموتُ ولم يترك أحداً يترحَّمُ عليه، وعجبت ممن يحيا، ويتمنى الناسُ أن يترحّموا عليه!

ـ عجبت من طالب الوصول، وهو نائمٌ في أول الطريق، وازداد عجبي من إنسانٍ وصل إلى نهاية الطريق، ثم اكتشف أنه كان يسير في غير الطريق المطلوب، وإذا به في ضلال مبين...!!

ـ عجبت من ظالم يضحك ملءَ فيه، ويمضي ليله في سباتٍ عميق، وسهامُ دعواتِ المظلومين تشقّ عنان السماء، وترقى فوقَ الْحُجُب، في الصباحِ والمساء...!!

ـ عجبت ممن يبيع البخسَ بالثمين، ويخسر تجارة كان حرِيّاً بها أن تكون رابحةً، ويستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خيرٌ...

ـ طالما تعجبت من الغافل عن ذكر الله، معيشتُهُ ضنْكٌ، وقلبُه مَيْتٌ، وحياتُه شقاءٌ، ووقتُهُ هباءٌ!!

ـ ما أشدّ تعجبي من إنسانٍ كافأ اليدَ التي أعطته بالقطعِ، وقابل العطاءَ بالمنع!!

ـ عجبت من عينين مبصرتين كيف يعمى صاحبُهما عن نور البصيرة، ولا يرى بهما شعاعَ الحق، وضياءَ التقى، وإشراقَ شمسِ الهداية...

ـ عجبت ممن يدّعي محبة النبي ﷺ، إلا أنه لا يسير على نهجه، ولا يتّبع سنته، ولا يترسَّم خُطاه...!!

ـ عجبت ممن أعطاه الله وجهاً حسناً، ولا يزال سادراً في ضلاله، متّبِعاً هواه وشهواتِه، وكأنه ما قرأ قولَه تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٨٨].

ـ تعجبت كثيراً من الذين رأوا وجه الحبيب المصطفى ﷺ ولم يبصروا النورَ الذي في مُحَيَّاهُ، والجمالَ والبهاء الذي للوجه الشريف كساهُ، ولم يتبعوا سبيله، ويهتدوا بهداهُ!!

لكن عجبي زال عندما قرأتُ قوله تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٧٩]، وعلمت أن الإنسان لا يبصر بعينه، بل يبصر بقلبه، وفعلاً كما قال اللهُ تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

ـ طالما تعجبتُ من ليل الصحابة ﷺ، فلا هو كليلنِا، ولا نهارُهم كنهارِنا، فمن أين لنا أن نتشبَّهَ بهم؟! ولكنْ، على أية حالٍ:

وتشبهوا إنْ لم تكونوا مثلَهم ... إنّ التشبّهَ بالكرام فلاحُ

ـ عجبت من الكثيرين الذين يتشوَّقون إلى رؤية المصطفى ﷺ، ويتحسرون لأن الله لم يخلقْهم في عصر الصحابة ﷺ، فقلت في

نفسي: ليتَ شعري!! ومن قال لهم: إنهم سوف يؤمنون به، وأنّ أحدَهم سيكون كأبي بكر وعمرَ وعثمانَ وعليٍّ ﷺ، فهم لا يدرون؟ وبالقدر الْمُغَيَّب لا يعلمون!! فربما كان أحدهم كأبي لهب وأبي جهل!!

فليحمدِ الإنسانُ ربَّه على عظيم نعمه، وليدعُ مع ذلك الأعرابي: اللَّهُمَّ إنك أعطيتنا الإسلامَ من غير أن نسألَك، فلا تحرمْنا الجنة ونحن نسألُك.

ـ تعجبتُ من الذين ينتظرون الثوابَ من الناس، ثناءً ومدحاً وإطراءً، فقلت: ليت شعري!! ألا يعلم هؤلاء أن الناسَ كما تمدحُ تقدحُ، وكما تثني عليك، تغتابك وتنمُّ عليك!! وأن الناس ينسون حسناتِك، ويتذكرون كل زلةٍ من زلاتك، فانتظر ثوابَك ممن يعلم خائنةَ الأعين، وما تخفي الصدورُ، ويعلم السرَّ وأخفى، وأحاط بكل شيءٍ علماً.

فالناسُ ـ يا أخي ـ كما قال الشاعر:

فإنْ رأَوا هفوةً طاروا بها فرحاً     مني وما علموا من صالحٍ دفنوا

ـ كم تعجبتُ من إنسان كنتُ أظنُّه أُميّاً فإذا بي تلميذٌ بين يديه!!، وكم تعجبتُ من إنسان يدّعي العلمَ، وهو غارقٌ في بحارٍ من الجهل!!.

ـ كم من إنسانٍ كنتُ أظنُّه وفيّاً، فإذا به أشدُّ خيانةً من أبي رغال!! وكم من إنسانٍ قالوا عنه: خائنٌ، فإذا به أوفى من السموأل!!

# صُوَرٌ من بَلاغَةِ الأَطْفَالِ

نعلم جميعاً أن مرحلة الطفولة هي أروعُ المراحل التي يمرُّ بها الإنسان في رحلة حياته، وأن الطفولةَ كلما ذُكرت فإن البراءةَ والطهر والنقاء تُذكر معها... ويجول في خواطرنا قول الشاعر:

وصن ضحكةَ الأطفال يا رب إنها     إذا غرّدت في ظامئ الرمل أعشبا

كما أننا عندما نطالع سيَر العظماء، ونعود إلى مراحل صباهم، فإننا نرى أن النجابة والإبداع والذكاء ظهرت بوادرُه في وقت مبكر من حياتهم... وخاصةً العلماءُ منهم، فلهم ذكرياتٌ مع الطفولة لا تُنسى، وهم لا يزالون في مرحلة الطلب، فهذا الإمام سفيان بن عيينة يصف نفسه عندما كان صغيراً. وهو يتحدث عن بداية حياته، مخاطباً النضرَ الهلالي:

لو رأيتني يا نضرُ ولي عشر سنين، طولي خمسة أشبار، ووجهي كالدينار، وأنا كشعلة نار، وثيابي صغار، وأكمامي قصارٌ، وذيلي [أسفل الثوب] بمقدار، ونعلي كآذان الفار، أختلف إلى علماء الأمصار؛ كالزُّهري وعمرو بن دينار،أجلس بينهم كالمسمار. محبرتي كالجوزة، ومقلمتي كالموزة، وقلمي كاللوزة. فإذا أتيت قالوا:

أوسعوا للشيخ الصغير! ثم ضحك![1]. . .

وعندما نقرأ في القرآن الكريم ونتأملُ فيه نرى أن الله جل وعلا يخبرنا أنه آتى يحيى الحكمَ صبياً، وأن قوم إبراهيم قالوا: سمعنا فتىً يذكرهم يقال له إبراهيم،كما حدثنا عن أصحاب الكهف: ﴿سَمِعۡنَا فَتٗى يَذۡكُرُهُمۡ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبۡرَٰهِيمُ﴾. والآيات القرآنية في هذا الصدد كثيرة جداً، فطفولة الأنبياء ومن ذكرهم الله في كتابه الكريم طفولةٌ تدلُّ على الفهم والإدراك وسبق الزمن والعمر. .

وعندما نتحدث عن الأطفال النجباء فإننا نتذكر طفولةَ بعض الصحابة، فهذا ذو نَهَمٍ شديد بطلب العلم، وهذا ذو شوق للجهاد في سبيل الله حتى يحظى بالشهادة، وغيرُه يتعارك مع صديقه ليصرعَه أرضاً ويبرهنَ بذلك على قوته حتى يقبَلَهُ الرسولُ ﷺ في المعركة، وذلك كما حصل مع سمرةَ بنِ جندب ورافعِ بنِ خديج. . .ومن محبة الأطفال للجهاد في سبيل الله ما يقصه علينا سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه وهو يحدثنا عن أخيه عمير رضي الله عنه، قال: رأيت أخي عميرَ بن أبي وقاص يتوارى قبيل بدء معركة بدر، فقلت: ما لك يا أخي؟، قال: إني أخاف أن يراني رسولُ الله ﷺ فيستصغرَني فيردَّني، وأنا أحب الخروج لعلَّ الله أن يرزقني الشهادة.

قال: فعُرِض الجيش على رسول الله ﷺ فرآه، فرده لصغره، فبكى أخي عميرٌ فأجازه مرة أخرى.

---

(١) سفيان بن عيينة شيخ الإسلام وحافظ العصر، محمد خير رمضان يوسف، ط١، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م، دار ابن حزم، ص٧ ـ ٨.

فكان سعد رضي الله عنه يقول: فكنت أعقد حمائل سيفه من صغره، فقتل وهو ابن ستَّ عشْرةَ سنة[1].

ونماذجُ الطفولة الذكية المبدعة الخلّاقة في حبها للجهاد وشغفها بطلب العلم ظهرت عند كثير من الصحابة في سن مبكرة، كما قرأنا في سيرة ابن عباس وابن عمر وأسامة بن زيد ومعاذ ومعوِّذ . . . رضي الله عنهم أجمعين.

وسنسوق في هذه العجالة بعضَ الصور والنماذج الرائعة للأطفال البلغاءِ المبدعين من الصحابة وغيرهم وفي ميادين شتى، وإنني سأهتم بجانب واحد من جوانب ذكاء هؤلاء الأطفال، وهو الأجوبة البليغة التي يعجز عنها الكبارُ، والتي تأتي محكمةَ السَّبك، رصينةَ العبارة، ثابتةً كثبوت الجبال، تدلُّ على بلاغة وبيان، مع ثقة الطفل المتكلم بها بنفسه، واحترامه لمن يخاطبه. . .

فعندما مرّ عمرُ بن الخطاب بعبد الله بن الزبير وهو صبي يلعب مع الصبيان، ففروا ووقف، فقال له: ما لك لم تفرّ مع أصحابك؟ قال: يا أمير المؤمنين، لم أجرم فأخافَ، ولم تكن الطريق ضيقةً فأوسّعَ لك.

وكذلك ما ذكر من أن إياس بن معاوية تقدم وهو صبي إلى قاضي دمشق، ومعه شيخ فقال: أصلح الله القاضي، هذا الشيخ ظلمني واعتدى عليّ وأخذ مالي، فقال القاضي: أرفق به ولا تستقبل

---

(١) نوادر الكتب غريبها وطريفها، محمد خير يوسف، ط٢، ١٤٢٥هـ، مكتبة العبيكان، ص٤٤.

الشيخ بمثل هذا الكلام! فقال إياس: أصلح الله القاضي، إن الحق أكبرُ مني ومنه ومنك. قال: اسكت، قال: إن سكتُّ فمن يقوم بحجتي؟ قال: تكلم، فوالله إنك لا تتكلم بخير فقال إياس: لا إلٰـه إلا الله وحده لا شريك لـه، فرفع صاحب الخبر هذا الخبر إلى الخليفة فعزل القاضي وولّى إياساً مكانه.

ثم يروي لنا الأصمعي هذه الحادثة فيقول: قلت لغلام حدَثِ السن من أولاد العرب: أيسرك أن يكون لك مائةُ ألف درهم وإنك أحمق؟ فقال: لا والله، قلت: ولم؟ قال أخاف أن يجني عليّ حمقي جِناية تُذهب مالي، ويبقى عليّ حمقي.

وأُدخل على الرشيد صبي له أربع سنين فقال له: ما تحب أن أهب لك، قال: حسنُ رأيك.

بل قد تكون فتاة صغيرة، وتأتي بكلمة تسكت الرجل ولا ينبس ببنت شفة في الجواب. قال بشر الحافي: أتيت باب المعافى بنِ عُمران فدققت الباب، فقيل لي: من؟ قلت: بشر الحافي، فقالت لي بنية من داخل الدار: لو اشتريت نعلاً بدانقين ذهب عنك اسمُ الحافي[(١)].

بل قد تنقذ الفتاة الصغيرة أباها من القتل عندما تحسن الكلام، فكيف بها إذا كنت تحسن نظم الشعر، وذلك كما حصل مع يزيدُ بن زبيبة الشيبانيُّ الذي عاش دهراً طويلاً حتى لحق زمن الحجاج،

---

(١) الأذكياء، ابن الجوزي، ت: أسامة عبد الكريم الرفاعي، مكتبة الغزالي، ١٩٨٥م، ص٢٤٢ ـ ٢٤٦.

وسعى مع ابن الأشعث، فظفر به الحجاجُ وورد عليه كتابُ عبد الملك بنِ مروان يأمره بقتله، فلبس ثياباً بيضاً، وتهيأ للقتل وركب، وخرجت نساؤه حتى أتينَ باب الحجاج، فلما أدخل يزيد عليه، قال له الحجاج: أنت يزيد بن قرة؟ قال: نعم. قال: قتلني الله إن لم أقتلْك. قال: نشدتك الله أيها الأمير أن لا تقتلني، فإني قيِّم أربع وعشرين امرأةً، ليس لهن قيّم سواي. قال: ومن يعلم ذلك؟ قال: هُنّ بالباب. فأمر بإدخالهن، فكل واحدة تقول: اقتلني ودعه. فيقول: من أنت؟ فتقول: عمتُه أو خالته أو بنته أو بنتُ أخ أو بنت أخت، حتى اجتمعن بين يديه قياماً، فقامت بنيةٌ له صغيرة. فبكت بكاء حاراً موجعاً محرقاً، وأنشأت تقول:

أحجَّاجُ إما أن تمُن بنعمةٍ ... علينا وإما أن تُقتّلنا معاً
أحجاجُ كم تُفجعْ به إن قتلته ... ثمانيَ عشرٍ واثنتين وأربعا
أحجاجُ لو تسمعْ بكاءَ نسائه ... وعماتِه يندبنه الليلَ أجمعا
أحجاجُ من هذا يقومُ مقامَهُ ... علينا، فمهلاً لا تزدنا تَضَعْضعا
أحجاجُ هَبْهُ اليومَ للَّهِ وحده ... وللباكيات الصارخات تفجُّعا

فرقَّ لها الحجاج وبكى، وكتب في أمره إلى عبد الملك «يصف ما جرى» فكتب إليه: إن كان حقاً فاعفُ عنه، وألحق عياله في العطاء، ففعل[1].

كما أن الخيرَ والنفع قد يعم البوادي عندما يتكلم طفل بكلام

---

(١) أشعار النساء، المرزباني. وانظر: المحاسن والمساوئ لإبراهيم البيهقي، ونوادر الكتب غريبها وطريفها، محمد خير يوسف، ص٤٦ ـ ٤٧.

بليغ فصيح بين يدي الخليفة وذلك كما حصل مع دِرْواس بن حبيب، فقد حُكي أن البادية قحطت في أيام هشام بن عبد الملك، فقدمت عليه العرب، فهابوا أن يكلموه، وكان فيهم دِرْواسُ بن حبيب، وهو ابن ست عشرة سنة [وفي بعض المراجع ابن أربع عشرة سنة]، له ذُؤابة، وعليه شملتان، فوقعت عليه عين هشام، فقال لحاجبه:

ما شاء أحد أن يدخل عليّ إلا دخل حتى الصبيانُ!، فوثب درواس حتى وقف بين يديه مطرقاً فقال:

يا أمير المؤمنين إن للكلام نشراً وطيّاً، وإنه لا يُعرف ما في طيّه إلا بنشره، فإن أذن لي أمير المؤمنين أن أنشرَه نشرتُه، فأعجبه كلامُه، وقال له: انشره لله درك!، فقال:

يا أمير المؤمنين إنه أصابتنا سنون ثلاثٌ: فسنة أذابت الشحم، وسنة أكلت اللحم، وسنة دقَّت العظم، وفي أيديكم فُضول أموالٍ، فإن كانت لله ففرّقوها على عباده، وإن كانت لهم، فعلام تحبسونها عنهم؟!، وإن كانت لكم، فتصدّقوا بها عليهم، فإن الله يجزي المتصدقين، فقال هشام: ما ترك الغلام لنا في واحدةٍ من الثلاث عُذراً. فأمر للبوادي بمائة ألف دينار، وله بمائة ألف درهم، ثم قال له: ألك حاجة؟ قال: ما لي حاجةٌ في خاصة نفسي دون عامة المسلمين، فخرج من عنده وهو من أجلِّ القوم[١].

وما أجمل جوابَ حسن بن الفضل، بل لله دره كيف أسكت

---

(١) المستطرف في كل فن مستظرف، الأبشيهي.

الخليفة ببيانه! فقد دخل حسنُ بن الفضل على بعض الخلفاء وعنده كثير من أهل العلم، فأحب حسنٌ أن يتكلم، فزجره الخليفةُ، وقال: أصبيٌّ يتكلم في هذا المقام؟ فقال: يا أمير المؤمنين، إن كنت صبياً فلست بأصغرَ من هُدهد سليمان، ولا أنت أكبرُ من سليمان عليه السلام، إذ قال: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ﴾ [النمل: ٢٢]، ثم قال: ألا ترى أن الله فهّم الحكم لسليمان، ولو كان الأمر بالأكبر لكان داودُ أولى[(١)].

وما أشد ذكاء الفتح بن خاقان عندما أجاب عن أسئلة المعتصم، مع أنه لا يزال في ريعان الصبا، والقصة مشهورة عندما ركب المعتصم إلى خاقان يعوده، والفتح صبي يومئذ، فقال له المعتصم: «أيما أحسن: دار أمير المؤمنين أو دار أبيك؟» قال: «إذا كان أمير المؤمنين في دار أبي، فدار أبي أحسن»، فأراه فصاً [خاتما] في يده، فقال: «هل رأيت يا فتح أحسن من هذا الفص؟ قال: نعم، اليد التي هو فيها»[(٢)].

وهكذا رأينا أن البلاغة لا تقتصر على الكبار دون الصغار، ولا على جنس دون جنس، وصغارُ اليوم هم كبار قوم آخرين، وعلى كل الأحوال، ما رأينا إنساناً مبدعاً في رجولته إلا وكانت علاماتُ النجابة والفصاحة والبلاغة ترتسم عليه في طفولته.

وهذا غيضٌ من فيض عن بلاغة الأطفال وفصاحتهم، وتاريخنا

---

(١) دكانة الكتب، رحلة إلى جزر التراث، محمد خير رمضان يوسف، ط١، ١٤١٩هـ، دار ابن حزم، ص٢٤٧.

(٢) علو الهمة، محمد أحمد إسماعيل المقدم، المكتبة التوفيقية، ص٣٥٧.

حافلٌ بالكثير الكثير من أمثال هذه الصور والمواقف... وليس لي إلا أن أقول لأطفال اليوم:

فتشبّهوا إن لم تكونوا مثلَهُم      إن التشبهَ بالكرامِ فلاحُ

❁ ❁ ❁

# الصَّحَابَةُ رضي الله عنهم عَدَالَتُهُمْ وعلُوُّ مَكَانَتِهِمْ

نجومُ الهدى، وبدورُ التقى، نجومٌ لوامعٌ، وبدورٌ طوالعٌ، رهبانُ الليل، وفرسانُ النهار؛ كحّلوا عيونَهم بنور المصطفى ﷺ، وشرّقوا بالإسلام وغرّبوا حتى انتشر في كل البلاد والأصقاع، أنصارٌ نصروا الرسول ﷺ، ومهاجرون هاجروا في سبيل الله تاركين ديارَهم وأموالهم...

يعجز اللسانُ عن الإحاطة بقدرهم، ويقف القلم عاجزاً عن ذكر كامل مآثرهم وفضلهم ... وهم كما قال الشاعر:

عهدي بهم تَستنير الأرضُ إنْ نزلوا    فيها وتجتمع الدنيا إذا اجتمعوا
ويضحك الدهرُ منهم عن غطارفةٍ[1]    كأنّ أيامَهم من أنسها جُمَعُ[2]

حملوا رايةَ الإسلام بعد رسول الله ﷺ خفاقةً في أنحاء المعمورة، وأعزّ الله بهم الإسلامَ وأهلَه، فلهم فضل علينا إلى يوم الدين:

فَما العِزُّ للإِسْلَام إِلَّا بِظِلِّهِمْ    وَمَا الْمَجْدُ إِلَّا مَا بَنَوْه فَشَيَّدُوا

---

(١) الغطارفة: جمع غطريف، والغطريف: السيد السخي الكثير الخير.

(٢) مجموعة المعاني، عبد السلام هارون، ، ط١، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م، ١/ ٥٥٦.

بدايةً لقد عرف البخاري الصحابيَّ في صحيحه فقال: «وَمَنْ صَحِبَ النَّبِيَّ ﷺ أَوْ رَآهُ من الْمُسْلِمِينَ فَهْوَ من أَصْحَابِهِ.» فالصحابيُّ: هو من لقي النبي ﷺ مؤمناً به، ومات على الإسلام...

... وهذا التعميم في تعريف الصحابي، نظراً إلى أصل فضل الصحبة، ولشرف منزلة النبي ﷺ، ولأن لرؤية نور النبوة قوةَ سريان في قلب المؤمن، فتظهر آثارُها على جوارح الرائي في الطاعة والاستقامة مدى الحياة، ببركته ﷺ ويشهد لهذا قوله ﷺ: «**طوبى لمن رآني وآمن بي، وطوبى لمن رأى من رآني، ولمن رأى من رأى من رآني وآمن بي**»[(١)].

فالصحابي بهذا التعريف قد حصل على «شرف الصحبة وعِظم رؤية النبي ﷺ وذلك أن رؤية الصالحين لها أثرٌ عظيمٌ فكيف بروية سيد الصالحين؟ فإذا رآه مسلمٌ ـ ولو لحظة ـ انطبع قلبُه على الاستقامة لأنه بإسلامه متهيئ للقبول، فإذا قابل ذلك النورَ العظيم أشرق عليه وظهر أثرُه في قلبه، وعلى جوارحه»[(٢)].

وقد ذكر الله جلَّ وعلا الصحابة في كتابه العزيز في أكثرَ من موضع، مثنياً عليهم، ومبيناً فضلهم، فقال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ

(١) عدالة الصحابة رضي الله عنهم في ضوء القرآن الكريم والسُّنَّة النبوية ودفع الشبهات، عماد السيد محمد إسماعيل الشربيني، ص١٤.
(٢) كتاب الإبهاج في شرح المنهاج، تقي الدين السبكي، ١/ ١٢.

وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾﴾ [الفتح: ٢٩].

وقال جلَّ ذكره: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [الحشر: ١٠].

وغيرها من الآيات التي تذكرهم بخير وفضل.

كما أثنى النبيُّ ﷺ على الصحابة كلّ الثناء، وبيّن فضلهم، وأنْ لا أحدَ ـ مهما بلغ من التقوى والعبادة ـ يبلغ جزءاً يسيراً مما بلغوه، فالناس تعرف فضل الصحابة، والحديث التالي يبيّن ذلك، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ فَيَغْزُو فِئَامٌ من النَّاسِ، فَيَقُولُونَ: فِيكُمْ من صَاحَبَ رَسُولَ اللهِ ﷺ؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ. فَيُفْتَحُ لَهُمْ. ثُمَّ يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ فَيَغْزُو فِئَامٌ من النَّاسِ، فَيُقَالُ: هَلْ فِيكُمْ من صَاحَبَ أَصْحَابَ رَسُولِ اللهِ ﷺ؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ. فَيُفْتَحُ لَهُمْ، ثُمَّ يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ فَيَغْزُو فِئَامٌ من النَّاسِ، فَيُقَالُ: هَلْ فِيكُمْ من صَاحَبَ من صَاحَبَ أَصْحَابَ رَسُولِ اللهِ ﷺ؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ. فَيُفْتَحُ لَهُمْ**»(١)

وقوله ﷺ: «**النجومُ أَمنةٌ للسماءِ، فإذا ذهبتِ النجُوم، أَتى السماءَ ما تُوعدُ، وأَنا أَمَنةٌ لأَصْحَابي. فإذا ذهبتُ أَتى أَصْحَابِي**

(١) صحيح البخاري.

**ما يُوعدونَ، وأَصْحَابي أَمنةٌ لأُمَّتِي، فإِذا ذهب أصحابي أتى أُمِتي ما يُوعَدُون»**[1].

وقال ﷺ: «**إن الله اختار أصحابي على العالمين، سوى النبيين والمرسلين، واختار لي من أصحابي أربعةً أبا بكر، وعمرَ وعثمانَ، وعلياً** رضي الله عنهم **فجعلهم أصحابي وقال: في أصحابي كلِّهم خيرٌ، واختار أمتي على الأمم، واختار من أمتي أربعة قرون، القرنَ الأول والثاني والثالث، والرابع»**[2].

كما أن الإمامَ أحمدَ رضي الله عنه له كتابٌ كاملٌ في فضائل الصحابة، وذكر فيه كثيراً من الأحاديث التي تتحدث عن فضلهم، نسوق لك طائفة منها:

قال رسول الله ﷺ: «**الله الله في أصحابي، لا تتخذوهم غرَضاً بعدي، فمن أحبّهم فبحبّي أحبّهم، ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم، ومن آذاهم فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله** رضي الله عنه**، ومن آذى الله يُوشِك أنْ يأخذه»**.

قال النبي ﷺ: «**لا تسبّوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده، لو أنّ أحدكم أنفق مثلَ أحُدٍ ذهباً ما أدرك مُدَّ أحدهم، ولا نصيفَه»**.

قال رسول الله ﷺ: «**من سبَّ أصحابي فعليه لعنةُ الله،**

---

(١) أخرجه مسلم (بشرح النووي) كتاب فضائل الصحابة، باب بيان أن بقاء النبي ﷺ أمان لأصحابه، وبقاء أصحابه أمان للأمة.

(٢) أخرجه البزار فى مسنده قال الحافظ الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ١٦، رواه البزار ورجاله ثقات، وفي بعضهم خلاف.

**والملائكة، والناس أجمعين، لا يقبل الله منه صرْفاً ولا عدلاً»**.

قال رسول الله ﷺ: «**من حفظني في أصحابي كنتُ له يوم القيامة حافظاً، ومن سبَّ أصحابي فعليه لعنةُ الله**».

وابن عمر يقول: لا تسبوا أصحابَ محمدٍ، فلمقامُ أحدهم ساعةً، خيرٌ من عمل أحدكم عمرَه[1].

ولابن حزم كلمة جميلة في هذا المقام يقول فيها:

«ولو عمّر أحدُنا الدهر كلَّه في طاعات متصلة، ما وازى عمل امرئ صَحِبَ النبيَّ ﷺ ساعةً واحدةً فما فوقها»[2].

فالصحابة قد أثنى الله ﷻ عليهم، ورضي رسول الله ﷺ عنهم، وثبتتْ عدالة جميعهم بثناء الله ﷻ عليهم، وثناء رسوله عليه السلام، ولا أعدلَ ممن ارتضاه الله لصحبة نبيّه ﷺ، ونصرته، ولا تزكيةَ أفضلُ من ذلك ولا تعديلَ أكملُ منه[3].

و(للصحابة بأسرهم خصيصةٌ، وهي: أنه لا يُسأل عن عدالة أحد منهم، بل ذلك أمر مفروغٌ منه، لكونهم على الإطلاق معدَّلين بنصوص الكتاب والسُّنَّة، وإجماع من يعتد به في الإجماع من الأمة.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ الآية [آل عمران: ١١٠]. قيل: اتفق المفسرون على أنه وارد في أصحاب رسول الله ﷺ وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا

---

(١) فضائل الصحابة أحمد بن حنبل ١/ ٤٨ ـ ٦٠.

(٢) الفصل في الملل والأهواء والنحل، ابن حزم ٢/ ٣٣.

(٣) الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبد البر ١/ ١.

﴿شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣]. وهذا خطاب مع الموجودين حينئذٍ.

وقال ﷻ: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ الآية [الفتح: ٢٩].

وفي نصوص السُّنَّة الشاهدة بذلك كثرةٌ، منها: حديث أبي سعيد المتفق على صحته: أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تسبّوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده، لو أن أحدكم أنفق مثل أحُدٍ ذهباً ما أدرك مُدَّ أحدهم ولا نصيفَه**».

ثم إن الأمة مجمعةٌ على تعديل جميع الصحابة، ومن لابس الفتنَ منهم: فكذلك بإجماع العلماء الذين يُعتدّ بهم في الإجماع، إحساناً للظن بهم، ونظراً إلى ما تمهد لهم من المآثر، وكان الله ﷻ أتاح الإجماعَ على ذلك لكونهم نقلةَ الشريعة)[1].

«فلا يحتاجُ أحدٌ منهم ـ مع تعديل الله تعالى لهم المطلع على بواطنهم ـ إلى تعديل أحدٍ من الخلق لهم، فهم على هذه الصفة إلا أن يثبتَ على أحدهم ارتكابُ ما لا يحتمل إلا قصدَ المعصية، والخروجَ من باب التأويل، فيحكم بسقوط عدالته، وقد برأهم الله تعالى من ذلك، ورفع أقدارهم عنه، على أنه لو لم يردْ من الله ﷻ ورسوله فيهم شيءٌ مما ذكرناه لأوجبت الحالُ التي كانوا عليها، من الهجرة، والجهاد، والنصرة، وبذل المهج والأموال، وقتل الآباء والأولاد، والمناصحة في الدين، وقوة الإيمان واليقين، القطعَ على

(١) مقدمة ابن الصلاح، تحقيق: د. نور الدين عتر، ط٣، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م، دار الفكر، بيروت، ص٢٩٤.

عدالتهم، والاعتقاد لنزاهتهم، وأنهم أفضلُ من جميع المعدِّلين والمزكِّين الذين يجيؤون من بعدهم أبد الآبدين. هذا مذهب كافة العلماء ومن يعتد بقوله من الفقهاء»[١].

وهمْ أعلم شيء بالسُّنَّة، وأعلم شيء بالقرآن الكريم، «فقد بيّن النبيُّ لهم معانيَ القرآن، وشرح لهم مُجمله، وأزال مُشكله، وهم أعلم بتفسيره لما شاهدوه من القرائن والأحوال، التي أحاطت بنزول القرآن الكريم»[٢].

وأولُ من روى أحاديثَ رسول الله أصحابُ رسول الله ﷺ وهم لم يضبطوا ولا حفظوا في عصرهم، كما فعل من بعدهم من علماء التابعين وغيرهم إلى زماننا هذا؛ لأنهم كانوا مقبلين على نصرة الدين، وجهاد الكافرين إذ كان المهمَّ الأعظم؛ فإن الإسلام كان ضعيفاً وأهلُه قليلون، فكان أحدهم يشغله جهادُه ومجاهدة نفسه في عبادته عن النظر في معيشته، والتفرغ لِمُهِمّ، ولم يكن فيهم أيضاً من يعرف الخط إلا النفر اليسير، ولو حفظوا ذلك الزمان لكانوا أضعاف من ذكرَه العلماء، ولهذا اختلف العلماءُ في كثير منهم؛ فمنهم من جعله بعض العلماء من الصحابة، ومنهم من لم يجعله فيهم، ومعرفة أمورهم وأحوالهم وأنسابهم وسيرتهم مهم في الدين.

ولا خفاء على من كان له قلبٌ أو ألقى السمع وهو شهيدٌ، أن

---

(١) الكفاية في علم الرواية، الخطيب البغدادي ١/ ١١٨.

(٢) الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير، د. محمد أبو شهبة، ط٤، ١٤٠٨هـ، مكتبة السُّنَّة، القاهرة، ص٥٢.

من تبوأ الدار والإيمان من المهاجرين والأنصار السابقين إلى الإسلام والتابعين لهم بإحسان الذين شهدوا الرسول ﷺ وسمعوا كلامه وشاهدوا أحواله ونقلوا ذلك إلى من بعدهم من الرجال والنساء، من الأحرار والعبيد والإماء أولى بالضبط والحفظ، وهم الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون بتزكية الله ﷻ لهم، وثنائه عليهم، ولأن السُّنن التي عليها مدار تفصيل الأحكام ومعرفة الحلال والحرام إلى غير ذلك من أمور الدين، إنما ثبتت بعد معرفة رجال أسانيدها ورواتها، وأولهم والمقدر عليهم أصحاب رسول الله ﷺ؛ فإذا جهلهم الإنسان كان بغيرهم أشدَّ جهلاً، وأعظم إنكاراً، فينبغي أن يُعرفوا بأنسابهم وأحوالهم،هم وغيرهم من الرواة، حتى يصحَّ العمل بما رواه الثقات منهم، وتقومَ به الحجة؛ فإن المجهولَ لا تصح روايته، ولا ينبغي العمل بما رواه، والصحابة يشاركون سائرَ الرواة في جميع ذلك إلا في الجرح والتعديل؛ فإنهم كلَّهم عدولٌ لا يتطرق إليهم الجرحُ؛ لأنّ الله ﷿ ورسولَه زكياهم وعدّلاهم، وذلك مشهورٌ لا نحتاج لذكره[1].

والمسلمون مجمعون على أنّ أفضلهم الخلفاءُ الأربعةُ ﭫ ثم الستة الباقون إلى تمام العشرة ثم البدريون، ثم أصحابُ أحد، ثم أهلُ بيعة الرضوان بالحديبية. وعلى كل قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**خَيْرُ أُمَّتِي قَرْنِي ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ**». قَالَ عِمْرَانُ: فَلَا

(١) أسد الغابة، ابن الأثير ١/١.

أَدْرِي أَذَكَرَ بَعْدَ قَرْنِهِ قَرْنَيْنِ أَوْ ثَلَاثاً «**ثُمَّ إِنَّ بَعْدَكُمْ قَوْماً يَشْهَدُونَ ولا يُسْتَشْهَدُونَ، وَيَخُونُونَ ولا يُؤْتَمَنُونَ، وَيَنْذُرُونَ ولا يَفُونَ، وَيَظْهَرُ فِيهِمُ السِّمَنُ**»[١].

كما أن الصحابة رضي الله عنهم أحبّوا رسول الله ﷺ حباً جمّاً، ووقّروه توقيراً عظيماً، فكان أحبَّ إليهم من كل شيء، وما كانوا يصبرون على فراقه، فعندما سُئل سيدنا عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه كيف كان حبُّكم لرسول الله ﷺ؟ قال: كان والله أحبَّ إلينا من أموالنا وأولادنا وآبائنا وأمهاتنا، ومن الماء البارد على الظمأ.

وهذا عمرُو بنُ العاص رضي الله عنه قال: ما كان أحدٌ أحبَّ إليَّ من رسول الله ﷺ ولا أجلَّ في عيني منه، وما كنت أطيق أنْ أملأ عيني منه إجلالاً له، ولو سُئلت أنْ أصفه ما أطقت، لأني لم أكنْ أملأُ عيني منه.

وفي صلح الحديبية، عندما جَعَلَ عروة بن مسعود يَرْمُقُ صَحَابَةَ النَّبِيِّ ﷺ بِعَيْنَيْهِ، ماذا قال؟؟ لقدَ قَالَ: وَاللهِ ما تَنَخَّمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ نُخَامَةً إِلا وَقَعَتْ فِي يَدِ رَجُلٍ مِنْهُمْ، فَدَلَكَ بِهَا وَجْهَهُ وَجِلْدَهُ، وَإِذَا أَمَرَ ابْتَدَرُوا أَمرَهُ، وَإِذَا تَوَضَّأَ كَادُوا يَقْتَتِلُونَ عَلَى وَضُوئِهِ، وَإِذَا تَكَلَّمَوا خَفَضُوا أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَهُ، وَمَا يُحِدُّونَ النَّظَرَ إِلَيْهِ تَعْظِيماً لَهُ، فَرَجَعَ عُرْوَةُ إِلَى أَصْحَابِهِ، فَقَالَ: أَيْ قَوْمِ، وَاللهِ لَقَدْ وَفَدْتُ عَلَى الْمُلُوكِ، وَوَفَدْتُ عَلَى قَيْصَرَ، وَكِسْرَى، وَالنَّجَاشِيِّ، وَاللهِ إِنْ رَأَيْتُ مَلِكاً قَطُّ

---

(١) رواه البخاري.

يُعَظِّمُهُ أَصْحَابُهُ ما يُعَظِّمُ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ مُحَمَّداً، وَاللهِ إِنْ تَنَخَّمَ نُخَامَةً إلا وَقَعَتْ فِي كَفِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ فَدَلَكَ بِهَا وَجْهَهُ وَجِلْدَهُ، وَإِذَا أَمَرَهُمُ ابْتَدَرُوا أَمْرَهُ، وَإِذَا تَوَضَّأَ كَادُوا يَقْتَتِلُونَ عَلَى وَضُوئِهِ، وَإِذَا تَكَلَّمُوا خَفَضُوا أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَهُ، وَمَا يُحِدُّونَ النَّظَرَ إِلَيْهِ تَعْظِيماً لَهُ.

فاستحقوا لذلك ثناءَ الله عليهم، ونزولَ القرآن بحقهم، ففي قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحشر: ٨، ٩]، فالصادقون هم المهاجرون، والمفلحون هم الأنصار، بهذا فسَّر أبو بكر الصديقُ، هاتين الكلمتين، من الآيتين، حيث قال في خطبته يوم السقيفة مخاطباً الأنصارَ: «إن الله سمّانا (الصادقين) وسمّاكم (المفلحين)، وقد أمركم أنْ تكونوا حيثما كُنا»، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [التوبة: ١١٩][(١)].

لذلك، وبناءً على ما تقدم، نرى أنه لا ينتقص فضلَ الصحابة إلا مطموسُ البصيرة، أو جانب كبير من الضلال المبين، والشرود عن الصراط المستقيم، أو هو زنديق كما قال بعض الأئمة، فالإمام أبو زُرعة، يقول: «إذا رأيت الرجلَ ينتقص أحداً من أصحاب

(١) انظر: عدالة الصحابة ﷺ في ضوء القرآن الكريم والسُّنَّة النبوية ودفع الشبهات، عماد السيد محمد إسماعيل الشربيني، ص٢١.

رسول الله ﷺ فاعلم أنه زنديقٌ، وذلك أن الرسول ﷺ عندنا حقٌّ، والقرآنَ حقٌّ، وإنما أدى إلينا هذا القرآنَ والسُّننَ أصحابُ رسول الله ﷺ، وإنما يريدون أن يجرحوا شهودَنا ليُبطلوا الكتابَ والسُّنَّة، والجرحُ بهم أولى، وهم زنادقة»[١].

فعلينا أن نذكرهم دائماً بخير، وبالترضّي عليهم، وما أروع قولَ عَبْدِ اللهِ بنِ مَسْعُودٍ قَالَ: إِنَّ اللهَ نَظَرَ فِي قُلُوبِ الْعِبَادِ، فَوَجَدَ قَلْبَ مُحَمَّدٍ ﷺ خَيْرَ قُلُوبِ الْعِبَادِ فَاصْطَفَاهُ لِنَفْسِهِ، فَابْتَعَثَهُ بِرِسَالَتِهِ ثُمَّ نَظَرَ فِي قُلُوبِ الْعِبَادِ بَعْدَ قَلْبِ مُحَمَّدٍ فَوَجَدَ قُلُوبَ أَصْحَابِهِ خَيْرَ قُلُوبِ الْعِبَادِ، فَجَعَلَهُمْ وُزَرَاءَ نَبِيِّهِ يُقَاتِلُونَ عَلَى دِينِهِ فَما رَأَى الْمُسْلِمُونَ حَسَناً فَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ حَسَنٌ، وَمَا رَأَوْا سَيِّئاً فَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ سَيِّئٌ[٢].

وقولَه أيضاً: (من كان منكم مُتأسّياً فليتأسَّ بأصحابِ رسول الله ﷺ، فإنهم كانوا أبرّ هذه الأمة قلوباً، وأعمقها علماً، وأقلّها تكلّفاً، وأقومها هدياً، وأحسنَها حالاً، اختارهم اللهُ لصحبة نبيّه وإقامة دينه، فاعرفوا لهم فضلهم، واتبعوا آثارهم)[٣].

والإمام الشافعي ذكر الصحابةَ في رسالته القديمة، وأثنى عليهم بما هم أهلُهُ، ثم قال: «وهم فوقَنا في كل علم، واجتهاد، وورع، وعقلٍ، وأمرٍ استُدرك به علم، واستُنْبط به، وآراؤُهُم لنا أحمدُ،

---

(١) الكفاية في علم الرواية ١/ ١١٩.

(٢) مسند أحمد رقم (٣٦٦٧).

(٣) الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير، د. محمد أبو شهبة، ص٥٢.

وأَولى بنا من آرائنا عندنا لأنفسنا، والله أعلم»[1].

**وختاماً**: علينا أن نعلمَ، أنه إذا فاتنا شرفُ الصحبة، فيجب ألا تفوتنا أخوّةُ النبي ﷺ والصحابةِ، وأن نكونَ من الذين تمنى رسولُ الله ﷺ رؤيتهم، فعنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ خَرَجَ إِلَى الْمَقْبُرَةِ، فَقَالَ: «**السَّلامُ عَلَيْكُمْ دَارَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ، وَإِنَّا بِكُمْ، إِنْ شَاءَ اللهُ، لاحِقُونَ، وَدِدْتُ أَنِّي قَدْ رَأَيْتُ إِخْوَانَنَا**»، قَالُوا: يا رَسُولَ اللهِ، أَلَسْنَا إِخْوَانَكَ؟ قَالَ: «**بَلْ أَنْتُمْ أَصْحَابِي، وَإِخوانُنَا الَّذِينَ لَمْ يَأْتُوا بَعْدُ، وَأَنَا فَرَطُهُمْ عَلَى الْحَوْضِ**»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ كَيْفَ تَعْرِفُ من يَأْتِي بَعْدَكَ من أُمَّتِكَ؟ قَالَ: «**أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَ لِرَجُلٍ خَيْلٌ غُرٌّ مُحَجَّلَةٌ فِي خَيْلٍ دُهْم بُهْم، أَلا يَعْرِفُ خَيْلَهُ؟**» قَالُوا: بَلَى، قَالَ: «**فَإِنَّهُمْ يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ غُرّاً مُحَجَّلِينَ من الْوُضُوءِ وَأَنَا فَرَطُهُمْ عَلَى الْحَوْضِ، فَلَيُذَادَنَّ رِجَالٌ عَنْ حَوْضِي كَمَا يُذَادُ الْبَعِيرُ الضَّالُّ، أُنَادِيهِمْ: أَلا هَلُمَّ، أَلا هَلُمَّ**»، فَيُقَالُ: إِنَّهُمْ قَدْ بَدَّلُوا بَعْدَكَ، فَأَقُولُ: «**فَسُحْقاً، فَسُحْقاً، فَسُحْقاً**»[2].

فعلينا أن نتشبَّه بصحابة رسول الله الأبرار، وأن نمشي على نهجهم:

وتشبّهوا إنْ لم تكونوا مثلَهم … إنّ التشبّهَ بالكرام فلاحُ

---

(١) مقدمة ابن الصلاح، تحقيق د. نور الدين عتر، ط٣، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م، دار الفكر، بيروت، ص٢٩٧.

(٢) مسند أبي يعلى، أحمد بن علي بن المثنى أبو يعلى الموصلي التميمي، دار المأمون للتراث، دمشق، الطبعة١، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، تحقيق: حسين سليم أسد ١١/ ٣٨٧.

# خواطرُ بعدَ مُنْتَصَفِ اللّيْل

التفتَ وراءه بَعْد أن رأى يداً سوداءَ تُرَبِّتُ على كتفَيْه، وتقول له: «انْهَض»، فرأى أنَّ صاحب هذه اليدِ السوداء هو اللَّيلُ، الذي أخذ يرمُقُه ويَنْظر إليه بابتسامةٍ وديعة، أقرب ما تكون إلى الضَّحِك، ورأى أنَّ على جِيد اللَّيل عِقْداً مُتناثراً من اللُّؤلؤ والجُمَان تزيِّن به ذلك الجِيد..

ثُمَّ نهضَ من فراشه، وأبَى إلَّا أن يقضَّ مضجعي معه، ولعلَّكم إلى الآن تتَساءلون: من هذا؟... فيأتي الجواب: إنَّه القلم.

وبسرعةٍ خاطفة، وأنا لا أزال في حالةٍ من الذُّهول عن الواقع، أحسَستُ كأنَّ الليلَ قد امتشقَ القلم سيفاً، وأخذَتِ الأحرفُ تتَوالى إلى ذهني زرافات ووحداناً، ولَم أشعرْ إلَّا والكلماتُ تَنْساب من خاطري مُتَناثرةً على الأوراق كحبَّاتِ مطرٍ تنهمرُ فوق أرضٍ عَطْشى، ثم تَجْتمع في ثرى فِكْري، فتُنْبِتُ بساتينَ ذاتَ بهجة، وأزهاراً فاتنةً من الجمال البديع؛ كلماتٍ تلوَّنَت بألوانٍ شتَّى، ثُمَّ تحوَّلت إلى خواطرَ طُلِيَتْ بلونٍ فاحمٍ أسودَ؛ لأنَّها كُتبت عندما سجَّى اللَّيل، وأرخى سُدُولَه، وتجلبَبَ بالدَّياجير، وبِيَراعٍ انتزعته من سويداء قلبي، وبِمداد من دمي...

فكانت الخواطر كالتالي:

● تخيَّلْ معي أنَّ الوجودَ لا ليلَ فيه! ليتَ شِعري! فماذا يَفْعلُ العابدون المُناجون ربَّهم بالأسحار؟ وفي أيِّ وقتٍ سيُناجي العبدُ خالقَه بلسانٍ ذاكِر، وقلب خاشع ذليلٍ، بعيداً عن أعين الرُّقباء؟ وفي أيِّ وقت كان المتأمِّل المفكِّرُ في ملَكوت السَّموات والأرض سيَشْعر برهبة السُّكون، وظُلَم الدَّياجي الحالكة؟ وبأي غطاءٍ ـ لولا اللَّيلُ ـ سيتدثَّرُ العُشَّاق؟

ومن سيسامرُ الحزين المكلوم في السَّهر، ومع من سيتبادل المُؤَرَّقُ أحاديثَ الهمِّ والأسى؟ ومن ستُناجي الثَّكلى التي فقدَتْ وحيدها؟ ومن سيصغي إلى أحاديث الأيِّم التي غُيِّبَ زوجُها تحتَ أطباق الثَّرى، وها هي الآن تعيش مع أطيافِ ذِكْراه؟

وعلى كلِّ حالٍ، تمرُّ علينا أوقاتٌ غيرُ اعتياديَّة، لا فرقَ فيها بين ليلٍ أو نَهارٍ، ولا غيابٍ ولا إشراقٍ، ونُردِّد مع امرئ القيس:

ألا أيها الليلُ الطويل ألا انجلي بصبحٍ، وما الإصباحُ منكَ بأمثلِ

● قل لي يا أخي: هل هربَ الكرى من جفنَيْك يوماً، وبحثتَ عنه مليّاً فلم تَجِدْه؛ لأنَّه كان متخفِّياً في دياجير العَتمة؟! هل مرَّ عليك وقتٌ ولَم تشعر فيه بليلٍ ولا بنهار؟ وإذا حصل معك ذلك، فهل تذكَّرتَ قوله تعالى في سورة الإسراء: ﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ [الإسراء: ١٢].

هل تقفُ معي لِتَنظرَ إلى السِّباق الَّذي لا يَنْتهي إلى يوم

القيامة: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يٰس: ٤٠].

• كم من أمرٍ شغَلني، وكم من مصيبةٍ أهَمَّتْني، وكم من خَطْبٍ أرَّقَني، وكم من همٍّ أقضَّ مضجعي، وكم جفا النومُ جفوني، وكم من كربٍ أقلقني! فأتاني فرَجُ الله من حيثُ لَم أحتسب، وجعل الله بعد عُسر يسراً، وجال في خاطري قول الشَّاعر:

ضاقت فلما استحكمت حلقاتُها    فُرجت، وكنت أظنها لم تفرجِ

• يأبَى التاريخُ إلَّا أن يُسجِّل في أعلى صفحاته الذهبيَّة أسماءَ كثيرٍ من العُظَماء والمبدعين، ولكنَّ التاريخ لا يُنصِف في كثيرٍ من الأحيان؛ لأنَّ كثيراً ممن يستحقُّون أن يُذكَروا في صفحاته الذهبيَّة أصبحوا نسياً منسيّاً، وطوَاهم في غياهب المَجْهول، كما أنَّ التاريخَ ذكرَ في تلك الصفحات الذهبيَّة أسماء كثيرٍ مِمَّن شوَّهوا تلك الصفحاتِ ودنَّسوها؛ وذلك لما تحملُ أسماؤُهم من جحافل الخزي والعار، فكان حريّاً بالتَّاريخ أن يكنس أسماءَهم من صفحاته؛ حتَّى تُحافظَ على رونقها وصفائها، وتَبْقى غايةً في البهاء والجمال، لا تَشوبُها شائبةٌ، ولا تُدَنَّسُ بأسماء المفسدين فيها.

وكثيراً ما أقول بيني وبين نفسي: حتَّى لا نظلمَ التاريخَ، لماذا لا نقسمه في كتبنا إلى شطرَيْن: تاريخ العظماء، وتاريخ الأدعياء؟! فليست النَّائحةُ كالثَّكْلى، وما يَسْتوي الأعمى والبصير.

• عجباً لك أيُّها المتكبِّرُ! أنسيت ماضيَك؟ أنسيت أنك خُلقت

من تراب، ثم من نطفة، ثم أصبحت رجلاً؟ أم باعتقادك أنَّك لَم تكن وليداً تُحمل على الأكُفِّ؟! فتذكر أيضاً أنَّك عِندما تموت ستُحمَل على الأَكُف!

أنسيتَ ـ أيُّها المسكينُ ـ أنَّك أنت نفسَك الذي كنت تَحْبو مُلاصِقاً للأرض، ولا تستطيع أن تنهض، وكلَّما حاولتَ أن تنهض تعثَّرْتَ من جديد؟ أمَا مرَّ عليك أنَّ المتكبِّرين سيُحشَرون يوم القيامة أمثالَ الذرِّ يطَؤُهم الناس بأقدامهم؟ بالله عليك قل لي: لماذا تَمْشي وقد لَوَيتَ عنقَك، وشمختَ بأنفك؟ أم هل أصابك داء الصُّعارِ الذي يُصيب الإبل؟ إذا كان كذلك، فتذكَّرْ قولَه تعالى على لسان لقمان: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ [لقمان: ١٨].

● من أصعَبِ مواقف الحياة أن تَعْلم الحقَّ، ولكنَّك لا تستطيع أن تنطق به، وأن تَسْكت عن الباطل وأنت تتألَّم وتتحفَّزُ تَحَفُّزَ الليث، وأن تشاهدَ الحقيقة بأمِّ عينك، ولكنك تصبحُ أمام نفسك شاهدَ زور، وأن ترى أنَّ أنصار الباطل أكثر من أنصار الحقِّ، بل ربَّما لا تجد للحقِّ أنصاراً!

لكنْ، لا تتعجَّب ـ يا صاحبي ـ ولا تُحمِّل نفسك ما لا تطيق، فما هي إلَّا لحظاتٌ وتزولُ الحياة، وتعود الأمور إلى موازينها ونِصَابِها، ولا يظلمُ ربُّك أحداً.

وكرِّرْ معي قول إقبالٍ مُناجياً ربَّه:

لكَ في البرية حكمةٌ ومشيئةٌ　　أعيت مذاهبُها أولي الألباب
إن شئتَ أجريتَ الصحارى أنهُراً　　أو شئتَ فالأنهارُ موجُ سرابِ

ثُم اعلم ـ حتَّى تريحَ ضميرك وفؤادَك وتطمئنَّ ـ أن كلَّ شيءٍ مُقدَّر، فكَرِّر معي أيضاً قول الشاعر:

أرح فـؤادَك مـن هَـمِّ الـوجـوداتِ     وارجع إلى اللَّه عن ماض وعن آتِ

• لا أظنُّ أن إنساناً أغدق الله عليه العطايا والمِنَن، وأمطَرَه بوابل نِعَمه كما أغدقَ عليَّ، ولا أظنُّ أنَّ إنساناً قابلَ إحسانَ الله بالإساءة كما قابلتُه! فاللَّهُمَّ مغفرتك أوسَعُ من ذنوبي، ورحمتُك أرجى عندي من عمَلِي.

• عينٌ طالَما نظرَتْ إلى المُحرَّمات حريٌّ بها أن تجريَ دماً، ولسانٌ طالَما وقع في أعراض النَّاس حريٌّ به أن يظلَّ أبْكمَ، وأذن تتحسَّس، وتتبع سوءاتِ الناس حريٌّ بها أن تظلَّ صمَّاءَ، ولُبٌّ لا يردع صاحبه عن اتِّباع الهوى حريٌّ به أن يَهْوِي بصاحبه في مهاوي الضَّلال.

• لست أدري لماذا كلَّما قرأتُ سورةَ يوسفَ، وتدبَّرتُ فيها؛ فإنَّ هذه الآية تستوقِفُني كثيراً: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾﴾ [يوسف: ٣٩]؟ وكذلك قوله في سورة المدثر: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾﴾ [المدثر: ١١]، وكذلك قوله تعالى في سورة الزُّمَر: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٦].

وهناك آيةٌ في كتاب الله تَحْتاج منك إلى جوابٍ قبل فوات الأوان، فهَيِّئ نفسك للإجابة، وإذا لَم تُعِدَّ جواباً إلى الآن فبادِرْ إلى جواب فِعْليٍّ وقولي؛ لأنَّك إذا لم تُعِدَّ جواباً فسوف تكون

من الخاسرين، قال تعالى في سورة الحديد: ﴿أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ﴾ [الحديد: ١٦]؟ فقل: آنَ الأوان يا ربَّاه.

• أخي: تذكَّر دائماً أنَّ مع العسر يُسراً، وأنَّ الفرَج بعد الشِّدة، وأنَّ الله فعَّالٌ لِما يُريد، وأنَّ الأقدار تَجْري علينا؛ شِئْنا ذلك أم أبَينا، وأن التوكُّل على الله غيرُ التَّواكل، وأن الظنَّ غيرُ اليقين، وأنَّك لا تدري متَى سوف يُقال عنك: رَحِم الله فلاناً، أو يُقال: الحمد لله الذي أراحنا من فلان! فلَك ذِكْران؛ ذِكْر في الحياة، وذِكْر بعد الممات، وكُنْ كما قال أحمد شوقي:

فارفع لنفسك بعد موتكَ ذكرَها    فالذكرُ للإنسان عمرٌ ثان

❁ ❁ ❁

# قلُوبٌ شَاكيَةٌ، وعَبرَاتٌ سَاجِمَةٌ
# فلِمَنْ يَكتُبُ الأديبُ؟!

ـ أحياناً أُمسكُ يراعي، وأغمسه في عَبَرات جفوني، ونبضاتِ قلبي، لأكتبَ شيئاً ما، مما يجول في خاطري، وينثالُ في مخيلتي ولأسطِّرَ ما كتبتُ في سِفْر الأحزان. . .

فتخاطبني نفسي جهاراً، وأحياناً تهمس في سرّي قائلةً: ومن يقرأُ في هذه الأيام؟ ثم إذا كان الحزنُ يسيطرُ عليك فلا تُعكّر بدموع أوراقِك وقوافيك مزاجَ الآخرين!، ولا ترمِ عليهم وابلاً من المآسي والأحزان، فإن فيهم ما يكفيهم. . .

. . . فأهمُّ بأن ألقي بالقلم جانباً، وأمزق أوراقي، وأُلَملم شتاتَها المتناثرَ كروحي، وإذ بنفسي تحدثني أيضاً، فأصغي إليها وإذا بها تقول لي: ولِم لا تكتبُ؟ أوَما علمتَ أن هناك آلافاً من القلوب الشاكية، والعيون الباكية، والعبراتِ الساجمةِ، والنفوسِ المتألمة التي بحاجة إلى من يُضمّد لها جراحها، ويسكب عليها بلسمَ الكلماتِ، فيكفكفُ عن وجناتها دموعَها، ويَمسح بلمسةٍ حانيةٍ غبارَ الزمنِ المتراكم، والرزايا العصيبةَ التي رانت على النفوس؟!. .

أوَما علمتَ أن الخليَّ من الهموم والأحزان لا يحتاج إلى

كتاباتك بقدر ما يحتاج إليها ذو القلبِ المتألم، والجفن الباكي؟. . . ـ يا صاحبي ـ فلعلَّ الحزانى والثكالى وأولي الأسى يجدون فيما يقرؤون سُلواناً يُنسّيهم أحزانهم، وتجلُّداً يصبّرُهُم، أو على الأقل فإنهم يجدون في يراعك شريكاً يمشي معهم في دروب العذابِ، ويتجرع معهم كؤوساً مترعة من الحرمان والشقاء. .

اكتب، ففي زماننا كثيرٌ من الناس تُرَجِّع حناجرُهم صدى المتنبي وهو يقول:

رماني الدهرُ بالأرزاءِ حتّى      تكسرتِ النّصالُ على النّصال

ـ لولا الأسفارُ لما نظمتُ كثيراً من الأشعار، ولَمَا جالت في خاطري كثير من الأفكار، فشكري لكَ، وعظيم ثنائي أهديه إليك أيها السَّفرُ. . . رغم أنك قطعة من العذاب. . .

ـ في كثيرٍ من الأحيان أرنو بعين البصيرة والمنطق، جاعلاً من الخيال مطايا للمستقبل، فأرى تلك المطايا تحملُ جبالاً من الآلام، وتغوص في بحارٍ من الأسى، كما أنها تحملُ دموعاً تذرفُ، ودماءً تنزف، وآهات تئن وتنوح. . . فأرجع بفكري من المستقبل الْمُتَخَيَّل، ومن أحلام اليقظة إلى الواقع الملموس. . وأقول: سحقاً للخيال، وبُعداً لأحلام اليقظةِ، فهيهات هيهاتَ أن يعلم الغيبَ أحدٌ إلا اللهُ، ويلوح في أفق شعوري، وفي سماء فكري قولُ الشاعر:

إن الليالِيَ والأيامَ حاملةٌ      وليس يعلمُ غيرُ اللَّه ما تلدُ

نعم، عجيبةٌ هي الحياةُ في حملها للمتناقضات، وكم وقفتُ

ذاهلاً واجماً أمام القدَرِ، وما أتى به من الدروس والعِبَر، فكم من ذليلٍ بالأمس أصبح اليوم عزيزاً!، وكم من عزيزٍ بالأمس أضحى اليوم ذليلاً... كم من فقيرٍ أخذ يخوض بحر الغنى راكباً فُلكَ السعادة، وكم من غنيٍّ قلبَ له الزمنُ ظهر الْمِجَنّ..

فنهمس في باطن خواطرنا ونقول: لله في خلقه شؤونٌ، وكلُّ شيء مقدَّر لحكمةٍ ما، ومع مرور الزمن قد نعلمها، وقد تمضي الحياةُ ونحن في حَيْرة من أمرها!!...

ـ ألا ما أصعب الحياةَ، وما أشدَّ حيرتَنا فيها، وكم يطولُ بنا الذهول !، وكم نرتَشفُ من كأس اليأس !وكم نتجرع مرارة الإحباط! وكم تساورُنا الشكوكُ تلوَ الشكوكِ!، وكم ترتسم علاماتُ الاستفهام على وجوهنا، ويتملّكُنا التعجُّبُ والإطراقُ لكثيرٍ من القضايا التي تحلُّ بنا دون سابق إنذار!

ولكنْ، كل ذلك يزول، وتطمئن قلوبُنا، وتتربعُ السكينةُ على عرش أرواحنا، عندما نؤمن بالقضاء والقدر، ونعلم أنه لن يصيبنا إلا ما كتب اللهُ لنا...

ـ كثيراً ما أهرب من واقعي المؤلم المرير إلى ماضٍ عشتُه، لأتفيّأَ ظلالَ الذكريات برهةً من الزمن، ففي ذلك انتعاشٌ لقلبي، وسلوٌّ لأحزاني، وتلاشٍ لهمي، وتفريجٌ لبعض كروبي...

ـ تخيّل معي أن الناسَ إذا ماتوا لا يُبعثون، وأنهم إذا بُعثوا لم يُحاسبوا! إذن، لرأيت الظلم يطغى، والباطلَ يصول ويجول، ورنوت إلى الحياةِ فإذا قانونُ الغاب يسري فيها... ولكنْ، ليت

شعري! ألا تلاحظُ معي أن الناس تعلم أنها إذا ماتت ستُبعثُ، وإذا بُعثت ستُحاسب، ومع ذلك نرى أن الظلمَ يطغى، والباطلَ يصولُ ويجول، والحياةَ يسري فيها قانونُ الغاب.. فكيف إذا كان الناسُ لا يعلمون؟!

ـ عجباً للحقائق عندما تُقلب، وعجباً للعقول عندما تلتقِم الوهْم وتلفظ الحقيقة، وعجباً للصادي وهو يتبع السراب، وعن يمينه وشماله ينابيعُ من الماء العذب القراح...!

ـ القلبُ لم يُخلق من الصّوان الصلْد، والحجارةِ الصَّماء، فعلامَ نرى قلوباً أشدَّ قسوةً منهما؟ وأنّى للقلوب المتحجرةِ أن تشعر بذرةٍ من الرحمة والشفقة؟!

ـ مما لاحظت في حياتي أن القلب الليِّن قد يقسو حيناً من الأحيان، ولكنّ القلبَ القاسي لا يلينُ مدى الأزمان!

ـ إذا رأيتَ النسر يهوي بسرعةٍ خاطفةٍ من ذُرى الجبال وأعاليها إلى الأرض، ومن الشّمَم والعلوّ إلى الحضيض والانحطاط، فلا تظننَّ أنه بنزوله وانخفاضه يتواضع... إنما ينقضُّ على فريسته ليعود إلى علوه وسماء أَنَفَتِه من جديدٍ... فالنسور ـ بحسب ظني ـ لا تعرف التواضعَ!

❁ ❁ ❁

# إدارةُ الوقتِ من المنظورِ الإسلاميِّ والإداريِّ

تلخيص هذا الكتاب فائز بمسابقة الملخص الماهر.

بسم الله الرحمٰن الرحيم، الحمد لله ربِّ العالمين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد: كلنا نعلم أن من أعظم نِعَم الله ﷻ علينا نعمةَ الوقت، فالوقتُ هو أعظم ثروة في حياة الإنسان، وهو من أنفس الأمور التي يجب علينا المحافظةُ عليها، ورحم الله من قال:

والوقت أنفسُ ما عُنيت بحفظه وأراهُ أسهلَ ما عليك يضيعُ

وفعلاً كما قال النبيُّ ﷺ في الحديث الذي رواه البخاري: «**نعمتان مغبونٌ فيهما كثيرٌ من الناس الصحةُ والفراغُ**».

وعندما قالوا: «الوقت كالسيف إن لم تقطعْه قطعك»، ما قالوا ذلك إلا عن تجربة، ووعيٍ عميقٍ لقيمة هذه النعمة العظيمة، وما أقسم الله في كتابه بالليل والنهار والعصر والفجر والضحى إلا لتنبيهنا على أهمية الوقت في حياة المسلم...

كما أن الوقتَ هو النعمةُ العظمى التي ساوى الله بين عباده بها، فالوقتُ للجميع بدرجة واحدة، ولكن الناسَ يختلفون في استثماره وإدارته.

في هذه الدنيا، بعض الناس يبحثون عن الفراغ ولا يجدونه لكثرة أعمالهم، وبعض الناس يجدون الفراغَ بين يديهم، ولكنهم لا يعرفون إدارة أوقاتهم...

فكيف يستغل الإنسانُ وقته وينظمه، ويطبّق عليه التطبيقاتِ الإدارية؟.

وكيف يستطيعُ المسلم أن يمارسَ الإدارة الجيدةَ في جميع شؤون حياته الدينية والدنيوية؟.

وهل يمكن عزلُ الوقت عن حياة الإنسان الشخصيّة والعملية؟.

ما هو تعريف الوقت؟ وما أهميته في القرآن الكريم والسُّنّة المطهرة؟، وكيف يدير الإنسانُ وقته في ضوء القرآن الكريمِ والسُّنَّة النبوية، وأقوال السلف؟.

ما هي الواجباتُ الملقاةُ على عاتق المدير المسلم، وما مسؤولية المسلم عن الوقت؟.

ما هي الأدواتُ والوسائل المستخدمة في تنظيم إدارة الوقت؟ وما هي أبرز المناهج المستخدمة للإدارة الفعّالة للوقت من خلال تطوّرٍ تاريخي؟ وما هو المنهجُ الجديد في إدارة الوقت بفعالية؟.

ما هي الناحيةُ التطبيقية لإدارة الوقت في العالم العربي بعامة، وفي المملكة العربية السعودية بخاصّة؟.

هذه الأسئلة وغيرُها من الأسئلة المشابهة يجيبنا عليها فضيلةُ الدكتور خالدِ بن عبد الرحمٰن الجريسيِّ ـ حفظه الله تعالى ـ في كتابه القيِّم: (إدارةُ الوقت من المنظور الإسلاميّ والإداري).

هذا الكتابُ النفيسُ في مادته وموضوعه، والمنطقيُّ في صياغة وطريقة عرضه، ونحن بأشد الحاجة إليه في وقتنا المعاصر، فهو كتاب دينيٌّ تربوي إداري تطويريٌّ، بأسلوب ينسجم وثقافةَ المؤمن المعاصر... ويشحذ به الهمّة، ويساعده على استثمار حياته بما فيه الخير العميمُ، والفائدةُ والمنفعة للجميع، ويستطيع الفردُ أن يدير حياتَه إدارةً فعالة فاعلةً، خاصة أن إدارة الوقت في زماننا المعاصر تعتبر واحدةً من أهم موضوعات علم الإدارة الحديث...

وسنقوم بدراسةٍ موجزة عن هذا الكتاب، نستخلص منها شَهْده، ونصفّي فيها عسلَه، حتى يكون الكتابُ مادة موجزةً مختصرة بين يدي القارئ الكريم.. نسير فيها مع الكتاب خطوة بخطوة، من غير إخلال ولا إملال...

بدايةً، المؤلف الدكتور خالد بن عبد الرحمٰن الجريسي ـ حفظه الله تعالى ـ لم ينسَ والديه الكريمين، فهو بارٌّ بهما أشدَّ البر، وأهدى هذا الكتابَ إلى والديه، لافتاً نظرنا إلى ضرورة أنْ نعرف لكل إنسان فضلَه، وأن نقابلَ الإحسان بالإحسان...

يهدي الكتابَ لوالديه بلهجة الولد البارِّ المتواضع، ولجمال الإهداء رأيت ألا أغيرَ فيه أي كلمةٍ، وأن أنقلَه للقارئ الكريم كما كتبه فضيلة الدكتور:

«يشرفني أن أضع هذا الجهدَ المتواضعَ بين يدي والديّ الكريمين، وقد أهديا إليّ من قبلُ كل عناية، وأسديا إليّ كل تشجيع، وما عملي هذا إلا قطافٌ من فيض أيديهما، اللَّهُمَّ اجزهما

عني كلَّ خير، وارزقهما طول عمرٍ في حسن عمل ووافر نعمة وعافية».

بعد الإهداء وضع المؤلف مقدمةً للكتاب، ذكر فيها أن الكفاءة والفاعلية مطلبان رئيسان في الإدارة، وهما من تعاليم الدين الإسلاميِّ، فتعاليم الدين الإسلامي تحث المؤمن على أن يكون قوياً فعالاً وفاعلاً، وأن يتحلى بالصفات الحميدة، وأن يعطيَ كل ذي حق حقه...

ثم تحدث فيها عن منهجه في الكتاب، حيث قسّم الكتاب إلى ستة فصول، والفصولَ إلى أبحاث، متّبعاً منهج البحث العلمي الموثّق، وفق قاعدة: (إن كنت ناقلاً فالصحة أو مدّعياً فالدليل)، وقد أتى بالمحتويات بعد المقدمة مباشرةً، ليسير الإنسان مع الكتاب على بصيرة ونور، مطّلعاً على العناوين الرئيسية للفصول والأبحاث، قبل أن يخوض غمارها، ويستخرج دُررها...

وستكون لنا وقفةٌ مع كل فصل بأبحاثه، وأهم ما جاء فيه..

**الفصل الأول**: الوقت وأهميته في الإسلام والإدارة:

وهذا الفصل من (ص١٣) إلى صفحة (٤٢)، بدأه بتمهيدٍ تحدث فيه عن مبادئ ظهور علم الإدارة عند الغرب، وكيف تناسَوا أن تراثنا الإسلاميَّ غنيٌّ بهذه المبادئ والأسس المفيدة التي يمكن تأصيلُها في مجال علم الإدارة، ذاكراً حديث النَّبِي ﷺ الذي رواه الترمذي وغيره: «**لَا تَزُولُ قَدَمَا ابْنِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ من عِنْدِ رَبِّهِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ خَمْسٍ عَنْ عُمْرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ وَعَنْ شَبَابِهِ فِيمَا أَبْلَاهُ وَمَالِهِ**

**من أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ وَمَاذَا عَمِلَ فِيمَا عَلِمَ**». والحديث الآخر الذي رواه الحاكم: «**اغتنم خمساً قبل خمسٍ: شبابَك قبل هرمك، وصحتَك قبل سقمك، وغناءك قبل فقرك، وفراغَك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك**».

وذكر أن الوقت أمانةٌ عند المسلم، وعليه ألا يفرّط فيه كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾ [النساء: ٥٨].

والوقت من أهم عناصر الإنتاج، والله تعالى هو الذي يقدّر الليلَ والنهار...

بعد التمهيد قسّم هذا الفصلَ إلى ثلاثة مباحث:

**المبحث الأول:** الوقت وتحديد مفهومه:

فالوقتُ يعدُّ من أكثر المفاهيم صلابةً ومرونة في آن معاً، فكل فرد يستخدم عباراتٍ تختلف عن الآخر عندما تتحدد علاقته بالوقت، فالوقت كالسيّد واللغز، والعبدِ المملوك والحكم والقوة المحايدة... فاختلاف الرؤية للوقت هي التي تحدد أسلوب التعامل معه، فاستخدام الوقت هو الذي يبيّنُ الفرقَ بين الإنجاز والإخفاق...

ومن الصّعْب تعريف الوقت بتعريفٍ محددٍ ودقيق، إلا أن تعريفه في القاموس: (الفترة التي تُستغرق في أداء تصرُّفٍ أو عملية ما)...

ولتيسير الأمور قام المؤلف بوضع خصائصَ للوقت، وتقسيمه إلى عدة أقسام.

فمن خصائص الوقت: أنه يمرّ بسرعة محددة وثابتة، ويسير إلى الأمام بشكل متتابع، ولا يمكن إيقافُهُ، وهو مُلك للجميع، فالبعض يوظّفه بشكل جيد، والبعض يهدره ويضيعه، كما أن الوقتَ سريعُ الانقضاء، ولا يُباع ولا يُشرى بل يُستثمر، والوقت يتخلل كلّ جزء من أجزاء العملية الإدارية، والذي لا يستطيع إدارة ذاته لا يستطيع إدارة وقتِ الآخرين. . .

والحلُّ الوحيد لاستخدام الوقت يكمُن في الاستخدام الأفضل للوقت المتاح. . .

أنواعُ الوقت: قسّمه المؤلف إلى أربعة أنواع:

### ١ـ الوقتُ الإبداعي:

وذلك عندما يُصرف في عمليات التفكير والتحليل والتخطيط المستقبلي، وتنظيمِ العمل وتقويم مستوى الإنجاز الذي تم فيه، ومعالجة المشكلات الإدارية بأسلوب علمي منطقي.

### ٢ ـ الوقت التحضيري:

وهو الفترة الزمنية التحضيريةُ التي تسبق عملية البدء بالعمل.

### ٣ ـ الوقت الإنتاجيُّ:

وهو المدة الزمنية التي تُستغرق في تنفيذ العمل الذي تم التخطيط له في الوقت الإبداعي، وكذلك التحضير له في الوقت التحضيري، وكلما كان الوقت يخصص لتنفيذ أعمال روتينيةٍ، كلما كان الوقت المخصَّصُ للإبداع أو التحضيرِ قليلاً.

وقسم الوقتَ الإنتاجي إلى قسمين:

أ ـ وقتِ الإنتاج العادي (المنظم أو غير الطارئ).

ب ـ وقتِ الإنتاج غير العادي (المنظم أو غير الطارئ).

ولكي ينجحَ الإداري فإن عليه أن يخصص جزءاً من وقته للإنتاج العادي، لمواجهة تأثير الإنتاج غير العادي.

**٤ ـ الوقتُ العام أو غير المباشر:**

وهو الوقت الذي يمارس فيه الإداري أنشطةً فرعية عامة، لها تأثيرُها الواضحُ على مستقبل المنظمة، وعلى علاقتها داخل بيئتها أو المجتمع كتلبية الدعوات وحضور الندوات...

**المبحث الثاني**: أهميةُ الوقت في القرآن الكريم:

أكَّد القرآنُ الكريم على أهمية الوقت في سياقات متعددة، وألفاظُ الوقت في القرآن بعضُها له علاقة بالعمل وبعضها بالإدارة وبعضها بعلاقة الإنسان بربه، ويمكن تلمُّس ذلك من خلال عدة أمور:

**أولاً**: الوقتُ من أصول النعم: فنعمُ الله لا تُحصى والوقت عمرُ الحياة، والآيات التي ترشد إلى قيمة الزمن كثيرة منها قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾ [إبراهيم: ٣٣، ٣٤].

وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾ [الفرقان: ٦٢].

والله تعالى مالكُ الزمان والمكان.

**ثانياً**: الإقسام بالوقت: فقد أقسم الله بالعصر والليل والفجر والضحى... وإذا أقسم الله بشيء من خلقه فذلك ليلفت انتباههم إليه، وأنه ذو شأنٍ ومنفعة...

**ثالثاً**: ارتباط الوقت بالغاية من الخلق: فالله خلقنا للعبادة، وجعلنا خلائفَ في الأرض كما قال في كتابه العزيز، والعباداتُ لها مواقيت محددة وعلى رأسها الصلاة التي قال الله فيها: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا﴾ [النساء: ١٠٣] وكذلك الزكاة والحج والأذكار والنوافل قال تعالى: ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمۡسُونَ وَحِينَ تُصۡبِحُونَ ﴿١٧﴾﴾ [الروم: ١٧]. وغيرها من الآيات الكثير..

**رابعاً**: الوقت وتعاقب الأهلة: فالأهلة مواقيتُ للناس والحج، والإنسان يعلم بتعاقب الليل والنهار دخول السنين وانقضاءها كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيۡنِۖ فَمَحَوۡنَآ ءَايَةَ ٱلَّيۡلِ وَجَعَلۡنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبۡصِرَةٗ لِّتَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡ وَلِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ وَكُلَّ شَيۡءٖ فَصَّلۡنَٰهُ تَفۡصِيلٗا ﴿١٢﴾﴾ [الإسراء: ١٢].

**المبحث الثالث**: أهميةُ الوقت في السُّنَّة المطهرة:

نُقل عن النبي ﷺ الكثيرُ من الأقوال والأفعال التي تتحدث عن الوقت، وذلك وفق المحاور التالية:

**أولاً**: الوقت نعمةٌ عظيمة: فالنبيُّ ﷺ قال كما روى البخاري: «**نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ**». فالإنسان عليه أن يحسن استغلال وقته وصحته...

**ثانياً**: الوقت مسؤولية كبرى: فوقت المسلم أمانة وهو مسؤول عنه يوم القيامة كما في الحديث الذي رواه الترمذي وغيره: «لَا تَزُولُ قَدَمَا ابْنِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ من عِنْدِ رَبِّهِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ خَمْسٍ عَنْ عُمْرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ وَعَنْ شَبَابِهِ فِيمَا أَبْلَاهُ وَمَالِهِ من أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ وَمَاذَا عَمِلَ فِيمَا عَلِمَ؟».

**ثالثاً**: الوقتُ وعاءُ العبادة: فالعبادات كلُّها محددة بأوقات معينة لا يصح تأخيرُها عنها، فالصلاة لوقتها، ونصوم لرؤية الهلال ونفطر لرؤيته.

**رابعاً**: الوقتُ في أفعال النبي ﷺ: فالنبي عليه الصلاة والسلام أشدُّ الناس حفاظاً لوقته، ووقته جزءٌ لله وجزءٌ لأهله وجزء لنفسه، وكان يملأ وقته دائماً بالعبادة، فكان عبداً شكوراً.

**خامساً**: تقسيم الوقت وتنظيمه: فتنظيم الوقت وتقسيمه يساعد في الحفاظ عليه، وحث النبيُّ على ذلك كما في الحديث الذي يرويه عَبْدُ اللهِ بْنُ عَمْرٍو رضي الله عنهما، قَالَ لي النبي ﷺ: «**أَلَمْ أُخْبَرْ أَنَّك تَقُومُ اللَّيْلَ وَتَصُومُ النَّهَارَ**» قُلْتُ: إني أَفْعَلُ ذَلِكَ. قَالَ: «**فَإِنَّك إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ هَجَمَتْ عَيْنُكَ وَنَفِهَتْ نَفْسُك، وَإِنَّ لِنَفْسِكَ حَقٌّ، وَلأَهْلِكَ حَقٌّ، فَصُمْ وَأَفْطِرْ، وَقُمْ وَنَمْ**» رواه البخاري.

ومن تنظيم الوقت أن يخصص الإنسانُ جزءاً للراحة والترويح عن النفس، فإن النفس البشرية ملولٌ، وهمة الإنسان بين العلو وبين الفتور، فالمباح يشحذ الهمة للنشاط في العبادة من جديد.

**سادساً**: الحث على اغتنام الوقت، والتحذير من إضاعته:

واستشهد المؤلف على هذا الكلام بحديث النبي ﷺ الذي رواه الحاكم: «**اغتنم خمساً قبل خمس: شبابَك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناءك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتَك قبل موتك**» فهي فعلاً نصائحُ ثمينةٌ، كما حث النبيُّ ﷺ على المسارعة في فعل الخيرات قبل أن تعوق الإنسانَ بعضُ العوائق التي تمنعه منها، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ سَبْعاً هَلْ تَنْظُرُونَ إِلَّا فَقْراً مُنْسِياً أَوْ غِنًى مُطْغِياً أَوْ مَرَضاً مُفْسِداً أَوْ هَرَماً مُفَنِّداً أَوْ مَوْتاً مُجْهِزاً أَوِ الدَّجَّالَ، فَشَرُّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ أَوِ السَّاعَةَ فَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ**» رواه الترمذي.

كما كان عليه الصلاة والسلام يحث على التبكير في الأعمال، فالله بارك لأمته في بكورها، فالغدو بركةٌ ونجاح...

وختم المؤلف هذا الفصلَ بذكر الهوامش، وهذا شأنه في الكتاب كلِّه، يذكر الهوامشَ في نهاية الفصل، ولعله أراد من ذلك ألا يقطعَ سلسلة أفكار القارئ الكريم، الذي قد يتشتت بين الورقة والحاشية، لذلك جمعها له في نهاية كل فصل.

**الفصل الثاني**: الوقت في الفكر الإداري:

وهذا الفصلُ من (ص٤٣) إلى (ص٦٨)، وبدأه بقوله: «يختلف مفهوم الوقت لدى الأفراد، وذلك باختلاف دوافعهم واحتياجاتهم وطبيعة وظائفهم، وهو يختلف أيضاً من ثقافة لأخرى...».

ثم قسم هذا الفصلَ إلى ثلاثة مباحث:

**المبحث الأول**: الإدارة وإدارة الوقت:

ولقد قسم أيضاً هذا المبحثَ إلى محورين:

**الأول: الإدارة وتحديدُ مفهومها:**

فتعاريفُ الإدارة كثيرة ومتنوعة، والأسبابُ التي أدت إلى عدم اتفاق الباحثين على تحديد تعريفٍ للإدارة يتلخص في ثلاثة أسباب:

١ ـ الإدارةُ علم حديث نسبياً، مع أنها عُرفت ممارسة منذ قديم الزمان.

٢ ـ الإدارة تشمل مختلف مجالات الحياة، وهذا الشمول والتنوع إلى جانب حداثة علم الإدارة أدى إلى تأخّر الوصول إلى تعريفٍ شاملٍ لها.

٣ ـ الإدارةُ تُصنّف ضمن العلوم الإنسانية لا العلوم الطبيعية، وهي تدرس الشخصيةَ الإنسانية وسلوكياتِها التي تتصف بالحركة المستمرة وعدم الثبات، وهذا أدى بدوره إلى اختلاف تفسير الشخصية الإنسانية وسلوكها ودافعيتها من مفكرٍ لآخرَ...

ثم ذكر المؤلف مجموعة مستقاةً من تعريفات روّاد الفكر الإداري للإحاطة بمضمونها، وخلص إلى أن الإدارة بمفهومها الحديث يتعين النظرُ إليها باعتبارها وحدةً متكاملةً شاملة تضم عناصرُها مختلفَ المداخل الفكرية... فالإدارة هي عملٌ ووقتٌ يقترن أحدُهما بالآخر...

**الثاني: إدارة الوقت وتحديد مفهومها:**

وكذلك في مجال الإدارة الذي تعنى به هذه الدراسةُ، يُعد

الوقت من أكثر المصطلحات صعوبةً عند محاولة تحديده. . .

وينبغي أن نأخذ بعين الاعتبار وقتَ المديرين الأكفاءِ، فعنصرُ الوقت هو العنصر الوحيد الموزَّع بعدالة بين البشر، ولكنَّ السؤال: من يستثمر هذا العنصر؟ وكيف؟ فالوقت يعد من أكثر العناصر هدراً، وأقلها استثماراً. . . ثم ذكر المؤلف عدة تعريفاتٍ لإدارة الوقت، وخلص إلى أن مفهوم إدارة الوقت يعد من المفاهيم المتكاملة والشاملة لأي زمانٍ أو مكان أو إنسان. . . كما ارتبط مفهومُ الوقت بشكل كبيرٍ بالعمل الإداري بهدف تحقيق فعالية مرتفعةٍ في استثمار الوقت المتاح للوصول إلى الأهداف المرجوة. . .

**المبحث الثاني**: الوقت في النظريات الإدارية:

ظهرت في أوائل هذا القرن نظرياتٌ كثيرةٌ في الإدارة، وجذورُها ترجع إلى فريدريك تايلر مؤسسِ الإدارة العلمية، وقد أسهم تايلرُ إسهاماً كبيراً في زيادة فعالية إنتاج الأنشطة الإنتاجية بطريقة مثلى، كما سعى هنري جانت إلى تحديد الأجر اليومي بشكل ثابت، وتابع فرانك جلبرث وزوجتُه ليليان دراسةَ الحركة والزمن بشكل أكثرَ تفصيلاً، ونشر هارنجتون إيمرسون كثيراً من المبادئ منها:

المثلُ أو الأهداف، حسن الإدراك، الإرسالُ، التنميط، كما اهتم هنري فايول برفع مستوى الأداء للمنظمة بوجه شامل.

. . . ومن الملاحظ أن محاولاتِ تايلرَ وأتباعه لم تعبّر عن المفهوم الحديث لإدارة الوقت، فهدفُها الرئيسيُّ زيادة الإنتاج ومن ثم الأرباح. . .

ثم جاءت نظريةُ العلاقات الإنسانية بعد حركة الإدارة العلمية في النظرية الكلاسيكية، وألحت على بناء المنظمة من الوجهة الاجتماعية والإنسانية، وأعطت الأولوية لجماعات العمل غير الرسمية، وباختصارٍ فقد ألحت هذه النظرية على الدوافع الاجتماعية، واهتمت بالوقت بشكل ملحوظ، وأكد إلتون مايو رائدُ هذه المدرسة على أهمية الاعتناء بالعامل الإنساني، واختيار فترات الراحة المناسبة...

ثم جاءت بعدها النظريةُ الحديثةُ للتنظيم التي استفادت من النظريات السابقة وأضافت عليها، وهي نظريةُ اتخاذ القرارات التي استعانت بالوقت في حل مشكلات الإنتاج والتخطيط، كما اعتمدت النظريةُ البيولوجية على الوقت، وشبّهت المنظمةَ بالكائن الحي؛ أي: تُولد ثم تنمو ثم تتهاوى ثم تموت...

ونلاحظ مما سبق أن كلَّ هذه النظريات تهتم بالوقت اهتماماً بالغاً وتعتمد عليه، فكل عملٍ إداري يحتاج إلى وقت، وعلى المدير أن يعمل على استثماره بكفاءة عالية.

**المبحث الثالث**: إدارة الوقت داخل العملية الإدارية:

كل عمل إداري يحتاج إلى وقتٍ، وإذا لم نتمكن من استثمار الوقت كله فعلينا أن نستثمر أكبرَ قدرٍ منه بشكل فعلي فعال مثمر.

ناقش المؤلفُ ـ حفظه الله ـ هذه القضيةَ من خلال خمسة محاورَ كالتالي:

١ ـ **التخطيطُ والوقت**: فالوقت يرافق التخطيط في جميع

عملياته، وإعدادُ الخطة الإدارية يتطلب توزيع الوقت عليها بشكل يتناسب مع المراحل المحدودة، ومن مقومات الخطة الناجحة أن تكون محددةً بفترةٍ زمنية معينة، وهدفٍ معين، والتخطيطُ وإن كان يستغرق وقتاً طويلاً في بداية الأمر إلا أنه يُعوّض ذلك الوقت مضاعفاً فيما بعد. . .

وأول شيء يقوم به المدير الناجحُ توضيحُ الأهداف وترتيبها، ويكون هذا التحديد عادةً بشكل هرمي، حيث بيَّن في الشكل أن هرمية الأهداف تكون كالنحو التالي:

| |
|---|
| **الأهداف الإستراتيجية** |
| **الأهداف السنوية** |
| **الأهداف الشهرية** |
| **الأهداف الأسبوعية** |
| **الأهداف اليومية** |

فالجدول الزمني يساعد كثيراً في قياس مدى الكفاءة والفعالية في تحقيق الأهداف. . .

٢ ـ **التنظيم والوقت:** فالتنظيم يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالإدارة الجيدة للوقت، فهو يقلّص الزمن المطلوب للإنتاج، ويرتبط موضوعُ الوقت بالتنظيم الإداري من عدة نواحي، منها:

تحديدُ مهمات العاملين واختصاصاتهم، تقسيمُ العمل بينهم بشكل موضوعي وعادل، تجديد وتبسيط إجراءات العمل المتبعة،

بالإضافة إلى توافر البيئة التنظيمة المادية والاجتماعية، وتطبيق مبدأ الإدارة بالاستثناء والاتجاه نحو تفويض السلطة، فالإدارتان العليا والوسطى تتوصلان إلى قراراتٍ تقوم المستوياتُ الإدارية المباشرة بتنفيذها، وتأخذ منهما المعلوماتِ الخاصةَ بالتنفيذ.

٣ ـ **التوجيه والوقت**: فالتوجيه هو الذي يستغرق جزءاً كبيراً من الوقت الإداري بشكل عام، فالموجه يقوم بإرشاد العاملين إلى كيفية تأدية وتنفيذ العمل، بجانب الاتصالات بمختلف أشكالها الشفهية والكتابية والتقنية، وإطالة زمن التوجيهات تجعل العاملين في ملل، ولن تتحقق الفائدةُ من الوقت في أثناء التوجيه إلا بتوفر قواعدَ ثابتة وسليمة للبيئة المادية الاجتماعية الموجودة في المنظمة، ويمكن للإداريِّ الاعتمادُ بشكل كبيرٍ على الاتصالات الشفهية بهدف تقليل الوقت اللازم لكتابة الخطابات وطبعها...

وكل ما ذُكر من شأنه أن يزيد من فاعلية الاتصال، واستغلال الوقت بشكل فعال.

٤ ـ **الرقابة والوقت**: فالرقابة تلازم عملية التخطيط وتعتمدُ عليها، وتظهر أهميةُ الوقت في الرقابة لدى الكشف عن أخطاء، أو منع حدوثها في الوقت المناسب، وكلما كانت الرقابةُ نابعةً من الذات كلما كانت محافظةً على الزمن، ومعتمدة على الثقة والحرص في تحقيق الأهداف.

٥ ـ **اتخاذ القرارات والوقت**: كل عملية اتخاذ قرارات تحتاج إلى وقتٍ محدد، ونوعية المشكلات وظروفها لها تأثيرُها على الوقت

المحدد في اتخاذ القرار، وقد اهتمت الإدارةُ الحديثة بالأسلوب العلمي في اتخاذ القرارات المتمثل في تشخيص المشكلة وتحديدها، ووضع المقترحات المناسبة لحلها وتقويمها وتنفيذ المناسب منها، واهتمام الإداري بكل الوسائل والطرق المتاحة في اتخاذ القرارات له أثرٌ كبير في زيادة فاعلية اتخاذ تلك القرارات، وتوفير الجهد والوقت والتكاليف.

**الفصل الثالث**: إدارة الوقت من منظور إسلامي:

وهو من (ص٦٩) إلى (ص١٠٢)، وقد قسم المؤلفُ هذا الفصلَ إلى مبحثين:

**المبحث الأول**: إدارة الوقت في القرآن الكريم:

فالقرآن الكريم تطرَّق في كثير من آياته لوظائف الإدارة وأشار إليها، ويمكن تناول ذلك من خلال عدة محاور:

**أولاً: التخطيط**:

ففي سورة يوسفَ عرض القرآنُ الكريم لأنموذج بشري في التخطيط، حيث رسم يوسفُ عليه السلام خطة السنوات المقبلة، وهذا من باب الأخذ بالأسباب كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ

إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [يوسف: ٤٣ ـ ٤٩].

يتضح من الآيات أن يوسفَ عليه السلام قام بموازنةٍ، وهذه الموازنة تعتمد على عدة أركان تتضح فيما يأتي:

١ ـ الموازنة بين الإنتاج الزراعي والاستهلاك.

٢ ـ تمَّ إعداد خطتين سبعيتين للدولة.

٣ ـ هذه الموازنة كانت طويلة الأجل أربعة عشر عاماً.

٤ ـ استخدام الموازنة باعتبارها أداةً رقابيةً لضمان تنفيذ الخطة بدقة.

ثم خلص المؤلف بعد استعراض تعريفين للتخطيط من المنظور الإسلامي إلى أن التخطيط: «إعمالُ الفكر في رسم أهدافٍ مشروعة، مع تحديد الوسائل المتاحة وفق الموارد المباحة شرعاً، وبذل الطاقات في استثمارها، لتحقيق الأهداف في أقل وقت ممكن، مع تعليق النتائج بقضاء الله وقدره». فيكونُ هذا التعريف شاملاً لجميع مراحل العملية التخطيطية.

وأهم عناصر التخطيط الإسلامي من خلال استعراض بعض الآيات القرآنية تتمثل فيما يلي:

**١ ـ تحقيق الأهداف:** فهو من أبرز سمات التخطيط التي دعا إليها القرآن الكريم كما قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ

﴿أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الملك: ٢٢]. فالمؤمن يمشي إلى هدف وغاية.

٢ ـ **تحديد الأولويات:** أي: ترتيب الأهداف الأهم فالأهم، فحين أمر الله نبيّه ﷺ بالدعوة في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾﴾ [المدثر: ١، ٢]، فإنه حدَّد له أولوية دعوة الأقربين من عشيرته بقوله: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشعراء: ٢١٤]، وأمر الله المسلم أن يبدأ بنفسه ثم بأهله فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [التحريم: ٦].

٣ ـ **استثمار جميع الموارد المتاحة:** كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾ [إبراهيم: ٣٢ ـ ٣٤].

فهذه الموارد التي ذكرت يتبوأ الوقتُ المنزلة الأهمَّ بينها، حيث سخره الله لنفع الإنسان.

٤ ـ **بذل الأسباب والوسائل المشروعة:** فتحقيق الأهداف لا يكون إلا ببذل الأسباب، وفي ذلك يقول تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠]. وعلى المسلم أن يتحرّى في مشروعية الوسائل التي يستخدمها، فالغاية في الإسلام لا تبرر الوسيلةَ.

**٥ ـ تعليقُ النتائج بمشيئة الله تعالى**: فالتوكل على الله يكون بعد الأخذ بالأسباب، والنتائج تكون متعلقةً بمشيئة الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ [الكهف: ٢٣، ٢٤]. وهذا الخطاب للنبي ﷺ وأمته.

## ثانياً: التنظيم:

فهو أهم مقومات نجاحِ العمل الإداري، وخصائص التنظيم في القرآن الكريم تتمثل في عدة محاور:

**١ ـ التنظيمُ الهرميُّ للوظائف**: فكل وظيفة فيها رئيسٌ ومرؤوسٌ، ويرجع ذلك إلى تفاوت الاختصاصات والخبرات والقدرات، ويشير القرآن الكريم إلى هذا التفاوت بقوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّاۗ﴾ [الزخرف: ٣٢].

وقال المعري:

النـاسُ للناس من بدوٍ وحاضرةٍ بعضٌ لبعضٍ وإنْ لم يشعروا خدمُ

ومن لوازم التسلسل الوظيفي طاعةُ المرؤوس للرئيس، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾﴾ [النساء: ٥٩].

**٢ ـ تقسيمُ العمل وتحديد الاختصاصات**: فقد قال الله تعالى على لسان يوسفَ عليه السلام: ﴿قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾﴾ [يوسف: ٥٥]، فالعلم والحفظ هما الصفتان اللتان أبرزهما

يوسف في عرض مؤهلاته لطلب الترشيح للوظيفة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [التوبة: ١٢٢]، فهذا يعدُّ نصّاً في تقسيم الأعمال والمهمات.

**٣ ـ التفويض**: وهو توكيل بعض المهمات على المرؤوسين ومنحهم الصلاحياتِ اللازمةَ لتنفيذها، وهو خطوة مهمةٌ نحو تحقيق الأهداف وإدارة الوقت، فهذا سيدنا موسى يطلب من الله أن يشدَّ عضده بأخيه هارون، قال تعالى على لسان موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ [طه: ٢٩ ـ ٣٤]، وكذلك عندما فوض ملكُ مصرَ سيدَنا يوسفَ بحفظ خزائن الدولة، فالمهمات والصلاحيات تشريفٌ وتكليف في نظر الإسلام الحنيف.

**٤ ـ مراعاة حال العامل المكلَّف**: حتى ينجح العمل يجب إسناده إلى شخصٍ تتوفر فيه الصفات المناسبة للقيام بهذا العمل، فابنةُ شعيبَ تطلب من أبيها أن يستأجر سيدَنا موسى لأنه قويٌّ أمينٌ، كما قال تعالى: ﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾﴾ [القصص: ٢٦]. وكذلك لا يُكلف الإنسانُ إلا بما يستطيع القيامَ به فالله تعالى لا يكلف نفساً إلا وُسعها.

**ثالثاً: التوجيه:**

والتوجيه هو الوظيفة التنفيذية للخطة الموضوعة للعمل، وضمن

التنظيم المعتمد، وأهميةُ التوجيه تظهر عند النتائج الإيجابية للعمل، وخير ما يتمثله المديرُ هو توجيه الله تعالى لسيدنا محمدٍ ﷺ في القرآن الكريم عندما قال: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾ [آل عمران: ١٩٥]، فمن توجيهات هذه الآية:

١ ـ اللين الذي ظهر في تعامل النبي ﷺ مع الصحابة.

٢ ـ عدمُ الفظاظة والغلظة.

٣ ـ العفوُ عن أصحابه.

٤ ـ الدعاءُ والاستغفار لهم.

٥ ـ مشاورتُهم في الأمور الدنيوية كافة.

٦ ـ التوكلُ على الله بعد العزم.

وكذلك قوله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ [النحل: ١٢٥]، ففيه توجيهٌ صريحٌ بالدعوة إلى سبيل الله بالحكمة، والمجادلة بالتي هي أحسن، كما يؤكد الإسلام على عامل التحفيز من خلال الترغيب والترهيب، قال تعالى حكايةً عن ذي القرنين: ﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الكهف: ٨٧، ٨٨].

**رابعاً: الرقابةُ:**

والرقابة هي المرحلة المكملة لحسن الإدارة، وهي في الإسلام تنبع من استشعار المسلم لرقابة الله تعالى، فهو رقيب علينا، ويعلم كلَّ صغير وكبير، قال تعالى: ﴿عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِۖ لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَآ أَصۡغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾ [سبأ: ٣].

والرقابة في الإسلام تنبع من حرص المسلم على الأمانة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ﴾ [النساء: ٥٨].

فالإسلام يسعى إلى تنمية الرقابة الذاتية للمسلم، ووضع كثيراً من القواعد المراقبية والمحاسبية، كما قررت بعض نصوص القرآن الكريم الرقابةَ الجماعية كقوله تعالى: ﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٠٤﴾ [آل عمران: ١٠٤].

كما حذَّر المولى من ترك النهي عن المنكر فقال: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ٧٩﴾ [المائدة: ٧٨، ٧٩].

**خامساً: اتخاذ القرارات:**

فهو عامل مهم في إنجاح العملية الإدارية، لذلك عاتب الله نبيه داودَ عليه السلام عندما حكم بين رجلين، وسمع من أحدهما ولم يسمع

من الآخر، قال تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُواْ ٱلْمِحْرَابَ (٢١) إِذْ دَخَلُواْ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُواْ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ (٢٢) إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ (٢٣) قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ (٢٤)﴾ [ص: ٢١ ـ ٢٤].

وكذلك عندما افتقد سيدنا سليمانُ الهدهدَ وتوعده بالعقوبة، فإنه لم ينفذها حتى يسمع عذره، فقد يكون العذر وجيهاً، وكذلك وجّه الله تعالى نبيه ﷺ لمشاورة أصحابه فقال: ﴿**وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ**﴾ [آل عمران: ١٥٩].

**المبحث الثاني**: إدارة الوقت في السُّنَّة المطهرة:

لقد تجلت وظائفُ الإدارة في سُنَّة النبي ﷺ القولية والفعلية، وسنذكر أهمّ وظائف الإدارة وتحليلها في ضوء نصوص من السُّنَّة المطهرة، وفي إطار إدارة الوقت:

**أولاً**: **التخطيط**: في العهد المكي كان هناك نوعان للتخطيط، بعيد المدى وقصير المدى، أما في العهد المدني فقد تجلَّت معالم التخطيط وعناصرُهُ التي سنلتمس بعضها في السُّنَّة النبوية ذاتِ العلاقة بإدارة الوقت، ومن أهمها:

**١ ـ تحديدُ الأهداف وترتيب الأولويات**: وهذا يتضح جلياً في وصية النبي ﷺ لمعاذ بن جبل، فقد قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ له حِينَ بَعَثَهُ

إِلَى الْيَمَنِ: «**إِنَّكَ سَتَأْتِي قَوْماً أَهْلَ كِتَابٍ، فَإِذَا جِئْتَهُمْ فَادْعُهُمْ إِلَى أَنْ يَشْهَدُوا أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللهِ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ من أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ، وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ، فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللهِ حِجَابٌ**» رواه البخاري.

فقد رتَّب النبي ﷺ الأهداف ترتيباً منطقياً حسب أهميتها وأولويتها.

**٢ ـ التفكرُ والاعتبار**: «**فالمؤمن**» كما قال النبي ﷺ: «**لا يُلدغ من جحر مرتين**»، ويأخذ دائماً بمبدأ الحذر والحيطة.

**٣ ـ بذلُ الأسباب والوسائل المشروعة**: وهو ما حثّنا عليه النبي ﷺ في قوله: «**الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ من الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ احْرِصْ عَلَى ما يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِنْ بِاللهِ ولا تَعْجِزْ وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا. وَلَكِنْ قُلْ قَدَرُ اللهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ**» رواه مسلم.

فالمسلم يحرص على كل ما ينفعه في دينه ودنياه، ولا يعجز أو يتكاسل، ففي ذلك إهدارٌ للوقت.

**٤ ـ تعليقُ النتائج بمشيئة الله تعالى**: فالمؤمن يأخذ بالأسباب ويتوكل على الله، وقد قال النبي ﷺ للرجل «**اعقلها وتوكل**»، ونهى ﷺ عن التحسر على ما فات، وعلى المسلم التسليم لقضاء الله

وذلك في قوله ﷺ: **«وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ لَوْ أَنِّى فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا. وَلَكِنْ قُلْ قَدَرُ اللهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ»** رواه مسلم، فالمؤمنُ يعلم أن كل شيء بقضاء وقدرٍ، وهو يؤمن بالقضاء والقدر خيرِه وشره من الله تعالى.

**ثانياً: التنظيمُ**: ومن أهم سماته:

**١ ـ التنظيمُ الهرمي للوظائف**: فقد كان ﷺ يطبق التنظيم والتسلسل الهرمي في العمل الوظيفي، وكانت الوظائف التي يُكلف بها الصحابة تأخذ شكل الهيكل الإداري.

**٢ ـ التفويضُ**: فالإنسان لا يستطيع أن يقوم بالأعمال كافة مهما أوتي من قوة، ومن هنا كان لا بد من التفويض، وهذا منهج النبي ﷺ فهو يقول: **«بلِّغوا عني ولو آية»** رواه البخاري، وقد مارس التفويضَ ممارسة عملية في حياته الدعوية، وكثيرون هم الصحابة الذين أرسلهم إلى شتى ممالك الأرض معلمين ومبلّغين.

**٣ ـ تقسيمُ العمل وتحديد الاختصاصات**: وذلك بإسناد الأعمال لأهل الخبرة والدراية بها، فإسناد الأمر إلى غير صاحبه من علامات الساعة، وأثبت النبي ﷺ الخيانة لمن حابى في تولية من ليس أهلاً للولاية، فقال رسول الله ﷺ: **«من استعمل رجلاً من عصابة وفي تلك العصابة من هو أرضى لله منه، فقد خان الله وخان رسوله، وخان المؤمنين»** رواه الحاكم، وأما قوله عليه الصلاة والسلام: **«أَرْحَمُ أُمَّتِي بِأُمَّتِي أَبُو بَكْرٍ وَأَشَدُّهُمْ فِي أَمْرِ اللهِ عُمَرُ وَأَصْدَقُهُمْ حَيَاءً عُثْمَانُ وَأَعْلَمُهُمْ بِالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ**

**وَأَفْرَضُهُمْ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ وَأَقْرَؤُهُمْ أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَمِينٌ وَأَمِينُ هَذِهِ الأُمَّةِ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ**» رواه الترمذي، ففي هذا الحديث إشارةٌ واضحة إلى عظيم علمه ﷺ بأهمية التخصص في الأعمال، وإسنادُ العمل إلى المختص به هو من الأسباب المهمة في إنجاح هذا العمل وإتقانه. ونبينا ﷺ يقول: «**إن الله تبارك وتعالى يحب إذا عمل أحدُكم عملاً أن يتقنه**» رواه البيهقي.

**٤ ـ مراعاةُ حال العامل المكلف**: فالإسلام أوصى المسلم بالرفق بمن تحت يده من الناس، فالرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا يُنزع من شيء إلا شانه، وكان النبي عليه الصلاة والسلام يقول: «**إِخْوَانُكُمْ خَوَلُكُمْ، جَعَلَهُمُ اللهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ، فَمَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدِهِ فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ، وَلْيُلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ، ولا تُكَلِّفُوهُمْ ما يَغْلِبُهُمْ، فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ فَأَعِينُوهُمْ**» رواه البخاري.

فهو يؤكد على عدم تكليف الناس من الأعمال بما لا يطيقون.

**ثالثاً: التوجيه**: فالإرشاد والتوجيه من أفضل الأعمال في دين الله تعالى، فالدين النصيحة كما قال عليه الصلاة والسلام: «**الدِّينُ النَّصِيحَة**»، قُلْنَا: لِمَنْ؟ قَالَ: «**للهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ**» رواه مسلم، والنبي ﷺ يحث الصحابة قائلاً: «**مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَراً فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ**» رواه مسلم.

وحتى يكون التوجيه فعّالاً فإنه يتعين أن يكون على فتراتٍ وبلا إطالة حتى لا تدخل السآمةُ على النفوس، ولموضوع الحوافز حيّزٌ

كبيرٌ في توجيهاته ﷺ، فهو الذي يقول: «**أعطوا الأجير أجره قبل أن يجف عرقه**» رواه البيهقي.

**رابعاً: الرقابةُ:** وهي نوعان: ذاتيةٌ وإدارية.

**فالرقابة الذاتية:** ظهرت في كثير من الأحاديث، منها قوله عليه الصلاة والسلام: «**الْكَيِّسُ من دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ وَالْعَاجِزُ من أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللهِ**» رواه الترمذي، ومن القواعد الكلية في ذلك قوله: «**كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، الإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ وَهْوَ مَسْؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا وَمَسْؤولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا، وَالْخَادِمُ رَاعٍ فِي مَالِ سَيِّدِهِ وَمَسْؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ـ قَالَ وَحَسِبْتُ أَنْ قَدْ قَالَ ـ وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي مَالِ أَبِيهِ وَمَسْؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ وَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ**» رواه البخاري.

**وأما الرقابة الإدارية:** فظهرت جليةً عندما حاسب النبي ﷺ ابنَ اللتبية، الذي قال: «هذا لكم وهذا أهدي إلي» عندما أرسله النبي ﷺ لجباية أموال الزكاة فقال عليه الصلاة والسلام: «**فَهَلَّا جَلَسَ فِى بَيْتِ أَبِيهِ أَوْ بَيْتِ أُمِّهِ، فَيَنْظُرَ يُهْدَى لَهُ أَمْ لا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لا يَأْخُذُ أَحَدٌ مِنْهُ شَيْئاً إِلَّا جَاءَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَحْمِلُهُ عَلَى رَقَبَتِهِ، إِنْ كَانَ بَعِيراً لَهُ رُغَاءٌ أَوْ بَقَرَةً لَهَا خُوَارٌ أَوْ شَاةً تَيْعَرُ ـ ثُمَّ رَفَعَ بِيَدِهِ، حَتَّى رَأَيْنَا عُفْرَةَ إِبْطَيْهِ ـ اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ ثَلَاثاً**» رواه البخاري.

كما أكد على ضرورة التنبيه على أخطاء المسؤولين لذلك عزل

العلاء بن الحضرمي (عامله على البحرين) حينما اشتكاه وفدُ عبد قيس. . .

**خامساً: اتخاذ القرارات:** فالتردد في إصدار القرار يؤدي إلى إضاعة الجهد والوقت، فالإنسان يتأنَّى في التفكير، ثم يصدر قراره وينفذه متكلاً على الله، والتأنّي محمودٌ لقول النبي ﷺ لأشجّ عبد القيس: «**إن فيك خصلتين يحبهما الله ورسوله: الحلم والأناة**» رواه مسلم، فالإداري الناجح يتأنى، ويستفيد من كل الإمكانات المتاحة، ولا ينفرد برأيه دون الآخرين.

**الفصل الرابع:** واجبات المدير المسلم تجاه الوقت:

وهو من (ص١٠٣) إلى (ص١٤١) وأفرده للحديث عن واجب المدير المسلم، فواجب المدير المسلم تجاه الوقت ينحصر في مبحثين أساسيين:

**المبحث الأول:** مضيعات الوقت:

**أولاً: أهم مضيعات الوقت أو مبددات الوقت:** إن أهم مضيعات الوقت أو مبددات الوقت تقتضي الالتفات إلى ما يلي:

١ ـ كل توظيف غيرِ ملائم لوقت الفرد هو مضيّع للوقت، وعلى الإنسان أن يهتم بالأهم فالأهم.

٢ ـ جميع مضيعات الوقت يمكن ترشيدها، بل استبدال أنشطة منتجة بها، ومضيعات الوقت على كثرتها تنقسم إلى قسمين: خارجية وداخلية.

فالخارجية: مصدرها الناسُ مثلُ الأسرة، العملاء، أو الأشياء كالقراءة وكتابة الرسائل...

والداخلية: مصدرها داخليٌّ، وتتضمن عادة التسويف، وضعف التخطيط، وغيرها...

وقد عرّف ماكنزي مضيعات الوقت بأنها:

«كل شيء يمنع المدير من إنجاز الأهداف بأكثر السبل المتاحة فعالية» ثم أجملها في خمس وثلاثين مضيّعة للوقت، ووزعها على الأنشطة الإدارية الرئيسة: التخطيط، التنظيم، التوظيف، التنفيذ، الرقابة، الاتصالات، اتخاذ القرارات.

بينما يرى هاريسون أن مضيعات الوقت تنحصر في خمسة وعشرين عاملاً منها: سوءُ الإشراف، عدم تفويض السلطة، المكالمات الهاتفية...

وقد قام دراكر بتجربة على مجموعات من المديرين، وعرض عليهم فيلماً بعنوان: (إدارة الوقت) وكانوا قد ذكروا عدة أسباب لضياع وقت العمل قبل مشاهدة الفيلم، منها: النقص في المعلومات، مشكلاتُ الموظفين، الاقتصار على التفويض...

أما بعد مشاهدة الفيلم فكان من الأسباب: القيامُ بأعمال متعددة في وقت واحد، التسويف، الإصغاء غير الجيد وغيرها...

وقد أجرى محمد شاكر عصفور دراسةً على مستوى الأجهزة الحكومية في المملكة العربية السعودية، وكان من أهم مضيعات

الوقت: التأخرُ صباحاً عن العمل، المكالمات الهاتفية الخاصة، تناول الشاي والقهوة. . .

وانتهى محمد غيث في دراسة قام بها في المملكة، وأتى بقائمة اشتملت على عدة عناصر منها:

الموظفون غيرُ المؤهلين، الزوار بدون مواعيد، الإجراءات الروتينية المعقدة وغيرها. . .

**ثانياً: تحليل مضيعات الوقت وطرق التغلب عليها:** تحتاج هذه العملية إلى التزام من جانب المدير بمواجهة هذه المضيعات، وإلى تخطيط ومعرفة حقيقية بذاته، وبطبيعة وظيفته. . .

وإن تحليل مضيعات الوقت يستلزم تحديد أهم تلك المضيعات، ومن ثم معرفة أسبابها، والحلول اللازمة للقضاء عليها، وإن المنهجَ المقترحَ للقضاء على مضيعات الوقت يكون فيما يلي:

١ ـ تحديدُ الهدف.

٢ ـ ترتيبُ الأولويات.

٣ ـ ترتيبُ المكتب وتنظيفه.

٤ ـ التحكمُ في المقاطعات والمجهودات.

٥ ـ تطبيقُ أسس ومهارات الاتصال الفعال.

وكثيرةٌ هي الأنشطة التي قد تصبح من مضيعات الوقت عند المدير، إلا أن بعض الباحثين يلحّ على بعض الأنشطة دون بعضها، وهو ينطلق من عدة اعتبارات أهمها:

١ ـ يشكل الوقت الذي يستغرقه الإداري في هذه الأنشطة جزءاً كبيراً.
٢ ـ سوءُ استغلال الوقت المخصص لكل من هذه الأنشطة.
٣ ـ هذه الأنشطة يمارسها عددٌ كبير من الإداريين على اختلاف مستواهم الإداري.
٤ ـ شمول هذه الأنشطة واحتواؤُها على أنشطة فرعية.
٥ ـ البعد الاقتصادي لسوء استغلال الوقت.

وبإمكان المدير أن يسيطر على كثير من مضيعات الوقت من خلال:

١ ـ تجزئة الوقت إلى عدة أجزاء:

وقتٌ يمكن ضبطه، ويتحكم فيه المدير.

وقتٌ لا يمكن ضبطه كالأحداث الطارئة.

٢ ـ التركيز: الذي يتمثل في التعريف والتحديد الواضح للعمل، وتحديد الأولويات من خلال ثلاث خطوات:

أ ـ ترتيب ورود الموضوع.
ب ـ الاستعجال.
ج ـ مدى إسهام الموضوع في تحقيق أهداف المنظمة.

**المبحث الثاني**: مسؤولية المسلم عن الوقت:

رأينا سابقاً أهمية الوقت في القرآن والسُّنَّة، وكيف كان السلفُ حريصين كل الحرص على الوقت، فالوقتُ هو الحياة، ووقت الإنسان هو عمرُه في الحقيقة، فما مضى لا يعود، والإنسان عليه أن

يكون وقتُه لله وبالله كما قال ابنُ القيم، والوقتُ هو وعاءُ العمل. . .

وواجبات المسلم نحو الوقت تتمثل فيما يلي:

**أولاً: الحرص على الاستفادة من الوقت:** فقد كان سلفنا الصالح حريصين على وقتهم، يقول الحسن البصري: «أدركت أقواماً كان أحدُهم أشحَّ على عمره منه على دراهمه ودنانيره».

وقال أحد الحكماء: «من أمضى يوماً من عمره في غير حق قضاه، أو فرضٍ أداه، أو مجدٍ أثّله، أو حمدٍ حصّله، أو خير أسّسه، أو علم اقتبسه، فقد ظلم يومه، وظلم نفسه».

**ثانياً: اغتنام أوقات الفراغ:** فقد جاء عن النبي ﷺ قوله: «**نعمتان مغبونٌ فيهما كثير من الناس الصحةُ والفراغ**» رواه البخاري.

كما حثّنا على اغتنام الوقت بالحديث الذي رواه الترمذي وغيره، عن النبي ﷺ قال: «**لَا تَزُولُ قَدَمَا ابْنِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ من عِنْدِ رَبِّهِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ خَمْسٍ عَنْ عُمْرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ وَعَنْ شَبَابِهِ فِيمَا أَبْلَاهُ وَمَالِهِ من أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ وَمَاذَا عَمِلَ فِيمَا عَلِمَ**».

وأما الحديث الآخر الذي رواه الحاكم: «**اغتنم خمساً قبل خمس: شبابَك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناءك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك**». فهو إشارةٌ واضحة للإنسان المسلم إلى ضرورة الحرص على استثمار الأوقات حال القدرة والاستطاعة، ولقد كان سلفنا الصالح حريصين على إشغال أوقاتهم بالنافع المفيد، ويكرهون الرجل الفارغ المتهلل، كما أن الفراغ لا يبقى فراغاً بل يمتلئ بالخير أو بالشر.

**ثالثاً: المسارعة في الخيرات:** فالمسلم يكتسب وقته بفعل الخير، ويسارع إلى مغفرةٍ من ربه ورضوانٍ، فالدنيا دارُ عمل، وصدق أبو العتاهية عندما قال:

إذا أنتَ لم تزرعْ وأبصرت حاصداً ندمتَ على التفريط في زمن البَذر

وليحذرِ المؤمن من المثبطات، فقد كان النبي ﷺ يتعوذ بالله من العجز والكسل.

**رابعاً: الاعتبار بمرور الأيام:** فمع فجرِ كل يوم جديدٍ عِبرٌ كثيرة لأولي النهى، والتفكر في الليل والنهار وتعاقبهما هو الذي يؤدي إلى مَلئها بالعمل الصالح، وقد قال النبي ﷺ: «**ليس من يوم يأتي على ابن آدم إلا ينادى فيه، يا ابنَ آدم أنا خلقٌ جديدٌ وأنا فيما تعمل عليك غداً شهيدٌ، فاعمل فيَّ خيراً أشهدْ لك غداً، فإني لو قد مضيت لم ترني أبداً، قال: ويقول الليل مثل ذلك**». حلية الأولياء.

وبيت الشاعر أحمدَ شوقي مشهور في ذلك:

دقاتُ قلب المرء قائلةٌ لهُ إن الحياةَ دقائقٌ وثوانِ

وصدق أبو العتاهية أيضاً عندما قال:

نظلُّ نفرح بالأيام نقطعُها وكلُّ يومٍ مضى يُدني من الأجلِ

**خامساً: تحري الأوقات الفاضلة:** فالله تعالى الذي قدّر الوقت، قد فضّل بعضه على بعض، فشهرُ رمضان ليس كباقي الشهور، وليلة القدر ليست كباقي الليالي وهكذا... والتبكير إلى الأعمال فيه نجاح وفلاحٌ؛ لأن النبي ﷺ قال: «**اللَّهُمَّ بارك لأمتي في بكورها**» رواه أبو داود.

**سادساً: تخطيط الوقت وتنظيمه**: فهذا يساعد على استثمار الوقت بشكل سليم، فسيدنا أبو بكر يقول: «إن لله حقاً بالنهار لا يقبله بالليل، ولله حقٌّ في الليل لا يقبله في النهار»، فالمهمّ هو العمل المناسب في الوقت المناسب.

**سابعاً: الالتزام بالموعد**: فالمسلم يرعى عهده وأمانته، وقد حذّر النبي ﷺ من التفريط بالوعد، واعتبر ذلك من علامات النفاق، فقال: «**آيةُ المنافق ثلاثٌ: إذا حدث كذبَ، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان**» رواه البخاري.

**ثامناً: وجوبُ الحذر من مضيعات الوقت**: حذَّر الإسلام من التفريط في الوقت، ووضع ضوابطَ تحفظ وقت المسلم كالاستئذان فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدٗا فَلَا تَدۡخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤۡذَنَ لَكُمۡۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرۡجِعُواْ فَٱرۡجِعُواْۖ هُوَ أَزۡكَىٰ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ﴿٢٨﴾﴾ [النور: ٢٧، ٢٨].

ومن أهم مضيعات الوقت التسويفُ وطول الأمل، ويحذّر القرآن الكريم المفرطين في أوقاتهم، وينذرهم بالحسرة والندامة، قال تعالى حكايةً عنهم: ﴿...يَوۡمَئِذٖ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكۡرَىٰ ﴿٢٣﴾﴾ [الفجر: ٢٣، ٢٤]، فالآخرة حسابٌ ولا عمل، والدنيا عمل ولا حساب.

**تاسعاً: كيف يعيش المسلمُ وقته؟**

المسلم ينظّم وقته، فينام مبكراً، ويستيقظ مبكراً، فالبركة في البكور، وبعضُ المسلمين اليوم يقوم بعكس ذلك، يطيلُ السهر

ولا يصلي الفجر، وقد قال رَسُولَ اللهِ ﷺ: «**يَعْقِدُ الشَّيْطَانُ عَلَى قَافِيَةِ رَأْسِ أَحَدِكُمْ إِذَا هُوَ نَامَ ثَلَاثَ عُقَدٍ، يَضْرِبُ كُلَّ عُقْدَةٍ عَلَيْكَ لَيْلٌ طَوِيلٌ فَارْقُدْ، فَإِنِ اسْتَيْقَظَ فَذَكَرَ اللهَ انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فَإِنْ تَوَضَّأَ انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فَإِنْ صَلَّى انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ فَأَصْبَحَ نَشِيطاً طَيِّبَ النَّفْسِ، وَإِلَّا أَصْبَحَ خَبِيثَ النَّفْسِ كَسْلَانَ**» رواه البخاري.

المسلمُ عليه أن يفتتح يومه بذكر الله، فأذكار الصباح كثيرةٌ منها قوله عليه الصلاة والسلام: «**إِذَا أَصْبَحَ أَحَدُكُمْ فَلْيَقُلْ أَصْبَحْنَا وَأَصْبَحَ الْمُلْكُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ خَيْرَ هَذَا الْيَوْمِ فَتْحَهُ وَنَصْرَهُ وَنُورَهُ وَبَرَكَتَهُ وَهُدَاهُ وَأَعُوذُ بِكَ من شَرِّ ما فِيهِ وَشَرِّ ما بَعْدَهُ ثُمَّ إِذَا أَمْسَى فَلْيَقُلْ مِثْلَ ذَلِكَ**» رواه أبو داود، وغيرها من الأذكار، ثم يقرأ القرآن، ويتقوّى على طاعة الله، ويذهب إلى عمله ناوياً العفّة، ويساعد الناس على قضاء حوائجهم ففي ذلك خيرٌ كثير، وهو من أيسر الصدقات، فالنبي ﷺ قَالَ: «**عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ صَدَقَةٌ**». فَقَالُوا: يَا نَبِي اللهِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ قَالَ: «**يَعْمَلُ بِيَدِهِ فَيَنْفَعُ نَفْسَهُ وَيَتَصَدَّقُ**». قَالُوا: فَإِنْ لَمْ يَجِدْ قَالَ: «**يُعِينُ ذَا الْحَاجَةِ الْمَلْهُوفَ**». قَالُوا: فَإِنْ لَمْ يَجِدْ. قَالَ: «**فَلْيَعْمَلْ بِالْمَعْرُوفِ، وَلْيُمْسِكْ عَنِ الشَّرِّ فَإِنَّهَا لَهُ صَدَقَةٌ**» رواه البخاري،

وكثيرةٌ هي الصدقات التي يستطيع المسلم القيام بها في اليوم، منها ما بيّنه النبي ﷺ بقوله: «**كُلُّ سُلَامَى من النَّاسِ عَلَيْهِ صَدَقَةٌ كُلَّ يَوْمٍ تَطْلُعُ فِيهِ الشَّمْسُ، يَعْدِلُ بَيْنَ الِاثْنَيْنِ صَدَقَةٌ، وَيُعِينُ الرَّجُلَ عَلَى دَابَّتِهِ، فَيَحْمِلُ عَلَيْهَا، أَوْ يَرْفَعُ عَلَيْهَا مَتَاعَهُ صَدَقَةٌ، وَالْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ**

**صَدَقَةٌ، وَكُلُّ خَطْوَةٍ يَخْطُوهَا إِلَى الصَّلَاةِ صَدَقَةٌ، وَيُمِيطُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ**» رواه البخاري.

ثم يتابع المسلم يومه ويصلي الظهر والعصر في أول وقتها، وكذلك المغرب والعشاء، ولا مانع أن يخصص نفسه ببعض اللهو المباح، والترويحِ عن النفس، فعليه أن يعطيَ كل ذي حق حقه، فإذا ما أراد النوم أتى بأذكار النوم، ونام على ذكر الله ليستيقظ على ذكر الله طيبَ النفس.

**الفصل الخامس**: الإدارة الفعّالةُ للوقت:

وهو من (ص١٤٣) إلى (ص١٦٨)، وقد تحدّث فيه المؤلف عن إدارة الوقت الفعّالة، فالعمل الإداري يهدف إلى تحقيق الأهداف المرسومة، وأي مشكلة لا تكمن في عدم توافر الوقت، فالوقت موزَّع على البشر بالتساوي، لكن المشكلة تكمن في مدى فعالية المدير من حيث إدارته للوقت، وحسن الاستفادة منه، وقد تمَّ تقسيم هذا الفصل إلى ثلاثة مباحث:

**المبحث الأول**: الأدوات والوسائل المستخدمة لتنظيم وقت العمل وإدارته:

وهذه الأدوات والوسائل تُقسم إلى مجموعتين على النحو التالي:

**أولاً: مجموعةُ الأدوات والوسائل الإلكترونية**: ومنها: الحاسباتُ الآلية، آلات تصوير المستندات، الماسح الضوئي، الهاتف الجوال...

ويمكن بيان جدوى كل وسيلة فيما يلي:

**الحاسبات الآلية**: وهذه الحاسبات تقوم بمهماتٍ متعددةٍ، فهي تزود المدير بالنتائج بسرعة وبدقة أكبر ووقت وكلفة أقل، وقد أصبحت الحاسباتُ الآلية في متناول الجميع، والمدير يختار بين كمبيوتر المكتب والكمبيوتر المتنقل، والكمبيوتر فيه الكثيرُ من الأمور التي تساعد على استثمار الوقت بشكل أفضل.

آلات تصوير المستندات، وأجهزة الناسوخ (الفاكس) والماسح الضوئي: وهي تعد بحق من أهم وسائل توفير وقت العمل بالمكاتب، فالماسحات الضوئية وسيلةٌ فعالة في مسح الصور والمستندات وأرشفتها...

والفاكس آلة تجمع بين خصائص الهاتف، وآلة التصوير، ومودم الحاسب الآلي، فهذه الوسيلة تساعد في إدارة الوقت بشكل أكثرَ كفاءةً...

أجهزة الهاتف ذاتُ المسجل الصوتي، والهاتف الجوال: ولها عدة مزايا منها: تسجيل المكالمات، وهي وسيلة مهمة في حالة عدم وجود المدير في المكتب، وتسمح بتوفير المزيد من الوقت لبقية الأعمال المكتبية المهمة...

**الإنترنت، والبريد الإلكتروني**: من أهم تقنيات العصر التي تفيد في الحصول على المعلومات من أي مكان وفي أي وقتٍ...، كما أن البريد الإلكتروني يساعد على إرسال واستقبال الرسائل باللغتين العربية والإنكليزية معاً، والإنترنت باختصار: العالم بين يديك.

**المفكرة الإلكترونية:** وهي تحقق بعض المزايا منها:

١ ـ إمكانُ تنظيم المواعيد في أوقات محددة.

٢ ـ إصدارُ إضاءة أو أصوات محددة للتذكير بالمواعيد.

٣ ـ تسجيلُ مذكرات مختصرة على الذاكرة الخاصة بها.

٤ ـ استخدامُها بوصفها جهاز هاتف متنقل.

كما يمكن وصلُها بالكمبيوتر.

**ثانياً: مجموعة الأدوات والوسائل غير الإلكترونية (الشخصية أو الذاتية):** وهذه الوسائل نبيِّن مهماتِها على النحو التالي:

أ ـ الاعتمادُ على السكرتير: ومن أهم واجبات السكرتير ما يلي:

١ ـ فحصُ المكالمات والزوار.

٢ ـ وضعُ نظام محكم لتنظيم الملفات.

٣ ـ تنظيمُ المواعيد والاجتماعات.

٤ ـ إعدادُ مسودة المذكرات والخطابات.

٥ ـ تفويضُ الأعمال اليسيرة إليه.

٦ ـ مساعدةُ المدير على تنظيم مهماته، وتذكيره بمواعيده.

٧ ـ صيانةُ الملفات ومتابعتها وتجديدها.

٨ ـ أخذُ زمام المبادرة بكل ما يهم المكتب.

ب ـ إعدادُ قائمةٍ يومية أو أسبوعية بالأعمال: وهذه القائمة يجب أن تستوفي على ثلاثة شروط:

١ ـ تسجيلُ الأعمال اليومية المطلوب إنجازها.

٢ ـ وضعُ تقديرات واقعيةٍ لزمن كل عمل.

٣ ـ أن يؤخذَ في الحسبان الاجتماعاتُ والمواعيد المقررة من قبل في مفكرة المواعيد.

ج ـ المفكرة اليدوية والذاكرة الشخصية للمدير: فيسجل فيها الملاحظاتِ والمهماتِ والأنشطةَ، والمواعيدَ التي سيقوم بها المدير حاضراً أو مستقبلاً، وهي صغيرة الحجم، وفيها دليل للهاتف، وهي تنظم المهمات المطلوب إنجازُها وإدارتها...

**المبحث الثاني**: مناهج الإدارة الفعالة للوقت:

كيف يستطيع المديرون استخدامَ الوقت بفعالية؟

العبرة ليست في إنفاق الوقت بل في حسن استثماره، فالوقت شيءٌ لا بد من أن نختبره ونعيشه، وهناك فرقٌ بين مصطلحي الكفاءة والفاعلية في استخدام الوقت، فالفاعلية: تحقيقُ الهدف، أما الكفاءة: فهي أن يتمَّ تحقيق الهدف بأقل جهد وأقل وقت، وأقل تكلفة، وإن الاستثمار الأمثل للوقت سيؤدي إلى:

١ ـ تحقيقِ المنظمة لأهدافها.

٢ ـ التزامٍ أكثرَ بالقضايا الإدارية المهمة، طويلةِ الأمد.

٣ ـ تطويرٍ أفضلَ لقدرات المديرين.

٤ ـ قلقٍ وضغطٍ وتوترٍ أقلَّ.

فإدارة الوقت: هي عمل الأشياء الصحيحة بطريقة صحيحة،

وعند دراسة أدبيات إدارة الوقت تتضح ثمانيةُ مناهجَ مختلفة تقوم على افتراضات ومبادئ، وتتمثل هذه المناهج فيما يأتي:

١ ـ منهج (نظم نفسك): وذلك في ثلاثة مجالات:

أ ـ تنظيم الأشياء؛ أي: ضبط كل شيء في المكاتب.

ب ـ تنظيم المهمات؛ أي إعطاءُ الأوامر وتحديد خطوات التنفيذ.

ج ـ تنظيم الأفراد؛ أي: تحديدُ ما يمكن أن يقوم به الإداريُّ ومن يعمل معه، ثم تفويض الأمور إليهم.

٢ ـ منهج المحارب (البقاء والاستقلالية): ومن الأساليب التي يقترحها هذا المنهج:

أ ـ العزلُ؛ أي: إيجاد نظام الحماية من خلال (سكرتارية) وأبواب مغلقة. . .

ب ـ الانعزالُ: وهو الانتقال إلى بيئة بعيدة تضمن العزلة. . .

ج ـ التفويضُ: وهو نقلٌ مؤقتٌ للسلطة من مستوى أعلى إلى مستوى أدنى، ويستمد هذا المنهج قوته من اعتباره الوقتَ مسؤوليةً شخصية، ثم هذا المنهج يولد حقيقة اعتمادية متبادلة بين جميع الأطراف، وأثرها إيجابيٌّ على جودة الحياة.

٣ ـ منهج الهدف (الإنجاز): وهو يعتمد على أساليب التخطيط ووضع الأهداف، فالمنظمات التي تضع أهدافاً تحقق نتائج أفضلَ، وكثيرٌ من الناس من يعتمد على هذا المنهج لصعود سلم النجاح، وبالإجمال فإن هذا المنهجَ يتمثل في دفع ثمنٍ غالٍ للوصول إلى الأهداف المرجوة.

٤ ـ منهج التسلسل (الأولويات وتحديد القيم): ويعني الإلحاحَ على أهم المهمات، فيحدد الإنسان القيمة، ويرتبُ المهماتِ، وينجز الأهم فالأهم.

٥ ـ منهج الأدوات التكنولوجية: يقرر هذا المنهج أن استخدام الأدوات المناسبة يضمن معرفة الأولويات، وتنظيم المهمات، وهناك ميزةٌ كبيرة في الاستخدام الفعال لتلك الأدوات في تحقيق:

تحديد الأولويات، وضع الأهداف، تنظيم المهمات، استخدام منظم سريع للمعلومات.

٦ ـ منهج المهارة في إدارة الوقت: ويتطلب ذلك إتقان عدة أمور: استخدام تقاويم المواعيد ومفكراتها، إعداد قائمة مهمات، تحديد أهداف، تفويض، تنظيم، وضع أولويات، ومن ضعف هذا المنهج التساؤلاتُ التالية:

ما هي النماذج الأساسية التي يفترض تعليمها؟، هل تقوم على مبادئَ صحيحة؟، أو أنها تدعو لفروض غيرِ صحيحة تتعلق بالفاعلية؟

٧ ـ منهج التدقيق الطبيعي (الانسجام والنغمة الطبيعية: ويقوم على فلسفة مستمدة من الحضارات الشرقية المتصلة بالتوافق الداخلي للذات، والانسجام مع الطبيعة بعيداً عن إلحاح الظروف التي تضغط علينا، ولكن الرؤية والتوازن والهدف غير موجودة في هذا المنهج.

٨ ـ منهج الشفاء (إدراك الذات): يعتقد أصحابُه أن هناك مؤثراتٍ تأتي من البيئة الاجتماعية والموروثات مسببة سلوكيات الهزيمة، وغياب الانجاز في إدارة الوقت، وهذا المنهج يعالج جانباً

واحداً فقط، ففهم الإداري لذاته هو جزء فقط من أجزاء التغيير الفعال في إدارته لوقته.

وهذه المناهج جميعها تنبع من افتراض رؤية الوقت بمعناه العادي، وليس باعتباره عنصراً من عناصر الإنتاج.

**المبحث الثالث**: نحو منهج متطور لإدارة الوقت بفاعلية.

بعد استعراض مناهج إدارة الوقت، فإن مفهومَ الدراسة لفعالية إدارة الوقت ننظر إليه من خلال التكامل بين أمرين:

١ ـ قدرة المدير على القيام بعناصر العملية الإدارية بشكل فعال.

٢ ـ قدرته على اتخاذ إجراءاتٍ إيجابية للتحكم في الأنشطة المستهلكة للوقت.

وينبغي أن نعلم أنّ الإدارة تعارفَ الكُتاب على تقسيمها إلى مستويات:

مستوى الإدارة العليا، مستوى الإدارة الوسطى، مستوى الإدارة الدنيا.

ولكن المستوياتِ جميعاً تشترك في ممارسة الإدارة في التخطيط والتنظيم والتوجيه والرقابة واتخاذ القرارات، وإن سوء التخطيط وسوء التنظيم ـ كما يقول تشارلز فردربر ـ يصنعان توهماً بأن الوقت قصيرٌ وغيرُ كاف.

ثم يخلص المؤلف إلى أن منهج الإدارة الفعّالة للوقت يتمثل فيما يأتي:

١ ـ عملية التخطيط والتي تقوم على تحديد الأهداف وتخصيص الوقت اللازم وتحليل الوقت.

٢ ـ عملية التنظيم التي تتمثل في تفويض السلطات والأعمال، وتنظيم مهمات العمل وترتيبها.

٣ ـ عملية اتخاذ القرارات.

٤ ـ إدارة المقاطعات الهاتفية والشخصية.

٥ ـ إدارة الاجتماعات، ومكان العمل، وأخيراً: الاتصال الفعال.

**الفصل السادس**: دراسات تطبيقية في إدارة الوقت:

وهو من (ص١٦٩) إلى (ص١٩٨)، وبدأه بالحديث أنّ المؤشراتِ الاقتصاديةَ تُظهر أن هناك تسارعاً في معدلات نموّ القطاع الخاصّ مقارنةً بغيرها من القطاعات، وخاصة القطاع الحكومي، فما السبب في ذلك؟

ثم قسّم هذا الفصلَ إلى مبحثين رئيسيين:

**المبحث الأول**: أهم الدراسات في إدارة الوقت في العالمين: الغربي والعربي.

قامت عدةُ دراسات اهتمت في إدارة الوقت، وسنذكرها باختصار على النحو التالي:

## أ ـ الدراسات في العالم الغربي:

أول محاولة في مجال دراسة إدارة الوقت كانت للكاتب

جيمس ماكي في كتابه: إدارة الوقت، ومن أهم ما جاء فيه: «إذا كنت تشعرُ بنقصٍ في الوقت، فهذا دليل على أن مهاراتِك ومعلوماتِك الإدارية باتت غير صالحة للمستجدات».

ثم ظهرت الكثيرُ من الأبحاث في الستينيات من القرن الماضي، ثم قامت الباحثة روز ماري ستيورات بدراسة تحت عنوان: (المديرون ووظائفهم)، لمعرفة كيفية توزيع المدير البريطاني لوقته. . .، كما أشار الباحث بيتر دراكر إلى العوامل التي تؤدي إلى ضياع وقت المدير بشكل عام، وقام الباحث ماكنزي مع الباحث ريتشارد بوضع قائمة تتضمن أربعين من مضيعات الوقت، وأشار أبو شيخة إلى مسح أجراه معهد هاملتون بعنوان: (الرقابة على الوقت) تبيِّن فيه أن المقاطعاتِ تحتل المرتبة الأولى من حيث الأهميةُ في مضيعات وقت المدير، ثم الاجتماعات غير الفعالة، والمكالمات الهاتفية الكثيرة، والبحث عن المعلومات. . .

كما أسهم في هذا المجال: الباحثُ هنري منتزبرج في كتابه: (طبيعة العمل الإداري)، وجوزيف كوربر(١٩٦٢م)، وروس ويبر (١٩٧٢م)، وجاك فرنر (١٩٨٠م)، وغيرُهم.

**ب ـ الدراسات في العالم العربي:**

قام التنفيذيون العربُ بدراسة تقدم بها فريد منى عام (١٩٨٠م) وخاصة في دول الخليج، وأوضحت هذه الدراسة أنهم يواجهون ضغوطاً على أوقاتهم منها:

سوءُ استخدام التقنية أو عدم توافرها، الأعرافُ والتقاليد

الاجتماعية، مشاركتهم في تنمية مجتمعاتهم، المركزية السائدة في منظماتهم، استخدامُ الأسلوب الشخصي المباشر في التعامل مع العاملين والعملاء.

كما أرجعت الدراسة الأسباب التي أدت إلى انخفاض قيمة الوقت من منظور هؤلاء التنفيذيين إلى عدة عوامل منها: عدم إدراك أهمية الوقت، سوءُ أسلوب الحياة الاجتماعية، الوساطات والمجاملات، وغيرها...

وتقدم ربحي الحسن بدراسة تحت عنوان: التخطيط الإداري والوقت عام (١٩٨٢م) توصَّل من خلالها إلى نتيجة مفادها أن إدارة الوقت بشكل فعّالٍ تستحيل في ظل انعدام وجود أهداف أو أولويات أو خطط يومية...

كما قام محمد القريوتي بدراسة عنوانها: إدارة الوقت عام (١٩٩٥م)، أوصى من خلالها بضرورة قيام الإدارة باختصار بعض الاتصالات من أجل الحفاظ على الوقت...

وأيضاً قام كل من نادر أبي شيخة ومحمد القريوتي بدراسة بينا فيها أن الدافعَ لهما للقيام بهذه الدراسة هو عدمُ وجود فلسفة واضحة لأهمية الوقت لدى المدير الأردني، وتعد إضاعة الوقت الناتجة عن سوء الإدارة من المشكلات الحادة التي تعاني منها الإدارة في الدول العربية بشكل عام، وفي الأردن بشكلٍ خاص...

وفي المملكة العربية السعودية هناك عدد من الدراسات في موضوع إدارة الوقت، منها: الدراسة التي قام بها محمد شاكر

عصفور عام (١٩٨٠م)، على عيّنة من المؤسسات والوزارات، وتبيَّن في نتائج الدراسة أن ما يقارب نصف وقت الدوام الرسمي للموظف السعودي يُصرف في إنجاز المعاملات اليومية الرسمية، وأن الاجتماعاتِ تستهلك ١٢٪ تقريباً من وقته، و١٠٪ من وقته يذهب للأعمال المساعدة ذات العلاقة بالعمل الرسمي.

وقام عبدُ العزيز ملائكة بدراسة عام (١٩٨٧م) توصَّل من خلالها إلى تأكيد ٨٠٪ من السعوديين، و١٠٠٪ من المديرين الغربيين على أهمية الوقت وضرورة استخدامه بشكل فعال...

وتوصل محمد الغيث بدراسة أجراها داخل القطاع الحكومي في المملكة العربية السعودية إلى أن ٥٧٪ من عينة البحث أعربت عن أن الوقت المتاحَ لها غيرُ كاف للوفاء باحتياجات العمل.

ثم قام علي القرني عام (١٩٩٧م) بدراسة ميدانية للتعرف على نظرة المدير السعودي للوقت فأكدت هذه الدراسة على وجود علاقة ارتباط بين الخصائص الوظيفية وقدرة المدير السعودي على إدارة الوقت.

وبالنظر إلى الدراسات السابقة العربية والأجنبية يتضح لنا مدى اهتمامها بكيفية توزيع المدير لوقت عمل، وأهم مضيعات الوقت عنده، ونظرته للوقت، مع تركيزها على المدير في الأجهزة الحكومية.

**المبحث الثاني**: دراسة ميدانية لإدارة الوقت في القطاع الصناعي الخاص بالمملكة العربية السعودية.

لقد قام الكاتب بإجراء هذه الدراسة بالقطاع الصناعي الخاص داخلَ مدينة الرياض بالمملكة العربية السعودية، واختار هذا القطاعَ للأسباب التالية:

١ ـ تعيش المملكة نهضةً صناعية طموحاً، فعلى الجميع الإسهامُ في هذه النهضة.

٢ ـ تعتبر الصناعة السعودية مورداً أساسياً من موارد الدخل القومي للملكة.

٣ ـ يُعدّ القطاع الصناعي بالمملكة قطاعاً متطوراً، وهو بحاجة إلى الكثير من الدراسات للمنافسة العالمية.

٤ ـ مدينة الرياض تمثل قاعدةً صناعيةً مهمة للملكة، حيث يوجد فيها مدينتان صناعيتان.

وعدد المصانع بالرياض عام (١٤١٩هـ) بلغ (٨٢٤) مصنعاً، ولقد قامت دراسة فيها على الكثير من مصانع مواد البناء والزجاج والورق والطباعة، والألمنيوم، والمنتجات الجلدية والغذائية، والمعدات الكهربائية والأثاث الخشبي والمعدني، والصناعات المعدنية، والكيميائية والبلاستيكية، وبلغ إجمالها: ١٩٧ مصنعاً، وكانت مفرداتُ العينة المختارة عشوائياً: ٩٤ مصنعاً، وعدد المديرين ٤٥٠، ولا بد أن نطلّع على نتائج الدراسة، وتوصيات الدراسة.

**أولاً: نتائج الدراسة:**

طرحت في هذه الدراسةُ عدة تساؤلاتٍ تتلخص فيما يلي:

١ ـ ما هي نظرة المدير السعودي بالقطاع الصناعي الخاص لقيمة الوقت؟

٢ ـ ما هي أنواعُ مضيّعات وقت المدير؟

٣ ـ ما مدى فعالية المدير السعودي في استثماره لوقت عمله؟

٤ ـ ما هي الوسائل التي يعتمد عليها المدير السعودي في تنظيم وقت عمله وإدارته؟

٥ ـ هل توجد علاقات ارتباط بين متغيرات قيمة الوقت من وجهة نظر المدير السعودي بالقطاع الخاص وعدد من المتغيرات الشخصية والوظيفية؟

من خلال هذا القسم ثبت ما يلي:

١ ـ اهتمامُ الإسلام العظيم بالوقت.

٢ ـ المسلمُ يغتنم فرص العمر ولا يضيعها لأنه محاسبٌ عليها يوم القيامة.

٣ ـ الإسلام وضع كثيراً من أسس الوظائف الإدارية من خلال القرآن الكريم والسُّنَّة المطهرة وسير السلف الصالح. . .

٤ ـ سلف الأمة كانوا يعرفون للوقت قدره وقيمته.

٥ ـ الإدارة الإسلامية قائمة على مبدأ الإيمان بالله تعالى، وهو أمرٌ تفتقر إلية النظرياتُ الإدارية الأخرى.

أما النتائج التي توصل إليها الكاتبُ من خلال البحث الميداني فتتلخص فيما يلي:

١ ـ اتجاهاتُ وآراء معظم المديرين في عينة الدراسة تبرز أهمية الوقت بصفته مورداً مهماً يجب استثماره في العمل، فالوقت لدى المدير السعودي يحظى بالأهمية الكبرى، فالدراسة الحالية تدلّ على تزايد قيمة الوقت من منظور المدير في القطاع الصناعي السعودي الخاص، وهي تختلف عن دراسة فريد منى عام (١٩٨١م) في إعطاء الوقت قيمتَه.

٢ـ بيّنت الدراسةُ أهم مضيعات الوقت للمدير السعودي في القطاع الصناعي، وتوصلت الدراسة إلى أربع مجموعات من مضيعات وقت المدير السعودي في القطاع الصناعي الخاص، وهي:

أ ـ مضيعات للوقت ذات أهمية مرتفعة جداً: كعدم وجود تنظيم جيد للعمل، وعدم حفظ الملفات والأوراق في أمكنتها الملائمة، وعدمِ التخطيط المسبق للعمل، والتأخر صباحاً عن موعد العمل...

ب ـ مضيعات للوقت ذات أهميةٍ مرتفعةٍ: كتأمين احتياجات البيت في أثناء الدوام، تسويف وتأجيل الأمور، مغادرة العمل مبكراً...

ج ـ مضيعات للوقت ذات أهمية متوسطة: منها الاجتماعات المطولة، المقاطعات الهاتفية؛ كثرة الأعمال الورقية...

د ـ مضيعات للوقت ذات أهمية منخفضة: كشرب الشاي والقهوة، والحرص على التفاصيل كلها.

فالدراسات الحالية مقارنةً مع الدراسات السابقة تبيِّن مدى

اعتماد الدراسة الحالية على قائمة أكثرَ شمولاً للبنود المضيعة لوقت المدير، حيث بلغت أربعة وعشرين بنداً، وقد تناولت الدراسة أموراً جديدةً تختلف أيضاً عن دراسة عصفور عام (١٩٨٠م، ١٩٨١م) كشرب الشاي والقهوة، والتأخر صباحاً عن العمل. . .

٣ ـ أظهرت النتائج التحليلية قيام المدير السعودي في القطاع الخاص بما يأتي:

أ ـ اهتمامه بعملية التخطيط ضمن العملية الإدارية.

ب ـ إلحاحه على دور وظيفة التنظيم في الإدارة الفعالة للوقت.

ج ـ اهتمامه بإدارة اجتماعاته.

د ـ بذله جهداً كبيراً في منع المقاطعات التي عملها باستمرار.

هـ ـ حرصه على الإدارة السليمة لمكان عمله.

و ـ سعيه المستمر لاتخاذ قراراتٍ صحيحة وسليمة دون ضياع للوقت أو تسويف.

٤ ـ لم تثبت نتائج الدراسة بالنسبة للخصائص الشخصية ومدى تأثيرها على نظرة المدير السعودي للوقت وجودَ علاقة ارتباط ذات دلالة معنوية بين قيمة الوقت من وجهة نظر المدير السعودي وحالته الاجتماعية. . .

٥ ـ توصّلت الدراسة إلى أن الخصائصَ الوظيفية للمدير السعودي ليس لها علاقةٌ بنظرته تجاه الوقت.

٦ ـ بيّنت الدراسة وجودَ علاقة ارتباط طردية ذات دلالة معنوية بين قيمة الوقت من وجهة نظر المدير السعودي في القطاع الصناعي

الخاص، ومدى اعتماده على وسائل تنظيم وإدارة الوقت.

٧ ـ بيّنت الدراسةُ أهم الوسائل والأدوات التي يراها المديرُ السعودي من وجهة نظره مهمة لتنظيم الوقت، فرتبت هذه الوسائل من حيث أهميتُها الترتيب التالي:

آلة تصوير المستندات، جهازُ الفاكس، إعداد قائمة يومية بالأعمال المطلوب إنجازها وتوقيتها، برامج كمبيوتر، المفكرة اليدوية، القائمة الأسبوعية، الذاكرة الشخصية، الاعتماد الكبير على السكرتير، الهاتفُ الجوال، البريد الالكتروني، الإنترنت، المفكرة الالكترونية، الماسح الضوئي، الهاتفُ ذو المسجل الضوئي، وقد وضعها المؤلف في جدول مرتباً فيه الوسائل ومبيناً متوسطها الحسابي.

**ثانياً: توصياتُ الدراسة:**

بعد النظر إلى النتائج التي تم التوصل إليها فإن الباحث يوصي بما يلي:

١ ـ أهمية اعتبار الإسلام دستورَ حياة كاملاً، من خلال القرآن والسُّنَّة وأقوال السلف...

٢ ـ ضرورة توعية المسلمين بأن الوقتَ من أهم ما يُسألون عنه يوم القيامة.

٣ ـ أهمية استخدام الوقت بفعالية باعتبار أنه أساس لاستمرارية إنجاح الأعمال، ويمكن توجيه التوعية نحو الأهمية القصوى لمورد

الوقت من خلال الدورات التدريبية، والمحاضرات المستمرة. . .

٤ ـ الحد من الممارسات والأنماط السلوكية غيرِ المرغوبِ فيها لدى بعض المديرين، والتي تتسبب في ضياع وقتهم وتبديده.

٥ ـ مراعاة العمر عند اختيار المديرين لوجود علاقة ارتباط بين عمر المدير ونظرته للوقت.

٦ ـ مراعاة المؤهل العلمي عند اختيار المديرين لوجود علاقة ارتباط بين المؤهل العلمي للمدير ونظرته للوقت.

٧ ـ الحرص على تنمية مهارات المدير السعودي في مجال إدارة الوقت بفعالية؛ لأنه من الموضوعات الملحة، وأن يتمَّ تدريب المدراء عملياً على كيفية التعامل مع الجوانب المتعددة لتحقيق الفعالية في إدارة الوقت.

٨ ـ أن يستخدم المدير السعوديُّ الوسائل الأخرى المعاصرة في تنظيم الوقت كالإنترنت، والبريد الالكتروني، وغيرها.

٩ ـ العمل على إجراء المزيد من الدراسات في إدارة الوقت، لا سيما ما يتعلق منها بمتغيرات البيئة وتأثيراتها، كما يوصي الباحثُ بأن تشمل الدراسات الميدانية مناطق أخرى من المملكة العربية السعودية.

وهكذا نكون قد انتهينا من الفصل السادس من الكتاب، ووصلنا إلى نهاية المطاف، وحصلنا على زاد وفيرٍ من الدراسات والنظريات المهمة القديمة والحديثة في إدارة الوقت، وتنظيم الحياة، وعلمنا أنّ ديننا الحنيف كثيراً ما أكد على الوقت وأهميته، حتى

يستخدمَه الإنسان بما فيه الخير والسعادة في الدنيا والآخرة.

ثم وضع المؤلف بعد ذلك قائمةَ المصادر والمراجع، مرتبةً على النحو التالي:

القرآن الكريم، كتب التفاسير، كتب السُّنَّة وشروحها، كتب التراث، كتب الوقت والإدارة، المجلات والدوريات، المراجع الأجنبية، وقد بلغ مجموع المصادر والمراجع: ١٠١ مصدراً ومرجعاً، ثم وضعت قائمة بالكتب التي صدرت للمؤلف، أو شارك بتحقيقها، وهي: ٣٣ كتاباً، معظمها مترجم إلى الإنكليزية، وبعضها إلى الفرنسية أيضاً.

هذا والكتاب يتألف من ٢١٤ صفحة.

فجزى الله عنا وعن الإسلام والمسلمين فضيلةَ الدكتور خالدِ بن عبد الرحمٰن الجريسيِّ ـ حفظه الله تعالى ـ على ما قدّم من الخير العميم للأمة الإسلامية، وما ينفعها في دينها ودنياها، ورأيت لزاماً عليَّ أن أختم هذا الملخص بلمحة عن حياة الدكتور خالد بن عبد الرحمٰن الجريسي ـ حفظه الله تعالى ـ وهي كالتالي:

الدكتور خالد بن عبد الرحمٰن بن علي الجريسي.

* من مواليد مدينة الرياض بالمملكة العربية السعودية عام (١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م).

* حاصل على درجة الدكتوراه في إدارة الأعمال من جامعة كنزنجتون بالولايات المتحدة الأمريكية، وذلك عن أطروحته في فلسفة التسويق.

* حاصل على درجة الدكتوراه في إدارة الأعمال من جامعة الإمام الأوزاعي بلبنان، ذلك عن أطروحته التي بعنوان: (أنماط السلوك القيادي في ضوء الفكر الإداري المعاصر والفكر الإسلامي).

* حاصل على درجة الماجستير في إدارة الأعمال من جامعة الإمام الأوزاعي بلبنان، وذلك عن رسالته التي بعنوان: (إدارة الوقت من المنظور الإسلامي والإداري).

* حاصل على بكالوريوس الدراسات الإسلامية من كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة الملك عبد العزيز.

* يشغل منذ عام (١٩٩٣م) منصب الرئيس التنفيذي لشركة بيت الرياض، وهي إحدى أكبر الشركات التجارية الرائدة في المملكة العربية السعودية.

* صدر له عدد من الكتب في مجالات متنوعة (دينية ـ اجتماعية ـ تاريخية ـ إدارية).

* المؤسس والمشرف العام على موقع الألوكة على شبكة الإنترنت: www.alukah.net

* عضو في عدد من الجمعيات العلمية:

أ ـ الجمعية السعودية للإدارة ـ جامعة الملك سعود ـ الرياض.

ب ـ جمعية الإداريين العرب ـ القاهرة.

ج ـ جمعية الاقتصاد السعودية ـ جامعة الملك سعود ـ الرياض.

د ـ اتحاد الاقتصاديين العرب ـ بغداد.

هـ ـ الجمعية التاريخية السعودية ـ جامعة الملك سعود ـ الرياض.

و ـ اتحاد المؤرخين العرب ـ القاهرة

❁ ❁ ❁

## هل تجرّعتَ كأسَ الفشل يوماً؟
## وماذا تعني لكَ كلمةُ (فاشلٍ)

هي كلمةٌ نكرهها، وتمجّها آذانُنا، وتلفظها أسماعنا، بل نجعل أصابعنا في آذاننا، ونستغشي ثيابنا حتى لا يصل حرفٌ منها إلى مسمعنا، وحتى لا تشوّش علينا جمالَ الحياة...

كلمة نكره أن نُنسَب إليها، أو تُنْسبَ إلينا، وإذا قيلت لإنسان فإنه يكادُ يتميز من الغيظ، وينظر إليك شزْراً، وبألمٍ دفين يعتصر فؤاده...

كلمةٌ جعلت كثيراً من الناس يركب مطيّة اليأس، ويتخاذل، ويرجع القهقرى، بعد أن كان يُسابق الريح، ويتسلق جبال المجد السامقاتِ...

ولعلك تقول: ليت شعري! ما هذه الكلمة؟ ولعمري! لقد جعلتَني في حَيرة من أمري! فهاتِ، أسمعْنيها بعد أن شوّقتني لمعرفتها شوقَ غيرِ محب! وشوقَ علمٍ ومعرفةٍ لا شوق حب ولهفة!

إنها ـ يا صاحبي ـ كلمةُ (الفشل) وخاصةً حين تُنسب إليك، بأن يقال عنك: فاشل. أو أن يناديَك أحدٌ: أيها الفاشلُ.

فماذا تعني لك كلمةُ (فاشلٍ)؟

لو طرحنا هذا السؤالَ على ثُلّةٍ من الناس لرأينا أجوبةً شتّى، وآراءً مختلفةً، ومعانيَ تتوضح لإنسان قد لا تتوضح لغيره، وكلٌّ يُدلي بدلوه..

... فها هم يقولون:

ـ كلمة (فاشل) ـ بالنسبة لي ـ تعني أنني عبءٌ على المجتمع، ومماتي أفضلُ من حياتي، وعدمي خير من وجودي...

ـ كلمة (فاشل) تعني أنني لا حظَّ لي، كلما تقدمت خطوةً تعثّرت خُطُواتٍ، وكلما أبحرت في لُجج الحياة، وظننت أنني أمْخُر عُبابَها، فإنني أرى نفسي بعد سنةٍ أنني لا أزال على الشاطئ !.

ـ كلمة (فاشل) تعني ـ بالنسبة لي وباختصار شديد ـ التعاسةَ والشقاءَ بكل ما تحمله هذه الكلمةُ من المعاني البائسة.

ـ كلمة (فاشل) تعني أنني لست بناجح، فمهما حاولت أن أنجح سأبقى فاشلاً، لذلك فإنني لن أسلك طريق النجاح؛ لأن القدرَ رمى بي في حفرة الفاشلين، لذلك تراني دائماً أعلل نفسي بالقدَر، وأعتب على الزمان!

ـ كلمةُ (فاشل) آهٍ! كم تؤلمني هذه الكلمةُ !، وليت أن العرب لم ينطقوا بها، ومَنْ لي بإنسانٍ يجتَثُّها من معاجم العربية جمعاءَ؟

إنها الكلمةُ التي دمرت حياتي، وجعلتني أهوي في مهاوي الشقاء بلا رحمةٍ، وبلا أدنى هوادة...

... كنت أحمل طموحاً يكاد لعلوّه يصل إلى عَنان السماء، وهمةً عاليةً لا تعرف الونى والفتورَ، وتقدّماً لا يعرف التراجع

والهزيمة، لكنّ من حولي ـ نعم من حولي، ومعظمهم من أقاربي، وأغلبهم ممن يَدّعون محبتي، وأنهم يُكنون لي خالصَ الحب، وصفاءَ القلب ـ هم الذين جعلوا مني فاشلاً في الحياة. . .

كانوا دائماً ينعتونني بهذه الكلمة، حتى أصبحتْ كلمةُ الفشل تلازمني بل جزءاً لا يتجزأ مِنّي، وسيطر التشاؤم على حياتي، وتربع البؤسُ على عرش قلبي. . .

. . . لقد فشلتُ مرة فلم يسامحني أحدٌ، ولم أجد يداً حانيةً تُرَبّتُ على كتفي، وتكفكف دمع عيني، وتنشُلُني من براثن اليأس. . . فبقيت على هذه الحال: فشلٌ، وبؤسٌ، وتعاسةٌ، وشقاء. . .

ومع مرور الأيام نزل طموحي إلى أسفل الحضيض بعد علوٍّ وارتفاع، وغرقت همتي في الانحطاط بعد أن كانت لا تعرف الوهْن والكلل، وسيطرت على كل مشاعري انهزاميّةٌ ورجعيَّةٌ تشبثت بي. . .، فنكصتُ على عَقبي بعد أن كنت أضارعُ الأتيَّ في تقدّمه، والشهاب في سرعته وعلوّه. . .

. . سامحوني، فالفشلُ يَرْمقني بعينين سوداوين، ولهول نَظَراته لم أسطِعْ أن أُتِمَّ كلامي. . .!؟

ـ كلمة (الفشل) تعني لي خلافَ ما تعني لكم، وبكلمة مختصرة:

لقد دخلتُ إلى ساحة المجد والعز من باب الفشل!

بمعنىً آخرَ: كان فشلي حافزاً كي أتقدمَ أكثرَ فأكثر، لأني

لم أستسلم له، ولم أُرخِ له العنان، ولم أهتمَّ بتمتمات الحاسدين، ولم تصغِ أذني إلى فحيح الوشاة، ومضيت في درب الحياة، فلولا مرارةُ الفشل التي أبكتني لأيام وأيام، ولولا تجرّعي من كأس الحسرة، وتضلُّعي من أجاج الْمِحَنِ الآسنِ، لما كنت اليوم أبسِم للحياة وتبسِم لي، وما كنت اليوم أرتوي من فرات النجاح المعين في كؤوس التفاؤُل والبِشْرِ والطمأنينة.

وأثناء هذا الحوار كان هناك رجلٌ يُحملق بكلتا عينيه، وقد تسمرتا في وجوه المتحاورِينَ، يُمعِن النظر فيهم، وقد علاه التثاؤب، وكُسي ثوباً من الخمول، وتجلبب بالكسل، ولا يدري الفشل نفسه ماذا يفعل بهذا البائس، أيُمسكه على هُوْنٍ أم يدسّه في التراب؟!... ثم نهض قائماً بعد جهد ولَأْيٍ، وقال: أما أنا فلو سألتموني عن كلمة الفشل فسوف أقول لكم: «كلمة فشلٍ تعني أنني فاشلٌ لأنني فاشلٌ، وسأبقى فاشلاً ما تعاقب الليل والنهار، وسأكتب في وصيتي لأولادي:

كُتب الفشل على أبيكم، فاجعلوا من الفشل قَدَرَكم، ومن القدر ذريعةً لفشلكم، ومن البؤس دِثارَكم، ومن اليأس منهجَ حياةٍ لكم!».

... ثم مضى في طريقه يمشى على استحياءٍ، وبعد برهةٍ غاب عن أعيننا عند مفترق الطريق...

عزيزي القارئ: وبعد هذه الجولة يبقى السؤال مطروحاً عليك:

ماذا تعني لك كلمةُ فاشلٍ، وهل تجرَّعت كأس الفشل يوماً ما؟.

٩ شوال، ١٤٣٢هـ، الموافق: ٨\٩\٢٠١١م

❁ ❁ ❁

## مِنْ أصعَبِ مَواقِفِ الْحَيَاةِ ....

ـ من أصعب مواقف الحياة خبرٌ يأتيك وأنت تتوقع خلافَه. . . خبرٌ يجعلك تجثو على ركبتيك دون أن تشعر. . . خبرٌ ماتت عند سماعه كثيرٌ من الآمال التي كنت تعيش مع آفاقها، فتحولت تلك الآمالُ إلى سرابٍ في الفيافي والقِفارِ. . .

ـ من أصعب مواقف الحياة أن يُعذَّب من تُحبُّ أمامك ويتألّمَ، وأنت لا تستطيع أن تقدم له أيَّ شيء، بل تقف لابساً ثوب الحيْرة، ومتجلبباً بجلباب الدهشة والذهول. . .

ـ من أصعب مواقف الحياة أن ترى أرملةً ظلمها كلُّ من حولها، فأخذت ترفُل في أثواب الذل والهوان بعد أن كانت ـ أيام زوجها ـ ترفُل في أثوابٍ منسوجةٍ من العزِّ، وموشّاةٍ بالعدل والسعادة والْحُبور. . .

ـ من أصعب مواقف الحياة أن تقف مع صغيرٍ يظن نفسه كبيراً، ومع قزَمٍ ويدّعي أنه عملاقٌ، ومع جاهل ويظن نفسه أنه أعلم من عليها، ومع باقلٍ ويظن نفسه أنه سحبانُ وائل، ومع الأرض وتظن أنها السماءُ، ومع الحضيض ويظن أنه السموُّ والشموخ. . .

ـ من أصعب مواقف الحياة أن تستمع مجبراً إلى من تَمجُّ

أذناك سماعَ حديثه، وأصعبُ من ذلك أن توميَ برأسك كلما حدّثك، فيعتقد أنك تُطرب لحديثه وتلذُّ لسماعه...

ـ من أصعب مواقف الحياة أن ترى الحقودَ يتظاهر بصفاء القلب، والكذوبَ يتظاهر بالصدق، والخائنَ يتظاهر بالأمانة، والغادرَ يتظاهر بحفظ العهد والوداد... ولكنك لا تستطيع أن تواجه أحداً بهذه الحقيقة فالأمر أعظم من ذلك...

ـ من أصعب مواقف الحياة أن يُقابَل إحسانُك بالإساءة، وأن تقوم بفعل خيرٍ فينقلبَ عليك شراً، وأن تُوعِد وعداً ولكنك لم تستطيع أن تفيَ به، وأن يتنكّر لك من كنت تتوقع أنه أعزّ الناس عليك، وأصدقهم محبة، وأشفقهم قلباً...

ـ من أصعب مواقف الحياة أن ترى أن أنصار الباطل يتكاثرون، وأنصار الحق يتلاشون ويضمحلون، ولكن الأصعبَ من ذلك أن لا ترى للحق أنصاراً على الإطلاق، أو أن يصيرَ أنصارُ الحق سابقاً أنصاراً للباطل اليوم...

ـ من أصعب مواقف الحياة أن تكتشف عندما وصلت إلى نهاية الطريق أنك سلكتَ الطريقَ الخطأَ، أو أن تقفَ والطرقُ شتّى أمامك، ولكنك لم تسلك أياً منها، فانطبق عليك قول الشاعر:

تكاثرت الظِّباءُ على خِراش    فما يدري خراشٌ ما يصيدُ

فظللت راكداً في بداية الطريق، وعُدتَ بعد فترة بِخُفَّيْ حُنَيْن...

ـ من أصعب مواقف الحياة أن يتحكم جاهلٌ بعالم، وأن تبتسم مجبَراً لِمَن تودُّ أن تنظر إليه شزْراً...

ـ من أصعب مواقف الحياة أن تعلم بخيانة الخائن، ولكنك لا تستطيع أن تصارحه بذلك خوفاً من أمور أشدَّ وطأة، وأسوأَ عاقبةً... فما أمامك إلا أن تسكتَ على مضض وغيظ، وقد حُبس الدمع خلف جفنيك، وتحفّزَ قلبُك تَحَفُّزَ الليثِ، ولكن بعد هُنيهة خارت قُواه، ولم ينبِس ببنتِ شَفَةٍ...

ـ من أصعب مواقف الحياة أن يحوطك الظلمُ من كل جانب، وأن يغشاك القهر والذل والهوان... ولكنك لا تستطيع فعلَ أي شيء..

ـ من أصعب مواقف الحياة أن تحاول إقناع المتكبر الجاهل بحقيقةٍ لا يختلف عليها اثنان، ولا ينتطحُ عليها عنزان، والأصعبُ من ذلك أن يحاول هذا الجاهل أن يقنعك بأفكاره التي يهرب منها المنطق، ويموت عندها العقل، بل تصل إلى حد الهذيان والجنون!...

ـ من أصعب مواقف الحياة أن ترى أن من علَّمتَه يوماً ما أصبح يدعي أنه معلم لك، والأصعب من ذلك أن ينطبق عليك وعليه قول القائل:

وكم علمتُهُ نظم القوافي    فلما قال قافيةً هجاني

ومن أصعب مواقف الحياة أن تكتبَ والناسُ تفهم عكس ما أردت، وأن تتكلم وكلٌّ يُؤَوِّل على ما يشتهي ويريد، ويُغنّي على ليلاه، وأن يسمع الناس جزءاً من كلامك ـ ثم يحكموا عليك ـ مع أن كلامك لا يُفهم إلا إذا سُمع كاملاً غير منقوص...

والأصعب من ذلك أن تبقى صامتاً لا تتكلم، ومع ذلك ترى أن الناسَ أيضاً يفترون عليك، ويُقَوِّلونَكَ شيئاً لم تقلْه، ويصيبُهُمُ الكرم الحاتَمِيُّ ـ ولكنْ في غير موضعه ـ فيزيدون كرماً في العبارات ما يشاؤون، ويضيفون إلى إفكهم كلَّ ما يشتهون...

❊ ❊ ❊

## حُداءُ النواعير في مسامع الشعراء

سمعنا عنينَها منذُ الصغر، وظلَّ مرافقاً لنا حتى الكبر...

وكم تعجبنا من بكائها الدائم !!مع أنها ليست ثكلى فقدت ولداً، ولا أيِّماً فقدت زوجاً، ولا مفجوعةً فقدت أخاً...

وكم رأيتُ فيها ساعة تدور وتدور، على مَرِّ الليالي والشهور، تقرِّبنا من الموت، وتبكي بكاء الفراق الطويل، فتُكثر من النَّحيب والعويلِ...

تسقي الأرض العطشى، وتئن أنينَ الثكلى...

يسمعها المسافرُ المشتاق فيشاركها في أحزانها، فينوح معها، وتنوح معه...

ولعلها في صوتها سرّاً وسحراً، فكم فجَّر هذا الصوتُ الشجيُّ قرائحَ الشعراء، وكم ألهمهم روائعَ القصائد، التي خلدها الزمان !!! فقرأنا مثل هذا البديع:

وحنّانةٍ من غير شوقٍ ولا وجدِ يفيض لها دمعٌ كمُنتَثِرِ العِقدِ
أحنُّ إذا حنت، وأبكي إذا بكتْ فليس لنا من ذلك الفعلِ من بُدِّ
ولكنّها تبكي بغير صبابةٍ وأبكي بإفراطِ الصّبابة والوجد

وأدمُعُـها مـن جـدولٍ مُـسـتـعـارَةٌ ودمعيَ من عيني يفيض على خدي[١]

وكم تغنى بها الشعراءُ، ورأَوها قلباً رقيقاً، وعيناً دامعةً، وبلبلاً غِرِّيداً، وحمامةً نائحةً، فإذا كان الشاعرُ يحن من الشوق المبرِّح والوجدِ، وله قلبٌ ينبض عاطفة وحباً وشوقاً، فالناعورة تحن من غير وجد، وليس لها قلب، مما حدا بالمجنون أن يأتي بهذه الصورةِ الفريدة:

بـاتَـتْ تَـحِـنّ ومـا بـهـا وَجْـدُ وأحِـنُّ مـن وَجْـدٍ إلـى نـجْـدِ
فـدُموعُـهَـا تَـسقـي الـرّيـاضَ بـهـا ودُمـوعُ عَـيْـنـي أَقْـرحـتْ خَـدِّي

وكذلك عبيدُ الله بنُ مسعود، عندما كان في الفرات، وسمع حنينَ الناعورة، جعل يشاركها البكاء، ولكنّ العجب!! أن الناعورةَ ليس لها عيونٌ، ودموعُها لا تُقرِّحُ الجفونَ:

ولـمّـا استَحَنَّتْ بـالـفُـرَاتِ عَـشيَّـةً نَـواعـيِـرُه كـادَ الـفـؤادُ يَـبـيـنُ
تَـحِـنُّ بـلا حُـزْنٍ وشَـوْقٍ أصـابَـهَـا ولـلـقَـلْـبِ من شَوْقٍ إلـيك حنينُ
سـوَاءٌ بُـكَـاءُ الـعَـيْـنِ منّيَ والّذي بَـكَـيْـنَ، ولـكـنْ مـا لَـهـنَّ عُـيُـونُ
على أنّني واللَّه قد أَقْرَحَ الـبُـكَـا جُـفـوني ولـم تُـقْـرَحْ لـهـنّ جُـفُـونُ

ومثلُه لأحد الأعراب:

ولـمّـا نَـزلْـنا الـساحليْنِ تـجاوبَـتْ أبـا عـرنـا لـمَّـا ازدَهَـتْـهَـا الـنَّـواعـرُ
وحنَّـتْ نَـوَاعيرُ الـفُـرَاتِ بـأرضِـهَـا فلمَّا استحنَّت جاوَبَتْهَا الأَبَاعِرُ

---

(١) المستطرَف في كلّ فنٍّ مستظرَف، شهاب الدين محمد بن أحمد أبو الفتح الأبشيهي، ط٣، دار صادر، ص٥٨٩.

إذا نَحْن أخْفَيْنَا الَّدفينَ الّذي بنَا   من الوَجْدِ نَمَّتْهُ الدُّمُوعُ البَوَادِرُ

وعندما نزل صاحبُ (الأنوارِ ومحاسنِ الأشعار) في أكناف العراقِ، هيَّجت نواعيرُ العراق أشجانَه، وأثارت شجونَه، فقال:

نَزَلْنَا بأكْنافِ العِرَاق فهيَّجَتْ   نَواعيرُه أحزانَنا حين حنَّتِ
تحِنّ وتَسْقى الرَّوْضَ ريّاً ولم تذُقْ   هَوايَ الّذي منهُ دُموعي اسْتَهلَّتِ
ولم تَعْرِفِ الشَّوْقَ الّذي في جَوانحي   ولا حُرّقاً بين الضُّلُوعِ اسْتكنَّتِ
ولو عَلِمَتْ ما قَد لَقِيتُ ومُلِّكتْ   لِسَاناً لبَاحَتْ بالهَوَى وتَشكَّتِ

وأما أبو طالب الحُسين بنُ عليّ، فقد رأى في الدولاب مغترِباً يحن إلى أوطانه وذلك عندما قال:

كأنَ دُولابَها إذْ حنَّ مُغْتَرِبٌ   ناءٍ يَحِنُّ إلى أَوْطَانِه طَربَا[1].

وهذا شاعر آخرُيرى أن الناعورة، لم تفقد حبيباً، ولا فلذةَ كبد، وما ألم بها الضر... الأزهار حولها تضحك، وهي تبكي، ثم شبهها بالفلك الذي تدور به النجوم:

ودولابٍ يئنّ أنين ثكلى   ولا فقداً شكاه ولا مضرّه
ترى الأزهار في ضحكٍ إذا ما   بكى بدموع عينٍ منه ثرّه
حكى فلكاً تدور به نجومٌ   تؤثّر في سرائرنا المسرّه
يظلّ النجمُ يشرق بعد نجمٍ   ويغرب بعد ما تجري المجرّه[2]

(١) الأنوار ومحاسن الأشعار الشمشاطي، باب في النواعير وحنينها ١/ ٧٤.
(٢) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، المقري التلمساني المحقق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٦٨م، طبعة جديدة ١٩٩٧م، باب في نبذة مما منَّ الله به علي ٣/ ٥٠٢.

ولله درُّ الشاعرِ عليٍّ بنِ أحمدَ بنِ عبد الرحمٰن أبي الحسين الوقشي!! حيث كان أديباً ومطرباً في نفس الوقت، ومن شعره الذي يشنف الأسماع، ويأخذ بالألباب:

حننتُ إلى صوت النواعير سحرة وأضحى فؤادي لا يقرّ ولا يهدى
وفاضت دموعي مثلَ فيض دموعها أطارحها تلك الصبابةَ والوجدا
وزاد غرامي حين أكثر عاذلي فقلت له: أقصرْ، ولا تقدحِ الزَّندا
أهيم بهم في كل وادٍ صبابةً وأزداد معْ طول المعاد لهم وُدا[1]

وقد أراد بعضُ الشعراء، أن يُعللَ دوران الناعورة بتعليل بلاغي، وجعلها تتكلمُ وتعترف، أنها عندما تدور فإنها تدورُ على قلبها الذي فقدَته، ودموعُها تجري على جسمها، فها هو يقولُ:

وناعورةٍ قالت وقد حال لونُها وأضلُعُها كادت تُعَدُّ من السُّقم:
أدور على قلبي لأني فقدته وأما دموعي فهي تجري على جسمي[2]

والشاعرُ الخطيريُّ جعل الناعورةَ تعترف له بالسرِّ الدفين، الذي يُسيل منها العبراتِ، ويجعلها تئن وتبكي وتدور، فقال:

رُبَّ ناعورةٍ كأن حبيباً فارقتهُ، فقد غدت لي تحكي
أبداً هكذا تئنُّ بشجوٍ وعلى إلفها تدور وتبكي[3]

ودائما عندما تُذكَر النواعيرُ، تأتي إلى مخيلتنا ـ ومن غير استئذان ـ مدينةُ السحر والجمال، والطبيعةِ الخلابة، والمناظرِ

---

(١) القرط على الكامل، ابن سعد الخير، باب: الطور الثاني ١/ ٨.
(٢) المستطرَف في كلّ فنٍّ مستظرَف، الأبشيهي، ص٥٨٩.
(٣) المصدر السابق، ص٥٨٩.

الجذابة، التي أبدعها الله ـ جل وعلا ـ، تلك هي مدينةُ حماةَ التي تغنى بها الشعراء قديماً وحديثاً، وأكثروا في ذلك، ولكني سأقتصر على مثالين، الأولُ قديمٌ والثاني حديثٌ، فها هو الشاعر أبو الحسن بنُ سعيد يقول في حماة:

حمى اللَّه من شطّيْ حماةَ مناظراً　　وقفتُ عليها السمع والفكر والطّرفا
تغنّي حمامٌ، أو تميل خمائلٌ　　وتزهى مبانٍ تمنحُ الواصفَ الوصفا
وأشدو لدى تلك النواعيرِ شدوَها　　وأغلبها رقصاً وأُشبهُهَا غرفا
تئنّ وتذري دمعَها فكأنّها　　تهيم بمرآها، وتسألها العطفا[1]

ولا أزال أذكر أنني عندما كنتُ في مصرَ، نظمتُ قصيدة في الشوق إلى حماةَ ونواعيرِها وعاصيها، وقد اخترت لك ـ أيها القارئ الكريم ـ منها هذه الأبيات:

أحنّ إلى ربوع حماة شوقاً　　وأذكر ماضياً عذباً جميلا
نواعيرُ المياه بلا فتورٍ　　تُقلِّب في حماةَ السلسبيلا[2]

وهكذا نكون قد شاركنا النواعيرَ في عنينها، وشربنا من كأس أحزانها، وتعرَّفنا على بعض أسرارها، ورأينا كيف وصفها الشعراءُ فأبدعوا، ورأوا فيها مُهَيِّجَ الأحزان، ونديمَ الشوق والغرام.

❁ ❁ ❁

---

(١) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، المقري التلمساني المحقق: إحسان عباس، الباب الخامس ٢/ ٣٢٦.
(٢) انظرها كاملة في ديوان: بَدْرُ الدُّجَى سيِّدُنا مُحَمَّدٌ ﷺ، مصطفى قاسم عباس، ط١، ١٤٢٨هـ، ص١٤٩ ـ ١٥٦.

# شُعَرَاءُ فِي غَياهِبِ السُّجُونِ

لم تخلُ السجونُ يوماً من الأيام من ضيفٍ يحل بها، أو مقيمٍ يعيش بين حناياها، ولا يخرجه منها إلا الموت!!...

ومن المعلوم أن السجنَ يغص بأصناف شتى من البشر، وأن السجن قد يحوي البريءَ المظلومَ، ويحوي السارقَ والقاتل والمجرمَ وقاطعَ الطريق...

وكم من مجرم يدَّعي أنه بريء!!، وكم من بريءٍ أصبح يُسَمَّى مجرماً، وعلى كل حال:

ما يدخل السجنَ إنسانٌ فتسألُه ما بال سجنك؟؟ إلا قال: مظلوم

كما أن السجن قد يحوي بين جدرانه الرسولَ والنبيَّ، والعالم والأميَّ، والكاتبّ والشاعر، والتقيَّ والفاجر...

وما أكثر الشعراءَ الذين حُبسوا!! وما أكثر الأشعار التي قيلت في السجون!!، فبددت بنور توهجها ظلامَ السجون الدامسَ، وتنسمت قوافي تلك الأشعار نسائمَ الحرية، وخرجت من غياهب السجون ودياجيرها، لتصبح تاجاً مرصَّعاً على هامة الخلود، وقلادةً حرةً في صدر الزمان...

ويبقى العجب!! كيف تضم حجرةٌ مظلمة صغيرة بحوراً لُجِّيَّةً

من الشعر، وجبالاً تطاول عَنان السماء، من العلماء والحكماء !!
ولاغروَ ولا عجب، فالسجنُ الذي ضمَّ نبياً ورسولاً، يضم عالماً وشاعراً وحكيماً. . .

ويظل السجينُ على أمل اللقاء مع الأهل والأحبة، فالذي ردَّ يوسف إلى أبيه، وأعزَّه ـ وهو في سجنه ـ قادرٌ على أن يجمعَ السجين بأهله، ويلمَّ الشملَ، ما لم تعاجلْه المنيةُ وهو في أعماق الأرض، فينتقل من أعماق زنزانته، ويوضع في أعماق الثرى داخل قبره!

ورحم الله من قال:

وعسى الذي أهدى ليوسفَ أهلَه وأعزَّه في السجن وهو أسيرُ
أن يستجيبَ لنا فيجمعَ شملنا واللَّه ربُّ العالمين قديرُ

ونحن عندما نتحدث عن الشعراءِ وقصائدهم التي دبَّجوها في غياهب السجون، لا بد أن نتذكر جميعاً قصيدةَ أبي فراس الحمْداني الرائعةَ، التي قالها عندما كان أسيراً، وسمع حمامة تنوح على شجرة عالية بقربه، فأراد منها أن تشاركَه في أحزانه، وتحملَ عنه بعضَ الهموم، فقال يخاطبها، وهو في سجنه:

أقولُ وقد ناحت بقربي حمامةٌ أيا جارتا، هل بات حالك حالي؟؟[1]
معاذ الهوى ما ذقتِ طارقة النَّوى ولا خطرت منكِ الهمومُ ببال
أتحمل محزونَ الفؤاد قوادمٌ على غصُن نائي المسافة عال

(١) المشهور: (هل تشعرين بحالي) ولكن هذه رواية ابن خالويه.

أجارتنا: ما أنصف الدهرُ بيننا تعالي أقاسمْك الهمومَ تعالي
تعالي تري روحاً لدي ضعيفةً تردّدُ في جسم يعذب بال
أيضحك مأسورٌ وتبكي طليقة؟؟ ويسكت محزون ويندب سال؟
لقد كنت أولى منك بالدمع مقلةً ولكن دمعي في الحوادث غال(١)

ـ وكم من أبياتٍ أخرجت صاحبَها من السجن!!، وما ذلك إلا لرقتها وعذوبتها، فترى القوافيَ فيها تبكي، ودموعَ سامعها تهمي، وقلبه يذوب ليناً وعطفاً، ومعلومةٌ تلك الأبياتُ التي جعلت الشاعر الحطيئةَ يخرج من سجنه، والتي قالها لسيدنا عمرَ بنِ الخطاب رضي الله عنه عندما أودعه في السجن:

ماذا تقول لأفراخٍ بذي مَرَخٍ؟؟ زغبِ الحواصل لا ماءٌ ولا شجرُ
ألقيت كاسبهم في قعر مظلمةٍ فاغفر، عليك سلام اللَّه يا عمر
أنت الإمامُ الذي من بعد صاحبه ألقت إليك مقاليدَ النُّهى البشرُ
لم يؤثروك بها إذ قدموك لها لكنْ لأنفسهم كانت بكَ الإثر
فامنن على صبيةٍ في الرمل مسكنُهُم بين الأباطح يغشاهم بها القدرُ
أهلي فداؤك كم بيني وبينهم من عرض داويةٍ يعمى بها الخبر!!

فبكى سيدنا عمرُ، وأخرجه من السجن، ثم دعاه فهدّدَه بقطع لسانه إنْ عاد يهجو أحداً(٢).

---

(١) ديوان الأمير أبي فراس الحمداني، تحقيق وشرح: د. محمد ألتونجي، منشورات المستشارية الثقافية للجمهورية الإسلامية الإيرانية بدمشق، عام ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧م، ص٢٤٦ ـ ١٤٧.

(٢) بهجة المجالس وأنس المجالس، ابن عبد البر، باب في السجن ١/ ١٩٤. =

كما (حُكي أن الحجاجَ حبس رجلاً في حبسه ظلماً، فكتب إليه رقعة فيها: قد مضى من بؤسنا أيامٌ ومن نعيمك أيامٌ، والموعدُ القيامة، والسجنُ جهنمُ، والحاكمُ لا يحتاج إلى بيِّنة، وكتب في آخرها:

ستعلم يا نؤومُ إذا التقينا ... غداً عند الإلٰه من الظلوم؟
أما واللَّه إن الظلمَ لؤمٌ ... وما زال الظلومُ هو الملوم
سينقطع التلذُّذُ عن أناسٍ ... أداموه، وينقطعُ النعيم
إلى ديان يوم الدين نمضي ... وعند اللَّه تجتمع الخصوم)[1]

والشاعر ابنُ عمارٍ عندما حبسه المعتمدُ بنُ عباد، كتب إليه الكثيرَ من قصائد الاستعطاف، وطلبِ العفو، وإليك هذه الأبياتِ من آخر قصيدة بعث بها إليه كما يقال:

سجاياك إن عافيتَ أندى وأسمحُ ... وعذرك إن عاقبت أولى وأوضح
وإن كان بين الخطتين مزيةٌ ... فأنت من الأدنى إلى اللَّه أجنح
وماذا عسى الأعداء أن يتزيدوا ... سوى أن ذنبي ثابتٌ ومُصَحَّحُ
وإن رجائي أنَّ عندك غيرَ ما ... يخوض عدوي اليوم فيه ويمرح
أقلني بما بيني وبينك من رضىً ... له نحو روح اللَّه بابٌ مفتَّحُ
ولا تلتفت رأيَ الوشاة وقولَهم ... فكل إناءٍ بالذي فيه يرشح

= وانظرها في كتاب: نوادر الحطيئة، محمد إبراهيم سليم، دار الطلائع، مصر، ص٣٩.

(١) المستطرف في كل فن مستظرف: شهاب الدين محمد بن أحمد أبي الفتح الأبشيهي، ط٣، دار صادر، ص١٤٧.

ألا إن بطـشاً للمؤيَّد يُرتجى     ولكنَّ حلماً للمؤيّد يرجح
سلامٌ عليه كيف دار به الهوى     إليَّ فيدنو أو عليَّ فينزح[1]

ولكنْ، إذا كان الحطيئةُ قد استطاع أن يُبْكيَ سيدَنا عمرَ بتلك الأبيات، فإن ابنَ عمار لم يفلح في نيل رضا المعتمد، بل شجَّ رأسه بفأس وقضى عليه، وكأنّ المعتمد ما نسي هجاءَ الشاعر له ولزوجته وكما قيل:

جراحاتُ السّنان لها التئام     ولا يلتامُ ما جرح اللسان

ـ والسجين في سجنه، كلما هبت رياحٌ من ناحية بلاده يذوب حنيناً، وكلما لاح له خيالُ ركبٍ مُيَمِّمٍ وجهَهُ شطرَ بلده، كلما بعث هواه مع هذا الركبِ، وقد أورد البغدادي في خزانته أبياتَ شعر لجَعْفَر بن عُلْبَة الحارِثِيّ قالها في سجنه، وأوردها أبو تمام في أول الحماسة، وهي في غاية الروعة:

هَوايَ مع الرَّكْبِ اليَمانِينَ مُصْعِدٌ     جَنِيبٌ وجُثْمانِي بمَكَّةَ مُوثَقُ
عَجِبْتُ لِمَسْراها وأَنَّى تَخَلَّصَتْ     إليَّ، وبابُ السِّجْنِ دُونِي مُغْلَقُ
أَلَمَّتْ فحَيَّتْ ثُم قامَتْ فَوَدَّعَتْ     فَلمَّا تَوَلَّتْ كادَتِ النَّفْسُ تَزْهَقُ
فلا تَحْسَبِي أَنِّي تَخَشَّعْتُ بَعْدَكُمْ     بِشَيْءٍ، ولا أَنِّي من المَوْتِ أَفْرَقُ
ولا أَنَّ نَفْسِي يَزْدَهِيها وَعِيدُكُمْ     ولا أَنَّنِي بالمَشْي في القَيْدِ أَخْرَقُ
ولكنْ عَرَتْنِي من هَواكِ صَبابَةٌ     كما كنتُ أَلْقى مِنْكِ إِذْ أَنا مُطْلَقُ

---

(١) في الشعر العربي الأندلسي والمغربي، د. علي دياب، منشورات جامعة دمشق، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م، ص١٧٨.

وقال آخر:

أسجنٌ وقيدٌ واغترابٌ وعَبرةٌ وفقدُ حبيب؟؟ إن ذاك عظيم
وإن امرأً تبقى مواثيقٌ عهده على كل هذا، إنه لكريم(١)

وعندما حُبس عبدُ الملك بنُ إدريس الجزيريُّ الكاتبُ الشاعرُ، صدرت عنه ـ وهو في السجن ـ قصيدةٌ له في الآداب والسُّنَّة، كتبَ بها إلى بنيه (أو إلى ابنه عبدِ الرحمٰن)، مطلعُها:

ألوى بعزم تجلدي وتصبري نأيُ الأحبة واعتيادُ تذكُّري

ويذكر فيها كيف فقد صبرَه، وذهب سرورُه، وتلذُّذُهُ بالعيش، ويتشوقُ إلى ابنِه الأصغرِ، ويتذكر ساعة فراقه، فيقول:

عجباً لقلبي يوم راعتنا النّوى ودنا وداعُكَ كيف لم يتفطرِ؟
ما خلتني أبقى خلافك ساعة لولا السكونُ إلى أخيك الأكبرِ(٢)

وها هو أيضاً ضابئُ البرمجيُّ ـ وهو في سجنه ـ يقول متشوقاً:

ومن يك أمسى بالمدينة رحلُه فإني وقياراً بها لغريبُ
وما عاجلاتُ الطير تدني من الفتى نجاحاً ولا عن ريثهن يخيب
ورب أمورٍ لا تضيرك ضيرةً وللقلب من مخشاتهن وجيبُ
ولا خير فيمن لا يوطِّن نفسَه على نائبات الدهر حين تنوب(٣)

---

(١) المجالس وأنس المجالس ابن عبد البر، باب في السجن ١/ ١٩٤.
(٢) تاريخ الأدب الأندلسي (عصر سيادة قرطبة)، إحسان عباس: ١ تاريخ النشر: ١٩٦٠م، الناشر: دار الثقافة عنوان الناشر: بيروت ١/ ٨١.
(٣) الكامل في اللغة والأدب، المبرد، باب لضابئ البرمجي وهو في السجن ١/ ٨٥.

وأما صالحُ بنُ عبد القدوس، فإنه يشكو حاله إلى الله، ويرى نفسه في سجنه لا حياً ولا ميْتاً:

إلى اللَّه أشكو إنه موضعُ الشكوى وفي يده كشفُ المصيبة والبلوى
خرجنا من الدنيا ونحن من أهلها فما نحن بالأحياء فيها ولا الموتى
إذا ما أتانا مخبرٌ عن حديثها فرحنا وقلنا: جاء هذا من الدنيا
وتعجبنا الرؤيا فجلُّ حديثنا إذا نحن أصبحنا الحديثُ عن الرؤيا
فإن حسنت لم تأتِ عجلى وأبطلت وإن قبحت لم تحتبس وأتت عجلى[1]

وبعض الشعراء، رأى في السجن مدى حاجة الناس إليه، وجعل نفسه البدرَ المفتَقَدَ في الليلة الظلماء، ولكن كيف ذلك؟؟ ويأتي الجواب: بأن الناس سيعلمون قوته ومكانته عندما تدور رحى الحرب، وتطحن الحربُ الزبونُ الكُماةَ، أما فارسُها الْمُهابُ، وليثُها الهدَّارُ، فإنه قابعٌ في السجن، لذلك، الشاعرُ العَرْجيُّ ـ وهو أشعر بني أمية ـ، عندما هجا إبراهيم بن هشام المخزومي، وأخذه وحبسه. قال وهو في السجن:

كأَنِّيَ لم أَكُنْ فيهمْ وَسِيطاً ولم تَكُ نِسْبَتِي في آلِ عَمْرِو
أَضاعُوني وأَيَّ فَتىً أَضاعُوا لِيَوْمِ كَرِيهَةٍ وسِدَادِ ثَغْر[2]

وأما ابنُ زيدون فإنه عندما كان في نكبته، وأُودِع في السجن، أتى بصور بديعة، فهو لا يرى في نفسه عندما سُجن سوى قمرٍ قد أصابه الخسوفُ، أو شمسٍ قد ألَمَّ بها الكسوفُ، وهو نجم إلا أنه في الأرض لا في السماء، يقول:

---

(١) معجم الأدباء، ياقوت الحموي ١/ ١٢١.
(٢) الشعر والشعراء، ابن قتيبة الدينوري، باب عروة بن أذينة ١/ ١٢٥.

هل الرياحُ بنجم الأرض عاصفةٌ أم الكسوفُ لغير الشمس والقمر؟؟
إن طال في السجن إيداعي فلا عجبٌ قد يودع الجفن حدّ الصارم الذّكر[1]

وإذا كان ابنُ زيدون قد صوَّر نفسه في سجنه بدراً مخسوفاً، وسيفاً صارماً مغمَداً، فإن بعض ولد نهيك بن أساف الأنصاري قد جعل من الحكم بن المطلب المخزوميَّ شيئاً آخرَ، فعندما حُبس رأى أن الجود والكرم قد حُبسا، وأن المعروف قد أصبح نزيلَ السجن، ورأى أن هذا البحر يفيض رغم القيود حتى يكاد يغرق زائريه، قال:

خليليَّ إن الجود في السجن فابكيا على الجود إذ شُدت عليه مرافقُهْ
ترى عارض المعروف في كل ليلة وكل ضحىً يستنُّ في السجن بارقُهْ
إذا صاح كبلاه طفا فيضُ بحره لزوَّاره حتى تُرام غرائقُهْ[2]

وسُجن مروانُ بنُ عبد الرحمٰن الملقب بالطليق، وكان عمرُه ست عشرة سنة، وطال سجنه إذ مكث في السجن ست عشرة سنة أخرى، فما كان منه إلا أن وصف السجن بقوله:

في منزل كالليلِ أسودَ فاحمٍ داجي النواحي مظلمِ الأشباج
يسودُّ والزهراءُ تشرق حوله كالحبر أُودع في ذوات العاج[3]

ـ وقد يصور الشاعر نفسه وهو في سجنه سيفاً إلا أنه مغمدٌ، وهزبراً في عرينه، ويسلي نفسه بكثير من التشبيهات والصور البيانية، مما حدا بالبيهقي أن يجعلها من محاسن الحبس، في كتابه

---

(١) إعتاب الكتاب، ابن الأبار ١/ ٤٦.
(٢) ربيع الأبرار، الزمخشري ١/ ٨٣.
(٣) تاريخ الأدب الأندلسي (عصر سيادة قرطبة)، إحسان عباس: ١/ ٧٩.

(المحاسن والمساوئ) فها هو عليُّ بنُ الجهم يقول عندما حبس:

قالوا حُبستَ فقلتُ ليس بضائري ... حبسي وأيُّ مهنَّدٍ لا يغمدُ
أوَ ما رأيتَ اللَّيثَ يألفُ غيْله ... كبراً وأوباشَ السِّباعِ تردَّدُ
والبدرُ يدركهُ السِرارُ فتنجلي ... أيامهُ وكأنَّهُ متجدّدُ
والنَّارُ في أحجارها مخبوءةٌ ... لا تُصطلى ما لمْ تُثرْها الأزندُ
والغيثُ يحظرهُ الغمامُ فما يُرى ... إلَّا وريقهُ يراعُ ويُرعدُ
غيَرُ الليالي بادئاتٌ عوّدٌ ... والمال عارية يفاد وينفد
ولكل حالٍ معقبٌ ولربما ... أجلى لك المكروه عما تحمد
لا يؤيسنّك من تفرّج كربةٍ ... خطبٌ أتاك به الزمان الأنكد
صبراً فإن اليوم يتبعه غدٌ ... ويد الخليفة لا تطاولها يد
والحبس ما لم تغشه لدنيةٍ ... تزري فنعم المنزل المتورَّد
لو لم يكن في الحبس إلا أنه ... لا يستذلّك بالحجاب الأعبدُ
بيتٌ يجدد للكريم كرامةً ... ويزار فيه، ولا يزور ويحمد

إلا أن عاصمَ بنَ محمد الكاتب، لما حبسه أحمدُ بن عبد العزيز بتغير حمولة له، عارض ابن الجهم في قصيدة ذكرت مساوئ السجن، وأتى فيها بنقيض ما قاله ابنُ الجهم:

قالت: حُبست فقلت: خطبٌ أنكد ... أنحى علي به الزمان المرصد
لو كنت حراً كان سربي مطلقاً ... ما كنت أُؤخذ عنوةً وأُقيد
أو كنت كالسيف المهند لم أكن ... وقت الشديدة والكريهة أُغمد
أو كنت كالليث الهصور لما رعت ... فيّ الذئاب وجذوتي تتوقد
من قال: إن الحبس بيت كرامةٍ ... فمكاشرٌ في قوله متجلد

ما الحبس إلا بيت كل مهانةٍ ومذلةٍ ومكارهٍ ما تنفد
إن زارني فيه العدو فشامتٌ يبدي التوجع تارةً ويفنّد
أو زارني فيه الصديق فموجعٌ يذري الدموع بزفرةٍ تتردد
يكفيك أن الحبس بيتٌ لا ترى أحداً عليه من الخلائق يحسد
عشنا بخيرٍ برهةً فكبا بنا ريبُ الزمان وصرفُه المتردد
قصرت خطاي وما كبرت وإنما قصرت لأني في الحديد مصفّد
في مطبقٍ فيه النهار مشاكلٌ للّيل والظلمات فيه سرمد
تمضي الليالي لا أذوق لرقدةٍ طعماً فكيف حياة من لا يرقد
فتقول لي عيني: إلى كم أسهرت؟ ويقول لي قلبي: إلى كم أكمد؟
وغذاي بعد الصوم ماءٌ مفردٌ كم عيش من يغذوه ماءٌ مفرد
وإذا نهضت إلى الصلاة تهجراً جذبت قيودي ركبتي فأسجد
فإلى متى هذا الشقاء مؤكد؟ وإلى متى هذا البلاء مجدد؟
يا ربّ فارحم غربتي وتلافني إني غريبٌ مفرد متلدد(١)

ـ وكثيراً ما يُسجن إنسان لا يقرض الشعر، فيهيئ الله له من الشعراء من يواسيه ويسلّيه في سجنه، فالبحتريُّ عندما سُجن محمد بنُ يوسفَ ذكره بنبي الله يوسفَ ﵇، وأن صبره جعل منه ملكا، كما ذكره أن الذهب لا يصفا إلا بالسبك، والدنيا متقلبة، والأيام دول:

(١) المحاسن والمساوئ، إبراهيم البيهقي، باب مساوئ من سخط عليه وحبس ١/٢٢٨.
وانظر أبيات ابن الجهم في المستطرف في كل فن مستظرف: شهاب الدين محمد بن أحمد أبي الفتح الأبشيهي، ط٣، دار صادر، ص٤١٤.

وما هــذه الأيــامُ إلا مــنــازل فمن منزل رحبٍ إلى منزل ضنكِ
وقد دهمتك الحادثاتُ وإنما صفا الذهبُ الإبريز قبلك بالسبك
أما في نبي اللَّه يوسفَ أسوةٌ لمثلك محبوس عن الظلم والإفك
أقام جميل الصبر في السجن برهة فآل به الصبر الجميل إلى الملك[1]

وكذلك يزيدُ بن المهلب، الذي كان جواداً، وكان حاتمَ عصره. و(قيل: إن الحجاجَ حبسه على خراج وجب عليه، مقدارُه مائةُ ألف درهم، فجُمعت له، وهو في السجن، فجاءه الفرزدقُ يزوره، فقال للحاجب: أستأذن لي عليه، فقال: إنه في مكان لا يمكن الدخول عليه فيه، فقال الفرزدق: إنما أتيت متوجِّعاً لما فيه، ولم آتِ ممتدحاً، فأذن له، فلما أبصره قال:

أبا خالد ضاقت خراسانُ بعدكم وقال ذوو الحاجات أين يزيد؟؟
فما قطرت بالشرق بعدك قطرةٌ ولا اخضرَّ بالمروين بعدك عودُ
وما لسرور بعد عزك بهجةٌ وما لجواد بعد جودِك جودُ)[2]

ـ ونحن عندما ننتقل إلى شعراء العصر الحديث فإننا قد نراهم، أبدعوا إبداعاً رائعاً وهم في سجونهم، وكتبوا روائع شعريةً ليس لها نظير، فالشاعرُ نجيبُ الرّيسُ، يطلب من ظلام السجن أن يخيم، فقد أصبح السجناءُ يعشقون الظلام، ،وأصبحوا يطربون لسماع رنين القيود الذي تحول في مسامعهم إلى أنغام تُشجي القلوبَ، ففي

(١) المستطرف في كل فن مستظرف: شهاب الدين محمد بن أحمد أبي الفتح الأبشيهي، ط٣، دار صادر، ص٤١٤.
(٢) المستطرف في كل فن مستظرف: الأبشيهي، ص٢١٤.

عام (١٩٢٢م) في سجن أرواد، إبان الاحتلال الفرنسي لسوريا ولبنانَ، أطلق هذا النشيدَ الذي تغنى به الأحرارُ:

يـا ظـلامَ الـسّـجـنِ خَـيِّـمْ إنّـنـا نَـهْـوَى الـظـلامَـا
لـيـسَ بـعـدَ الـسّـجـنِ إلا فـجـرُ مـجـدٍ يـتَـسَـامـى
أيّـهـا الـحُـرّاسُ رِفـقـاً واسـمَـعـوا مِـنّـا الـكَـلامـا
مـتّـعُـونـا بِـهَـواء مـنـعُـهُ كَـانَ حَـرَامـا
إيـهِ يـا دارَ الـفـخـارِ يـا مـقـرَّ الـمُـخـلِـصـيـنـا
قـدْ هـبـطْـنـاكِ شَـبَـابـاً لا يـهـابـونَ الـمـنـونـا
و تَـعَـاهـدنـاك جَـمـيـعـاً يـومَ أقـسَـمْـنـا الـيَـمِـيـنـا
لـنْ نـخـونَ الـعـهـدَ يـومـاً واتـخـذنـا الـصـدقَ دِيـنَـا
يـا رنـيـنَ الـقـيـدِ زدنـي نـغـمـةً تُـشـجـي فُـؤادي
إنَّ فـي صَـوتِـكَ مَـعـنـى لـلأسـى والاضـطـهـادِ
لـسـتُ والـلَّـه نَـسـيّـاً مـا تـقـاسِـيـه بِـلادِي
فـاشْـهَـدَنْ يـا نَـجـمُ إنّـي ذو وفـاءٍ وَ وِدادِ

وممن كتب وأبدع في هذا المجال الدكتورُ يوسفُ القرضاوي، الذي ألقى قصيدة نونية بمناجاة ليلة القدر.. نظمها الشاعر ليلة ٢٧ رمضان عام (١٣٦٩هـ/ ١٩٤٩م) بمعتقل الطور... وذلك عندما احتفل المعتقلون بهذه المناسبة الطيبة منها:

يا رب إن الطغاة استكبروا وبغَوا بغي الذئاب على قطعان حملان
يـا رب كـم يـوسـفٍ فـيـنـا نـقـيٍّ يدٍدانوه بالسجن والقاضي هو الجاني
يا رب كم من صبيٍّ صفَّدوا فمضى يبكي كضفدعة في ناب ثعبان

يا رب كم أسرةٍ باتت مشرَّدة تشكو تجبُّرَ فرعونٍ وهامانِ

وله فيها بيت جميل يقول فيه:

والليثُ لن تحنيَ الأقفاصُ هامتَه وإن تحكَّم فيه ألفُ سجَّان[1]

وليس لأحدٍ أن ينسى تلك القصيدةَ، قصيدةَ الشاعر هاشم الرفاعي (رسالةٌ في ليلة التنفيذ) التي يخاطب فيها أباه، ويصوِّر السجن تصويراً عجيباً، بليله الحالك، وهدوئه المخيف، وصمته الذي يقطعه رنينُ السلاسل:

أبتاهُ، ماذا قد يخط بناني؟ والحبل والجلاد منتظرانِ
هذا الكتابُ إليك من زنزانة مقرورة صخريةِ الجدران
لم تبقَ إلا ليلةٌ أحيا بها وأحس أن ظلامها أكفاني
ستمر يا أبتاه ـ لست أشك في هذا ـ وتحمل بعدها جثماني
الليلُ من حولي هدوءٌ قاتل والذكرياتُ تمور في وجداني
ويهدني ألمي، فأنشد راحتي في بضع آياتٍ من القرآن
والنفس بين جوانحي شفافةٌ دَبَّ الخضوع بها فهزَّ كياني
شكراً لهم، أنا لا أريد طعامهم فليرفعوه، فلست بالجوعان
هذا الطعام المرُّ ما صنعته لي أمي، ولا وضعوه فوق خوان
كلا، ولم يشهده يا أبتي معي أخوانِ لي جاءاه يستبقان
مَدوا إليّ به يداً مصبوغةً بدمي، وهذي غاية الإحسان
والصمت يقطعه رنينُ سلاسلٍ عبثت بهن أصابعُ السجان

(١) انظر: موقع الدكتور القرضاوي، شعره.

وهكذا، وفي نهاية المطاف، نكون قد شاركنا الشعراءَ في سجونهم، وعانينا من بعض ما عانَوا، ورأينا أن من إحدى حسنات السجون أنها تخرج إلينا من بين جدرانها، ومن ثنايا ظلامها البهيم قصائدَ خالدةً، مشبوبةً بصدق العاطفة ورصانة التعبير.

# .... وأَشرَقَت شَمسُ الهِدايةِ

في وقت كان ظلامُ الجاهلية يغشى فيه القلوبَ والعقول، وكان ليلها الحالكُ يغطّي شعاعَ الهدى والتقى، ويحجب نورَ الفضيلة والعفاف...

في وقت كان العقلُ البشريُّ قد وصل فيه إلى الحضيض، حتى أصبح الواحدُ منهم يعبد حجراً أو شجراً أو صنماً أو وثناً أو إلٰـهاً من تمرٍ فإذا ما جاع أكله!!...

في وقت نُزِعت فيه الرحمةُ من قلوب الآباء، فتحولت إلى صخورٍ صمَّاءَ، فكان الأبُ يواري ابنته تحت أطباق الثرى، وهي لا تزال على قيد الحياة، بلا ذنب ولا سبب، بل بمجرد التبشير بمجيء هذه الفتاة تسودُّ الدنيا في وجه والدها، ويتخبط تخبطَ عشواءَ، فلا يدري ماذا يفعل؟؟ كما صور القرآن الكريم ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [النحل: ٥٨، ٥٩].

في وقت تُرتكب فيه المحرماتُ، وتستسيغ الناسُ الفواحشَ، وتكثر الموبقاتُ، وتُحَكّمُ التقاليدُ والعادات، قانونهم قانونُ غاب، فالقوي يأكل الضعيفَ، والأرحامُ تُقَطَّع، والعصبية القبَلية سائدة، وكانوا كما قال شاعرهم دُريد بن الصَّمّة:

وما أنا إلا من غزيةَ إن غوت غويت وإن ترشد غزيةُ أرشدِ

وكما قال الآخر:

قومٌ إذا الشرُّ أبدَى ناجِذَيه لهم طارُوا إليه زَرافات وَوُحْدانا
لا يَسألون أخاهم حين يَنْدُبهم في النَّائبات على ما قال بُرْهانا

في هذا الوقت المظلم، والليل البهيم، أراد الله ﷻ لنور النبوة أن يشعَّ في الأفق، وأراد الله أن تشرق شمس الهداية، ويزهرَ فجرُ الإيمان، ويسطعَ بدر الدجى لينير الأكوان، فأرسل الله إلى البشرية جمعاء، سراجاً منيراً، وشاهداً ومبشراً ونذيراً، فأُنير الكونُ بعد ظلمة، وأشرقت شمسُ الهداية بعد عتمة، فبددت دياجيرَ الكفر، وأزاحت غطاءَ الشرك، وحولتْ ظلامَ الجاهلية إلى نورِ محمدي، وهدي سرمدي، وانتقلوا من عبادة الأصنام والأوثان، إلى عبادة الواحد الديان، ومن العصبية القبلية، إلى الأخوة الإيمانية، ومن تنافر القلوب إلى تآلفها، ومن قطع الأرحام إلى صلتها...

وتأمل معي ـ أيها القارئ الكريم ـ في هذه المقارنة بين الحالتين التي يصفها جعفر بن أبي طالب بقوله للنجاشي: «أَيّهَا الْمَلِكُ كُنّا قَوْماً أَهْلَ جَاهِلِيّةٍ نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ وَنَقْطَعُ الْأَرْحَامَ وَنُسِيءُ الْجِوَارَ وَيَأْكُلُ الْقَوِيّ مِنّا الضّعِيفَ فَكُنّا عَلَى ذَلِكَ حَتّى بَعَثَ اللّهُ إلَيْنَا رَسُولاً مِنّا، نَعْرِفُ نَسَبَهُ وَصِدْقَهُ وَأَمَانَتَهُ وَعَفَافَهُ فَدَعَانَا إلَى اللّهِ لِنُوَحّدَهُ وَنَعْبُدَهُ وَنَخْلَعَ ما كُنّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَآبَاؤُنَا من دُونِهِ من الْحِجَارَةِ وَالْأَوْثَانِ، وَأَمَرَنَا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ وَصِلَةِ الرّحِمِ وَحُسْنِ الْجِوَارِ وَالْكَفّ عَنْ الْمَحَارِمِ وَالدّمَاءِ،

وَنَهَانَا عَنِ الْفَوَاحِشِ وَقَوْلِ الزّورِ وَأَكْلِ مَالِ الْيَتِيمِ وَقَذْفِ الْمُحْصَنَاتِ، وَأَمَرَنَا أَنْ نَعْبُدَ اللّهَ وَحْدَهُ لا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً، وَأَمَرَنَا بِالصّلَاةِ وَالزّكَاةِ وَالصّيَامِ ـ فَعَدّدَ عَلَيْهِ أُمُورَ الْإِسْلَامِ ـ فَصَدّقْنَاهُ وَآمَنّا بِهِ وَاتّبَعْنَاهُ عَلَى ما جَاءَ بِهِ من اللّهِ فَعَبَدْنَا اللّهَ وَحْدَهُ فَلَمْ نُشْرِكْ بِهِ شَيْئاً، وَحَرّمْنَا ما حَرّمَ عَلَيْنَا، وَأَحْلَلْنَا ما أَحلّ لَنَا، فَعَدَا عَلَيْنَا قَوْمُنَا، فَعَذّبُونَا، وَفَتَنُونَا عَنْ دِينِنَا، لِيَرُدّونَا إلَى عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ من عِبَادَةِ اللّهِ تَعَالَى، وَأَنْ نَسْتَحِلّ مَا كُنّا نَسْتَحِلّ من الْخَبَائِثِ فَلَمّا قَهَرُونَا وَظَلَمُونَا وَضَيّقُوا عَلَيْنَا، وَحَالُوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ دِينِنَا، خَرَجْنَا إلَى بِلَادِك، وَاخْتَرْنَاك عَلَى من سِوَاك؛ وَرَغِبْنَا فِي جِوَارِك، وَرَجَوْنَا أَنْ لا نُظْلَمَ عِنْدَك أَيّهَا الْمَلِكُ» الرحيق المختوم: (ص١٠٢، ١٠٣).

إذن، لقد أطل شهر ربيع الأول، وولد في الثاني عشر منه سيدُ البشرية محمدٌ ﷺ، وأرسله الله رحمة للعالمين، لذلك، كلما أطلَّ علينا هذا الشهرُ الكريم، تعود بنا الذكرى إلى ولادة النبي فيه، فيغشانا الفرحُ، ويعمنا السرورُ، ويبتهج الناس كبيرُهم وصغيرهم، لم لا؟؟ فالجميع سعيد بمولد سيد البشرية، ومنقذها من ضلالها، والسائر بها إلى شاطئ الأمان.

ومما قلته في هذا الشهر العظيم، ومولد النبي الكريم:

ـ شهر الرَّبيع لقد أتى متهللا    والكون أضحى ثغرُه بسَّاما
ما السرُّ يا شهر الربيع؟ أجابني:    وُلِدَ النبيُّ الهاشمي إماما
ـ كان الضلالُ على العقول مخيماً    والجاهليَّة عربدتْ أياما
يسطو القوي على الضعيف كأنهم    في غابة لا تعرف استرحاما

وشعارهم عصبية قبلية    أكلوا الحرام وقطَّعوا الأرحاما
هم كالسُّكارى فالعقول تجمدت    شخصاً ترى يستقسم الأزلاما
الظلم يطغى والربا متحكم    تمضي الليالي والجميع ندامى
ووليدةٌ تحت الثرى موؤودة    ما ذنبها؟ لم ترتكب آثاما
وعقائدٌ فسدت فذاك إلٰهه    حجرٌ وذاك يقدِّس الأصناما
فبُعثت يا مختار فيهم رحمة    ومحقت من أذهانهم أوهاما
وهدمت أركان الضلال وبغيَها    وبنيت صرحاً بالهداية قاما
وأتيت بالدين الحنيف مشرِّعاً    فنشرت بين ربوعنا الإسلاما
أمضيت عمرك للمحبة داعياً    وأقمت بين العالمين سلاما

فعلينا جميعاً أن نشكر الله على هذه النعمة، وله الفضل على هذه المنة، وأن نسير على نهج النبي في حياتنا، عملاً وسلوكاً، ومحبة وتآلفاً. . .

وأسأل الله أن يعيد علينا هذه الذكرى العطرة، بالخير واليمن والبركة والنصر المبين، إنه قريب سميع مجيب الدعاء.

# الشبابُ أملٌ وعملٌ

الشبابُ مرحلةُ القوة والنشاط والطاقة والطموح الوهّاج. . .

الشباب متعَلَّق آمال الأمة، وأبو المعجزات، هو مرحلةُ العطاء المثمر، وروضُ الإبداع المزهر، وبستانُ النضارة والفتوة، واللياقة والقوّة، . . .

والشباب هو الذي يتمناه الصغيرُ، ويتحسّر على فراقه الكبيرُ، فتراه يقول في مرحلة الشيخوخة:

فيا ليت الشبابَ يعودُ يوماً فأخبرَه بما فعل المشيبُ

وفيه يقول الإمام أحمد بنُ حنبل:

ما شبّهت الشباب إلا بشيء كان في كمي فسقط.

الشبابُ يذكّرنا بفتيةٍ آمنوا بربهم فزادهم هدىً، وبفتىً حطم أصنام الضلال بيده، وبنبيٍّ رأى برهانَ ربه فاعتصم عن الفحشاء، وبإنسانٍ آتاه الله الحكم صبياً. . . فأخذ كتاب ربه بقوة الشباب، وحكمة الشيوخ. . . وبشابٍ في الثامنة عشرة من عمره ولاه النبيّ ﷺ أميراً. .

ونحن إذا ما أردنا للأمة الرقيَّ في كافة مجالات الحياة فلنبدأ من الشباب ف«إن الشباب همُ عدةُ الأمة، وهم أملُ الحاضر،

ورجال المستقبل، وسيكون منهم: القائدُ والحاكم، والوزير والقاضي والمعلمُ والعامل، والمربي لمن يأتي من الأجيال، إذاً فتربية الشباب ليست هينةً ولا سهلة، وإنما تحتاج إلى متابعة دقيقة من الآباء والمربين والمسؤولين، ومن الواجب أن يبدأ الآباءُ والمربون في إعداد الشباب منذ الطفولة، ويجب أن يستمر هذا الإعدادُ إلى أن يشتد عودُ الطفل، ويبلغَ مرحلة النضوج الفكري والعملي.

وينبغي على المربين أن يربوا الشبابَ على أساسٍ إسلامي خالصٍ من كل الشوائب، وأولُ ما يبدأ به هؤلاء: تربيةُ الشباب على القيم والعادات الإسلامية، وتحسينُ الإسلام في نفوسهم من خلال التاريخ المشرق منذ عهدِ الصحابة الكرام إلى الوقت الحاضر، وإلى ما يشاء الله تعالى»[1].

وكلُّ شابٍّ منّا يريد أن يكون ناجحاً في حياته، و«كثيراً ما يتساءل الناس في مجتمعاتهم وندواتهم: من هو الشابُّ الناجحُ يا تُرى؟! إن الشاب الناجح هو الشابُّ الذي يثق بنفسه، وثقتُهُ هذه هي التي تجلب له الاحترام من الغير الذي يرنو إليه كلُّ شاب، ولا بد أيضاً من صحبة الأخيار من الأصدقاء، ويسلك السلوكَ الإسلاميَّ الرفيع بدفع الأذى بالإحسان، والمنعِ بالجود والعطاء... سلاحُهُ الإيمان، وعمادُه التوكل، وغذاؤُه المواظبةُ على القربات

---

(١) الشباب مشكلات وحلول، د. أحمد خليل جمعة، د. ك عصام الشواف، ط١، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٥م، اليمامة دمشق، ص١٣.

والطاعات، وأن يكون طموحُهُ وتطلعه إلى المثل العليا، فإن الشبابَ بلا طموح كشجرة لا تُزهر وبالتالي لا تُثمر...»[1].

إننا لا نريد إلا شباباً طامحين، لا يرتضون إلا ذرى الجبال مطيةً لهم، وجسرَ التعب ليصلوا من خلاله إلى الراحة الكبرى، إلى رياض الخير والبركة، ونريدُ شباباً على طريق الهدى والتقى سائرين، وبنهج سيدنا محمدٍ ﷺ مقتدين، ولا نريد شباباً ينطبق عليهم قول الشاعر:

شبابٌ قُنَّع لا خيرَ فيهم    وبُورك في الشباب الطامحينا

ولا قولُه:

أرى التّخنيثَ قد وشَّى شباباً    تناسَوا أنهم فعلاً ذكورُ
فأين رجولةُ العربيِّ تمضي    وشيمةُ شعبنا شعبٌ غيورُ[2]

نريد شاباً في ظل الله، من الذين قال فيهم سيدُنا محمدٌ ﷺ: **«سبعةٌ يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظلُّه:... شابٌّ نشأ في عبادة الله»**[3].

والصحابة عندما أسلموا كانوا في مرحلة الشباب، ونحن عندما نرى أعمار بعضهم سوف نشعر بالعجب، ف«سيدنا عثمانُ بن

---

(١) يا أولادي، د. منير غندور، ط١، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م، مكتبة الفارابي، ص٢١٨ ـ ١١٩ بتصرف.

(٢) صور من مأساتنا، مصطفى قاسم عباس، ط١، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م، مطبعة اليمامة، ص٤١ـ ٤٢.

(٣) رواه البخاري.

عفان كان في الرابعة والثلاثين من عمره، وعبدُ الرحمٰن بنُ عوف كان في الثلاثين، وسعدُ بن أبي وقاص كان في السابعة عشرة من عمره، والزبير بنُ العوام كان في الثانية عشرة من عمره، وطلحةُ بن عبيد الله كان في الثالثة عشرة من عمره»[(١)].

ولا نعجب عندما نرى سيدنا زيدَ بنِ حارثة في الثامنة عشرة من عمره، وقد ولاه النبيُّ ﷺ على إمرة جيش فيه كبارُ الصحابة، وكان أولَ بعث يُتابع تنفيذُه في زمن سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه[(٢)].

والشباب ـ كما هو معلوم ـ طاقةٌ كامنةٌ، ولكنها يجبُ أن تتفجرَ ينابيعَ قوّةٍ وعطاء ومحبة وإنتاج وفاعلية في المجتمع، وعندما يصلح الشبابُ تصلح الأمة، وعندما يفسدون تفسد. . .

فالشاعر وليد الأعظمي يطلب من الشباب عودة إلى تعاليم الإسلام؛ لأنهم روحه ويسود بهم يقول:

شبابَ الجيل للإسلام عودوا ... فأنتم روحُه وبكم يسود
وأنتم سرُّ نهضته قديماً ... وأنتم فجرُهُ الزّاهي الجديد
عليكم بالعقيدة فهي درعٌ ... نصون به كراماتنا حديدُ[(٣)]

كما نرى كثيراً من العلماء يوجّه نداءاتٍ إلى الشباب، ناصحاً

(١) السيرة النبوية، د. علي محمد محمد الصلابي، ط١، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م، ١/ ١١٧.
(٢) انظر: الرحيق المختوم، المباركفوري، ط٢، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م، ص٥٢٩.
(٣) الزوابع، وليد الأعظمي، ص٦٦.

لهم ومذكِّراً إياهم بعدم الوقوع في شَرَكَ الغرب وصيده، وها هو الشيخ العالم الداعيةُ عبد الرحمٰن حسن حبنكة الميداني في كتابه القيم: «بصائر للمسلم المعاصر» يوجه نداءً رائعاً للشباب يقول فيه:

«يا شبابَ الإسلام، ويا طلائع البناء الجديد، ويا حباتِ قلوب الأمة الإسلامية المجيدة:

ليكنْ في علمكم أن دهاةَ الكيد العالميّين قد بالغوا في الكلام على الصحوة الإسلامية في العالم الإسلامي، وهوّلوا أمرَها لهدفين:

١ـ ليورّطوا شباب الإسلام وطلائع البناء الجديد في رعوناتٍ تسحق هذه الصحوةَ، وتعيد المسلمين إلى سُباتهم.

٢ ـ وليدُقُّوا ناقوس الخطر في آذان دول العالم الغربي وسائر الدول التي تخشى عودة الإسلام إلى الظهور والقوة في الأرض... وظهورِ كيان الأمة الإسلامية الواحدة.

لا تغتروا بمن يخادعكم ليستدرجَكم، ولا يقودنَّكم أحداثُ الأحلام، ولا المراهقون في فهم الإسلام، ولا تعتبروا كلّ من يخالفكم في الرأي خصماً لكم، ولا كلَّ من يوافقكم في الرأي صديقاً لكم...

لا تشتروا الثمار على أشجارها قبل أن يبدوَ صلاحُها، فريحٌ باردةٌ أو شديدة تُسقطها وهي غيرُ صالحة للانتفاع بها... اتقوا الله في أعمالكم، إن الله مع المتقين»[١].

---

(١) بصائر للمسلم المعاصر، عبد الرحمٰن حسن حبنكة الميداني، ط٣، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م، دار القلم، ص٧ ـ ٨ بتصرف.

كما أننا بحاجة إلى أن نربيَ شبابنا تربيةً روحية، وليست تربيةً جسدية بدنية فحسب «فعندما تتم تربية الناشئين تربيةً روحية متكاملة تصفو أرواحهم، وتزكو نفوسهم وتستنير عقولهم، وتستقيم أخلاقهم، وتتطهر أبدانُهم، وذلك لارتباطهم الوثيقِ بربهم عزَّ وجل الذي يراقبهم في كل حركاتهم وسَكناتهم، ويشعرون بأنَّه معهم في كل وقت وفي كل مكان، فإن لم يكونوا يرونه فإنَّه يراهم، فيخافونه ويرجونه ويرهبونه ويطمعون في كرمه، ويتوكلون عليه، ويحسنون الظن به، ويثقون في عونه وهدايته وتوفيقه»(١).

كما أن الدكتور محمد فؤاد سزكين، وجّه كلمةً إلى الشباب المسلم قالها في اللقاء الرابع لمنظمة الندوة العالمية للشباب الإسلامي في الرياض، سنة (١٣٩٩هـ)، منها:

أيها الشابُّ المسلم:

«لو درست تاريخَ الحضارة لهذه الأمة في قرونها الأولى لرأيت كيف أصبح الدينُ الذي جاء نظاماً إلٰـهياً لتنظيم البشرية وإصلاحها ـ بعد فترة قصيرة من ظهوره ـ مصحوباً بالعلم، إذ حكم العلمُ في قصور الحكام، وتحكَّم في خطب الخطباء، ومواعظ الوعّاظ، ولرأيت كيف كانت المساجد مراكز للعلوم ولطلب العلم...»(٢).

---

(١) مسؤولية المثقف الإسلامي تجاه قضايا الإرهاب، د. عثمان بن صالح العامر، ص٤.

(٢) صفحات من صبر العلماء، عبد الفتاح أبو غدة، ط٩، ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م، ص٣٥٦ ـ ٣٥٧.

«فيا شباب الإسلام: قد فُتح بابُ الترشيح، فهيا تسابقوا إلى العلا، وتنافسوا في جنة عرضُها السمٰواتُ والأرض، واختطوا لأنفسكم طريق المجد، فتالله ما ارتفع صوتُ الحادي يوماً لرفقة أولي صمم، ولا ارتفع الفلكُ الأعلى لغير أهل الشموخ والشمم... من منكم «يوسف» هذه الأحلام الذي يضرب صدره في ثقة وشموخ قائلاً: أنا لها.. أنا لها؟...»[1].

وتحضرني هنا هذه الأبياتُ التي قلتها في قصيدتي (صرخة في ضمير أمتي):

ـ أرى جيلاً من الشُّبَّا ... ن يقتل وقته الذهبي
تخنَّثَ في ملابسه ... ويمضي العمر في اللعب
يرى الغربيَّ أسوتَهُ ... ويقرأُ عنه في الكتب
يقلِّده كإمَّعَةٍ ... وتُخجله: أنا عربي
بهذا الجيلِ قولوا لي: ... سندحر جيش مغتصب؟!!
بهذا الجيل قولوا لي: ... سنُرْجع عزَّة العرب؟!!
بهذا الجيل قولوا لي: ... سنرقى هامةَ الشّهب؟!!
نريد اليوم عمّاراً ... وسلماناً وكلَّ أَبيْ
ألا حَسَنٌ إمامُ السل ... مِ عند تعاظُمِ الكُربِ
ـ يُعيد لنا تآلفَنا ... ووحدتنا، فداهُ أبي
نريد اليوم فاطمةً ... تُنير الدربَ بالشُّهب
فنور الحقّ والإيما ... ن يمحق ظُلمة الرِّيَبِ

(١) علو الهمة، محمد أحمد إسماعيل المقدم ص٤١٣ ـ ٤١٤.

نــــريــــدُ الـــيـــوم عـــائـــشـــةً تـــبُـــثُّ الـــعـــلـــم فـــي أدبِ

فعلى شبابنا الذين نريدهم اليوم، أن يقتدوا بشباب الصحابة ﷺ، ويسيروا على نهجهم، ويهتدوا بهديهم، عملاً وسلوكاً وحياةً وكفاحاً... حتى تشرقَ شمسُ عزّتنا وكرامتنا من جديد.

❋ ❋ ❋

# افْعَلِ الخَيْـرَ.. ولكنْ.. لا تَرْمِ بِهِ في البحرِ

هل جربت مرةً أن تزرع بسمةَ رضا على شفاه ساخط، أو أن تزرع بسمةَ أمل على شفاه قانطٍ، أو أن تزرع وردةَ حبور في حديقة بائس محزون؟!...

جرِّب ذلك، وسوف ترى أن السرور الذي تدخلُهُ على نفسك يفوق السرور الذي أدخلتَه إلى نفس الساخط والقانط والبائس... لكن بشرطِ أن تكون مخلصاً في ذلك، وبشعورٍ نابع من صميم قلبك، وحرصٍ على فعل الخير لذاته، وإلا لن تشعر بذلك الشعورِ لأن فاقدَ الشيء لا يعطيه...

ففعل الخير واصطناع المعروف خلُق عظيم، وفاعل الخير محبوبٌ في الدنيا قبل الآخرة؛ لأن فعل الخير لا يأتي إلا بخير، كما أن فعل الشر لا يأتي إلا بشر، ومن يفعل خيراً لا بد أن يُجزى به، كما قال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

ويلوح في خاطري قولُ الحطيئة:

مَنْ يفعل الخيرَ لا يَعدَمْ جوازيَهُ  لا يذْهبُ العُرْفُ بين اللّهِ والنَّاسِ

وكذلك فإن الخير يبقى، وأما الشرُّ فمصيره إلى زوال، وهو

أخبث زادٍ يتزود الإنسان منه، كما قال عبيدُ بن الأبرص:

الخيرُ يبقى وإن طالَ الزمانُ به     والشرُّ أخبثُ ما أوعيتَ من زاد

وخيرٌ من الخير ـ كما قالوا ـ فاعلُه، وخيرٌ من الذهب معطيه، وفاعل الخير ومصطنعُ المعروف لن يضيع عملُه سدى، حتى وإن قدم هذا الخير لحجر أصمَّ، وجميل ما ذُكر في كتاب (جمهرة الأمثال) لأبي هلالٍ العسكريِّ:

ما ضاعَ عُرفٌ وإن أوليتَه حجَراً . .

وعلى الإنسان أن يفعل الخير للخير، وينتظرَ الثواب من الله لأن بعضَ الناس قد ينسى ما قدمت له من معروف، وما كان ربُّك نسيّاً، ولأن بعض الناس قد يضيّع ثوابَ الأعمال الحسنة، ولكن الله لا يُضِيعُ أجر من أحسن عملاً، لذلك قال حكيم الجاهلية وشاعرها زهيرُ بن أبي سُلمى:

ومنْ يجعلِ المعروفَ في غير أهله     يكن حمدُهُ ذمّاً عليه ويندمِ

وكذلك على المرء أن لا يستصغرَ فعلَ معروفٍ مهما صغر؛ لأنه قد يكون عند الله عظيماً، وإن كان بعضُ الناس يرونه لا قيمة له، وإليك بعضَ الأمثلة لأعمال قليلةٍ ولكن قد غُفر لأصحابها:

عَن أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، قَالَ: «**بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي بِطَرِيقٍ اشْتَدَّ عَلَيْهِ الْعَطَشُ، فَوَجَدَ بِئْراً فَنَزَلَ فِيهَا، فَشَرِبَ ثُمَّ خَرَجَ فَإِذَا كَلْبٌ يَلْهَثُ يَأْكُلُ الثَّرَى من الْعَطَشِ، فَقَالَ الرَّجُلُ: لَقَدْ بَلَغَ هَذَا الْكَلْبَ من الْعَطَشِ مِثْلُ الَّذِي كَانَ بَلَغَنِي، فَنَزَلَ الْبِئْرَ فَمَلأَ خُفَّهُ، ثُمَّ أَمْسَكَهُ بِفِيهِ حَتَّى ارتقى فَسَقَى الْكَلْبَ فَشَكَرَ اللهُ لَهُ فَغَفَرَ لَهُ، فَقَالُوا:**

**يَا رَسُولَ اللهِ، وَإِنَّ لَنَا فِي الْبَهَائِمِ لأَجْراً؟ فَقَالَ: فِي كُلِّ ذَاتِ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ**» رواه البخاري، وكذلك غُفر الله لامرأةٍ مومسةٍ لأنها سقت كلباً كما جاء في الحديث المتفق عليه:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، قَالَ: «**غُفِرَ لامْرَأَةٍ مُومِسَةٍ مَرَّتْ بِكَلْبٍ عَلَى رَأْسِ رَكِيٍّ يَلْهَثُ، قَالَ: كَادَ يَقْتُلُهُ الْعَطَشُ، فَنَزَعَتْ خُفَّهَا، فَأَوْثَقَتْهُ بِخِمَارِهَا، فَنَزَعَتْ لَهُ من الْمَاءِ، فَغُفِرَ لَهَا بِذَلِكَ**».

ومن المعروف وفعل الخير أن يتجاوزَ من يدايِنُ الناس عن المعسرين، وخاصةً في الأزمات؛ لأن الله سيتجاوز عنه يوم القيامة، وتأمل معي في هذا الحديث التالي:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ رَجُلاً لَمْ يَعْمَلْ خَيْراً قَطُّ، وَكَانَ يُدَايِنُ النَّاسَ فَيَقُولُ لِرَسُولِهِ: خُذْ مَا تَيَسَّرَ وَاتْرُكْ مَا عَسُرَ وَتَجَاوَزْ لَعَلَّ اللهَ تَعَالَى أَنْ يَتَجَاوَزَ عَنَّا، فَلَمَّا هَلَكَ قَالَ اللهُ ﷻ لَهُ: هَلْ عَمِلْتَ خَيْراً قَطُّ؟ قَالَ: لَا، إِلَّا أَنَّهُ كَانَ لِي غُلَامٌ وَكُنْتُ أُدَايِنُ النَّاسَ فَإِذَا بَعَثْتُهُ لِيَتَقَاضَى قُلْتُ لَهُ: خُذْ مَا تَيَسَّرَ وَاتْرُكْ مَا عَسُرَ وَتَجَاوَزْ لَعَلَّ اللهَ يَتَجَاوَزُ عَنَّا قَالَ اللهُ تَعَالَى: قَدْ تَجَاوَزْتُ عَنْكَ**». رواه النسائي.

وإذا أردتَ أن تعلم من هو أحبُّ الناس إلى الله، وما هي أحب الأعمال إلى الله، فالجواب في الحديث التالي: قيل يا رسول الله: من أحب الناس إلى الله؟ قال: «**أنفعُهم للناس، وإن أحب الأعمال إلى الله سرورٌ تدخله على مؤمن، تكشف عنه كرباً، أو تقضي عنه ديناً، أو تطرد عنه جوعاً، ولأن أمشيَ مع أخي المسلم في**

**حاجةٍ أحبُّ إليَّ من أن أعتكف شهرين في مسجدٍ، ومن كفَّ غضبه ستر الله عورته، ومن كظم غيظه ولو شاء أن يُمضيه أمضاه ملأ الله قلبه رضىً، ومن مشى مع أخيه المسلم في حاجة حتى يثبتها له ثبّت الله قدمه يوم تزل فيه الأقدامُ، وإن سوء الخلُق ليفسدُ العمل كما يفسد الخل العسلَ**».

اصطناع المعروف، ابن أبي الدنيا، قال المحقق: الحديث حسن.

ثم إن فعلَ المعروف وإكرامَ السائل، وإغاثةَ الملهوفِ سجيّةٌ عندَ بعض الناس، فاستحق صاحبُ هذه السجيةِ أمدحَ بيتِ شعرٍ ثناءً له، ففي كتاب (الشعر والشعراء) لابن قتيبةَ، قال عبد الملك لقومٍ من الشعراء: أي بيت أمدحُ؟ فاتفقوا على بيت زهيرٍ:

تَـرَاهُ إذَا مـا جِـئْـتَـهُ مُـتَـهَـلِّـلاً كأَنَّكَ تُعْطِيهِ الَّذِي أَنْتَ سائِلُهْ

**ختاماً**: لا تقُل افعل خيراً وارم في البحر، بل افعل خيراً ولا ترم به في البحر، لأنك ستلاقيه خيرَ زادٍ.

ولا تقل: اتق شرَّ من أحسنت إليه، بل تخلّقْ بأخلاق النبوة وأحسن إلى من أساء إليك، وتذكر دائماً قول الشاعر:

ازرعْ جميلاً ولو في غير موضعه فما يضيع جميلٌ أينما زُرِعا

# مِن أَخبَارِ العِطَاشِ

من نعم الله العظيمة التي أنعم بها علينا، والتي لا تقدَّر بثمن نعمة الماء، هذا الماء الذي جعله الله سراً من أسرار الحياة، فحيث عُدم عدمت الحياة، وُحيث وُجد وجدت الحياة، كما قال جل ذكره: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

وكثُر حديث العرب عن الماء والسقيا والرّي، والعطش والظمأ، في أخبارهم وأشعارهم وسِيرهم وأيامهم...

ولأن الماء من نعم الله الجليلة، فإنه دائماً يذكرنا بهذه النعمة، حتى نؤديَها حقّها في الشكر والثناء، قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [الواقعة: ٦٨ ـ ٧٠] وقال جل ذكره: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الملك: ٣٠].

كما ورد ذكرُ الماء والشربِ كثيراً في كتاب الله ﷻ، وفي مناسبات عديدة، كما قال تعالى للسيدة مريم: ﴿فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا ۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾﴾ [مريم: ٢٦] وكما قال لسيدنا أيوب عليه السلام: ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾﴾ [ص: ٤٢].

وقد شبَّه الله ﷻ في كتابه العزيز أعمالَ الكافرين في الدنيا بالسراب الذي يحسبه الظمآن ماءً، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾﴾ [النور: ٣٩].

والماء ليس فقط من نعم الله في الدنيا، بل من النعم التي خبّأها الله لعباده المؤمنين في الجنة، وإذا كان ماء الدنيا يأسن ويتغير مع مرور الزمن، فإن ماءَ الجنة لا يتغير، قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾ [محمد: ١٥].

وإذا كان المؤمنون يتنعمون بالجنة وما فيها من النعيم المقيم، فإن أعظم أمنيّة لأصحاب النار ـ والعياذ بالله ـ هي شربةُ ماء، ولكنّ الله حرمها على الكافرين، قال تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾﴾ [الأعراف: ٥٠].

وكما يشرب المؤمنون من ماء الجنة وأنهارها؛ كالكوثر والتّسنيم، وكالعين التي تُسمى سلسبيلاً، وكالعين التي يشرب بها عبادُ الله يفجرونها تفجيراُ، فإن المؤمنين يشربون أيضاً من حوض النبي عليه الصلاة والسلام، هذا الحوض الذي ماؤُه أبردُ من الثلج، وأشدُ بياضاً من اللبن، كما قال ﷺ: «**أَلَا إِنَّ لِي حَوْضاً مَا بَيْنَ نَاحِيَتَيْهِ كَمَا بَيْنَ أَيْلَةَ إِلَى مَكَّةَ ـ أَوْ قَالَ صَنْعَاءَ إِلَى الْمَدِينَةِ ـ وَإِنَّ فِيهِ من الأَبَارِيقِ مِثْلَ الْكَوَاكِبِ هُوَ أَشَدُّ بَيَاضاً من اللَّبَنِ وَأَحْلَى من الْعَسَلِ**

**من شَرِبَ مِنْهُ لَمْ يَظْمَأْ بَعْدَهَا أَبَداً»**[1].

وقبل أن نخوضَ في الحديث عن العطش، وأخبار العطاش، وبما أننا نتحدث عن الماء لا بد لنا أن نخصَّ ماء زمزم بشيء من الحديث؛ لأن لهذا الماء خاصيةً وميزةً لا توجد في ماء آخرَ؛ فـ«**مَاءُ زَمْزَمَ لِمَا شُرِبَ لَهُ**»[2]، و«**ماء زمزم طعامُ طعم، وشفاءُ سقم**»، فهذا أبو ذر الغِفاري عندما كان في مكةَ يسأله النبي ﷺ: «**مَتَى كُنْتَ هَا هُنَا؟**». قَالَ: كُنْتُ هَا هُنَا مُنْذُ ثَلَاثِينَ من بَيْنِ لَيْلَةٍ وَيَوْمٍ. قَالَ: «**فَمَنْ كَانَ يُطْعِمُكَ؟**». قُلْتُ: مَا كَانَ لِي طَعَامٌ إِلَّا مَاءُ زَمْزَمَ، ـ قَالَ: ـ فَسَمِنْتُ حَتَّى تَكَسَّرَ عُكَنُ بَطْنِي وَمَا وَجَدْتُ عَلَى كَبِدِي سَخْفَةَ جُوعٍ. قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّهَا مُبَارَكَةٌ، وَإِنَّهَا طَعَامُ طُعْمٍ**»[3][4].

فهو ماء مبارك، وأشرف منه الماءُ الذي نبع من بين أصابع النبي ﷺ، فقد ذكر في زاد المعاد أن النبي ﷺ قَالَ: «**يَا أَخَا صُدَاءَ هَلْ مَعَك مَاءٌ؟**» قُلْت: مَعِي شَيْءٌ فِي إدَاوَتِي. فَقَالَ: «**هَاتِهِ**». فَجِئْت بِهِ فَقَالَ: «**صُبّ**». فَصَبَبْتُ مَا فِي الْإِدَاوَةِ فِي الْقَعْبِ فَجَعَلَ أَصْحَابُهُ يَتَلَاحَقُونَ، ثُمّ وَضَعَ كَفّهُ عَلَى الْإِنَاءِ فَرَأَيْتُ بَيْنَ كُلّ أُصْبُعَيْنِ من أَصَابِعِهِ عَيْناً تَفُورُ، ثُمّ قَالَ: «**يَا أَخَا صُدَاءَ لَوْلَا أَنّي أَسْتَحِي من رَبّي عَزّ وَجَلّ**

---

(١) مسند أحمد ١٥/ ٨٠.

(٢) مسند أحمد ٣١/ ٤١٨.

(٣) كذا في مسند أحمد، وزاد مسلم: «**وشفاء سقم**».

(٤) العكن: جمع عكنة، وهي ما انطوى وتثنى من لحم البطن سمناً، السخفة: الرقة والهزال، وقيل: هي الخفة التي تعتري الإنسان إذا جاع.

**لَسَقَيْنَا وَاسْتَقَيْنَا**» ثُمّ تَوَضّأَ وَقَالَ: «**أَذّنْ فِي أَصْحَابِي من كَانَتْ لَهُ حَاجَةٌ بِالْوُضُوءِ فَلْيَرِدْ**» قَالَ: فَوَرَدُوا من آخِرِهِمْ[1].

وكذلك عَنْ جَابِرِ بنِ عَبْدِ اللهِ ﵄ قَالَ: عَطِشَ النَّاسُ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ، وَالنَّبِي ﷺ بَيْنَ يَدَيْهِ رَكْوَةٌ فَتَوَضَّأَ فَجَهَشَ النَّاسُ نَحْوَهُ، فَقَالَ: «**مَا لَكُمْ**». قَالُوا: لَيْسَ عِنْدَنَا مَاءٌ نَتَوَضَّأُ ولا نَشْرَبُ إِلَّا مَا بَيْنَ يَدَيْكَ، فَوَضَعَ يَدَهُ فِي الرَّكْوَةِ فَجَعَلَ الْمَاءُ يَثُورُ بَيْنَ أَصَابِعِهِ كَأَمْثَالِ الْعُيُونِ، فَشَرِبْنَا وَتَوَضَّأْنَا. قُلْتُ كَمْ كُنْتُمْ قَالَ لَوْ كُنَّا مِائَةَ أَلْفٍ لَكَفَانَا؛ كنَّا خَمْسَ عَشْرَةَ مِائَةً[2]..

وحصل نبعُ الماء من بين أصابع النبي ﷺ في أكثرَ من موضع كما هو معروف للجميع...

وغالباً عندما يُذكر الماءُ يُذكر معه العطش والظمأُ، مع أن الإنسان قد يُروى من غير الماء، ولكنه ريٌّ مؤقتٌ، فالنبي ﷺ شرب لبناً، قَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ لَمَّا خَرَجْنَا مَعَ النَّبِي ﷺ من مَكَّةَ إِلَى الْمَدِينَةِ مَرَرْنَا بِرَاعٍ وَقَدْ عَطِشَ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَالَ: «**فَحَلَبْتُ لَهُ كُثْبَةً من لَبَنٍ فَأَتَيْتُهُ بِهَا فَشَرِبَ حَتَّى رَضِيتُ**»[3].

ومن أعظم الأجور التي يُؤجرُ المرء عليها سقايةُ العطشى، وإرواءُ الماء، حتى في الجاهلية كانوا يتسابقون لسقاية الحجيج،

---

(١) زاد المعاد، ابن القيم ٣/ ٥٨٠.

(٢) البخاري.

(٣) مسلم، والكثبة: القليل من اللبن وغيره.

وما زالت إلى اليوم سقاية الحجيج من أعظم الشرف وأرفعه...

وكثيراً ما استسقى النبيُّ ﷺ للصحابة كما استسقى موسى لقومه، وخاصةً في العطش الشديد،قال عمر: خرجنا إلى تبوكَ في قيظ شديدٍ، فنزلنا منزلاً أصابنا فيه عطشٌ حتى ظننا أنّ رقابنا ستنقطع، حتى أنّ الرجل لينحر بعيرَه، فيعصرَ فرثه فيشربه، ويجعلَ ما بقي على كبده، فقال أبو بكر الصديق: يا رسول الله: إن الله قد عوّدك في الدعاء خيراً، فادع له، فقال: «**أتحبُّ ذلك؟**» قال: نعم، فرفع يديه فلم يرجعْهما حتى قالت السماء، فأظلّت ثم سكبت، فملؤوا ما معهم، ثم ذهبنا ننظرُ فلم نجدْها جازت العسكر[(١)].

بل كان النبيُّ ﷺ في غاية التواضع، فهو يسقي أصحابه، ويشرب آخرهم، كما روى الإمام أحمد في مسنده: أَصَابَ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَأَصْحَابَهُ عَطَشٌ. قَالَ: فَنَزَلَ مَنْزِلاً فَأُتِيَ بِإِنَاءٍ فَجَعَلَ يَسْقِي أَصْحَابَهُ وَجَعَلُوا يَقُولُونَ اشْرَبْ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**سَاقِي الْقَوْمِ آخِرُهُمْ**». حَتَّى سَقَاهُمْ كُلَّهُمْ.

ويرغّب النبيُّ ﷺ، بالأذان لأن المؤذنين لا يعطشون يوم القيامة كما قَالَ النَّبِي ﷺ: «**الْمُؤَذِّنُونَ أَطْوَلُ أَعْنَاقاً يَوْمَ الْقِيَامَةِ**». لَيْسَ إِنَّ أَعْنَاقَهُمْ تَطُولُ، وَذَلِكَ أَنَّ النَّاسَ يَعْطَشُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَإِذَا عَطِشَ الإِنْسَانُ انْطَوَتْ عُنُقُهُ وَالْمُؤَذِّنُونَ لا يَعْطَشُونَ فَأَعْنَاقُهُمْ قَائِمَةٌ[(٢)].

---

(١) المستدرك على الصحيحين للحاكم ٢/ ٦٤.

(٢) سنن البيهقي ١/ ٤٣٢.

وليس الأمر في الثواب مقتصراً على الإنسان، بل حتى الحيوان عندما يعطش ويسقيه الإنسان فإن الله قد يغفر له، والحديث الصحيح التالي يؤيد ذلك: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ـ رضي الله عنه ـ قَالَ:

قَالَ النَّبِي ﷺ: «**بَيْنَمَا كَلْبٌ يُطِيفُ بِرَكِيَّةٍ كَادَ يَقْتُلُهُ الْعَطَشُ، إِذْ رَأَتْهُ بَغِيٌّ من بَغَايَا بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَنَزَعَتْ مُوقَهَا فَسَقَتْهُ، فَغُفِرَ لَهَا بِهِ**»[1].

وقد يكون المطر من السماء بسبب حيوانٍ، فقد خرج نبيٌّ من الأنبياء بالناس يستسقون، فإذا هُمْ بنملة رافعةٍ رأسَها إلى السماء، فقال ذلك النبيُّ: ارجِعُوا فقد استُجيبَ لكم من أَجْلِ هذا النَّمْلِ، وعن أبي الصِّدِّيق النَّاجي قال: خرج سليمانُ بنُ داود ـ عليهما الصلاة والسلام ـ يستسقي فرأى نملةً مستلقيةً على ظهرها، رافعةً قوائمها إلى السماء وهي تقول: اللَّهُمَّ إنَّا خلقٌ من خَلْقك، ليس بنا غنًى عن سقْيك، فإمّا أنْ تسقينا وترزُقنا، وإمَّا أنْ تُميتنا وتُهلكنا فقال: ارجعوا فقد سُقيتمْ بدعوة غيركم[2].

وكم تفنن الشعراءُ في الصور البديعة التي تصوِّر العطشَ والماءَ، والورودَ والصدود، والنهل والعلل، فالمأمون يقول:

أَرَى مـاءً وبـي عـطـشٌ شـديـدٌ ولـكـنْ لا سـبـيـلَ إلـى الـورودِ
أما يـكـفـيـكِ أنَّـكِ تـمْـلِـكـيـنـي وأنَّ الـنَّـاسَ كـلّـهُـمُ عَـبـيـدي

---

(١) صحيح البخاري.

(٢) الحيوان الجاحظ ١/ ٣٠٤، وانظر: نهاية الأرب في فنون الأدب، النويري ٣/ ١٠٨.

ومما قيل في الدعاء:

رَمَاكَ رَبّي بِحُمّاةٍ مُقَلقِلَةٍ وَبامتِنَاعِ طَبيبٍ لا يُداوِيكَا
وَأنْ تَظَلّ بِصحرَاءٍ عَلى عَطَشٍ وَتَطلُبَ المَاءَ مِمّن لَيسَ يَسقيكَا[1]

وغالب بنُ عبد الله بن عطية عطش وهو في البحر فقال في ذلك:

إنا إلى اللَّه لقد نالنا هَمّ يذيب القلب إحراقه
يا عجبا مما دهينا به نسكن في الماء ونشتاقه[2]

ومما قاله المجنون:

أُأَمِّل أنْ أُعَلَّ بشرب لَيْلَى ولم أَنْهَلْ، فكيف إلى العلول؟!

وابن المعذّل يأتي بصورة في غاية الروعة عندما يقول:

ما إنْ ذكرتكَ في قومٍ أجالسهمْ إلَّا تجدَّد من ذكراكَ بلوائي
ولا هممتُ بشربِ الماءِ من عطشٍ إلَّا وجدتُ خيالاً منكَ في الماءِ
ولا حضرتُ مكاناً لستَ شاهدهُ إلَّا وجدتُ فتوراً بينَ أعضائي

ومثله لشاعر آخرَ، ولا أدري من الذي أخذ من الثاني:

يا صاحِ ما طلعَتْ شمسٌ ولا غربَتْ إلَّا وأنتَ مُنى قلبي ووَسْواسي
ولا تنفستُ محزوناً ولا فَرِحاً إلَّا وذكركَ مقرونٌ بأنفاسي
ولا هممتُ بشربِ الماءِ من عطش إلَّا رأيتُ خيالاً منك في الكاسِ
ولا جلستُ إلى قومٍ أُحدّثهُم إلَّا وأنتَ حديثي بين جُلّاسي

---

(١) مصارع العشاق، السرّاج القارئ ١/ ١٩٥.

(٢) يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، الثعالبي ٢/ ٦٧.

وهناك أبيات لأخت عمرو بن عاصية السلميّ ترثيه، وقد قُتل أسيراً وهو في غاية العطش، تخاطب من أسره وقتله:

هَلَّا سَقَيْتُمْ بني جَرْمٍ أسِيرَكُمْ، نَفْسِي فِداؤُكَ من ذِي غُلَّةٍ صادِي
شَهّادُ أَنْدِيَةٍ، رَفّاعُ أَلْوِيةٍ سَدّادُ أَوْهِيَةٍ، فَتّاحُ أَسْدادِ
الطاعن الطعنةَ النّجلَاء يَتبَعُها مُثعَنْجِراً بعد ما تَغْلي بإزْبَاد

وسبب الشعر أنه كان بنو سهم ـ وهم بطن من هذيل ـ أسروه في حربٍ كانت بينهم، ولم يعرفوه فلما عرفوه، قتلوه، وكان قد عطش فاستسقاهم فمنعوه، وقتلوه على عطشه. وقيل إن هذا الشعرَ للفارعة أختِ مسعود بن شداد(١).

وبعضهم قال شعراً في العنب الأبيض والأسود، وجعله عاصماً من الجوع بالإضافة إلى العطش؛ كأحمدَ بنِ عبد ربه الذي يقول في عنب أبيضَ وأسودَ:

أهديتَ بيضاً وسوداً في تلوُّنها كأنَّها من بناتِ الرُّوم والحَبَشِ
عذراءُ تُؤكلُ أحياناً وتُشربُ أحيا ناً فتعصِمُ من جوعٍ ومن عَطَشِ(٢)

والبعض الآخر جعل الأشياء المعنوية تُشرب، فالبشاشة هي التي يَسقي أبو المغيث منها رعيّته، وقد مدحه أبو تمام، فقال:

اسقِ الرعية من بشاشتك التي لو أنها ماء لكان مَسوسا(٣)

---

(١) الأغاني، أبو الفرج الأصبهاني ٣/ ٣٣١.
(٢) التشبيهات من أشعار أهل الأندلس، ابن الكتاني ١/ ١٣.
(٣) الوساطة بين المتنبي وخصومه، الجرجاني ١/ ٢٢.

وأحمد بن عبد ربه الأندلسي يرى أن أحبابه سقوْه من الحِمام، وذلك عندما رحلوا وسارت بهم الظعائن، وخلفوه وحيداً يقول:

سقوني حمامي يومَ ساقوا حمولهم فرحتُ وراحوا بين ساقٍ وسائقِ
وأَخرس لفظي وهو ليس بأخرس وأنطق دمعي وهو ليس بناطقِ
فيا بأبي تلك الدموعَ التي همت فدلّت على مكنون تلك العلائقِ:[١]

بينما نرى أن زيد ابن المعتمد على الله بنِ أبي القاسم عباد، قال ارتجالاً، وأنشد سحراً حلالاً، عندما مرّت عليه هوادجٌ وقبابٌ، فيها له أخدانٌ وأحبابٌ؛ وجّهوا على وجه الهدية إلى برّ العدوة، وقد كان يلم بهنَّ في صباه إلمام قريش بدار الندوة:

مروا بنا أصُلاً من غير ميعادِ فأوقَدُوا نار شوقِي أيَّ إِيقَادِ
وأذكرونِيَ أيّاماً لهَوتُ بِهم فيهَا ففازوا بإِيثَاري وإحْمادي
لا غَرو أن زَادَ في وجْدي مرورُهم فرؤيةُ الماء تُذكي غُلَّة الصادِي[٢]

وهذا الشاعر يطلب من أحبابه سكان العُذيب أنْ يشربوا دموعَ عينه التي يذرفها شوقاً لهم، بعد أنْ بعدت منازلهم:

يا ساكني أرضِ العذيب سُقيتُمُ دمعي، إذا ضنَّ الغمام المرزمُ
بعدت منازلكُم وشطّ مزارُكم وعهودُكم محفوظةٌ، مذ غبتمُ[٣]

وكثيرٌ من الكرماء من كافأ على شربة ماء بالألوف، ومن ذلك ما يروى أن عبدَ الله بنَ أبي بكر ـ وكان من أجود الأجواد ـ عطش

---

(١) يتيمة الدهر، الثعالبي ١/ ١٥٥.
(٢) المطرب من أشعار أهل المغرب، ابن دحية الكلبي ١/ ١١.
(٣) معجم الأدباء، ياقوت الحموي ١/ ١٥٣.

يوماً في طريقه، فاستسقى من منزل امرأة، فأخرجت له كوزاً، وقامت خلف الباب، وقالت: تنحّوا عن الباب، وليأخذْه بعضُ غلمانكم، فإنني امرأةٌ عزبٌ مات زوجي منذ أيام، فشرب عبدُ الله الماءَ، وقال: يا غلام: احمل إليها عشرةَ آلاف درهم، فقالت: سبحان الله! أتسخر بي؟ فقال: يا غلام: احمل إليها عشرين ألفاً، فقالت: أسأل الله العافية، فقال: يا غلام احمل إليها ثلاثين، فما أمست حتى كثُر خُطّابها، وكان رضي الله تعالى عنه ينفق على أربعين داراً من جيرانه عن يمينه، وأربعين عن يساره، وأربعين أمامه، وأربعين خلفه، ويبعث إليهم بالأضاحي والكسوة في الأعياد، ويعتق في كل عيدٍ مائةَ مملوكٍ رضي الله تعالى عنه(١).

وكثيرةٌ هي القصص التي تتحدث عن الذين كادوا يموتون من العطش، نكتفي بواحدةٍ منها:

قال زيد بنُ الحباب: قال: حدثنا محمد بن نشيط؛ قال: حدثنا بكر بن عبد الله المزني: أن قصاباً وُلع بجارية لبعض جيرانه، فأرسلها أهلُها إلى حاجة لهم في قرية أخرى، فتبعها فراودها عن نفسها فقالت: لا تفعل لأنا أشدُّ حباً لك منك لي، ولكني أخاف الله قال: فأنت تخافينه وأنا لا أخافه!! فرجع تائباً فأصابه العطش حتى كاد ينقطع(٢).

وما أكثر الأمثلةَ التي تتحدث عن العطش والسّقيا والماء،

---

(١) المستطرف في كل فن مستظرف، الأبشيهي، ١/ ٣٤٧.

(٢) ذم الهوى ١/ ٢٦٩.

ولكل مثل قصةٌ أدَّت إلى هذا المثل، فمن الأمثال المثلُ المشهور: (اسق أخاك النمري)، أما قصته فكما قال أبو عبيد: أصله أن رجلاً من النمر بن قاسط صحب كعب بنَ مامة، وفي الماء قلةٌ، فكانوا يشربون بالحصاة، وكان كلما أراد كعبٌ أن يشربَ نظر إليه النمري فيقول كعب للساقي: اسقِ أخاك النمريَّ. فيسقيه حتى نفد الماء، ومات كعبٌ عطشاً[1].

وكذلك المثل الذي يقول: (أظن ماءَكم هذا ماء عِناق).

قالوا: كان من حديثه أن رجلاً بينا هو يستقي وبيته تلقاء وجهه، فنظر فإذا هو برجل معانقٍ امرأته يقبّلها، فأخذ العصا وأقبل مسرعاً لا يشك فيما رأى، فلما رأته امرأته جعلت الرجل في خالفةِ البيت بين الخالفة والمتاع، فنظر يميناً وشمالاً فلم ير شيئاً، وخرج فنظر في الأرض فلم ير شيئاً، فكذَّب بصره. فقالت المرأة، كأنها تريه أنها قد استنكرت من أمره شيئاً: ما دهاك يا أبا فلان؟ أرعبك شيء؟ فكتمها الذي رأى ومضى لحاجته، فلما كان في الورد الثاني قالت: يا أبا فلان: هل لك أن أكفيك السقيَ وتودع اليوم فإني قد أشفقت عليك؟ قال: نعم إن شئت. فأقام في المنزل، فانطلقت تسقي، وتحينت منه غفلة فأخذت العصا ثم أقبلت حتى تفلق بها رأسَه فشجته. فقال: ويلك، ما لك، وما دهاك؟ قالت: وما دهاني يا فاسق، أين المرأةُ التي رأيتها معك تعانقها؟ فقال: لا والله ما كانت عندي امرأة، وما عانقت اليوم امرأة. قالت: بلى، أنا

---

(١) مجمع الأمثال، الميداني ١/ ١٤٥.

نظرت إليها بعيني، وأنا على الماء. فتحالفا، فلما أكثرت قال: إن تكوني صادقة فإن ماءكم هذا ماءُ عِناق(١).

والأمثلةُ على ذلك كثيرةٌ جداً، والقصص التي تتحدث عن أخبار العطاش أكثرُ وأكثر، فما علينا في نهاية المطاف إلا أن نشكر الله على نعمه وآلائه التي لا تحصى، وأن يُديم علينا نعمة الماء الفرات، وأن يسقينا من يد نبينا ﷺ شربةً لا نظمأ بعدها أبداً، إنه سميع قريب.

❁ ❁ ❁

(١) مجمع الأمثال، الميداني ١/ ١٩٤.

# الأُخُوَّةُ الصَّادِقَةُ هَلْ فَقَدْناها؟!

الأخوة الصادقة كلمةٌ أريجُها يعطر الأرجاء، وعبارة تفيض بالحب والإخلاص والوداد والوفاء...

أخوةٌ من غير نسب، وصادقة لا تعرف الخداع والزيف والكذب...

حبٌّ في الله، وإخاء لا لمصلحة من مال أو منصب أو جاه...

لكنْ، يبقى السؤال؟!

هل افتقدنا هذه الكلمة في أيامنا؟ أم نحن كالذين سبقونا بحثوا عنها فلم يجدوها، وجعلوا الخِلّ الوفي ثالث المستحيلات عندما قال أحدهم:

لما رأيت بني الزمان وما بهم خلٌّ وفيٌّ للشدائد أصطفي

فعلمت أن المستحيلَ ثلاثة الغول والعنقاء والخل الوفي

طبعاً. لا أوافق هذا الشاعر على أن الخل الوفي من المستحيلات، ولكن يمكن أن أقول: إنه من النادرات، فقلما يظفر به الإنسان، لذلك عندما يجده، ـ ويكون حراً وفياً ـ عليه أن يتمسَّك بأذياله كما قال الشاعر:

تمسك إن ظفِرت بذيل حرٍّ     فإن الحر في الدنيا قليل

وقد تلتقي بإنسان لأول مرة، فيغمرك إحساسٌ أنك تعرفه منذ زمن، ويدخل قلبَك من غير استئذان، والعكس صحيح، وما ذلك بعجيب، فإن روحك قد ألفت روحه، أما الثاني الذي لم تستسغه، فربما يكون في روحيكما تنافر لا إراديٌّ، إما أن يقوى مع مرور الزمن، وبعد التجربة والمعرفة، وإما أن تحصل الألفة فيما بعد، وعلى كل حال، حديث النبي ﷺ واضح في ذلك وصريح حيث يقول: «**الأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف**»[(١)].

ـ إن الأخ الصادق، والصديق الصدوق، يظفر به الإنسان عندما تبنى هذه الأخوةُ والصداقة على محبة الله، لذلك جعل الله تعالى من السبعة الذين يظلهم في ظله يوم لا ظل إلا ظله ـ كما في الحديث الصحيح ـ: «**رَجُلينِ تَحَابَّا فِي اللهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ**»[(٢)].

فالمحبة في الله هي التي تبقى وسواها يتلاشى ويضمحل، والذي يحب إنساناً ما لماله فإنه لا يحبه لشخصه، بل يحب المال الذي في جيبه، لذلك عندما يصبح فقيراً ينفضّ عنه الناس، ورحم الله من قال:

---

(١) صحيح ابن حبان، باب ذكر الإخبار عن سبب ائتلاف الناس وافتراقهم ٢٥/ ٣٧٧.

(٢) رواه البخاري، باب فضل ترك الفواحش ٦/ ٢٤٩٦.

رأيت الناس قد مالوا إلى من عنده مال
ومن ما عنده مال فعنه الناس قد مالوا
رأيت الناس قد ذهبوا إلى من عنده ذهب
ومن ما عنده ذهب فعنه الناس قد ذهبوا

وكذلك الذي يحب إنساناً لمنصبه، فهو لا يحبه لشخصه بل للمنصب الذي يتسلمه، فعندما (قيل لبعض الولاة: كم لك صديق؟ فقال: أما في حال الولاية فكثير وأنشد:

الناس إخوانُ من دامت له نعم والويل للمرء إن زلَّت به القدم

ولما نُكِب علي بن عيسى الوزير لم يَنظَرْ ببابه أحداً من أصحابه الذين كانوا يألفونه في ولايته، فلما رُدَّت إليه الوزارة، وقف أصحابه ببابه ثانياً فقال:

ما الناسُ إلا مع الدنيا وصاحبها فكلما انقلبت يوماً به انقلبوا
يعظمون أخا الدنيا فإن وثبت يوما عليه بما لا يشتهي وثبوا

وقال آخر:

فما أكثر الأصحاب حين نعدّهم ولكنهم في النائبات قليل)[1]

نحن نعلم أن المؤمن ليس بالخِبِّ، ولا الخبُّ يخدعه، فعليه أن يكون حذراً في اختيار الأصدقاء والأصحاب، فلا يصاحب إلا رجلاً يغفر له الزلة، ويُقيله العثرة، ويستر له العورة، ويعينه في

(١) المستطرف في كل فن مستظرف: شهاب الدين محمد بن أحمد أبي الفتح الأبشيهي، ط٣، دار صادر، ص١٦٦.

النكبة، ويحفظه في الغيبة فالشاعر أبو تمام يبحث عن صاحب، ولكن بشروط من أجمل شروط الصاحب الوفي فهو يقول:

من لي بإنسان إذا أغضبته     وجهلت كان الحلم رد جوابه
وإذا صبوتُ إلى المدام شربت من     أخلاقه وسكرت من آدابه
وتراه يصغي للحديث بطرفه     وبقلبه ولعلّه أدرى به

أما الدكتور مصطفى السباعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فهو يرغبنا أن نحرص على مصاحبة ثلاثة عندما يقول: (ثلاثة احرص على صحبتهم:

عالمٌ متخلق بأخلاق النبوة.

وحكيم بيَّضت فوديه ليالي التجربة. «والفَوْدُ: مُعْظَمُ شَعْرِ الرأسِ مما يَلي الْأُذُن، وناحِيَةُ الرأسِ، والمثنى فودان».

وشهم له من مروءته ما يحمله على نصحك إذا أخطأت، وإقالتك إذا عسرت، وجبرك إذا انكسرت، والدفاع عنك إذا غبت، والإكرام لك إذا حضرت)[1].

لذلك قالوا:

وليس أخي من ودَّني بلسانه     ولكنْ أخي من ودَّني وهو غائب
ومن ماله مالي إذا كنت معدما     ومالي له إن أعوزته النوائب

ولأن قليلاً من الناس من يتمثل بهذه الصفات العظيمة، رأينا وهبَ بن منبه بعد تجربة خمسين سنة يقول: «صحبت الناس خمسين

---

(١) مجلة: حضارة الإسلام، عدد خاص عن وفاة الدكتور مصطفى السباعي، ١٩٦٤م، ص٢٩.

سنة فما وجدت رجلاً غفر لي زلة، ولا أقالني عثرة، ولا ستر لي عورة»[1]. وأما ابن السماك فقد جعل ثلاث صفات لبقاء المودة ودوامها فعندما «قيل له: أي الإخوان أحق ببقاء المودة؟ قال: الوافر دينُه، الوافي عقلُه، الذي لا يملُّك على القرب، ولا ينساك على البعد»[2].

وقد رأينا في زماننا كثيراً من الصفات المذمومة في بعض من يدَّعون الصحبة الصالحة، «ومع أنه ليس من السهل الإحاطة بها، إلا أننا يمكن أن نكون متفقين على العديد منها، ومن هذه الصفات: حدة المزاج، والتفتيش عن أخطاء الآخرين ومتابعتها، والإسرافُ في نقدهم، وإظهار البرم من أوضاعهم، وكثرةُ الثرثرة والإفاضة في الكلام، مما يجرُّ غالباً إلى إفشاء الأسرار، وإلى النميمة، والأنانيةُ والتطرف في حب الذات، من الأسباب الأساسية للإخفاق في تكوين صداقات جديدة»[3].

بالإضافة إلى ما هو أعظم شناعةً من هذه الصفات، من الغدر والخيانة والغيبة والحسد والنفاق وسائر الأمراض القلبية. . .

فعلى الإنسان ألا يصاحبَ من يقع أمامه في أعراض الناس؛ لأنه سوف يقع في عِرضه، ولا من ينُمُّ له فإنه سوف ينم عليه، ولا من يغتاب عنده فإنه سوف يغتابه. . .

---

(١) المستطرف، ص١٦٦.

(٢) المصدر السابق، ص١٦٢.

(٣) عصرنا والعيش في زمانه الصعب: أ. د. عبد الكريم بكار، ط٣، دار القلم، ص٣١١ بتصرف.

ولا تغترَّ بكثير ممن يضحك في وجهك، فلعله سوف يُبْكيك يوماً ما.

إذا رأيت نيوب الليث بارزة فلا تظننَّ أن الليث يبتسم

فالمرء على دين خليله، والمرء مع من أحب[1]، فأخوك الصادق ينسى الهفواتِ، ويغفر لك الزلاتِ، وهو ليس ممن قيل فيهم:

وإن يروا هفوةً طاروا بها فرحاً مني وما علموا من صالح دفنوا

**ختاماً**: الأخوة الصادقة المبنية على المحبة في الله، وعلى تقوى الله، هي التي تبقى في الدنيا والآخرة، فكل صديق عدوٌّ يوم القيامة لصديقه إلا المتقين، قال تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزخرف: ٦٧].

* * *

---

(١) حديثان الأول رواه الحاكم في المستدرك والثاني رواه البخاري.

# حتَّى تصفُوَ القلوبُ وتسلَمَ الصُّدورُ

هو أحدُ الأصغرين، وموطنُ الأسرار، ومجمع الضغائن، ومنبعُ الحب، ومستقرُّ الكراهية، وهو المضغةُ التي إذا صلحت صلَح الجسدُ كله، وإذا فسدت فسد الجسدُ كلُّه...

إنه القلبُ، ولله درهُ! ويا لعجيبِ أمره! فهو سر من أسرار الله، وآيةٌ من آيات عظمته، يترفَّع عن الضغائن والأحقاد والغل والحسد، فيسمو بصاحبه إلى مصافِّ النقاء والطهر والصفاء... ويوغل في الكراهية والشحناء والتباغض، فيَهْوي بصاحبه إلى حضيض الغل والغش والحسد والقطيعة...

وأجمل شيء في الدنيا ـ كما نعلم جميعاً ـ أن يعيش المرءُ ذا قلبٍ صافٍ وصدرٍ سليم يُحب الخير لجميع الناس، ولا يحمل في قلبه حقداً على أحد أو حسداً لأي إنسانٍ «ففي صلاح القلوب صلاحُ الأجسام، وفي فسادها فسادُ الأجسام، وفسادُ الأجسام يترتب عليه فسادُ الإنسان، إذ ليس السقيم كالسليم، ولا المريض كالمعافى، فإذا كانت أمراضُ الأجساد قد تُفَوِّتُ حياة الدنيا، فإن أمراض القلوب تفوت حياة الآخرة، وتفسد حياة الدنيا»[1].

---

(١) الإيمان علاج أمراض القلوب، د. منير غندور، ط١، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م، ص٥، دار الفارابي.

. . . وما أجمل أن يعيش الناس حياةً ملؤُها الحب والرحمة والعطف والشفقة، وأن يرِدوا جميعاً بحارَ التآخي والألفة والوداد! . . . فأفضل الناس على الإطلاق كلُّ مخمومِ القلب صدوق اللسان، ولمعرفة مخموم القلب إليك الحديثَ الشريفَ التالي:

عَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ عَمْرٍو قَالَ: قِيلَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ: أَيُّ النَّاسِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «**كُلُّ مَخْمُومِ الْقَلْبِ صَدُوقِ اللِّسَانِ**»، قَالُوا: صَدُوقُ اللِّسَانِ نَعْرِفُهُ فَمَا مَخْمُومُ الْقَلْبِ؟ قَالَ: **هُوَ التَّقِيُّ النَّقِيُّ لا إِثْمَ فِيهِ ولا بَغْيَ ولا غِلَّ ولا حَسَدَ**»(١).

وإذا أردنا أن تصفوَ قلوبُنا وتسلمَ صدورنا فعلينا أن نبتعد عن كل ما يعكر صفوها، ويجعلها مليئةً بالشوائب، فلا نستمعُ لنمّام، ولا ننقل وِشايةً، وإن جاءنا فاسقٌ بنبأٍ فعلينا أن نتبيَّن، ولنتأملْ معاً في هذا الكلام النبوي الرائع حيث يقول ﷺ لأصحابه الكرام: «**لَا يُبَلِّغْنِي أَحَدٌ عَنْ أَحَدٍ من أَصْحَابِي شَيْئاً فَإِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَخْرُجَ إِلَيْكُمْ وَأَنَا سَلِيمُ الصَّدْرِ**»(٢).

وفي القرآن الكريم نرى أن من دعاء المؤمنين أنْ لا يجعلَ الله في قلوبهم غلّاً للذين آمنوا، قال تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

---

(١) رواه ابن ماجه في سننه.

(٢) رواه أحمد في مسنده.

وعلينا كذلك أن نبتعد عن الحسد؛ لأن الحسد داءُ الأمم، وهو منغِّص الحياة، ومنكِّدُ العيش، حيث يغلي قلبُ الحاسد غليانَ المرجل، ويكاد قلبه يتميَّز من الغيظ، ومحسودُه يرفُل في أثوابٍ من النعيم والسكينة والحبور، فحريٌّ بنا أن نطهِّر قلوبَنا من الغل والحسد، ورحم الله من قال:

طهِّـر فؤادَك من غلٍّ ومن حسدِ     واسلم بنفسك لا تمكُرْ ولا تَكِدِ
واترك أذى الناس وابذُل ما استطعت ندىً     واحذرْ أذاهم ولا تركَن إلى أحد(١)

وحتى تصفوَ قلوبُنا وتسلم صدورنا علينا أن نبتعد عن الغش لأن من غشَّنا فليس منا، وأن نبتعد عن المكرِ السيئ فلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ، وأن نبتعد عن سوء الظن لأن كثيراً من الظن إثم، ولأنّ الظن أكذبُ الحديث كما قال النبي ﷺ في الحديث المتفق عليه: «**ولا تكونُ الظنون السيئة إلا من القلوب التي لا تخلو من السيئات فتطلب في غيرها العثرات**»، كما قيل:

إذا ساء فعلُ المرء ساءت ظنونُهُ     وصـدَّق مـا يـعـتـادُهُ مـن تَـوَهُّـمِ
وعـادى مُـحـبـيـه بـقـول عـدوِّه     وأصبحَ في ليلٍ من الشك مظلمِ(٢)

وحتى تصفوَ قلوبنا علينا أن نترك التباغض، وأنْ لا يهجر أحدُنا أخاه فوق ثلاثٍ، فعَنْ أَنَسِ بنِ مَالِكٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**لَا تَبَاغَضُوا ولا تَحَاسَدُوا ولا تَدَابَرُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَاناً،**

---

(١) سقاية القلوب، إسماعيل المجذوب، ط٤، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م، ص٥٣.

(٢) الحث على سلامة الصدر، علي الدهامي، ط١، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م، ص٤٥.

**ولا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يُهَاجِرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثِ لَيَالٍ**»[1].

وحتى تصفو قلوبُنا ونتحاببَ فيما بيننا علينا أن نُفْشِيَ السلامَ بيننا بكثرةٍ لأن رسول الله ﷺ قَالَ: «**لَا تَدْخُلُون الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا ولا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا. أَوَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى شيء إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ؟! أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ**»[2].

**ختاماً أيها القارئُ الكريم**: ما هذه المقالةُ إلا دعوةٌ قلبيةٌ إلى صفاء القلوب، وسلامة الصدور، والتآخي والتحابب... فشتّانَ بين القلب الذي يكون أبيضَ كاللُّجين، ونقيّاً كماء السماء، وبين القلب الذي يتراكم عليه الرَّانُ، وتُنكَتُ فيه نكتةٌ سوداءُ تلو الأخرى من الكراهية والتباغض ليتحولَ إلى ظلماتٍ بعضُها فوق بعض...

ويقيناً إن من أعظم نعم الله على الإنسان أن يكونَ ذا قلبٍ تقيّ، وفؤاد نقيٍّ، لا يعرف حسداً ولا شحناء وغِلّاً... ولأن الغلَّ يُعكر صفو الحياة في الدنيا، نرى أن الله نزعه من قلوب أهل الجنة حتى لا يحسدَ أحدٌ أحداً، وحتى يعيشوا خالدين متحابِّين، على سرُرٍ متقابلين، كما قال تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ۝٤٧﴾ [الحجر: ٤٧].

❋ ❋ ❋

(١) رواه مالك في الموطأ.

(٢) رواه مسلم في صحيحه.

## فِي الإسلام: كادَ الجارُ أنْ يرثَ جارَهُ!

كلنا نعلم أنّ من مفاخر العرب في الجاهلية حسنَ الجوار، وأن العربَ اعتبروه من حميدِ مكارم الأخلاق، ولا نزال نذكر قول عنترةَ:

وأغُضّ طَرْفي ما بَدت ليَ جارتي حتى يُوارِي جارتي مَأواها

كما أن العرب اعتبروا أن إساءة الجوار من الخصال الذميمة التي يجب تجنبها، ويُلام فاعلُها... لذلك كان مما قال جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ لملك الحبشة النجاشي، فَقَالَ لَهُ: أَيّهَا الْمَلِكُ كُنّا قَوْماً أَهْلَ جَاهِلِيّةٍ نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ وَنَقْطَعُ الْأَرْحَامَ وَنُسِيءُ الْجِوَارَ...

وعندما أطلَّ الإسلامُ بنوره، وأشرقت شمسُه، رأينا أن النبيَّ ﷺ، أتى مُتمّماً لمكارم الأخلاق؛ لأن شجرة الأخلاق واحدةٌ، فما كان من النبي ﷺ إلا أنْ هذّب شجرته وشذبها، وها هو جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ يقول لملك الحبشة النجاشي أيضاً:

... حَتّى بَعَثَ اللّهُ إلَيْنَا رَسُولاً مِنّا، نَعْرِفُ نَسَبَهُ وَصِدْقَهُ وَأَمَانَتَهُ وَعَفَافَهُ فَدَعَانَا إلَى اللّهِ لِنُوَحّدَهُ وَنَعْبُدَهُ وَنَخْلَعَ مَا كُنّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَآبَاؤُنَا من دُونِهِ من الْحِجَارَةِ وَالْأَوْثَانِ وَأَمَرَنَا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ وَأَدَاءِ

الْأَمَانَةِ وَصِلَةِ الرّحِمِ وَحُسْنِ الْجِوَارِ. (الرحيق المختوم).

وكان سيدنا جبريلُ عليه السلام كلما نزل إلى سيدنا محمدٍ ﷺ يوصيه بالجار حتى ظن أنه سيجعل له نصيباً مفروضاً من الميراث، قال عليه الصلاة والسلام: «**مَا زَالَ جِبْرِيلُ يُوصِينِي بِالْجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُ**». (مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ)

ولأهمية حق الجار نفى النبيُّ ﷺ عن المؤمن إيمانَه حَتَّى يُحِبَّ لِجَارِهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ فَعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه عَن النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لا يُؤْمِنُ عَبْدٌ حَتَّى يُحِبَّ لِجَارِهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ**». (مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ) بل نفى عنه دخول الجنة كما في المعجم الكبير للطبراني قال عليه الصلاة والسلام: «**وَلا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ من لا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، وَمَا الْبَوَائِقُ؟ قَالَ: غَشْمُهُ وَظُلْمُهُ**».

ومعلومةٌ تلك المرأةُ التي دخلت النارَ لأنها تؤذي جيرانها، مع أنها تصوم وتصلي، وجعلها النبي ﷺ لا خيرَ فيها، فعن أبي هريرة، رضي الله عنه قال: قيل للنبي ﷺ: إن فلانةً تصوم النهارَ، وتقوم الليلَ، وتؤذي جيرانَها بلسانها فقال: «**لا خيرَ فيها، هي في النار**» المستدرك على الصحيحين للحاكم.

ثم يعلمنا النبي ﷺ بعضَ الأحكام التي تتعلق بحقوق الجوار، والتي كم نحن بحاجة إلى تطبيقها في زماننا!!، ويجعل الجيران ثلاثة، ويبيِّن لكل واحد حقوقَه، فيسأل الصحابة ويجيبهم:

«**أتدرون ما حق الجار؟**

**إن اسْتَعان بك أعنتَه، وإن استقرضك أقرضته، وإذا افتقر عُدْت**

**عليه، وإن مرض عُدته، وإن مات اتبعت جنازته، وإن أصابه خير هنأته، وإن أصابته مصيبة عزيته، ولا تستطيل عليه بالبناء فتحجبَ عنه الريحَ إلا بإذنه، وإذا اشتريت فاكهة فاهدِ لهُ، فإنْ لم تفعل فأدخلها سِرّاً ولا يخرج بها ولدُك ليغيظ بها ولدَه، ولا تؤذه بقُتَار قدرِك، ـ [والقتار: رائحة الطبيخ تنبعث من الوعاء حين الطبخ] ـ إلا أن تغرف له منها، ثم قال: أتدرون ما حقُّ الجار على الجار؟ والذي نفسي بيده لا يبلغ حقَّ الجار إلا من رحمه الله»**.

وَقَدْ أَخْرَجَ الطَّبَرَانِيُّ من حَدِيثِ جَابِرٍ رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**الْجِيرَانُ ثَلَاثَةٌ: جَارٌ لَهُ حَقٌّ وَهُوَ الْمُشْرِكُ لَهُ حَقُّ الْجِوَارِ، وَجَارٌ لَهُ حَقَّانِ وَهُوَ الْمُسْلِمُ لَهُ حَقُّ الْجِوَارِ وَحَقُّ الْإِسْلَامِ، وَجَارٌ لَهُ ثَلَاثَةُ حُقُوقٍ جَارٌ مُسْلِمٌ لَهُ رَحِمٌ لَهُ حَقُّ الْإِسْلَامِ وَالرَّحِمِ وَالْجِوَارِ**» لذلك عندما ذُبِحتْ شاة لابن عمرو في أهله، قال: أهديتم لجارنا اليهوديّ؟ قالوا: لا، قال: ابعثوا إليه منها، فإني سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «**ما زال جبريل يوصيني بالجار، حتى ظننت أنه سيورِّثه**». أخرجه أبو داود.

فعلى الإنسان أن يُحسن جوار جاره، فللجوار حقوقٌ وحُرُماتٌ، وعلى كل إنسان أن يحافظ عليها، وقد يكون جارك طالباً أو مريضاً أو هرماً عجوزاً، فأحبّ له ما تحبُّ لنفسك.. وراعِ شعورَ جارك، ومن هنا قيل: (الجارُ قبل الدار).

❁ ❁ ❁

# لمَتَى تَخْدَعُنا المظاهِرُ البرَّاقَةُ؟!

كثيرٌ من الناس يعتقدون أن كلّ ما يلمع ذهبٌ، وأن كلَّ باكيةٍ ثكلى، وأن كل ما يُسمع عن شخص فهو يقينٌ، وأن كلّ من بدت نواجذُه، وظَهَرَ بياضُ أسنانه، فهو فرِحٌ مسرورٌ... وأنّ كل سرابٍ يلوحُ في الأفق حقيقةٌ للناظرين، وليس خيالاً يُرى، ولا وهماً مُتَخَيَّلاً...

ولكنّ الناسَ بعدَ فترةٍ ـ قد تطولُ وقد تقصُرُ ـ يكتشفون أن كثيراً مما كان يلمع ليس بذهبٍ، وأن النائحةَ التي يُذيب وهجُ نُواحها القلبَ ليست كالثكلى، وأن السرابَ الذي يُخَيَّلُ للعين وَهْمٌ وليس حقيقةً... وأن كثيراً مِمَّن بدت نواجذُهُ، وافترَّ ثغرُهُ عن ابتسامةٍ، ينطبقُ عليه قولُ المتنبي:

إذا رأيتَ نيوبَ الليث بارزةً    فلا تظننَّ أن الليثَ يبتسمُ

... ومع الأسف لقد اعتاد كثيرٌ من الناس في زماننا أن يَحكموا على الناس بظواهر الأمور، أو بما يتقوّلُهُ الناسُ، أو بما يدور على ألسنتهم في السر والعلن، فكم من إنسانٍ يمدحونه في غيابه، ولكنك عندما تراه تتذكر المثلَ المشهورَ: (أنْ تسمع بالمعيدي خيرٌ من أن تراه)!، وكم من إنسانٍ يذمّونه ويقعون فيه، ويرمونه بالاتهاماتِ وهو بريء منها براءةَ الذئب من دم سيدنا يوسفَ عليه السلام،

فتَتَيقّنُ أنتَ أنّ سماع كلام الناس كثيراً ما يُجانب الحقيقة، فتخاطبُ نفسك قائلاً:

خذْ ما علمت ودعْ شيئاً سمعتَ به في طلعة الشمس ما يُغنيك عن زحل

فالإنسان يسمع كثيراً من الأقوال ولكن الحقيقة غيرُ ما يقال، فكم من رجلٍ ينظر لإنسانٍ ولا يأبهُ له، بل قد يزدريه للباسِه أو لمظهره، أو لما يُحكى عنه، وإذ به غيرُ ذلك، وعليه ينطبق قول القائل:

ترى الرجلَ النحيفَ فتزدريه وفي أثوابه أسدٌ هَصورُ

وكثيراً ما تُخْبَرُ عن إنسانٍ، وإذ بمخْبَره ليس كمنظره ـ إيجاباً أو سلباً ـ كما قال عنترة:

أنا الشهمُ الذي خُبِّرتَ عنه فقد عاينتني فدعِ السماعا

ونحن في ديننا الحنيف مأمورونَ بحسن الظن، وأن نجتنب كثيراً من الظن لأن بعض الظن إثم. . .

ونحن مأمورون في ديننا الحنيف أيضاً أن نُحسّن نيّتنا، لأننا قرأنا حديثاً نبوياً من أساسيات ديننا الحنيف يقول فيه نبينا ﷺ: «**إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى** ..» البخاري ومسلم.

وعلّمنا دينُنا السمحُ أنّ أكرمنا عند الله أتقانا، ولا فرقَ لعربي على عجمي ولا لأبيض على أسودَ إلا بالتقوى، بخلاف الذين يجعلون من الإنسانية مطيّةً لتحقيق مآربهم، وعليهم ينطبقُ قولُ القائل:

مهما تألّقَتِ العلومُ وأصبحتْ مُلكَ اليَدِ
فثيابُهُم فيها غبارُ الجهل لم يتبدّدِ
ما دام فيهم أبيضٌ يغتال حقَّ الأسود

وكذلك نعلم أن الله لا ينظر إلى صورنا ولا إلى أجسادنا ولكن ينظر إلى قلوبنا، «فَرُبَّ أشعثَ أغبرَ ذي طِمرين مدفوعٍ بالأبواب لو أقسم على الله لأبرّه». . . صحيح مسلم

. . وبنظرة خاطفة في التاريخ نرى أن كثيراً من الناس كانوا عبيداً ولكنّ الدين رفعهم، فأصبحوا سادةً فسيدنا بلالٌ من الحبشة، وسيدنا سلمانُ من بلاد فارس، وسيدنا صهيبُ من بلاد الروم. . .

بل كثير من العلماء كانوا عبيداً، وبعضهم من حيث الشكلُ الخارجيُّ قد يزدريه المرء ولكنه من كبار العلماء العباد؛ كعطاء بن أبي رباح الذي كان أشلَّ وأفطسَ. . . حتى قيل: لا يوجد عيبٌ في الدنيا إلا وكان فيه، ومع ذلك كان ذكرُه عطراً، وعلمُه بحراً، بل كان عالم الدنيا في عصره!

وعلى الإنسان أن لا يعتقد أنه خير من الناس حتى الذين يذنبون منهم، وليضع دائماً أمام عينيه قولُ سيدنا عيسى عليه السلام: **«ولا تنظروا في ذُنُوب الناس كأنَّكم أرباب، وانظروا في ذُنُوبكم كأنكم عبيد، فإنما الناسُ مُبْتَلىً ومعافىً، فارحمُوا أهلَ البلاءِ، واحْمَدوا الله على العافِيةِ»**.

وكم رأيتَ إنساناً فظننتَ أنك ستُعَلِّمُهُ، وقلتَ في سرّك: يا لهُ من تلميذٍ نجيب!، وبعد أن يتكلم، وتصغي للدرر التي تخرج من بين ثناياه، تقول في سرك أيضاً: أيرضى أن أتتلمذَ بين يديه؟!!.

فالأمور بخواتيمها، والإنسان بأعماله لا بمظهره وماله، وتأمّل معي في هذا الحديث الذي رواه الإمام البخاري: عن سهل بن سعد

الساعدي أنه قال: مرَّ رجل على رسول الله ﷺ فقال لرجل عنده جالس: «**ما رأيك في هذا؟**» فقال: رجلٌ من أشراف الناس، هذا والله حَريٌّ إن خطب أن يُنْكَح، وإن شَفَع أن يُشَفَّع، قال فسكت رسول الله ﷺ ثم مرَّ رجل، فقال له رسول الله: «**ما رأيك في هذا؟**» فقال: يا رسول الله هذا رجل من فقراء المسلمين، هذا حري إن خطب أن لا يُنْكَح، وإن شفع أن لا يُشفَّع، وإن قال أن لا يُسمع لقوله، فقال رسول الله: «**هذا خير من ملء الأرض مثلِ هذا**».

وفي حديث آخر رواه البخاري أيضاً: «ويقال للرجل: ما أعقله! وما أظرفه !، وما أجلده !، وما في قلبه مثقالُ حبة من خردل من إيمان».

وكم من إنسانٍ يجمع المالَ الحرام ثم يوم القيامة يهوي به في نار جهنم، مع أن ظاهره أنه يصلي ويصوم ويزكي ويحج، فقد قال النبي ﷺ: «**يؤتى يوم القيامة بأناس معهم من الحسنات كأمثال جبال تِهامة... حتى إذا جيء بهم جعلها الله هباءً منثوراً، ثم يُقذف بهم في النار**»، قيل: يا رسول الله: كيف ذلك؟ قال: «**كانوا يصلون ويصومون ويزكون ويحجون، غير أنهم كانوا إذا عَرَضَ لهم شيء من الحرام أخذوه، فأحبط الله أعمالهم**».

وتذكرتُ كلماتٍ كتبتها في مقالٍ لي عنوانه: (حوارٌ هادئ مع النفس) قلت فيه: «لا تغتّري يا نفسُ بالأسماء والألقاب كثيراً، فليس من الضروري أن يُعبر الاسم أو اللقب عن المسمى، فهذا المسيح وذاك المسيح، ولكن فرقٌ بين هذا وذاك، فهذا المسيح عليه السلام، وذاك المسيحُ الدجال».

**وختاماً**: المؤمن دائماً شعارُه: (لستُ بالْخبِّ ولا الخبُّ يخدعني) كما قال سيدنا عمر رضي الله عنه.

❁ ❁ ❁

## أشْواقُ الغُرْبةِ وَبُكَاءُ الدِّيَارِ

لا مكانَ في الحياةِ بالنِّسبةِ للإنسان، أجملُ وأبهى من المكان الذي ولد فيه وترعرع، وتفيأَ ظلالَه وارتوى من فراتِ مائِهِ، فالمكانُ هو تذكُّرٌ لمَراتِع الصِّبا، وضَحكاتِ الطُّفُولةِ البريئةِ، وهو جزء من كِيانِ الإنسانِ، فمهما ابتعد عنه، وشطت به الدارُ، فلا بد أن تبقى أطلالُ بلادهِ في ثنايا مُخَيِّلتِه، وهذا جُزْءٌ يَسِيْرٌ من الوفاءِ لهذه الأرضِ التي حملتكَ على ظهْرها وأنتَ تحبو، ثم وأنتَ تخطو، ثم تمشي، ثم بعد انتهاء الأجل تدفن فيها. فما أرأفها!!

وكثير من الناس من ارتشف شراب الهجر والغربة، في كؤوس من الحنين والأشواق...

وكم من مغترب قال بلوعة بيت الطائي:

كم منزل في العمر يألفه الفتى وحنينه أبداً لأول منزل

وكم من مهاجر يتغنى صباح مساء:

بلادي وإن جارت علي عزيزةٌ وأهلي وإن ضنّوا عليَّ كرامُ

ومثله لفوزي معلوف:

مهما يجر وطني علي وأهلُه فالأهل أهلي والبلادُ بلادي

والكل يعلم أن طريق الهجرة وعرةُ المسلك، ومليئة

بالمنغصات، ومهما بقي الإنسان في بلاد الغربة فاسمه غريب، ولن يجد قلباً حنوناً، بين الحجارة الصماء، مما حدا بالقروي في قروياته أن يقول بعدما أفنت الغربة شبابه:

دفنتَ ربيع عمرك في بلادٍ لها طالت لياليك القصارُ
بلادٌ ربما فيها كرام ولكنَّ اللئام بها كثار
إذا لم تحوِ تربتها حجارا فبين ضلوع أهليها الحجار

وتبقى ساعةُ الوداع مؤثرة، والوقوفُ على الأطلال يرافقه البكاء، حتى الصحابة ﭫ، عندما هاجروا إلى المدينة، كما تذكر السيدة عائشة ﭫ تذكروا مكة وجبالهَا، وخاصة أن المدينة أوبأ أرض الله من الحمى، وقد أصابت الحمى بعضَ الصحابة، وكان بلالٌ إذا أقلع عنه الحمى اضطجع بفناء البيت ثم يرفع عقيرته[(١)] ويقول:

ألا ليتَ شِعْري هل أبيتنّ ليلةً بوادٍ وحَوْلي إذْخر وجَليلُ
وهل أَرِدَنْ يوماً مِياه مَجنّةٍ وهل يبدوَن لي شَامَة وطَفِيل[(٢)]

قالت السيدة عائشة: ثم إني دخلت على رسول الله ﷺ، فأخبرته، فقال: «**اللَّهُمَّ حبِّبْ إلينا المدينة كحبنا مكةَ، اللَّهُمَّ وصححها وبارك لنا في مُدها وصاعها، وانقل حُمَّاها واجعلها بالجحفة**»[(٣)].

---

(١) صوته.
(٢) جبلان مشرفان على مجنة على بريد مكة.
(٣) السيرة النبوية، د. علي محمد محمد الصلابي، ط١، عام ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م، دار الفجر ١/ ٤٧١ ـ ٤٧٢.

فغرس الله بعد ذلك حبَّ المدينة في قلب الصحابة ومنْ بعدهم أبدَ الدهر.

ويبقى السؤال؟؟ لماذا يحن الإنسان إلى بلاده؟؟ أجاب البعض جواباً جميلاً فقال:

«وكان الناسُ يتشوّقون إلى أوطانِهم، ولا يفهمون العلَّةَ في ذلك، حتى أوضحها علي بن العباس الرّومي في قصيدةٍ لسليمان بن عبد الله بن طاهر يستَعدِيه على رجل من التَجار، يعرف بابن أبي كامل، أجبَره على بَيْع داره واغتصبه بعض جُدرها، بقوله:

ولـي وطـنٌ آلـيـتُ ألا أَبـيـعـهُ ... وألّا أرى غيري لهُ الدهر مالِكا

عهِدتُ به شَرْخَ الشبابِ ونعمةً ... كنِعْمَةِ قوم أصبحُوا في ظِلالكا

وحبّب أوطـانَ الرجال إليـهـمُ ... مآرِبُ قضَّاها الشبابُ هُنالكا

إذا ذَكَروا أوطـانَـهـم ذكَّـرْتُـهُـم ... عهودَ الصبَا فيها فحنُّوا لذلكا

لـقـد ألِفَته الـنفسُ حتى كـأنـهُ ... لها جَسَدٌ إن بانَ غُودِرَ هالكا[1]

وقال بعض الأعراب قريباً من هذا، وعلل بكاءَه وشوقه بأمرين اثنين، ومرحلتين جميلتين في حياة الإنسان، براءةِ الطفولة، وفتوةِ الشباب:

ذكرتُ بلادي فاستهلَّت مَدَامِعي ... بشوقي إلى عَهْدِ الصبا المتقادِمِ

حَنَنْتُ إلى أرضٍ بها اخضرّ شاربي ... وقُطِّـع عني قَبل عقد التمائم

---

(١) زهر الآداب وثمر الألباب، الحُصري، باب ألفاظ لأهل العصر في ذكر الوطن ١/ ٢٨٣.

وعندما طال مقام ابنُ الرومي بسُرّ من رأى، قال أيضاً وهو يتشوّق إلى بغداد:

بلدٌ صحِبْتُ به الشبيبة والصِّبا ... ولَبِسْتُ ثوبَ العيشِ وهو جديدُ
فإذا تمثَّلَ في الضمير رَأيتُهُ ... وعليه أغصانُ الشبابِ تميد[1]

وكثيراً ما رأينا أن الشعراء يتشوقون إلى نجد، ويكثرون من ذكرها في أشعارهم، فها هو الصّمّة بنُ عبد الله القشيريّ يقول:

قفا وَدِّعا نَجْداً ومَنْ حَلَّ بالحِمى ... وقَلَّ لَنَجْدٍ عِنْدَنا أَنْ يُوَدَّعا
وأَذْكُرُ أيَّامَ الحِمَى ثُمّ أَنْثَني ... على كَبِدِي من خَشْيَةٍ أَنْ تَصَدَّعا
فلَيْسَتْ عَشِيّاتُ الحِمَى برَواجِعٍ ... عليكَ، ولكنْ خَلِّ عَيْنَيْكَ تَدْمَعا[2]

وهذا أبو عمرٍو البجليُّ يقول:

أقول لصاحبي والعيسُ تَخْدِي ... بنا بَين المُنِيفة فالضِّمارِ
تَمتَّعْ من شَمِيم عَرار نَجْدٍ ... فما بَعْدَ العشّيةِ من عرارِ
ألا يا حبَّذا نفحات نَجد ... وريَّا رَوْضِه غبَّ القِطار
وأهلك إذ يحلّ القوم نجدا ... وأنت على زمانِك غيرُ زَارِ
شهور يَنْقَضِينَ وما شعرْنا ... بأنصافٍ لهن ولا سِرَارِ[3]

وقد يحن الإنسان إلى أرض لم يرَها ولم يسكنْها، ولكن قلبَه

---

(١) المصدر السابق ١/ ٢٨٣.
(٢) كتاب الأمالي للقالي، دراسة واختيار، د. عمر الدقاق، منشورات: دار الشرق، ط٣، عام ١٩٧٢م، ص٨٨ ـ ٨٩
(٣) كتاب الأمالي، د. عمر الدقاق، ص١٥٥.

تعلق بها، أعني مكةَ والمدينة، كيف لا؟؟ وقد جعل الله القلوب تهوي إليها، أما قال الله عَزَّوَجَلَّ في كتابه على لسان سيدنا إبراهيمَ: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ٣٧﴾ [إبراهيم: ٣٧].

فالشاعر محمد إقبال يقول في رائعة من روائعه الشعرية:

أشواقنا نحو الحجاز تطلعت ... كحنين مغترب إلى الأوطان
إن الطيور وإنْ قصصت جناحَها ... تسمو بفطرتها إلى الطيران
إن كان لي نغمُ الهنود ولحنُهُم ... لكنَّ هذا الصوتَ من عدنان[1]

وعندما شارفت مداخل مكة قلت مخاطباً أم القرى:

يا طالما شاهدتُ طيفَكِ في الكرى ... ورأيت كلَّ الحسن فيكِ تَصَوَّرا
يا طالما شبَّ الغرامُ بخافقي ... والجفنَ في عينيَّ حبُّك أَسهرا
يا طالما حَمَّلتُ يا أقصى المنى ... ريحَ الصَّبا مني السَّلام إذا سرى
ولكم بعثتُ مع النسيم قصيدةً ... والنفسُ وَلْهى والفؤادُ تحسَّرا
والقلبُ مني كم يغادر أضلعي ... ويهيم وجْداً إنْ رُؤَاكِ تذكَّرا!!
ولكَمْ تشبَّث في المطايا مُدْنَفاً ... وطلبتُ منه العَوْدَ لكنْ أنكرا!!
وإذا الحداةُ ترنَّموا بحُدائهم ... وحداؤهم من غير خمرٍ أسكرا
ألفَيْتِنِي أبكي كطفلٍ كلما ... رحلوا إليكِ، ونورُ وجهِكِ أسفرا
أتجرَّع الحسراتِ أرتشفُ الأسى ... لله كم سالت دموعي أنْهُرا!!

---

(١) فلسفة إقبال: محمد حسن الأعظمي، الصاوي علي شعلان، دار إحياء الكتب العربية ١٣٦٩هـ/ ١٩٥٠م، ص٩١ ـ ٩٢.

يا طالما أرجو وصالكِ برهةً ... واليوم جئت إليكِ يا أمَّ القرى

ومما قلت وأنا على مشارف المدينة:

رسولَ اللَّه جئتك والعيون تفيض ودمعها دمع هتونُ
تركت الأهل والأولاد خلفي وجئت إلى رحابك يا أمين
على أطلال طيبةَ هام قلبي فوا لهفي!! متى فيها أكون؟؟
وأطلالُ المدينة لي تراءت ونورُ المصطفى نورٌ مبينُ

ـ وبعضهم يحن إلى العراق، ويطلب من النسيم، أن يحمل السلامَ، إلى البلد التي استفاد منها الغرام فتراه يقول:

أَلا يا نَسيمَ الريحِ من أَرضِ بابلٍ تَحمَّل إِلى أَهلِ العِراق سَلامي
وإني لأهوى أن أكون بأرضهم على أنني منها استفدت غرامي

والآخر يجعل هواءَ بغدادَ مؤرِّقاً له، ومُهيِّجاً لأشواقه:

طيب الهواء ببغدادٍ يؤرقني شوقاً إليها وإن عاقت مقاديرُ
فكيف أصبر عنها الآن إذ جمعت طيبَ الهوائين: ممدود ومقصورُ؟؟[1]

كما أن الشاعر اللبناني رشيدَ أيوبَ، عندما رأى الثلج يتساقط في المهجر، تذكر ثلج بلاده، وأهلَه وأمَّه وأشياءَ أخرى ذكرها في قصيدته المشهورة التي نقتطف منها الأبيات التالية:

يا ثلجُ قد هيّجتَ أشجاني ذكَّرتني أهلي بلُبنَانِ
باللَّهِ عَنّي قُل لإخواني ما زالَ يرعى حرمةَ العهد

(١) زهر الأكم في الأمثال والحكم، اليوسي، باب كأنها تهفي علي القلوب ١/١٠٣.

يا ثلجُ قد ذكّرتني الوادي مُتَنَصّتاً لِغَديرِه الشّادي
كم قد جَلَستُ بحضنه الهادي فَكأنّني في جَنّةِ الخُلدِ
يا ثلجُ قد ذكّرتني أمّي أيّامَ تقضي الليلَ في همي
مشغوفةً وتحَارُ في ضَمّي تحنو عليّ مَخافَةَ البردِ
يا ثلجُ قد ذكّرتني الموقِد أيامَ كُنا حَولهُ نُنشِدِ
نعنو لَدَيهِ كأنّهُ المسجِد وكأنّنَا النُّسّاكُ في الزُّهدِ
يا ما أُحَيلى النجم إن لاحا والثلج يكسو الأرض أشباحا
والشّاعر المسكين نَوّاحَا يقضي اللّيالي فاقدَ الرّشدِ

والشاعر ابن الأبَّار بكى وطنه بقصيدة رائعة، أكثر فيها من التأوُّه، ومن ترويع الفراق، ومن عبرات البعد يقول:

أبينٌ واشتياقٌ وارتياع؟ لقد حُمِّلتَ ما لا يستطاع
تملكني الهوى فأطعت قسرا ألا إن الهوى ملك مطاع
وروَّعني الفراقُ على احتمالي ومن ذا بالتفرق لا يُراع؟
وليس هوى الأحبة غيرَ عِلقٍ لدي فلا يعار ولا يباع
فللعبرات بعدهم انحدارٌ وللزفَرَات إثرهم ارتفاعُ
نأوا حقاً ولا أدري أيقضى تلاقٍ أو يُباح لنا اجتماع؟؟[1]

وكذلك عندما رأى عبد الرحمٰن الداخلُ نخلة برصافته[2]

(١) في الشعر العربي الأندلسي والمغربي، د. علي دياب، منشورات جامعة دمشق ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م، ص٢٣٦.
(٢) وهي رصافة قرطبة التي أنشأها وسماها الرصافة تشبيهاً برصافة الشام التي أنشأها جدّه هشام بن عبد الملك غربي الرقة.

أثارت فيه هذه النخلةُ شجونَه، فرآها شبيهة به فكلاهما غريب عن وطنه، فقال:

تبدّت لنا وسط الرصافة نخلةٌ تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل
فقلت شبيهي في التغرّب والنّوى وطول اكتئابي عن بنيَّ وعن أهلي
نشأت بأرضٍ أنت فيها غريبةٌ فمثلك في الإقصاء والمنتأى مثلي
سقتك غوادي المزن في المنتأى الذي يسحُّ ويستمري السماكين بالوبل[(١)]

وهو مقسَّمُ القلب بين الأندلس، وبين المشرق، لذلك نراه يقول:

أيّها الراكب الميمم أرضي أقر منّي بعض السلام لبعضي
إنّ جسمي كما تراه بأرضٍ وفؤادي ومالكيه بأرض
قدّر البين بيننا فافترقنا وطوى البين عن جفوني غمضي
قد قضى الدهر بالفراق علينا فعسى باجتماعنا سوف يقضي[(٢)]

ولابن خفاجة كذلك قصيدةٌ رائعة في التشوق إلى الوطن مطلعها:

أجبت وقد نادى الغرام فأسمعا عشية غناني الحمام فرجعا[(٣)]

وإنني عندما كنت في مصر كان طيف مدينة حماة في مخيلتي، ونظمت قصيدة في الشوق والحنين إليها منها:

---

(١) السماكان: نجمان مضيئان.
(٢) في الشعر العربي الأندلسي والمغربي، د. علي دياب، ص٥٠ ـ ٥١.
(٣) انظرها كاملة في كتاب «في الشعر العربي الأندلسي والمغربي»، د. علي دياب، ص١٩٢.

أحـنُّ إلـى ربـوع حـمـاةَ شـوقـاً وأذكـرُ مـاضـيـاً عـذبـاً جـمـيـلا
نـواعـيـرُ الـمـيـاه بـلا فُـتـورٍ تـقـلِّـبُ في حـمـاةَ الـسلـسـبـيـلا
أحــنُّ إلــى أبــي وأخــي وأمــي وأذكـر يـومَ أزمـعـتُ الـرحـيـلا
تـقـولُ الأمُّ يـا طـفـلـي سـلامـاً وربُّ الـكـون يـهـديـك الـسـبـيـلا
إذا بـعُـدت ديـارُ الأهـل عـنـي غـدا قـلـبـي بـسـاحـتـهـم نـزيـلا[1]

والإنسان يتشوق ويحن للوطن والأهل في ديار الغربة بجميع الأحوال، فكيف به إذا كان أسيراً وفي ديار الغربة؟! لا بد أنه سوف يتجرع ألم النوى، وعلقم البعد والفراق، ولا نزال نذكر قصيدة أبي فراس الحمْداني الرائعةَ التي قالها عندما كان أسيراً، وسمع حمامة تنوح على شجرة عالية بقربه، فأراد منها أن تشاركه في أحزانه، وتحملَ عنه بعض الهموم، فقال يخاطبها:

أقول وقد ناحت بقربي حمامة أيا جارتا هل بات حالك حالي[2]
معاذ الهوى ما ذقتِ طارقة الهوى ولا خطرت منك الهموم ببال
أتـحـمـل مـحـزونَ الـفـؤاد قـوادم على غصن نائي المسافة عالي
أجارتنا ما انصف الدهـر بيننا تعالي أقاسمك الهموم تعالي
تعالي تري روحاً لدي ضعيفة تـردد فـي جـسـم يـعـذب بـال
أيضحك مأسور وتبكي طليقة ويسكت محزون ويندب سال؟

---

(١) انظرها كاملة في ديوان: بَدْرُ الدُّجَى سيِّدُنا مُحَمَّدٌ ﷺ، مصطفى قاسم عباس، ط١، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م، ص١٤٩ ـ ١٥٦.
(٢) المشهور: (هل تشعرين بحالي) ولكن هذه رواية ابن خالويه.

لقد كنت أولى منك بالدمع مقلةً ولكن دمعي في الحوادث غالِ[1]

وقد كتب إلى ابن عمه سيفِ الدولة من الأسر:

وما كنت أخشى أن أبيت وبيننا خليجان والدربُ الأشمُّ وآلسُ[2]
تشوقني الأهل الكرام وأوحشت مواكب بعدي عندهم ومجالس

وعندما غادر مدينة حلب قال:

سقى ثرى حلب ما دمت ساكنها يا بدر، غيثان: منهلٌّ ومنبجسُ
أسير عنها وقلبي في المقام بها كأن مهري لثقل السير محتبس[3]

وتبقى الغربة غربة، والهجرُ هجراً، ويبقى ترابُ الوطن خيراً من الغربة وذهبها، فالإنسان يألف بلاده ويهواها حتى وإن لم تتوفر فيها مقومات الحياة البسيطة، لذلك قال الشاعر:

بلاد ألفناها على كل حالة وقد يؤلف الشيء الذي ليس بالحسنْ
ونستعذب الأرض التي لا هوا بها ولا ماؤها عذب ولكنها وطنْ[4]

وحتى إذا كان يعيش في بلاد الغربة مع الطبقة الراقية، وفي قصور الأسياد والأمراء (فالشاعر الأعشى مقيم بين سادات نجرانَ

---

(١) ديوان الأمير أبي فراس الحمداني، تحقيق وشرح: د. محمد ألتونجي، منشورات المستشارية الثقافية للجمهورية الإسلامية الإيرانية بدمشق عام ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧م، ص١٤٧ ـ ٢٤٦.

(٢) اسم نهر في بلاد الروم قرب طرسوس.

(٣) ديوان الأمير أبي فراس الحمداني، تحقيق وشرح: د. محمد ألتونجي، ص١٦٩ ـ ١٧٠.

(٤) المستطرف في كل فن مستظرف: شهاب الدين محمد بن أحمد أبي الفتح الأبشيهي، ط٣، دار صادر، ص٣٧٥.

منعماً، ولكن نفسه مشتاقة إلى العراق، وحوله مطايا أصحابه مثله، ليس لهم همٌّ إلا الوصول إلى العراق، لذلك يقول:

واضعاً في سراةِ نَجْرانَ رَحْلي ناعماً غير أنني مُشتاقُ
في مطايَا أربابُهُنَّ عِجَالٌ عن ثَواءٍ وهمُّهُنَّ العِراقُ

ولعلَّ خير شعر يظهر العلاقة المتينة بين المغترب ووطنه قول حاتم الطائي، وهو في الحيرة مخاطباً جبلي طيئ:

فقلت: ألا كيف الزمان عليكما فقالا بخير كل أرضك سائل)[١]

ولعل الوقوف على الأطلال، وبكاءَ الديار وأهلِها، من أروع الصفات التي تميز شعرَ الأسى والاغتراب، والترحال، وكلما ذكر الوقوف على الأطلال والبكاء، ذُكر امرؤُ القيس ومعلقتُهُ التي مطلعها:

قِفَا نَبْكِ من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل
فتوضح فالمقراةِ لمن يعف رسمها لما نسجتها من جنوبٍ وشمأل

«وقد عدَّ القدماء هذا المطلع من مبتكراته، إذ وقف واستوقف وبكى وأبكى من معه وذكر الحبيب والمنزل»[٢].

وكذلك النابغة الذبياني فقد بدأ معلقته بالوقوف على الأطلال عندما قال:

---

(١) الانتماء في الشعر الجاهلي، د. فاروق سليم، منشورات اتحاد الكتاب العرب، ١٩٩٨م، ص٢٣٤ بتصرف يسير.

(٢) العصر الجاهلي، د. شوقي ضيف، دار المعارف بمصر، عام ١٩٦٠م، ص٢٤٩.

يا دار ميّة بالعلياء فالسّند أقوت وطال عليها سالف الأبد
وقفت فيها أصيلاً كي أسائلها عيّت جواباً وما بالرّبع من أحد
أضحت خلاءً وأضحى أهلها احتملوا أخنى عليها الذي أخنى على لبد[(١)]

وقد قال القراء كما ذكر البغدادي في خزانة الأدب: نادى الديار لا أهلها، أسفاً عليها وتشوّقاً إليها.

ومن أروع ما قرأت في تصوير الوقوف على الأطلال، قولُ جعفر بن أحمد السراج البغدادي:

وقفنا وقد شطت بأحبابنا النوى على الدار نبكيها سقي ربعها المزن
وزادت دموع الواكفين برسمها فلو أرسلت سفن بها جرت السفن
ولم يبق صبر يستعان على النوى به بعد توديع الخليط ولا جفن
سألنا الصبا لما رأينا غرامنا يزيد بسكان الحمى والهوى يدنو
أفيك لحمل الشوق يا ريح موضع فقد ضعفت عن حمل أشواقنا البدنُ[(٢)]

والشريف الرضي وقف على الأطلال، ولما خفيت الديار، وتلَّفت بعينه فلم يرها، ما كان منه إلا أن تلَّفت بقلبه يقول:

ولقد مررتُ على ديارهمُ وطلولها بيد البلى نهبُ
فوقفتُ حتى عجَّ من نصبٍ نضوي، ولجَّ بعذليَ الركبُ
وتلفتتْ عيني فمذ خفيتْ عني الديارُ تلفَّت القلبُ[(٣)]

---

(١) انظرها كاملة في شرح المعلقات السبع، القاضي الزوزني، تقديم عمر أبو النصر، ص٢٩٢ ـ ٢٩٦.
(٢) معجم الأدباء، ياقوت الحموي، ط، دار المأمون بمصر ٧/ ١٦١ ـ ١٦٢.
(٣) البديع في نقد الشعر، أسامة بن منقذ، باب التجاهل، ١/ ٢٠.

وقد يرحل الإنسان عن بلده ولا يعود إليها بل يموت غريباً، فامرؤ القيس عندما (صار إلى بلدة من بلاد الروم تدعى أنقرة احتضر بها، ورأى قبر امرأة من أبناء الملوك هناك، قد دفنت في سفح جبل يقال له عسيب، فسأل عنها، فأخبر بقصتها فقال:

أجارتنا إن المزار قريب     وإني مقيمٌ ما أقام عسيب
أجارتنا إنا غريبان ها هنا     وكل غريبٍ للغريب نسيب

ثم مات فدفن إلى جنب المرأة، فقبره هناك)(١).

و يطلب صدى الطائي ممن يحمل جنازته، أن ينزلوه في وطنه، ويدفنوه تحت ثراه:

سقى اللَّه أطلالاً بأخيلة الحمى     وإن كنَّ قد أبدين للناس ما بيا
منازل لو مرت بهن جنازتي     لقال صداي: حامليَّ انزلا بيا(٢)

وقد يعود الإنسان إلى وطنه، بعد فراق طويلٍ، وعندما يصل إلى أطلاله، تمتزج ذكريات أطلال الهجرة، مع ذكريات أطلال العودة، فيناجيه قائلاً:

وطن النجوم.. أنا هنا حدّق.. أتذكر من أنا؟
ألمحت في الماضي البعيد فتى غريراً أرعنا؟
جذلان يمرح في حقولك كالنسيم مدندنا

(١) العصر الجاهلي، د. شوقي ضيف، دار المعارف بمصر، عام ١٩٦٠م، ص٢٤٠.

(٢) زهر الأكم في الأمثال والحكم، اليوسي، باب كأنها تهفي على القلوب ١/١٠٣.

أنا ذلك الولد الذي دنياه كانت هـٰهنا!
أنا من مياهك قطرة فاضت جداول من سنا
أنا من ترابك ذرّة ماجت مواكب من منى
أنا من طيورك بلبل غنّى بمجدك فاغتنى
حمل الطّلاقة والبشاشة من ربوعك للدّنى
كم عانقت روحي رباك وصفّقت في المنحنى؟[1]

وأخيراً وللأمانة، قد يعيش الإنسان لفترة ما في وطنٍ غيرِ وطنه، وأرضٍ غيرِ أرضه، ويدخلها بداية غيرَ محب لها، لظروف أجبرته على الرحيل، ولكنه ربما يحب ذاك الوطن، ويحب أهله، لأنهم طيبون وجديرون بالمحبة، فالمحبة والطيب لا تعرف وطناً ولا أرضاً، ولكنْ مهما عاش بينهم فلا بد أن يفارقهم، ليعود إلى وطنه، مردداً في طريق العودة:

دخلنا كارهين لها فلمّا ألفناها خرجنا مُكرهينا
وما حب الديار بنا ولكنْ أمرُّ العيش فرقةُ من هوينا
تركت أقرَّ ما كانت لعيني وخلفت الفؤاد بها رهينا

❁ ❁ ❁

(١) إيليا أبو ماضي، جريدة «السمير»، عدد: ٢٦، كانون الثاني ١٩٤٨م.

# مِنْ عَجَائِبِ الأَقْدَارِ!

عجيبةٌ هي الأقدارُ، كم تسري سفينةُ حياتنا في بحارها إلى حيث لا ندري!... وكم نتوقع أن نضحك فيها فإذا بنا نبكي!، وكم من يومٍ كنا نتوقع أن نبكيَ فيه فإذا بالبسمة ترتسم على شفاهنا، ونشوةِ الفرح تغمرُ أرواحَنا!...

الأقدارُ، وما أدراك ـ أيها القارئُ الكريمُ ـ ما الأقدارُ؟! سرورٌ عند قوم، وحزنٌ عند آخرين، حياةٌ عند قوم، وموتٌ عند آخرين، شقاءٌ وبؤسٌ عند أناس، ونعيمٌ وحبورٌ عند آخرين، نجاحٌ عند قومٍ، وفشلٌ عند آخرين... عجيبةٌ هي الأقدارُ... تحمل، ولا ندري ماذا تلد، وكما قالوا:

إن الليالِيَ والأيامَ حاملةٌ وليس يعلمُ غيرُ اللَّهِ ما تلدُ

الأقدار تزرع ولا ندري متى سنحصد؟ وتمشي بنا على درب الحياة، ولا ندري إذا كنا سنصل إلى نهاية الطريق، أم أن السبلَ ستتفرق بنا؟ وبالأقدار ننتظر مسافراً، ولعله لن يعود! ويأتينا غائبٌ ما كنا نرتجي أن يعود، بل كنا نظن أنه ملقىً في غياهب الزمن، وفي سجن المجهول...

ومن عجائب الأقدار أنها خزائنُ الأعمار، وأنها لا تصل إلينا

إلا بتعاقب الليل والنهار. . . فتُعِزُّ ذليلاً وتُذل عزيزاً، وتغني فقيراً، وتُفقِرُ غنيّاً، وتشفي مريضاً، وتُمرض صحيحاً، وتأخذ من بيننا حبيباً وتخلف لنا حسوداً، تأخذ مخلصاً، وتُبقي خائناً، تخطَف من بيننا عالماً، وتترك لنا من بعده رؤوساً جُهَّالاً يُفتون بغير علم فيَضِلُّون ويُضِلُّون. . .

عجيبة هي الأقدارُ، ننسج آمالاً بخيوط الأماني، فتنقضُ الأقدار ما غزلناه، وتُمزِّق ما نسجناه. . . كم بدّدتِ الأقدارُ أحلامَنا وآمالنا، فتلاشت وانتثرت، ولم نستطع جمعَهَا في عِقد الحياةِ من جديدٍ.

الأقدارُ هي التي تأخذ من بيننا طفلاً بريئاً كان يخطط لمستقبل ملؤُهُ السعادةُ، يومُهُ شُهد، وليله هناء، ووِرْدُهُ عسلٌ مصفًّى من السعادة. . . والأقدار هي التي تواري وجهَ أمٍّ رؤوم عن أولادها خلف حجاب الثّرى ولكن إلى حين، فهل ستجمع شملَهم من جديدٍ؟

وهنا يلوح في خاطري قول القائل:

وما الدهرُ إلا جامعٌ ومفرِّقٌ   وما الناسُ إلا راحلٌ ومودِّعُ
فإنْ نحنُ عِشنا يجمع اللَّه شملنا   وإن نحن مِتنا فالقيامة تجمعُ

عجيبة هي الأقدار. نرى شخصاً في المسجد خاشعاً ضارعاً متبتلاً، وبالأمس كان في عداد الأشقياء الذين يعيشون حياتَهم بلا هدف، وتمضي بهم مطايا أيامهم في لهوٍ وعبَثٍ ولا مبالاةٍ. . .

وفي الوقت ذاته قد نرى عابداً كان مُلازماً للمسجد والتقى

والفضيلة، فإذا به ـ وبلحظة غفلة ـ قد جُرِفَ بأتيّ المعاصي، وغرق في بحارِ الآثام...

الأقدار شمسٌ تُشرق، ولا تدري هل سترنو إلى غيابها أم لا؟!، وبدر يُنير ولا تدري أتسامره وتساهرُهُ من جديدٍ أم لا؟ وشجرة تزهر، وقد لا ترى ثمارَها، وسحابةٌ تمطر وقد لا يبلّلُك طلُّها، بل قد تسقي تلك السحابةُ ثرى قبرِك بالماء والثلج والبرد، ويبكي عليك الأبوان والأخُ والولدُ...

الأقدار هي التي تُخبّئ للفتاة زوجاً ينغص عليها عيشها وحياتَها، ويسقيها من لُجَجِ العذابَ غُصصاً في كؤوس من العلقمِ المرير... وهي التي تحملُ للفتاة زوجاً وفيّاً محباً مخلصاً، يصوغ لها من أيامها عقداً لؤلؤياً في سِمط السعادة، وياسمين السرور، ويجعل من سنوات حياتِها جنانَ نعيم وارفةَ الظِّلال...

والأقدار هي التي تُخبّئُ بين حناياها أمّاً ستغدو ثكلى، وطفلاً سيرتوي حتى التضلُّعِ من أقداح اليُتْم والبؤس... ورجلاً سيتنقل من مأساة لتتلقّفَهُ مأساةٌ أخرى... والأقدار تحمل في طياتها ضاحكاً سيبكي دماءً حرّى، ودموعاً سيّاحةً من سحابة البلابل والدواهي التي تتحفز إليه... وباكياً سيرفُل في أثواب البسمة، وينتشي قلبُه وتطرب روحُه...

عجيبةٌ هي الأقدار في جمعها بين المتناقضات مع أن الزمنَ واحدٌ، والمكانَ واحد، وحاملُ الأقدار ما هو إلا شخصٌ واحدٌ.

. . . **وختاماً**: عجيبةٌ هي الأقدار، والأعجب منها أن المؤمنَ قد روَّضَ نفسَه عليها فمع المصيبة ورده وذكره: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦]، ومع الفرحة يلهج لسانه بـ(الحمد لله ربِّ العالمين)، وفي كل أحيانه يردد: قدَّر الله، وما شاء فعل.

❁ ❁ ❁

# رسالةٌ إلى الثقَلاء

كثيراً ما تزور إنساناً ما في مكان عمله، فتجده قد كتب بخطٍ واضح وجميل هذه العبارةَ: «إنْ لم يكن لديك عملٌ فدعنا نعمل»، وفي الحقيقة هي عبارةٌ جميلة ولطيفة، واعتذارٌ منك بأسلوبٍ في غاية التهذيب، ونحن نعلم أن من تعاليم ديننا الحنيف قوله تعالى: ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرۡجِعُواْ فَٱرۡجِعُواْۖ . . .﴾ [النور: ٢٨].

والعبارة السابقة بعض الناس يقرؤونها ويتجاهلونَها، أو يقول أحدهم في نفسه: حتماً لست أنا المقصود بها، لأنني من الأصدقاء، وبالتالي فإن هذه العبارةَ غيرُ موجهة لي، مما يضطر معه صاحبُ العمل للتوضيح أكثر فأكثر، فيعيد صوغ العبارة لتصبح كالتالي: «إنْ لم يكن لديك عمل فدعنا نعمل، وخاصةً الأصدقاء»، ومع ذلك يُصرُّ البعض على أنه غيرُ مقصود، أو معنيٌّ بهذه العبارة، ويبقى في زيارتك أثناءَ فراغه وعملِك، لساعةٍ أو ساعتين، وربّما أكثر من ذلك، فهذا وأمثاله عُرفوا قديماً وحديثاً باسم: الثقلاء.

وثقيل الظل غالباً لا عمل عنده، فهو عالةٌ على المجتمع، قتل الطموحَ، وقطع حبال الآمال، وأعطبَ الإحساس. . .

وإن كان لديه عملٌ فهو بحاجة لدخول مدرسة الذوق،

والإحساس المرهف، علّه يشعر بقيمة وقت الآخرين، إن كان الوقت لا قيمة له عنده. . .

ومشهورٌ ذاك البيتُ الذي يقول:

إذا نـزلَ الـثـقـيـلُ بـدار قـومٍ فـمـا عـلـى الـقـوم إلا الـرحـيـلُ

لن أطيل في المقدمة وتعريف الثقيل، فإن اللبيب ـ كما قيل ـ من الإشارة يفهم.

ـ (زُرْ غِبّاً تزددْ حُبّاً) هذا الحديثُ وإن كان ضعيفاً عند علماء مصطلح الحديث، إلا أن طرق الحديث بمجموعها يقوّي بعضُها بعضاً، وهو يحمل معنىً صحيحاً، فالإنسان عندما يزور الآخرين على فتراتٍ متقطعة يتشوّق الناس لرؤيته، وتتلهّف قلوبهم وآذانهم لسماع حديثه، وما أحسنَ قول ابنِ دُريد:

عـلـيـك بـإغـبـابِ الـزيـارة إنـهـا إذا كثرت كانت إلى الهجر مسلكا
فإني رأيت الـغـيـثَ يُـسأم دائـبـاً ويُسأل بالأيدي إذا هو أمسكا[1]

وقد سارت الرّكبان بأبياتٍ قيلت في الثقيل، وهي كثيرة قديماً وحديثاً، ومعظمنا يحفظ الأبياتَ التي تقص علينا قصة ذاك الثقيلَ الذي سقط من السفينة في ظلام الليل، فبكى أصدقاؤُهُ لألم الفراق، وظنوا أن البحر قد ابتلعه، ولكنّ المفاجأةَ كانت في الصباح، فما إن

(١) كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس، إسماعيل بن محمد العجلوني، ضبط وتصحيح: محمد عبد العزيز الخالدي، المجلد الأول، ص٣٨٧، ط١، ١٩٩٧م، دار الكتب العلمية، بيروت، بتصرف.

طلع الفجرُ حتى لفظه البحرُ، فإنه ما هُضم مع البحر رغم اتساعه، وهذه هي القصة شعراً:

سقط الثقيلُ من السفينة في الدّجى    فبكى الرفاقُ لفقده وترحموا
حتى إذا طلع الصباحُ أتتْ به    نحو السفينة موجةٌ تتقدّم
قالت: خذوه كما أتاني سالماً    لم أبتلعْه فإنه لا يُهضم[1]

فسبحان الله! البحرُ الذي ابتلع كثيراً من السفن والرجال في ذات الصواري، وغيرها من المعارك الحربية البحرية، وأغرق فرعونَ وقومه، ويبقى يبتلع الكبيرَ والصغير على مر الدهور، لم يستطع أن يبتلع الثقيل!!

ـ وتوجيهات ديننا الحنيف في قمة السلوكيات الأخلاقية الرفيعة، فهي دائماً تُرشدنا إلى الإحساس بشعور الآخرين، واحترام أوقاتهم، وأن نكونَ أصحاب إحساسٍ وذوقٍ رفيع في شتى تعاملاتنا الحياتيّة، والأمثلة على ذلك كثيرةٌ في القرآن والسُّنَّة، ونكتفي بمثال واحدٍ، وهو هذه الآية الكريمة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُواْ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِيَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّۚ﴾ [الأحزاب: ٥٣].

فهذه الآية تعطينا درساً عملياً في هذا المجال، ويُفهم ذلك من خلال سبب نزولها فعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: بُني عَلَى النبي ﷺ

---

(١) من نفحات الإسلام، روائع إسلامية، د. منير غندور، ط١، ٢٠٠٢م، مكتبة الفارابي، ص٩٠ ـ ٩١.

بِزَيْنَبَ ابْنَةِ جَحْشٍ بِخُبْزٍ وَلَحْمٍ، فَأُرْسِلْتُ عَلَى الطَّعَامِ دَاعِياً، فَيَجِيءُ قَوْمٌ فَيأْكُلُونَ وَيَخْرُجُونَ، ثُمَّ يجيءُ قَوْمٌ فَيأْكُلُون وَيَخْرُجُونَ، فَدَعَوْتُ حَتَّى مَا أَجِدُ أَحَداً أَدْعُو فَقُلْتُ: يَا نَبِي اللهِ مَا أَجِدُ أَحَداً أَدْعُوهُ، قَالَ: «**ارْفَعُوا طَعَامَكُمْ**»، وَبَقِيَ ثَلَاثَةُ رَهْطٍ يَتَحَدَّثُونَ فِي الْبَيْتِ، فَخَرَجَ النَّبِي ﷺ فَانْطَلَقَ إِلَى حُجْرَةِ عَائِشَةَ فَقَالَ: «**السَّلَامُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ وَرَحْمَةُ اللَّهِ**». فَقَالَتْ وَعَلَيْكَ السَّلَامُ وَرَحْمَةُ اللَّهِ، كَيْفَ وَجَدْتَ أَهْلَكَ بَارَكَ اللهُ لَكَ؟ فَتَقَرَّى حُجَرَ نِسَائِهِ كُلِّهِنَّ، يَقُولُ لَهُنَّ كَمَا يَقُولُ لِعَائِشَةَ، وَيَقُلْنَ لَهُ كَمَا قَالَتْ عَائِشَةُ، ثُمَّ رَجَعَ النَّبِي ﷺ فَإِذَا ثَلَاثَةُ رَهْطٍ فِي الْبَيْتِ يَتَحَدَّثُونَ، وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ شَدِيدَ الْحَيَاءِ، فَخَرَجَ مُنْطَلِقاً نَحْوَ حُجْرَةِ عَائِشَةَ فَمَا أَدْرِي آخْبَرْتُهُ أَوْ أُخْبِرَ أَنَّ الْقَوْمَ خَرَجُوا، فَرَجَعَ حَتَّى إِذَا وَضَعَ رِجْلَهُ فِي أُسْكُفَّةِ (عتبة الباب) الْبَابِ لَدَاخِلَةً وَأُخْرَى خَارِجَةً، أَرْخَى السِّتْرَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ، وَأُنْزِلَتْ آيَةُ الْحِجَابِ(١).

فهؤلاء الثلاثة الذين أثقلوا على النبي ﷺ، أنزل الله بشأنهم قرآناً يُتلى آناء الليل وأطراف النهار. . .

ومن طريف ما مر معي أن إنساناً من الثقلاء أهدى لإنسان حملاً صغيراً، وبقي عنده زمناً طويلاً حتى ضجر منه، وضرب بإكرام الضيف عُرض الحائط؛ لأن هذا لم يعد ضيفاً، بل أصبح ثقيلاً مُضجراً، بل من أثقل الثقلاء، والحوار التالي بين صاحب المنزل والضيف صاحبِ الحمل يوضح مدى ما قلته:

---

(١) صحيح البخاري.

يـا مـبـرمـاً أهـدى حَـمَـلْ خُـذْ وانـصـرف ألـفـيْ جَـمَـل
قـال ومَـن يَـقُـودهـا؟ قـلـتُ لـه ألْـفَـا رَجُـل
قـال ومَـن يَـسُـوقـهـا قـلـتُ لـه ألْـفَـا بَـطَـل
قـال ومـا لِـبـاسُـهـم؟ قـلـتُ حُـلِـيٌّ وحُـلَـل
قـال ومـا سِـلاحُـهـم قـلـتُ سُـيـوف وأَسَـل
قـال عَـبِـيـد لـي إذن؟ قـلـتُ نَـعـم ثـم خَـوَل
قـال بـهـذا فـاكـتُـبـوا إذن عـلـيـكـم لـي سِـجـل
قـلـت لـه ألْـفـي سِـجـل فـاضـمَـنْ لـنـا أن تَـرْتَـحـل
قـال وقـد أضـجـرتُـكـم قـلـتُ أَجَـل ثـم أَجـل
قـال وقـد أبـرَمـتُـكـم قـلـتُ لـه الأمـر جَـلَـل
قـال وقـد أثـقـلـتـكـم قـلـتُ لـه فـوق الـثَـقـل
قـال فـإنـي راحـلٌ قـلـتُ الـعَـجَـلِ ثـم الـعَـجَـل
يـا كـوكـبَ الـشُـؤم ومَـن أرْبَـى عـلـى نـحْـس زُحَـل
يـا جـبـلاً مـن جَـبَـلٍ فـي جَـبَـلٍ فـوق جـبَـل(١)

فللّه درُّه! أهدى حملاً صغيراً، ولم يرض حتى ينصرف إلا بألفي جملٍ، بل يُريدها قافلةً مُحمَّلةً زبيباً وعسلاً، يقودها له ألفا رجلٍ، ولا يعودون من حيث أتَوا، بل يصبحون عبيداً له أيضاً !! هذا وقد أفرد ابن عبد ربه في العقد الفريد باباً كاملاً في الحديث عن الثقلاء.

فعلى الإنسان أن يكونَ لبِقاً في كل سلوك من سلوكيات

---

(١) العقد الفريد، ابن عبد ربه الأندلسي، باب الثقلاء، ١/ ١٨٥.

الحياة، وأن يزور غِباً حتى يزداد حباً، وأن يحترم وقت الآخرين وشعورهم وعملَهم، متحلِّياً بمكارم الأخلاق ووفضائل الشيَم، وصلَّى الله على سيدنا محمد صاحبِ الخلق العظيم، وعلى آله وأصحابه أجمعين، ومن سار على هديهم إلى يوم الدين.

❁ ❁ ❁

# أتُحِبُّ أنْ تعيشَ مَحْسُوداً؟!

إذا أردتَ أن تنظر إلى قلوبٍ تكاد تَميَّزُ من الغيظ، وإلى صدور تكاد أضلاعُها تتمزق من الحقد، وإلى أكبادٍ تتفطر كراهيةً وحقداً، وإلى عيونٍ تخبركَ نظراتُها عن بغض دفين.. فإنك سوف ترى ذلك في قلوب الحاسدين وصدورهم وأكبادهم وعيونهم...

ولكن، لا تسلني: لِمَ يحصل ذلك معهم؟.. لأنني لا أدري، ولكن أستطيع أن أقول لك:

كلُّ ما أدريه أن الحسد داءٌ قديم، ظهر منذ بداية البشرية... فقابيلُ ولدُ آدم، قتل أخاه هابيل حسداً، وكان الداعي إلى القتل أنَّ الله تقبَّلَ قربانَ هابيل ولم يتقبل من قابيلَ، فقتله بعد أن حسده، لذلك نرى أن أولَ جريمةٍ على وجه الأرض سببُها الحسدُ...

وكل ما أدريه أيضاً أن الحسد لا يقتصر على زمن دون زمن، ولا على أمة دون أمة، ولا على جنس دون جنس، فالحسد هو داءُ الأمم، وهو يَحلِق الدين، ولأن الدين الحنيف ينهى عن الحسد فقد قال عليه الصلاة والسلام: «**دبَّ إليكم داءُ الأمم قبلَكم: الحسدُ والبغضاءُ وهي الحالقةُ، لا أقول: حالقةُ الشَّعرِ ولكنْ: حالقةُ الدِّينِ**» رواه الترمذي.

وكل ما أدريه أن الحسودَ لا يسود ـ كما قالوا ـ وأنى له السيادةُ وهو يكره الخير للآخرين؟.

وكل ما أدريه أيضاً أن الحاسد يعترض على حكم الله، فهو لم يرضَ بما قسم الله لعباده، ويوضح هذا المعنى قولُ الشاعر:

أيا حاسداً لي على نعمتي ... أتدري على من أسأتَ الأدبْ؟!

أسأتَ على اللَّه في حُكمه ... لأنك لم ترضَ لي ما وهَبْ

فأخزاك ربي بأنْ زادني ... وسَدَّ عليك وجوهَ الطلبْ

وإذا كنت محسوداً، فلا تجزع ولا تتذمَّر، فجميل أن يكون المرءُ محسوداً، ولذلك قالوا: وكل ذي نعمة في الناس محسودُ، وهذا هو الذي جعل النويريَّ في كتابه نهاية الأرب يرى أن من المديح القليلِ النظيرِ، قولَ علي بن محمد الأفوهِ:

محسَّدونَ، ومن يَعلقْ بحبلهِمُ ... من البرية يُصبحْ وهو محسودُ

وجميلٌ قول البحتري أيضاً في هذا المجال، كما في ديوان المعاني لأبي هلال العسكري:

مُحَسّدونَ كأنّ المكرماتِ أبتْ ... أن تُوجَدَ الدهرَ إلّا عند محسودِ

محسدونَ وشرُّ الناسِ منزلةً ... من عاش في الناس يوماً غيرَ محسودِ

ومن يتأمل في شأن الحساد فسيرى أنهم يسترون الجميل، ويتتبعون العثراتِ والسقطاتِ، وينشرون السيئاتِ فقط، وقد صدق الشاعر قعنبُ ابنُ أمِّ صاحب في وصفهم عندما قال ـ كما في مختارات شعراء العرب لابن الشجري ـ:

إنْ يسمعوا ريبةً طاروا لها فرحاً ... مني وما سمعوا من صالحٍ دفنوا

صمٌّ إذا سمعوا خيراً ذكرتُ به     وإن ذكرتُ بسوءٍ عندهم أذنوا

ولي قصيدة بعنوان: (الحسودُ) نظمتها منذ عدة سنوات، وهي في ديواني الأول (صورٌ من مأساتنا) ومنها أقتطف لك أيها القارئ العزيز:

يَسْعى إلى المجْدِ والعَلْياءِ مجَتهِداً     يكافحُ البؤْسَ لا لا يَرْعوي أبدا
فإنْ علا قدرُهُ واللَّه أكْرمَهُ     يرى أناساً تلظَّى صَدرُهم كَمَداً
أَيحسُدوَن وربُّ العَرشِ حذَّرنا     في مُحْكَمِ الذِّكْرِ من شرِّ الذي حَسَدا
إنَّ الحسودَ جميعُ الخلقِ تُبْغِضُهُ     والهمَّ والغمَّ والآلامَ قَدْ حصدا
يُعانقُ الَّليلَ والأَوْهامُ تُقْلِقُهُ     وجَفْنُهُ للكَرَى والنَّومِ قدْ جَحَدا
يراقبُ النَّاسَ مُغْتاظاً إذا فرِحوا     وإنْ أُصِيبُوا بنازِلةٍ فقدْ سَعِدا
يُعاتبُ اللَّهَ لا يَرْضى بقِسْمتِهِ     يظلُّ دوماً لربِّ الكونِ مُنْتَقِدا
ويُظْهرِ البِشْرَ إنْ لاقاكَ مُبْتسماً     وحِقْدهُ في صَميمِ القلْبِ قَدْ وُلِدِا
إلى ابنِ آدمَ قابيلٍ له نَسَبٌ     من الشَّياطينِ أيضاً يطلُبُ المددا
يا حاسدَ النَّاسِ أبشرْ بالعذاب غداً     في جَوْفِ نارٍ تُذيبُ الْجسمَ والكَبِدا

ففي هذه القصيدة تصويرٌ دقيقٌ لنفسيةِ الحسودِ، التي تميِّزُه عن غيره من النَّاس، تُصورُ الْحقْدَ الدفينَ الأسودَ في قلبه، حيثُ لا يريد الخيَر إلا لنفسه، وتصورُ نفاقَة في المعالم العامةِ لوجهه عند لُقياكَ، كيف أنه يُظهر البِشْرَ والابتسَامة على وجهه إلا أنّ قلَبه يمتلئُ غيظاً، بل يكادُ يتميز من الغيظ. فتتذكر على الفور قول الشاعر:

ومهما تكنْ عند امرئٍ من خليقةٍ     وإن خالها تَخفى على الناس تُعلمِ

وعلى الحُسَّادَ أن يعلموا أن الله مُطلعٌ على سرائر قلوبهم، وأنّ الله قد قَسَم عطاءَه بين الناس بالعدلِ فحسدُهُم وغيظهم لن يغير شيئاً من قضاءِ اللهِ وقدرِه.

وإني أذكر هنا قولاً جميلاً لابن عطاء اللهِ السَّكَنْدَريِّ يقول فيه:

«كفى بك جهلاً أنْ تحُسَد أهلَ الدنيا على ما أُعطوا، وتُشْغِلَ قَلبَكَ بما عندَهم، لأنهم اشتغلوا بما أُعطوا، واشتغلتَ أنتَ بما لم تُعْطَ» تاج العروس للسكندري.

واعلم ـ يا أخي ـ أن النبي عليه الصلاة والسلام لم ينجُ من الحسَّادِ وكيدِهم، وقد أمره الله أنْ يَتَعوَّذَ به من شر حاسدٍ إذا حَسَد، فليكنْ النَّبيُّ ﷺ أسوتَك، والقرآنُ دستورَك...

واعلم أن الحاسدَ مهما اغتابَكَ ومهما كُثَر الغيظ في قلبهِ، فإنه لن يَضُرَّكَ إلا بشيء قد كتبه الله عليك، وتذكر قوله تعالى في سورة التوبة: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ [التوبة: ٥١]، وقوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿وَإِذَا خَلَوۡاْ عَضُّواْ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَنَامِلَ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۚ قُلۡ مُوتُواْ بِغَيۡظِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [آل عمران: ١١٩].

... فأن تعيش محسوداً يعني أنك في نعيم، ويعني أنك مميزٌ بمزايا وخصائص كانت سبباً في إشعال فتيل الغيظ والحسد عند الحاسدين، ولذلك كان بعضهم كثيراً ما يكرر في دعائه: اللَّهُمَّ أكثرْ حُسّادي.

وقبل أن نختم لا بد أن نذكر أن هناك حسداً محموداً وهو حسد الغِبطة، ويكونُ بأن تتمنى أن يعطيكَ الله مثلَ ما أعطى فلاناً

من الناس، ولكنْ من غير أن تتمنى في قلبك أن يُزيل الله النعمةَ عنه فهذا حسدٌ محمودٌ، وهو تَمَنٍّ جائزٌ ومستحب.

وما رأيكم في الختام أن نقول معاً: اللَّهُمَّ أكثرْ حُسادنا، وقنا من شرهم وكيدهم، إنك سميع قريب مجيب.

❁ ❁ ❁

# ... وَحَانَتْ سَاعَةُ الْفِرَاقِ!

الفراقُ، هذا الذي خلّف وراءه قلباً مُعذّباً وعيناً دامعةً، وأمّاً ثكلى، وزوجةً مفجوعةً، وطفلاً يتيماً، وألماً دفيناً. . .

الفراق تلك الكلمةُ التي تعني أنْ تفارق من تحبُّ، وتبتعدَ عمن تهوى، ولا يكتحلَ جفنُك بنوم، ولسانُ حالك يقول للمحب الذي فارقك:

ألقيتَ بين جفون عيني فُرْقَةً  فإلى متى أنا سَاهِرٌ يا رَاقِدُ؟

الفراق موقف تُسكب فيه العبراتُ، ويتجرع القلبُ الأسى والحسراتِ. . .

محاسنُ رَبع قد محاهُنَّ ما جرى  من الدمع لما قيل قد رحل الركبُ
تناقض حالي مذ شجاني فِراقهم  فمن أضلعي نارٌ ومن أدمعي سَكْبُ

الفراق هو الذي جعل الروح تفارق جسد صاحبها، وهو لا يزال على قيد الحياة، فكم من قلبٍ غادر صدرَ صاحبه، متعلقاً في مطايا الظاعنين، وخلَّف صاحبَه على هذه الحالة:

ولقد مررتُ على المنازل بعدَهم  أبكي وأسأل عنهمُ وأنوحُ
وأقول إن سألوا بحالي في النَّوى:  ما حالُ جسمٍ فارقتْه الروحُ

عند الفراق يكثر العناقُ، ويذوب القلب شوقاً قبل الفراق، وتصبح حالتُك كالتالي:

كـم تـشـتـكـي ألـم الـنَّـوى وتـــذوبُ إنْ حـــلَّ الـــفـــراقْ
ودَّعــتَ أصــحــابــاً مَـضَــوْا وجـلـسـتَ تـنـتـظـرُ الـتـلاقْ
أنَّـــى تـــعـــانـــقُ راحـــلاً؟! فبموته مات العناق بدر الدجى[1]

والفراق مهيجُ الأشواق، والشوق هو الذي يقرِّب الدارَ النازحةَ، كما قال العباس بنُ الأحنف:

يقرِّب الشَّوق داراً وهي نازحةٌ من عالج الشَّوق لم يستبعدِ الدَّارا

لكن الشهابَ محمودَ رأى عند الفراق أن شمس الأنس قد غابت، وأنّ دار الأحبة قد نأت، وأصبح يناديهم قائلاً:

أأحبابَنا هل لي إليكم وقد نأت بيَ الدارُ من بعد الديار رجوعُ
وهل شمسُ هذا الأنس بعد فراقنا يكون لها بعد المغيبِ طلوعُ
وهل لي ولا واللَّه ما ذاك ممكنٌ فـؤادٌ إذا حـان الـفـراقُ يُـطـيـعُ
وقد كنت أدري والحياةُ شهيةٌ تروق بكم أن النَّوى سَيَروعُ[2]

وساعةُ رحيل الأحبة من أقسى الساعات التي يعيشها المرءُ، هذا إذا حصل وداعٌ قبل الرحيل، فما بالك إذا غادر الأحبةُ من غير وداع؟! لا أرى الحالة إلا كما قال الشاعرُ:

ساروا وسرَّ الوجد قلبي أودعوا يا ليتهم يوم النّوى لو ودّعوا
رحلوا عن الأوطان لكنْ في الحشا نزلوا، وما راعوا، ولكنْ روَّعُوا
يا صاحِ إنّ ظباءَ جيران النَّقا جاروا عليّ فدُلَّني ما أصنعُ؟

---

(١) انظرها كاملة في ديوان: بَدْرُ الدُّجَى سيِّدُنا مُحَمَّدٌ ﷺ، مصطفى قاسم عباس، ط١، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م، ص٩٧.
(٢) تزيين الأسواق في أخبار العشاق، داود الأنطاكي ١/ ٢٠١.

نفروا وما التفتوا وعادةُ مثلهم يـتـلـفَّـتُّـون إذا نـفـاراً أوقـعـوا
قسماً بهم ما لي غنىً عنهمْ ولو أمسيت كاساتِ الأسى أتجرَّعُ(١)

هذا الذي ذكرناهُ إذا رحل الأحبةُ ولم يودِّعوا، فهل تختلف الحالة إذا حصل الوداع قبل الرحيل؟! لا أظنُّ أنّ الأمر مختلفٌ كثيراً، فها هو ابنُ الضائغ، يرى أن أحبته قد أودعوا في قلبه عند وداعهم نيراناً مستعرةً، فإذا به بعد وداعهم كالنجم الحيران، وكلما حاول أن يستعيرَ صبراً يُسلّيه عما هو فيه، كلما زاد ضرامُ نيرانِ أشواقه من جديد، يقول:

قد أودعوا القلبَ لما ودّعوا حُرَقاً فظلّ في الليل مثلَ النّجم حيرانا
راودتُه يستعيرُ الصبر بعدهمُ فقال: إني استعرتُ اليومَ نيرانا

والآخرُ جعل الصبر يسافر مع محبوبه، ويتشوَّقُ إلى اللقاء، والقلبُ محترقٌ، والدموعُ دماءٌ:

يا راحلاً وجميلُ الصبر يتبعُه هل من سبيلٍ إلى لقياك يتَّفقُ
ما أنصفتك دموعي وهيَ داميةٌ ولا وفى لك قلبي وهو يحترقُ

وذاك يرى أن التصبُّرَ عند غياب الأحبة لا طمع فيه مع عِظم الجوى، والشوقِ المبرِّحِ، فما عادت الديارُ كما كانت، ولا الإشراقُ والبهاءُ كسالف عهده:

غبتم فما لي في التصبر مطمعٌ عَظُم الجوى، واشتدتِ الأشواقُ
لا الدارُ بعدكم كما كانت ولا ذاك البهاءُ بها ولا الإشراقُ

(١) نسيم الصبا، ابن حبيب الحلبي، باب في الفراق ١/ ١٦.

أشتاقكم وكذا المحبُّ إذا نأى عنهُ أحبتُهُ قلبه يشتاق[1]

وهذا الشاعرُ عندما ودَّعهُ أحبّاؤُه يوم الخميس عِشاءً، ودَّعهم وَوَدَّع نفسه التي أبتْ إلا بالذهاب معهم، وكم طلب منها العودة، ولكنْ بلا فائدة!!:

همُ رحلوا يوم الخميس عشيّةً فودّعتهم لمّا استقلّوا وودّعوا
فلمّا تولوا ولّتِ النّفسُ معهُمُ فقلتُ: ارجعي قالت: إلى أين أرجعُ؟[2]

وغالباً عند التوديع، يلوِّح الإنسان بيده، ويمدُّها للوداع، إلا أنّ يد الهجر والبين تأبى أنْ تودِّع؛ لأنّ الموت في الوداع:

قالتْ ومدتْ يداً نحوي تودِّعُني ولوعةُ البَين تأبى أن تمدّ يداً
أميِّتٌ أنت أمْ حيٌّ فقلتُ لها: مَنْ لم يمت يوم بَيْنٍ لم يمتْ أبداً

وأبو الحسن الهمدانيُّ أتى بصورة مختلفة عندما قال:

ويوم تولَّت الأظعانُ عنا وقوّض حاضرٌ وأرنَّ بادي
مددتُ إلى الوداع يداً وأخرى حبستُ بها الحياةَ على فؤادي

بيدَ أن بعض الأندلسيين رأى أنّ الأمر سيانِ، سواءٌ ودّعوا أمْ لا؛ لأن منزَلهم في شغاف القلب، وشمسَهم مشرقةٌ في القلب، لا تغرُبُ على أية حال:

ساروا فودَّعهم طرفي وأودَعهم قلبي، فما بعدوا عني ولا قربوا
همُ الشموسُ ففي عيني إذا طلعوا في القادمين، وفي قلبي إذا غربوا

---

(١) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، المقري، مقدمة المؤلف ١/ ٩٠.
(٢) أخبار النساء، ابن الجوزي ١/ ٨.

أما الكُتّاب فهم عند الفراق، يقلُّ هجوعُهم، ويزدادُ بكاؤهم كغيرهم، إلا أنهم يختلفون عن غيرهم بأنّ داعي الشوق هو الذي يُملي، والدموعَ هي التي ترمِّل السطورَ:

كتبتُ وعندي من فراقك لوعةٌ ... تُزيد بكائي أو تُقِل هجوعي
فلو أبصرت عيناكَ حاليَ كاتباً ... إذاً كنتَ ترثي في الهوى لخضوعي
أخطُّ وداعي الشوق يُملي، وكلما ... تعدَّيتُ سطراً رمّلتْه دموعي

فلا غُرو بعد ذلك ولا عجب، أنْ نرى أنّ صاحب كتابِ (مصارع العُشّاق) كتب على أول جزء منه:

هذا كتابُ مصارع العشاقِ ... صرعتهم يوم النوى بفراق
تصنيفُ من لذع الفراقُ فؤادَه ... وتطلَّب الراقي فعزَّ الراقي

ويبقى لفراق مكةَ والمدينة طعمٌ آخرُ، وكما قيل: (من ذاق عرف)، فعندما كنتُ في مكة المكرمة، وأُخبرت أنّ الفراق والسفر بعد يومين، شعرتُ بلوعة الفراق قبل الافتراق، وكان مما قلتُ:

لكل لقاءٍ لوعةٌ وفراقُ ... ودمعٌ على الخد الأسيل يُراقُ
وقلبٌ يريد الوصلَ، والبينُ دونه ... وسُهدٌ ونوحٌ تارةً وعناقُ
وأُنبئتُ أني بعد يومين راحلٌ ... فيا لهفَ نفسي!! كيف ذاك يطاق؟!
فما أجمل الأيامَ في قرب كعبةٍ ... تنيرُ، لها في مقلتي إشراقُ!!

وعندما وصلتُ إلى بلدي، وبعد أيام قليلة، تذكرت مكةَ وأنوارَها، والمدينةَ وأسرارَها، والليالِيَ التي أمضيتها هناك بنسيمها العطِرِ، وأريجها الفوّاحِ، فنظمتُ قصيدة عنوانُها: (... وَعَاْدَ نَبْضُ الْهَوَىْ يَسْرِيْ بِأَوْرِدَتِيْ) منها هذه الأبياتُ:

ساءلتُ أيام أُنْسٍ أن تعود لنا    لكنني عُدتُ في خُسرٍ وإخفاق
طابت وطاب اللقا، والشملُ مجتمع    وكلما ذُكرت أبكي بإطراق
وعاودتني ليالٍ ما تُذكِّرُني    إلا بدمع على الخدين مُهْراق
لا عذَّب اللَّه قلباً في الجوى دنِفاً    وقرَّبَ اللَّهُ مُشتاقاً لمشتاق

**وختاماً**: نرى أنّ من فارق مُحباً ودَّع الدنيا، يبقى دائماً متشوقاً للقيامة، ولكنْ لماذا؟! يجيبنا الشاعر:

تمنيتُ القيامةَ ليس إلا    لألقى من هويتُ على الصراط

ولكني أتمثَّل بقول الشاعر:

وما الدهرُ إلا جامعٌ ومفرِّقٌ    وما الناسُ إلا راحلٌ ومودِّعُ
فإنْ نحنُ عِشنا يجمع اللَّه شملنا    وإن نحن مِتنا فالقيامة تجمعُ

❁ ❁ ❁

# هلْ يَتَجزَّأُ الْوَفَاءُ؟!

الوفاءُ كلمةٌ من أروع الكلمات التي تُطرَب الآذانُ عند سماعها، وتنتشي بروائع معانيها...

الوفاء تلك الكلمةُ التي تتكوَّن من مزيج من الود والحب والألفة والإخاء ...

الوفاء هي الكلمةُ التي تعبِّر عن معنىً لا يتجزأُ، فلا يُطعَن بسهام الخيانة، ولا يُضرب بسيوف الغدر...

ولكنّ الأصل في الوفاء أنه لا يتجزأ، فهل تجزأ الوفاءُ في زماننا؟؟

سؤالٌ يجيب عنه كلُّ إنسان تجرّع مرارةَ الغدر، وشرب كؤوس الخيانة علقماً لا يُستساغ!!

فكم من إنسان يطلب منك أن تمَد له يدَ العون لتنقذه من مأزِق ما، فتمدُّ يدك، وتنقذه بها... وإذ به يقطعها فيما بعدُ بسيف الغدر والخيانة !! وكم من إنسانٍ كنتَ تظنُّه وفيّاً، فإذا به أشدُّ خيانةً من أبي رغال!! وكم من إنسانٍ قالوا عنه: خائنٌ، فإذا به أوفى من السموأل!!

لذلك عندما نجول مع الشعراء الحكماء نرى أن بعضهم جعل نهرَ الوفاء قد جفّ وغاض، ونهرَ الغدر قد امتلأ وفاض، ووجد أن حُسن الظن لا يُفيد، وأن الإنسان عليه أن يُسيء ظنه بجميع البشر، وذلك كما فعل مؤيّدُ الدين الطغرائيُّ في قصيدته (لامية العجم)، حيث يقول فيها:

وحُسنُ ظنِّك بالأيام معجزةٌ فَظُنَّ شراً وكنْ منها على وَجَلِ
غاض الوفاءُ وفاض الغدرُ وانفرجت مسافةُ الْخُلف بين القول والعملِ

بينما نرى أن غيرَه من الشعراء زهد في الناس قاطبة، وخاصة في الأصدقاء، فكم من صاحب سرّه في البداية، وأبكاه في النهاية!، وكم من صاحب كان يرجوه لنائبة الدهر، فإذا به من أشدّ نُوَبِ الدهر ومصائبِه، لذلك قال:

وَزَهَّدَنِي في النَّاسِ مَعْرِفَتِي بِهِمْ وَطُولُ اخْتِيَارِي صَاحِباً بَعْدَ صَاحِبِ
فَلَمْ تُرِنِي الأَيامُ خِلّاً تَسُرُّنِي مَبَادِيهِ إِلَّا سَاءَنِي فِي العَوَاقِبِ
وَلا قُلْتُ أَرْجُوهُ لِدَفْعِ مُلِمَّة منَ الدَّهْرِ إِلَّا كَانَ إِحْدَى المَصَائِبِ(١)

وإذا كان شاعرُنا قد زهد في وجود الصاحب الحقيقي، والخلِّ الوفي، فإن هذا الشاعرَ الآخر أضاف الخل الوفيَّ إلى المستحيلين، وإلى الشيئين الخرافيَّيْن الغولِ والعنقاء، فجعل المستحيل ثلاثة أشياء، وهي كالتالي:

---

(١) المغرب في حلى المغرب، ابن سعيد المغربي ١/ ١٥٢.

لما رأيتُ بني الزمان وما بهم خلٌّ وفيٌّ للشدائد أصطفي
فعلمت أن المستحيلَ ثلاثة الغول والعنقاء والخل الوفي

وأولى علاماتِ نقض الوفاء، تبدلُ الهجرِ بالوصل، وسيطرةُ الجفاء على القلب، الذي يأبى إلا أن يَظهر على ملامح الوجه، فيشعر الإنسان أن الوجهَ ما عاد كعهده، وأن نظرةَ العين ما عادت تلك النظرةَ التي كانت في سالف الزمان، كما قال الشاعر:

وكنتُ إذا ما جئتُ أدنيتَ مجلسي ووجهُك من ماء البشاشة يقطُرُ
فمن ليَ بالعين التي كنتَ مرّة إليّ بها في سالف الدهر تنظُرُ(١)

فالقلوب تقلّبت، والوداد زال، وانتقل الإنسان من حال إلى حال، مع أن الأساس في الوداد أنه ثابتٌ ثبوتَ الجبال، قال الشاعر:

وكنتُ أظن أن جبالَ رضوى تزولُ وأنّ وُدَّك لا يزولُ
ولكنَّ القلوبَ لها انقلابٌ وحالاتُ ابنِ آدمَ تستحيلُ

ومع ذلك على الإنسان أن يعلم أنّ الأوفياءَ كُثُرٌ، ولكنَّ العثورَ عليهم صعبٌ، فإذا طُعنتَ بسيف الغدر مرة، فهذا لا يعني أنْ تُطعن به كلّ مرة، وإذا لم تجد اليومَ الوفاءَ متمثِّلا في شخصٍ ما، فستجده ولو بعد حين، كما قال ابنُ أبي الدنيا:

إذا المرءُ لم ينصف أخاه ولم يكن له غائباً يوماً كما هو شاهدُ

---

(١) نسيم الصبا، ابن حبيب الحلبي، باب في الفراق ١/١٦.

فلا خير فيه فالتمس غيرَه أخاً     كريماً على فضل الكريم يُعاهدُ[1]

وقد تلاحظُ التغيّرَ، وزوالَ الود من إنسانٍ لم تذنب معه، ولم تسئ إليه قط، وما قابلته الوفاءَ إلا بالمثل، فتتملكك الحيرة، ويناجيك التعجب، وتكثر علامات الاستفهام: ما السبب؟ وما السرُّ؟!.. أقولُ في تعليل الجواب: لعل هذا الصاحب كان ضحيةً من ضحايا النميمة الذميمة، أو سوءِ الظن الممقوتِ، فقل له بلطف كما قال الشاعر:

أناسٌ أعرضوا عنّا     بلا ذنبٍ ولا معنى
أساؤوا ظنّهمْ فينا     فهَلا أحسنوا الظنا
فإن عادوا لنا عُدنا     وإن خانوا فما خُنّا
وإن كانوا قد استغنَوْا     فإنا عنهُمُ أغنى

والوفيُّ يبقى وفيّاً، وإن ساء الظنُّ، وتقلبتِ القلوبُ، وفشتِ النميمة، فلله درّ من قال:

اللَّه يعلم والدنيا مُوليةٌ     والعيشُ متنقلٌ والدهرُ ذو دُوَلِ
لأنت عندي وإن ساءت ظنونُك     بي أحلى من الأمن عند الخائفِ الوَجِلِ

**ختاماً** ـ قالوا: إن الوفاء لا يتجزأ، فليس من الممكن أن يكون الإنسان نصفَ وفِيٍّ ونصفَ خائنٍ!!... ولكنْ، ليت شعري!! ألا ترى معي أن الوفاء تجزّأ في أيامنا، وتقطَّع إرْباً إرْباً!!، ومع ذلك كلما قَطع حبلَ الوفاء شخصٌ ما وصله شخصٌ

(١) تزيين الأسواق في أخبار العشاق، داود الأنطاكي ١/٢٠١.

آخرُ، ليبقى الوفاءُ متصلاً، رغم خيانة الخائنين، وغدر الغادرين... وليكن شعارك:

وأنا المقيم على محبتهم وإن حفظوا عهودي في الهوى أو ضيّعوا

❁ ❁ ❁

## دَعُوها نائِمةً...

نعم دعوها نائمةً، سادرةً في أحلامها وغيها، وذاهبةً في سُباتٍ عميقٍ. . .

دعوها نائمةً كما نام أصحابُ الكهف ثلاثمائةٍ سنينَ وازدادوا تسعاً. . . بل تبقى نائمةً أبد الآباد ومدى الدهور والأزمان. . .

دعوها نائمةً لأنها متى استيقظت فإننا سوف نرى الدماءَ تسيل، والأشلاءَ متناثرة، والعيونَ تبكي، والقلوبَ تتفطر حزناً وأسىً. . .

لا توقظوها ففي نومها أمانٌ للعباد، وطمأنينةٌ للنفس، وراحةٌ للبال، وحُبور يرتسم على الشفاه والوجوه. . .

دعوها نائمةً لأن من يوقظها فسوف تحل عليه لعنةُ الله في السماء، ولعنة العباد على الأرض، ولعن الملائكة والناس أجمعين.

دعوها نائمة لأنها متى استيقظت فلا تستطيع أن تستسلم جفونُها للكرى بسهولة ويسر، بل تتقلب على فراشها ذات اليمين وذات الشمال، وكلبُ حقدها باسط ذراعيه هنا وهناك في الأذى وترويع الناس وسفك الدماء! فلا يغمض لها جفنٌ، ولا تنام من جديد إلا إذا أغمضت للأبرياء أجفاناً لا تُفتَح إلى يوم القيامة!!

دعوها نائمة، حتى ننام آمنين في سربنا، معافَين في أجسادنا،

ننعم بنعم الله علينا. . . ولعلك ـ أيها القارئ الكريم ـ إلى الآن تتساءل:

من هذه الحمقاء القبيحة التي تريدنا أن ندعها نائمة؟! ولم كل هذا التحذير من استيقاظها؟ ولعلك تبالغ في وصفها بكل هذه النعوت والأوصاف. . .؟

فأقول: إن هذه القبيحةَ هي الفتنة النائمة التي لعن الله من أيقظها. . .

هي الفتنة التي إذا سرت فإنها تسري بين الناس كما تسري النار في الهشيم بلا أدنى هوادة، ولا أقل تؤدة. . .

هي الفتنة التي لا تفرق بين إنسان وآخرَ، فتخبط خبط عشواءَ، وتدقُّ عطرَ مَنْشَمٍ، حتى يصل الناس إلى حالة لا يدري القاتلُ فيم قَتَلَ ولا المقتولُ فيم قُتِل؟

هي الفتنة يا صاحبي التي لها دعاةٌ على أبواب جهنم من أجابهم إليها قذفوه فيها.

إنها الفتنة التي لها قوم كلما رُدوا إلى الفتنة أُركسوا فيها، والتي وصفها الله جل ذكره أيضاً بأنها أشدُّ من القتل. . .

إنها الفتنة التي تحدَّث الله عن أصحابها بقوله: ﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

وقال الله عنهم: ﴿أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾﴾.

هي الفتنة الهوجاء التي تذر الحليمَ حيرانَ، والعاقل متأملاً، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى، ولكن أمر الفتنة عظيم، وخطبها ومصابها جلل...

**وأخيراً**: إن الفتنة العمياء هي التي تخلف دموعَ باكيةٍ، ونوحَ ثكلى، وعويلَ محزونٍ، وشقاء يتيم، ونحيب أرملة...

ولكي لا أطيل أختم بالدعاء التالي لي ولجميع القراء الكرام:

اللُّهُمَّ قنا فتنة المحيا والممات، وقنا من مضلات الفتن ما أحييتنا، إنك سميع قريب.

❁ ❁ ❁

# دُمُوعُ القَوَافِي فِي عُيُونِ الْمَراثِي

كلٌّ واحد منا في هذه الحياة الدنيا قد تجرّع كأس الفراق، وذاق علقم الفقد، ولوعة الوداع، وسكب دموعَ القلوب قبل العيون. . .

وكلّ واحد منا فقد أمّاً رؤوماً، أو أباً عطوفاً، أو أخاً شفيقاً، أو زوجاً حنوناً أو صديقاً حميماً مخلصاً. . .

والإنسان عندما يودِّع مسافراً فإنه يعيش على أمل اللقاء به ولو بعد حين.

وأما عندما يودِع إنساناً تحت أطباق الثرى، فإنه لا أمل له في لقائه بهذه الدنيا، وتراه يكرر مع الشاعر قوله:

وما الدهرُ إلا جامعٌ ومفرِّقٌ     وما الناسُ إلا راحلٌ ومودِّعُ
فإنْ نحنُ عِشنا يجمع اللَّهُ شملنا     وإن نحن مِتنا فالقيامة تجمعُ

نعم كأسُ الفراق مر، ولكنْ هذه هي الدنيا، مهما عمَّر الإنسان فيها فمصيره إلى التراب، ومفارقةِ الأهل والأصحاب والأحباب.

ساعة الفراق، كلٌّ يعبر عما يجيش في نفسه بطريقته، فهذا بالنحيب، وذاك بالبكاء والدموع، وغيرُه بالعويل، والآخر بالصبر والسُّلوان. . .

أما الشعراء فتتحول دموعهم إلى مراثٍ حزينةٍ، حروفُها الأحزانُ، وسِفرها قلبٌ مُضنى، وقافيتها اللوعة والأسى، وبحرُها من فيضانات العبرات. . .

وأجملُ ما في الشعر في تلك اللحظة رقتُه وعذوبتُه، وصدقه وعاطفته.

وفي هذه العجالة سنمخر مع الشعراء بحورَ أحزانهم، متأملين في بعض المراثي التي أصبحت خالدة ما دامت هناك مآقي تسكب دموعها.

وسنرى أن بعض الشعراء رثى نبياً أو أماً أو أباً أو أخاً أو ولداً أو زوجة أو صديقاً وفياً أو ملكاً محبباً إلى القلوب. . .

- ونبدأ بسيدنا أبي بكر الصديق ﵁، فله قصيدة في رثاء النبي ﷺ، وهو أول من رثاه يقول فيها:

لما رأيتُ نبينا متجندلا   ضاقت عليَّ بعرضهن الدور
فارتاع قلبي عند ذاك لموته   والعظم مني ما حييتُ كسير
أعتيقُ ويحَك إنّ خلك قد ثوى   والصبر عندك ما بقيتَ يسير
يا ليتني من قبل مهلك صاحبي   غُيِّبت في لحد عليه صخور[1]

وكذلك سيدنا حسانُ بن ثابت ﵁، له دالية رائعة في رثاء النبي يقول في مطلعها:

بطيبة رسمٌ للرسول ومعهدُ   منير وقد تعفو الرسوم وتهمد[2]

---

(١) السيرة النبوية، د. علي محمد محمد الصلابي، ط١، عام ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م، دار الفجر ٢/ ٧٠٩.

(٢) حسان بن ثابت، حياته، شعره، إصدار دار كرم، بدمشق، ص٥٤.

وأخرى مطلعها:

ما بال عينك لا تنام كأنما    كُحلت مآقيها بكحل الأرمد[1]

وممن رثى النبيَّ أيضاً: أبو سفيان، وصفية بنت عبد المطلب وغيرهم.

ـ ومن الشعراء من رثى أمَّه، فإنّ فقد الأم لا يعوض كما هو معلوم، وها هو الشريف الرضي يرثي أمه بقصيدة مشهورة، تمنى أن يكون فيها فداءً لأمه، ولكنْ، هيهات !! فلكلٍّ يومُه وأجلُه، يقول:

أبكيك لو نقع الغليلَ بكائي    وأقول لو ذهب المقالُ بدائي
وأعوذ بالصبر الجميل تعَزّياً    لو كان بالصبر الجميل عزائي
قد كنت آمل أن أكونَ لك الفدا    مما ألمَّ فكنتِ أنت فدائي

ورهين المحبسين أبو العلاء المعري، (أول ما قال الشعر، قاله في رثاء أبيه، الذي توفي وهو لم يزل فتى، وعجب سامعوه منه، واندهشوا لتلك المقدرة التي ألقى بها كلماتِه على صغر سنه، ومما يقول في هذه المناسبة مخاطباً والدَه:

فليتك في جفني مواريً نزاهة    بتلك السجايا عن حشايَ وعن ضبني
ولو حفروا في درة ما رضيتُها    لجسمك إبقاء عليه من الدفن[2]

ومن جميل ما قرأت، قصيدة للحصري القيرواني (يرثي أباه وقد ودَّع قبره، وقت جوازه إلى الأندلس منها:

---

(١) حسان بن ثابت، حياته، شعره، ص٥٧.

(٢) أبو العلاء المعري، حياته، شعره، إعداد: سمير الصارم، إصدار دار كرم، بدمشق، ص٤٥.

أبي نيّرُ الأيام بعدك أظلما　　　وبنيانُ مجدي يوم مت تهدما
وجسمي الذي أبلاه فقدُك إن أكن　　　رحلت به فالقلب عندك خيما)[1]

ـ وكما أن لكل شيء أماً، فإن هناك أمّاً للمراثي، وهي مرثية متمم بنِ نُويرة التي رثى فيها أخاه مالكاً، وما سميت بأم المراثي، إلا لروعتها، واحتوائها على عظيم المعاني والصفات، وقد ذكرها أبو زيد القرشيُّ في جمهرته في الجزء الأول، وقد اخترت منها هذه الأبيات، بعدما وقعت في حيرة عندما أردت الاختيار:

لَعَمْرِي وما دَهْرِي بتأبين هالكٍ　　　ولا جَزعاً ممّا أَلمّ فَأوْجَعَا
لقد غَيَّب ٱلمِنْهَالُ تحت رِدَائه　　　فَتىً غَيرَ مبطَانِ العَشِيّات أَرْوعَا
وما كان وَقّافاً إذا الْخَيْل أحْجَمت　　　ولا طالباً من خَشْية ٱلمَوت مَفْزَعا
وأنّي متى ما أَدْعُ باسمك لم تُجب　　　وكُنت حَرِيّاً أن تُجيب وتسمعا
تَحِيَّتَه منّي وإن كان نائيَاً　　　وأمسى تُراباً فوقه الأرضُ بَلْقَعا
فإن تَكُنِ الأيّام فَرقْن بَيْننا　　　فقَد بان مَحْموداً أخِي حِين وَدَّعا
وكُنَّا كَنَدْمَاني جَذِيمة حِقْبَةً　　　من الدَّهر حتى قِيل لن يَتَصَدَّعا
فلمّا تَفرقْنا كأنِّي ومالِكا　　　لِطُول اجتماع لم نَبِت ليلةً معا

ـ فهذا أخ رثى أخاه، وهناك من الشواعر من رثت أخاها، وتتبادر الخنساء على الفور إلى أذهاننا، وهي التي دبجت في أخيها صخرٍ أروع قصائد الرثاء، منها البائية التي مطلعها:

---

(١) في الشعر الغربي الأندلسي والمغربي، د. علي دياب، منشورات جامعة دمشق، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م، ص٤٠١.

يا عين مالك لا تبكين تسكابا　　إذ راب دهرٌ وكان الدهر ريَّابا[1]

ومنها الرائية المشهورة التي منها:

وإنَّ صخراً لوالينا وسيدُنا　　وإنَّ صخراً إذا نشتو لنحّار
وإن صخرا لتأتم الهداة به　　كأنه علم في رأسه نار[2]

ـ وعندما يودع شاعرٌ ولده، وفلذةَ كبده تحت أطباق الثرى، فإن قلبه يكاد ينفطر، والحزن والكمد يزداد في الفؤاد، فكيف إذا كانت وفاة الولد في يوم عيد؟؟ فهذا الشاعر مات ولده في يوم العيد، فقال فيه مرثية، تبكي العيون، وتثير الشجون، منها:

أيسرّني عيدٌ ولم أرَ وجهه　　فيه ألا بعداً لذلك عيدا
من لم يمت جزَعاً لفقد حبيبه　　فهو الخؤونُ مودةً وعهودا
مت مع حبيبك إن قدرتَ ولا تعش　　من بعده ذا لوعةٍ مكمودا
حزني عليك بقدر حبك لا أرى　　يوماً على هذا وذاك مزيدا
ما هدّني مَرُّ السنين وإنما　　أصبحتُ بعدك بالأسى مهدودا
يا ليت أني لم أكن لك والداً　　وكذاك إنك لم تكن مولودا
من ذم جفناً باخلاً بدموعه　　فعليك جفني لم يزل محمودا
فلأنظمن مراثياً مشهورة　　تنسي الأنام كُثيِّراً ولبيدا
وجميعُ من نظم القريضَ مفارقٌ　　ولداً له أو صاحباً مفقودا[3]

---

(١) ديوان الخنساء إصدار: دار كرم بدمشق، ص١٩.
(٢) ديوان الخنساء، ص٤٤ ـ ٤٥.
(٣) المستطرف في كل فن مستظرف: شهاب الدين محمد بن أحمد أبي الفتح الأبشيهي، ط٣، دار صادر، ص٦٨٧.

فهل تأملت في روعة هذا الكلام؟؟

وكلما ذكر أن شاعراً رثى ولده، تُذكر قصيدة ابنِ الرومي التي يقول فيها:

أريحانة العينين والأنف والحشا ... ألا ليت شعري هل تغيرت عن عهدي؟؟
ألام لما أبدي عليك من الأسى ... وإني لأخفي منك أضعاف ما أبدي

وقد يرثي الإنسان ابنته، فعندما ماتت ابنتي تسنيم، وكانت صغيرة رثيتها بقصيدة منها:

تداعب الجفنَ أطيافٌ لتسنيم ... وتُشعل الشوقَ هبَّاتُ التناسيم
وعبرتي في حنايا العين قد حُبست ... ممزوجة برضى مني وتسليم(١)

ـ وقليل من الشعراء من رثى زوجته، ومع القلة فإن من أفضل القصائد في رثاء الزوجة قصيدةَ جرير التي قالها في رثاء زوجته أمِّ حزرة، والقصيدة كلها رائعة، ولكنْ أقتطف لك منها:

لولا الحياءُ لهاجني استعبارُ ... ولزرتُ قبركِ والحبيبُ يزارُ
ولقدْ نظرتُ وما تمتعُ نظرةٍ ... في اللحدِ حيثُ تمكنَ الحفارُ
كانتْ مكرمةَ العشيرِ ولمْ يكنْ ... يخشى غوائلَ أمِّ حزرةَ جارُ
ولقدْ أراكِ كسيتِ أجملَ منظرٍ ... ومعَ الجمالِ سكينةٌ ووقارُ
والريحُ طيبةٌ إذا استقبلتها ... والعرضُ لا دنسٌ ولا خوارُ
صلى الملائكةُ الذينَ تخيروا ... والصالحونَ عليكِ والأبرارُ

---

(١) ديوان: صور من مأساتنا، مصطفى قاسم عباس، ط١، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م، مطبعة اليمامة، ص٩٩.

وعليكِ من صلواتِ ربكِ كلما نصبَ الحجيجُ ملبدين وغاروا
لا يلبثُ القرناءَ أنْ يتفرقوا ليلٌ يكرُّ عليهمِ ونهارُ[1]

وفي العصر الحديث، رثى الشاعر محمود سامي البارودي زوجته بقصيدة رائعة أيضاً، وهي مشهورة، وكان مما قال فيها:

يا دهرُ فيم فجعتني بحليلة؟؟ كانت خُلاصة عُدتي وعتادي
إن أنت لم ترحمْ أساي لبعدها أفلا رحمت من الأسى أولادي
تاللَّه ما جفت دموعي بعدما ذهب الردى بك يا ابنة الأمجاد

والقصيدة تحمل في طياتها الكثيرَ من المعاني الصادقة، والكلمات الكئيبة، وعبراتِ الوفاء.

ـ ومن قصائد الرثاء، ما قيل في رثاء ملك أو زعيم أو ذي مكانة مرموقة، وقد رأينا من الشعراء من أجاد في هذا النوع، وإن كانت المبالغة تطغى على كثير من أمثال هذه القصائد، لكنّ جمالَ التصوير، ورقة الألفاظ وانسيابيتَها، قد تشفع للشاعر، فتأمل معي في هذه القصيدة التي قالها أبو الحسن الأنباري في محمد بن بقية وزير عز الدولة بختيار بن معز الدولة ابن بويه لما صلبه عضد الدولة ابن ركن الدولة ابن بويه عند خلع بختيار، وهي من نوادر المراثي ويقول فيها:

علوٌّ في الحياة وفي الممات لحقٌّ أنت إحدى المعجزات
كأن الناسَ حولك حين قاموا وفودُ نداك أيام الصِّلات

---

(١) جرير، حياته شعره، إعداد ضحى عبد العزيز، إصدار: دار كرم، بدمشق، ص٤٧ ـ ٤٨.

كـأنـك قـائـمٌ فـيـهـم خـطـيـبـاً     وكـــلـــهُـــمُ قـــيـــامٌ لـــلـــصـــلاة
مـددت يـديـك نـحـوهـم احـتـفـاءً     كـمـدهـمـا إلـيـهـم بـالـهـبـات
ولـمـا ضـاق بطنُ الأرض عن أنْ     يـضـمَّ علاك من بـعـد الـمـمـات
أصاروا الـجـوَّ قـبـرَك واستـنـابـوا     عـن الأكـفـان ثـوب الـسـافـيـات
لعظمك في النفوس بقيت تُرعى     بـــحـــراسٍ وحُـــفـــاظ ثـــقـــات
وتـشـعَـل عـنـدك الـنـيـران لـيـلاً     كـذلـك كـنـت أيـام الـحـيـاة
ولـم أر قـبـلَ جـذعـك قط جـذعـاً     تـمـكـن من عـنـاق الـمـكـرمـات
ركـبـت مـطـيـةً مـن قـبـلُ زيـدٌ     علاها في السنين الذاهبات(١)

ومن درر المراثي، مرثيةٌ قيلت في معن بن زائدة، قالها الحسين بن مطير الأسدي ومنها:

هـلـمـا إلـى مـعـن وقـولا لـقـبـره     سقتك الغوادي مَربعاً ثم مربعا
فـيـا قـبـرَ مـعـن كـنـتَ أولَ حـفـرة     من الأرض خُطت للسماحة مضجعا
ويا قبر معن كيف واريت جودَه     وقد كان منه البر والبحر مُترَعا
بلى قد وسعتَ الجودَ والجودُ ميت     ولو كان حياً ضقتَ حتى تصدّعا
فتىً عاش في معروفه بعد موته     أناسٌ لهم بالبر قد كان أوسعا
ولما مضى معن مضى الجودُ كلُّه     وأصبح عرنينُ المكارم أجدعا(٢)

فللَّه در الشاعر!! كيف جدع أنف المكارم بموت معن؟.

---

(١) نهاية الأرب في فنون الأدب المؤلف: النويري، باب في المراثي والنوادب ٢/ ١٠٥.

(٢) المستطرف في كل فن مستظرف: شهاب الدين محمد بن أحمد أبي الفتح الأبشيهي، ص٦٨٨.

ولا ننسى في هذا المضمار قصيدة لابن رشيق القيرواني يرثي المعز مطلعها:

لكل حي وإن طال المدى هُلك    لا عز مملكة يبقى ولا ملك[1]

والشاعر سعيد بن جودي يرثي الغالب بن حسن بأبيات أجاد فيها، وخاصة عندما يقول:

فيا عجباً للقبر كيف يضمه؟؟!    وقد كان سهلُ الأرض يخشاه والوعرُ
وما مات ذلك الماجد القرمُ وحده    بل الجودُ والإقدام والبأس والصبر[2]

ـ وقد يرثي الشاعر نفسه ويبكيها قبل موته، وقد (قال ابن قتَيْبة: بلغني أن أوّل من بكى على نفسه وذكرَ الموت في شِعْره يزيدُ بن خَذّاق، فقال:

هَل للفتى من بنات الدهر من وَاقِي    أم هل له من حِمام المَوْتِ من رَاقِي
قد رَجَّلوني وما بالشَّعر من شَعَثٍ    وألبَسوني ثِيَاباً غيرَ أخْلاق
وطَيَّبوني وقالوا أيما رَجُلٍ    وأدرَجوني كأنّي طيّ مخْرَاق
وأرسَلوا فِتْيَةً من خيْرِهِمْ حَسَباً    لِيُسْنِدُوا في ضرَيح القَبر أطباقي
وقَسمُوا المال وارفضّت عوائدُهم    وقال قائلُهُم مات ابن خَذّاق
هَوِّن عليك ولا تُولَع بإشفاق    فإنّما مالُنا للوارث الباقي[3]

---

(١) في الشعر الغربي الأندلسي والمغربي، د. علي دياب، منشورات جامعة دمشق، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م، ص٣٩١.

(٢) المصدر السابق، ص٧٠.

(٣) العقد الفريد، ابن عبد ربه الأندلسي، باب وصف قبره وما يكتب على القبر ١/ ٣٤٦، والقصيدة موجودة في الشعر والشعراء للدينوري والمفضليات للضبي وغيرها من أمهات الكتب.

ومنهم مالك بن الريب الذي (رثى نفسه بقصيدة مطلعها:

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلةً بجنب الغضى أزجي القلاصَ النواجيا

وتبدأ الأبيات المؤثرة بقوله:

تقول ابنتي، لما رأت طولَ رحلتي سِفارك هذا تاركي لا أبا ليا
تذكرتُ من يبكي عليَّ فلم أجد سوى السيفِ والرمح الرديني باكيا
فيا صاحبيْ رحلي، دنا الموتُ فانزلا برابيةٍ، إني مقيمٌ لياليا
أقيما عليَّ اليوم أو بعض ليلةٍ ولا تعجلاني، قد تبين شانيا
وقوما، إذا ما استل روحي، فهيِّئا لي السدرَ والأكفانَ عند فنائيا
وخُطّا بأطراف الأسنة مضجعي ورُدَّا على عينيَّ فضل ردائيا
ولا تحسداني، بارك اللّه فيكما، من الأرض ذات العرض أن توسعا ليا
خذاني فجُرَّاني ببرديْ إليكما فقد كان قبل اليوم صعباً قياديا)[١]

ـ وبما أننا نتحدث عن الرثاء، لا بد أن نتذكر رثاءً من نوع آخر، هو رثاء الممالك والمدن الزائلة، وقد كثر هذا اللون من الرثاء في الأندلس، وكلنا يتذكر قصيدة أبي البقاء الرندي في رثاء الأندلس التي منها:

لكل شيء إذا ما تم نقصانُ فلا يُغرَّ بطيب العيش إنسان
هي الأمور كما شاهدتها دولٌ من سره زمنٌ ساءته أزمان
وهذه الدار لا تبقي على أحد ولا يدوم على حال لها شان
فجائعُ الدهر أنواعٌ منوعة وللزمان مسراتٌ وأحزانُ

---

(١) إطلالة على التراث، عبد العزيز الخويطر ج١٦، ط١، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م، ص٤٤٨ ـ ٤٥٠ بتصرف.

وللحوادث سُلوانٌ يسهلها وما لِما حلَّ بالإسلام سلوان
حتى المحاريبُ تبكي وهي جامدة حتى المنابر ترثي وهي عيدان
لمثل هذا يذوب القلب من كمد إن كان في القلب إسلام وإيمان[1]

وهكذا كنا في جولة سريعة، مع أب مفجوع، وأم ثكلى، وأخت نائحة، وولد يبكي، وعين تهمي، ورأينا كيف أن الأحزان جعلت قرائح الشعراء تتفجر بأعذب المراثي التي خلدها الزمان، وسيبقى هناك رثاء ما دام هناك فراق ووداع.

❁ ❁ ❁

(١) في الشعر الغربي الأندلسي والمغربي، د. علي دياب، ص٣١٠ ـ ٣١٢.

# دينُ الإسلام بريءٌ من التطرُّفِ والإرهابِ(١)

بسم الله الرحمٰن الرحيم، الحمد لله ربِّ العالمين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم، على سيدنا محمد وعلى إلٰه وصحبه أجمعين.

**أيها الأخوات والإخوة:** أيها السيدات والسادة الحضور الكرام: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وبعد:

لقد كثر الحديث في زماننا عن التطرف والإرهاب، وقتل الأبرياء وسفك الدماء، وحصل لبس عند بعض الناس بين العمليات الانتحارية والعمليات الاستشهادية، وظهرت تياراتٌ فكرية تكفيرية معاصرة، وبعضهم أطلق على نفسه مسمياتٍ يُذكر فيها اسمُ الإسلام، فأدخل الإسلامَ في قفص الاتهام، والإسلام كما تعلمون بريء من هذه المسميات وتفكير أصحابها؛ لأنه دين المحبة والسلام.

وفي هذه العجالة لا بد أن نضع بعض النقاط على الحروف، لمعالجة بعض الإشكاليات التي قد يتعرض لها المرء.

---

(١) (محاضرة ألقيتها في بعض المراكز الثقافية، ومنها في المركز الثقافي في حماة).

فأقول وبالله التوفيق:

الإرهاب لغة كما في لسان العرب: (رهب) رَهِبَ بالكسر يَرْهَبُ رَهْبَةً ورُهْباً ورَهَباً؛ أَي: خافَ ورَهِبَ الشيءَ رَهْباً ورَهَباً ورَهْبةً خافَه، وأَرْهَبَه ورَهَّبَه واستَرْهَبَه؛ أي: أَخافَه وفَزَّعه.

وأما اصطلاحاً فالإرهاب: كما في تعريف المجْمَع الفقهي الإسلامي: (هو العدوان الذي يمارسه أفراد أو جماعات أو دولٌ بغياً على الإنسان في دينه، أو دمه أو عرضه أو عقله، أو ماله، ويشمُل صنوف التخويف والأذى والتهديد، والقتلِ بغير حق، وإخافةِ السبيل، وقطع الطريق، وكلِّ فعل من أفعال العنف أو التهديد، تنفيذاً لمشروع إجرامي فردي أو جماعي، ويهدِف إلى إلقاء الرعب بين الناس، أو ترويعِهم بإيذائهم أو تعريض حياتهم أو حريتهم أو أمنهم للخطر، ومن صنوفه: إلحاق الضرر بالبيئة، أو بأحد المرافق والأملاك العامة أو الخاصة، فكل هذا من صور الفساد في الأرض، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٦٦]. والإرهاب بغي بغير حق، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأعراف: ٣٣] وتعريف مجلسَيْ وزراء الداخلية والعدلِ العربِ للإرهاب قريبٌ من هذا التعريف. من كتاب: الإرهاب والعنف والتطرف في ميزان الشرع، تأليف : محمد علي إبراهيم.

وفي المعجم الوسيط: (الإرهابيون) وصف يطلق على الذين

يسلكون سبيل العنف والإرهاب لتحقيق أهدافهم السياسية.

أما التطرف فهو لغة كما في لسان العرب: تَطَرَّف الشيءُ صار طرَفاً.

واصطلاحاً: هو الغلو؛ والغلو كما عرّفه الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه القيم فتحِ الباري: «المبالغةُ في الشيء والتشديدُ فيه بتجاوز الحد».

وأما التكفير فهو «ظاهرة استشرت في مجتمعنا العربي والإسلامي والمجتمع الأوروبي كذلك، فأسقطت عصمة المسلمين واستباحت دماءهم وأموالهم، وإن هذه الفتنة العظيمة ـ فتنةَ التكفير ـ التي مزقت جسد الأمة الإسلامية هي أولُ الفتن ظهوراً في الإسلام فهي منبع لكثير من الانحرافات العقائدية والسلوكية والخلقية والنفسية التي عانت منها الأمة المسلمة على مدى أربعة عشر قرناً. كتاب (التكفير مفهومه وأخطاره وضوابطها؛ إعداد: أحمد محمد بوقرين)

فالفرق الضالة التكفيرية ليست وليدة هذا العصر، بل هي كثيرة وموجودة منذ القدم، ومنها على سبيل المثال لا الحصر:

١ ـ الخوارج: وهم الذين خرجوا على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عام (٣٧هـ)، وهم أول من فارق جماعة المسلمين، وقالوا بتكفير سيدنا عثمانَ وسيدنا علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، ويقدمون ذلك على كل طاعة، ويكفّرون أصحاب الكبائر، ويعتبرون مرتكب الكبيرة مخلداً في النار إذا مات مصرّاً عليها، ويرون الخروج على الإمام إذا خالف السُّنَّة حقاً وواجباً، وينقسمون إلى عدة فرق، وقد ورد في ذمهم

والترغيبِ في قتالهم أحاديثُ صحيحةٌ مرفوعة، منها ما رواه النسائي والبيهقي وابن حبانَ وغيرُهم عن أبي سعيد الخدري ﵁ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**يخرج قوم تحقرون صلاتكم مع صلاتهم وصيامَكم مع صيامهم وعملكم مع عملهم «أي: أن صلاتهم طويلةٌ وفيها خشوع ودموع، فصلاتهم في ظاهرها خير من صلاتنا، وكذلك صيامهم وعملهم، لكنّ عقيدتهم فاسدةٌ، وما نفع العمل مع فساد العقيدة؟؟!!» يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرُقون من الدين مروق السهم من الرمية**»، وقد افترقوا على نحو عشرين فرقة، ومن أسمائهم أيضا الحروريةُ. ومن الفرق الضالة أيضا المعتزلةُ وغيرُهم.

٢ ـ والمعتزلة أيضاً: وسموا بذلك لاعتزال واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد ـ من رؤسائهم ـ مجلس الحسن البصري لقولهما بأن مرتكب الكبيرة ليس بمؤمن ولا كافر، وقيل: سمّوا معتزلة لاعتزالهم منهج أهل السُّنَّة والجماعة، ومن عقائدهم إنكار جميع صفات الله، والقول بأن القرآن محدث، وأن الله لا يرى في الآخرة، وتصل فرقهم إلى حوالي عشرين فرقة، انظر: مقالات الإسلاميين (١/ ٢٣٥)، الفرق بين الفرق (ص١١)، البرهان في معرفة عقائد أهل الأديان (ص٤٩). . . تلبيس إبليس (ص٩)، والملل والنحل (١/ ١١٤) و(البدع الحولية إعداد عبد الله بن عبد العزيز بن أحمد التويجري) (أشراط الساعة المؤلف: عبد الله بن سليمان الغفيلي).

ـ وإدراكاً من الإسلام لخطورة عملية التكفير، فقد دعا إلى

احترام هُوية كل من يتشهد الشهادتين، وجعله مسلماً، ويجب عدم التشكيك بإسلام من يعلن إسلامه حتى في ساحات القتال وتحت بريق السيوف، حيث قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا تَبۡتَغُونَ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٞۚ﴾ [النساء: ٩٤].

(التكفير؛ مفهومه وأخطاره، وضوابطه إعداد: أحمد محمد بوقرين) بتصرف.

وسبب نزول هذه الآية كما ذكر ابن كثير في تفسيره عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: بعث رسول الله ﷺ سرية، فيها المقدادُ بن الأسود، فلما أتَوا القومَ وجدوهم قد تفرقوا، وبقي رجل له مال كثير لم يبرح فقال: أشهد أن لا إلٰـه إلا الله. وأهوى إليه المقداد فقتله، فقال له رجل من أصحابه: أقتلت رجلاً شهد أن لا إلٰـه إلا الله؟ والله لأذكرَن ذلك للنبي ﷺ. فلما قدموا على رسول الله ﷺ قالوا: يا رسول الله، إن رجلاً شهد أن لا إلٰـه إلا الله، فقتله المقداد. فقال: «**ادعوا لي المقداد. يا مقداد، أقتلت رجلا يقول: لا إله إلا الله، فكيف لك بلا إلٰـه إلا اللهُ غداً؟**». قال: فأنزل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا تَبۡتَغُونَ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٞۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبۡلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَتَبَيَّنُوٓاْۚ﴾ [النساء: ٩٤]، ومثل ذلك حصل مع سيدنا أُسَامَةَ بنِ زَيْدِ بنِ حَارِثَةَ رضي الله عنهما فقد قَالَ كما روى البخاري ومسلم وغيرهما: بَعَثَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ

إِلَى الْحُرَقَةِ من جُهَيْنَةَ ـ قَالَ ـ فَصَبَّحْنَا الْقَوْمَ فَهَزَمْنَاهُمْ ـ قَالَ ـ وَلَحِقْتُ أَنَا وَرَجُلٌ من الأَنْصَارِ رَجُلاً مِنْهُمْ ـ قَالَ ـ فَلَمَّا غَشِينَاهُ قَالَ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ـ قَالَ ـ فَكَفَّ عَنْهُ الأَنْصَارِيُّ، فَطَعَنْتُهُ بِرُمْحِي حَتَّى قَتَلْتُهُ ـ قَالَ ـ فَلَمَّا قَدِمْنَا بَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: فَقَالَ لي: «**يَا أُسَامَةُ أَقَتَلْتَهُ بَعْدَ مَا قَالَ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**». قَالَ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّمَا كَانَ مُتَعَوِّذاً. قَالَ: «**أَقَتَلْتَهُ بَعْدَ أَنْ قَالَ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**». قَالَ: فَمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا عَلَيَّ حَتَّى تَمَنَّيْتُ أَنِّي لَمْ أَكُنْ أَسْلَمْتُ قَبْلَ ذَلِكَ الْيَوْمِ. البخاري ومسلم.

وعندما حدثت الفتنة الأولى بين المسلمين ونشبت بينهم الحروبُ، رفض سيدنا علي رضي الله عنه أن يتهم خصومه بالكفر والنفاق وقال: كما نقل ابنُ كثير في البداية والنهاية (إخواننا بغَوا علينا).

ومع ذلك فإن الأمة الإسلامية قديماً وحديثاً لم تسلم من داء التكفير، وقد تعرَّض الإمام علي رضي الله عنه نفسُه إلى عملية التكفير من قبل الخوارج الذين رفضوا التحكيم بين سيدنا علي وسيدنا معاوية رضي الله عنهما. وبالرغم من أن مأخذهم لم يكن يتعدى الاجتهادَ السياسيَّ إلا أنهم أضفَوا عليه صفة الكفر والإيمان، وذهبوا إلى حد شق وحدة الأمة المسلمة، وإعلان الحرب على المسلمين. (التكفير؛ مفهومه وأخطاره وضوابطها، إعداد أحمد محمد بوقرين).

ـ ومن أسباب التكفير أن النبي ﷺ قد يستخدم أحيانا عبارة: (فقد كفر) لِلْمُبَالَغَةِ فِي الزَّجْر وَالتَّغْلِيظ، فيحملها بعض من لا علم عنده، على التكفير الصريح، والأمثلة على ذلك كثيرة منها:

ما أَخْرَجَه التِّرْمِذِيّ «عَن اِبْن عُمَر أَنَّهُ سَمِعَ رَجُلاً يَقُول: لا وَالْكَعْبَةِ، فَقَالَ: لا تَحْلِفْ بِغَيْرِ اللَّه، فَإِنِّي سَمِعْت رَسُول اللهِ ﷺ يَقُول: **من حَلَفَ بِغَيْرِ الله فَقَدْ كَفَرَ، أَوْ أَشْرَكَ**» قَالَ التِّرْمِذِيّ: حَسَنٌ وَصَحَّحَهُ الْحَاكِم، وَالتَّعْبِير بِقَوْلِهِ: فَقَدْ كَفَرَ أَوْ أَشْرَكَ لِلْمُبَالَغَةِ فِي الزَّجْر وَالتَّغْلِيظ فِي ذَلِكَ، وَقَدْ تَمَسَّكَ بِهِ من قَالَ بِتَحْرِيمِ ذَلِكَ. كما قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري.

**أيها الأخوات والإخوة:**

إن التطرف الذي عرَّفناه قبل قليل هو الذي يؤدي إلى التكفير، والتكفيرُ أيضاً بدوره هو الذي يؤدي إلى الإرهاب، واستباحة الدماء وقتل الأبرياء.

وإن ديننا الحنيفَ ينهانا عن التطرف والغلو في الدين، فالله ﷻ جعلنا أمة وسطاً معتدلة لا أمة متطرفة، قال تعالى في سورة البقرة: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًاۗ﴾ [البقرة: ١٤٣].

نعم جعلنا أمة وسطاً معتدلة في كل شيء، ففي الطعام: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١].

وفي الإنفاق: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾﴾ [الإسراء: ٢٩]

بل الوسطية والاعتدال في صلب العبادة أيضاً، فقد جاءَ ثَلَاثَةُ رَهْطٍ إِلَى بُيُوتِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَةِ النَّبِيِّ ﷺ فَلَمَّا أُخْبِرُوا كَأَنَّهُمْ تَقَالُّوهَا فَقَالُوا: وَأَيْنَ نَحْنُ من النَّبِيِّ ﷺ قَدْ غُفِرَ لَهُ

مَا تَقَدَّمَ من ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ. قَالَ أَحَدُهُمْ: أَمَّا أَنَا فإني أُصَلِّي اللَّيْلَ أَبَداً. وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ ولا أُفْطِرُ. وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ فَلَا أَتَزَوَّجُ أَبداً. فَجَاءَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ: «**أَنْتُمُ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا أَمَا وَاللهِ إِنِّى لأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي**» رواه البخاري.

وقد نبّهنا النبي ﷺ أن الغلو في الدين أهلك كثيراً ممن كان قبلنا ونهانا عن الغلو في الدين عندما قال كما روى الإمام أحمد في مسنده: «**وَإِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ في الدِّينِ فَإِنَّمَا هَلَكَ من كَانَ قَبْلَكُمْ بِالْغُلُوِّ في الدِّينِ**».

وقال أيضاً: ألا هلك المتنطعون ثلاث مرات وهم المتكلفون الغالون المتشددون (مسلم، وأبو داود عن ابن مسعود).

ديننا ينهى عن الإساءة للإنسان بكل أشكالها، فالغيبة على سبيل المثال ـ وهي ذكرك أخاك بما يكره ـ محرمة عندنا، ذكره فقط محرم، بل بكلمة يقولها الإنسان في أخيه قد يهوي بها في جهنم سبعين خريفاً، فما بالك باللعن والطعن والشتم والضرب والقتل؟

حتى الذي كان يشرب الخمر في عهد النبي ﷺ، بعدما جُلد قال رجل من القوم: اللَّهُمَّ العنه، ما أكثر ما يؤتى به (أي: وهو شارب للخمر) فقال رسول الله ﷺ: «**لا تلعنه فوالله ما علمت إلا أنه يحب الله ورسوله**». رواه البخاري في الصحيح عن ابن بكير.

وكذلك عندما أتى اليهود إلى النبي ﷺ وقَالُوا: السَّامُ عَلَيْكُمْ

«والسام تعني الموت». فقال: «**وعليكم**»، قَالَتْ السيدة عَائِشَةُ فَفَهِمْتُهَا فَقُلْتُ عَلَيْكُمُ السَّامُ وَاللَّعْنَةُ، وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْكُمْ. فقَالَ لها: «**مَهْلاً يَا عَائِشَةُ، عَلَيْك بِالرِّفْقِ، وَإِيَّاكِ وَالْعُنْفَ وَالْفُحْشَ**». قَالَتْ: أَوَلَمْ تَسْمَعْ مَا قَالُوا؟ قَالَ: «**أَوَلَمْ تَسْمَعِي مَا قُلْتُ رَدَدْتُ عَلَيْهِمْ، فَيُسْتَجَابُ لِي فِيهِمْ، ولا يُسْتَجَابُ لَهُمْ فِيَّ**» البخاري باب: لم يكن النبي فاحشاً.

فديننا دين الوسطية والرأفة والرحمة والشفقة، ونبينا نبي الرحمة والشفقة.

**أيها الأخوات والإخوة:**

لقد خلط بعض الناس بين العملية الانتحارية والعملية الاستشهادية.

فالعملية تكون انتحاريةً إجرامية جبانة، عندما تكون في بلاد المسلمين وأهل الكتاب والذمة أو في بلاد المعاهدين فنبينا ﷺ قال: «**من قتل معاهداً لم يُرَحْ رائحةَ الجنة وإن ريحها توجد من مسيرة أربعين عاماً**» البخاري: باب إثم من قتل معاهداً بغير جرم.

والذي يقوم بالعملية الانتحارية، بدايةً ارتكب ذنباً عظيماً هو الانتحارُ نفسُه؛ لأن هذه النفسَ ليست ملكاً للإنسان حتى ينحرَها، بل هي أمانة ووديعة يجب عليه المحافظةُ عليها من كل ما يسيء إليها، وها هو النبي ﷺ يقول: «**مَنْ تَرَدَّى من جَبَلٍ فَقَتَلَ نَفْسَهُ، فَهْوَ في نَارِ جَهَنَّمَ، يَتَرَدَّى فِيهِ خَالِداً مُخَلَّداً فِيهَا أَبَداً، وَمَنْ تَحَسَّى سَمّاً فَقَتَلَ نَفْسَهُ، فَسَمُّهُ فِى يَدِهِ، يَتَحَسَّاهُ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَالِداً مُخَلَّداً فِيهَا**

**أَبداً، وَمَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِحَدِيدَةٍ، فَحَدِيدَتُهُ فِى يَدِهِ، يَجَأُ بِهَا فِى بَطْنِهِ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَالِداً مُخَلَّداً فِيهَا أَبَداً**» رواه البخاري.

والذي يقوم بالعملية الانتحارية بالإضافة إلى قتله نفسَه، فهو قاتل لغيره أيضاً، والله ﷻ يقول في سورة النساء: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾ [النساء: ٩٣].

ويقول في سورة المائدة: ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًاۚ﴾ [المائدة: ٣٢].

ويقول في سورة الفرقان: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الفرقان: ٦٨].

وتأمل معي في هذا المشهد يوم القيامة كيف يصور القاتلَ والمقتول، روى الإمام احمد عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: ثكلته أمه رجل قتل رجلاً متعمداً يجيء يوم القيامة آخذاً قاتله بيمينه أو بيساره وآخذاً رأسه بيمينه أو بشماله تشخَب أوداجه دماً؛ (أي: تسيل) في قِبَل العرش يقول: يا رب سَلْ عبدك فيم قتلني (أحمد عن ابن عباس).

الحديث كله يستوقف الإنسان متأملاً في هذا المشهد، وتبقى إشارة الاستفهام مرتسمة على الوجه عندما نقرأ تلك العبارة: يا رب سَلْ عبدك فيم قتلني؟؟

ثم يأتينا حديث صحيح للنبي ﷺ يقول فيه: «**والذي نفسي بِيَدِهِ**

**لا تَذْهَبُ الدُّنْيَا حَتَّى يَأْتِيَ عَلَى النَّاسِ يَوْمٌ لا يَدْرِي الْقَاتِلُ فِيمَ قَتَلَ ولا الْمَقْتُولُ فِيمَ قُتِلَ**».

لنرى من هذا الحديث أن القاتل لا يدري لماذا قتل الأبرياء وسفك دماءهم، بل ربما يظن أنه بجريمته قدم خيراً إلى الإنسانية جمعاء، ويظن أن الجنة قد فتحت أبوابها له، أو بصورة أخرى هكذا زين له من زج به في هذه الجريمة النكراء، حيث جعلوه متطرفاً، ثم مكفراً، ثم قاتلاً،! وربما كفروا المقتول قبل قتله.

وبينما هو يمشي بأمان فإذا به في عداد الموتى، ولا يدري لماذا قتل أيضاً، وكأن هذا الحديث ينطبق كثيراً في عصرنا، لذلك شرع الإسلام لنا حياة من خلال الموت كيف ذلك؟؟

لأن القاتل يُقتل، فالنفس بالنفس والعين بالعين والسن بالسن قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [البقرة: ١٧٩]، وفي هذه الآية من الإيجاز والإعجاز والبلاغة ما أثار دهشة العلماء أبد الدهر.

وهذه العملية الانتحارية بسفكها للدماء وقتلها للأبرياء، بعيدةٌ كل البعد عن العملية الاستشهادية المشرفة التي تكون في أرض الأعداء، أرض المحاربين، وخاصة عندما تغلق جميعُ السبل أمام المدافع عن دينه وأرضه وعرضه، فيعلنها مدوية: مرحباً بالشهادة في سبيل الله، فشهادة في سبيل الله خير من حياة ذل لا يطاق.

فإما حياة تسر الصديق وإما ممات يغيظ العدا

والأدلة على جواز العملية الاستشهادية كثيرة منها: عندما (كان

يوم اليمامة، واشتد قتال بني حنيفة على الحديقة التي فيها مسيلمة، قال البراء بن مالك: يا معشر المسلمين، ألقوني عليهم، فاحتُمِل حتى إذا أشرف على الجدار اقتحَم، فقاتلهم على باب الحديقة حتى فتحه للمسلمين، فدخل المسلمون، فقُتل مسيلمة، وجُرح البراء يومئذ بضعاً وثمانين جراحة ما بين رمية وضربة، فأقام عليه خالد بن الوليد شهراً حتى برأ من جراحه). إذن قال: ألقوني عليهم وهو بإلقائه عليهم وحيداً قد يستشهد ولم يعترض عليه أحد من الصحابة رضي الله عنهم سير أعلام النبلاء وأسد الغابة.

وكذلك (عن أنس بن مالك قال: رمى أبو دجانة بنفسه يوم اليمامة إلى داخل الحديقة، فانكسرت رجله، فقاتل وهو مكسور الرجل حتى قتل رضي الله عنه.

ومن الأدلة أيضاً في معركة اليمامة لما انكشف المسلمون، قال سالم مولى أبي حذيفة: ما هكذا كنا نفعل مع رسول الله ﷺ فحفر لنفسه حفرة، وقام فيها، ومعه راية المهاجرين يومئذٍ، فقاتل حتى قتل شهيداً سنة اثنتي عشرة للهجرة)، علو الهمة محمد أحمد إسماعيل المقدم (ص٣٠٥).

وبما أن موضوع الفوارق أمرٌ مهم، فقد لاحظنا الفرق الكبيرَ بين العملية الانتحارية والعملية الاستشهادية وكذلك هناك فرق بين الجهاد وبين الإرهاب، فنحن مع الجهاد بشروطه ولسنا مع الإرهاب وقتله.

وهناك فرق كبير أيضاً بين التطرف وبين الصحوة الإسلامية التي نراها ونعيشها ورحم الله من قال:

يا نهر صحوتنا رأيتك صافيا وعلى الضفاف رأيت أزهار التّقى
ورأيت حولك جيلنا الحرَّ الذي فتح المدى بوابة وتألّقا
قالوا تطرف جيلنا لما سما قدراً وأعطى للبطولة موثقا
ورموه بالإرهاب حين أبى الخنى ومضى على درب الكرامة وارتقا
أو كان إرهاباً جهاد نبينا أم كان حقاً بالكتاب مصدّقا

فأعداؤنا جعلوا المقاومة المشروعة إرهاباً، وجعلوا التزام المؤمن بتعاليم دينه إرهاباً وتطرفاً، بل جعلوا كل من لم يطأطئ رأسه لهم إرهابياً متطرفاً، وأما الخانعون لهم فهم في قمة الوسطية والاعتدال، وهم ـ بخنوعهم وذلهم في نظر أعدائنا ـ صورة الإسلام المشرق، مع أنهم وأسيادَهم هم المتطرفون وهم الإرهابيون وكما قيل:

إن التطرف أن نرى من قومنا من صانع الكفر اللئيم وأبرقا
إن التطرف أن نبادل مجرماً حباً ونمنحه الولاء محققا
إن التطرف في اليهود سجية شربوا به كأس الخداع معتقا
إن التطرف أن يظل رصاصنا متلعثماً ورصاصهم متفيهقا

**دينـنا أيها السيدات والسادة:** دين السلام لأن الله ﷻ من أسمائه السلام ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الحشر: ٢٣].

ويدعو إلى دار السلام، ويوم القيامة: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾﴾ [ق: ٣٤].

منهجِ الحوار الثقافي واحترام الخصوصيات الثقافية، كما سبق ذكره في آَيات الجدل بالتي هي أحسن وعدم الإكراه)[1].

إذن نحن نعد العدة لأجل العدو،أما الإرهابيون وأعوانهم فإنهم يعدون العدة لقتل الأبرياء وسفك الدماء، قاتلهم الله أنى يؤفكون.

فواجب كل واحد منا أن يغرس الوعي في أذهان أبنائه، ومن يعولهم ومن يعرفهم، وأن يحذرهم من الأفكار الفاسدة، وعقيدة سفك الدماء، وان يُطلعَهم دائماً على نقاء الإسلام وصفائه وسلامه. وللسادة الخطباء دور فعال في هذا المجال، فهم دائماً يدعون إلى الله على بصيرة وهدىً ونورٍ مبين، ووزارة الأوقاف وكذلك مديرية الأوقاف مشكورة على تعاميمها التي تصدرها بين الفينة والأخرى والتي تدعو إلى الوسطية والاعتدال ونبذ التعصب والتطرف والإرهاب وأعمال العنف، وإلى الفكر المستنير، وبما أنني أيضاً خطيب مسجد فقد نظمت قصيدة تحدثت فيها عن النهج القويم، الذي يتبعه الخطباء وهي بعنوان: (هذا نهجنا).

ومنها هذه الأبيات:

حيا الإلٰه الواهبُ الخطباء ... من يرفعون مدى الزمان لواء
من مثَّلوا خيرَ الأنام محمداً ... وبنهجه كم بددوا الظلماء
إنا سنبقى في المحبة أنهُراً ... نسقي القلوبَ مودةً وإخاء
بتوحُّد الآراء يبقى عزُّنا ... فوق الثريا، يرتقي الجوزاء

---

(١) الإرهاب والعنف والتطرف في ضوء القرآن والسُّنَّة، إعداد: أ.د. عبد الله بن الكيلاني الأوصيف (١٢ ـ ١٦) بتصرف.

وإن اختلفنا ـ والخلافُ طبيعة ـ    لا لن نُحَمِّلَ قلبَنا البغضاء
ندعو إلى دين الإلـٰه بحكمةٍ    وبصيرةٍ تجلو الظلامَ جَلاء
ندعو بإيمانٍ وصدق عزيمةٍ    ونحاربُ التكفيرَ والأهواء
ندعو بإخلاصٍ إلى دين التقى    وبحرقةٍ لا سمعةً ورياءَ
ولنا بدعوتنا نبيٌّ أسوةٌ    نشر الهدى ديناً يَشُعُّ صفاء
جَمَع القلوبَ على محبته وقد    مُلِئت قلوبُ البائسين شقاءَ
إسلامنا بدرُ الدجى ونبيُّنا    أنعم به! من بالهداية جاء
فعليه صلّى اللَّه ما ليلٌ سَجَى    أو بدرُ تِمٍّ قد بدا لألاء

ـ وأخيراً: معظمنا ملك الدنيا بحذافيرها وهو لا يدري؟؟ فالأمان في السرب، والمعافاة في الجسد، وتوفرُ طعام يومك الذي تعيش فيه، هذه هي الدنيا. أما قال النبي ﷺ: «**من أصبح منكم آمناً في سربه، معافى في جسده، عنده طعام يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها**».

فانظر كيف بدأ بنعمة الأمان، لأنها من أعظم نعم المنّان.

وأول ما يقضى يوم القيامة بالدماء كما أخبرنا نبينا ﷺ.

فدين الإسلام إذن بريء من التطرف الإرهاب، وليس دين الإسلام فقط بريئاً من الإرهاب، بل كل الأديان بريئة من الإرهاب، لذلك اشتُهرت مقولةُ: (الإرهابُ لا دين له).

وفي نهاية حديثي لا بد أن أتوجه بالشكر لكم على حضوركم الكريم، وحسن إصغائكم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

# جمالُ العربيّة وخطرُ العاميّة[1]

بسم الله الرحمٰن الرحيم، الحمد لله ربِّ العالمين الذي خلق الإنسان علّمه البيان، والصلاة والسلام على رسوله محمد ﷺ، القائل: «**أنا أفصح العرب بيد أني من قريش**»، والذي أنزل الله عليه قرآناً عربياً غير ذي عوج، يتلى آناء الليل وأطراف النهار، فكان سراجاً وهاجاً وقمراً منيراً.

والصلاة والسلام على آله وصحبه الطيبين الطاهرين.

وبعد: أيتها السيدات والسادة: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

تعلمون جميعاً أن موضوع محاضرة اليوم هو عن جمال اللغة العربية وخصائصها البهية وعن الفصحى وخطر العامية.

وقبل الحديث عن جمال اللغة العربية وخطر العامية، أود أن أبيِّن معنى كلمة اللغة كما في المعاجم، وكيف استعمل العرب كلمة اللغة، وعن علاقة اللغة بالثقافة، والارتباطِ الوثيق بين اللغة والهوية وإلى ما هنالك، فأقول:

---

(١) محاضرة ألقيتها في بعض المراكز الثقافية، ومنها في مركز رأس العين في الحسكة.

ترجع كلمة «لغة» في العربيَّة إلى المادة أو الجذر: «لغو»، أو «لغي»[(١)].

وهو جذر يدور حولَ معاني الرَّمْي والطَّرْح والإلْقاء، وهي معانٍ ظلَّت مقترنةً بهذا الجذر في تصاريف المادة، وحملت معاني الرَّمي وما يتَّصل بها ظلالاً فيها الزُّهد بالشيء، وعدمُ أهميَّته، وكونُه منبوذاً، ذلك أنَّ ما يُرمى أو يُلقى به أو يُطرحُ يكون كذلك[(٢)].

وقد استعمل العربُ كلمة «لغة»، وكلمةَ «لغات» للدلالة على اللَّهجاتِ التي كانت منتشرةً في الجزيرة العربيَّة، وترتبط كلٌّ منها بقبيلة، أو مجموعةِ قبائلَ تعيش في حَيِّز جغرافي (كالحجاز، واليمن مثلاً)، وقد تُنسب اللغةُ إلى القبيلة، لا إلى المكان، فكانوا يقولون: لُغة أهل الحِجاز، ولُغة أهل اليمن، أو لغةَ بني تميم، كما يقولون: لُغةُ قُرَيْش، ولُغة هُذَيل، . . .

وجاء اللُّغويُّون والذين عُنوا بجمع اللُّغة وتقعيدها، فاستخدموا «اللغة» الاستخدامَ عينَه، فإذا ما أرادوا التعبيرَ عن اللغة، من حيث هي لغةُ القبائل العربيَّة جميعاً، استخدموا أيضاً

---

(١) السرقسطي: «كتاب الأفعال»، إعداد: حسين محمد شرف، مراجعة محمد مهدي علام، ط٣، القاهرة، مجمع اللغة العربية، ٢٠٠٢م، ٢/ ٤١٦ ـ ٤٢٣.

(٢) ابن سيده: «المحكم والمحيط الأعظم في اللغة»، تحقيق: مجموعة من المحققين، القاهرة، معهد المخطوطات العربية، ٢٠٠٤م، ط. جديدة ومنقحة، وانظر أيضاً: الزمخشري، «أساس البلاغة»، القاهرة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠٣م (لغو).

كلمة «لغة»، وكلمة «العربية». غيرَ أنَّ القرآن الكريم لم يستخدمْ لفظَ «اللغةٍ»، بالمعنى الذي ذكرناه، إنَّما استبدل بها لفظ «اللسان» في حين جاءتْ تصاريف «لغو»، أو «لغي» فيه لتؤدِّيَ الدلالاتِ المحمَّلة بالمعاني الأُولى «كمعنى الرمي وما يتَّصل به، وما تطوَّر عنه، من مثل القبيح قولاً وفعلاً، والعيب، والفُحش، واليمين غيرِ المقصودة».

واللغة ـ كما تعلمون ـ مرتبطةٌ بجميع الأشياء في حياتنا، فهي مرتبطة بالثقافة وبالهوية وبالكثير من الأشياء. فبين اللُّغة والثقافة رِباط حميمٌ، ذلك أنَّنا لا نتصوَّر لغةً ما بالمفهوم الذي ذَكرْنا لا تُنتج ثقافةً، أيّاً كانت اللُّغةُ، وأيّاً كانتِ الثقافةُ، كما أنَّنا لا نتصوَّر ثقافةً لا تعتمد في جانبٍ أساسي منها على وعاءٍ لُغويٍّ يحتويها، ويتفاعلُ معها وينقلُها، فهما إذاً دائرتان متداخلتانِ لا يُمكن أن نُخَلِّص إحداهما من الأخرى.

وكذلك اللُّغة والهُويَّة بينهما ارتباط وثيق، وهما أيضاً وجهان لشيء واحد،أو بعبارة أخرى: إنَّ الإنسان في جوهره ليس سوى لُغةٍ وهُويَّة، اللُّغةُ فِكرُه ولسانُه، وفي الوقت نفسه انتماؤُه، وهذه الأشياء هي وجهُهُ وحقيقته وهُويتُه، وشأنُ الجماعة، أو الأمَّةِ هو شأنُ الفرْد، لا فرق بينهما، وفي ذلك الإنسانِ ومقوماته يقول الشاعر القديم ذلك البيتَ الذي نعرفه جميعاً:

لِسَانُ الْفَتَى نِصْفٌ وَنِصْفٌ فُؤَادُهُ فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا صُورَةُ اللَّحْمِ وَالدَّمِ

بيت للأعور الشني: (ت٥٠هـ).

وعن العلاقة المتينة بين اللغة والهوية يقول الشاعرُ المعاصرُ سليمانُ العيسى على لسان العربية:

إذا تقطعت الأرحامُ بينكم إذا تراكمت الأسوار والحجب
إذا التمستم من الدنيا هويتكم وضاع خلف تخوم الغربة النسب
فلا تخافوا لكم صدر يضمكم ستلتقون على صدري أنا العرب

ولن نستطرد في الارتباطات الكثيرة للغة حتى لا نخرج عن إطار موضوع محاضرتنا.

أما عن جمال اللغة العربية فهي كالبدر ضياءً والشمس بهاء، والثريا رفعة والعسل حلاوة والماء عذوبة والثلج بياضاً والضحى إشراقاً وقلبِ الطفل طهراً ونقاء، ودموعِ الثكلى حزْناً ورقة، ولا ريب في ذلك ولا شك، فهي لغة القرآن الخالد، وكلام الله الأزليُّ السرمديُّ، كما قال تعالى في سورة يوسف: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝٢﴾ [يوسف: ٢].

ولأن العربَ هم أربابُ الفصاحة والبلاغة، وهم فحول الشعر والبيان رأيناهم ـ على الرغم من فصاحتهم وبلاغتهم ـ يقفون عاجزين أمام بيان القرآن الكريم، وفصاحته وبلاغته، فهذا الوليد ابن المغيرة عندما قال له قومه عن سيدنا محمد ﷺ: «**نَقُولُ كَاهِنٌ قَالَ: لا وَاللّهِ مَا هُوَ بِكَاهِنٍ، لَقَدْ رَأَيْنَا الْكُهّانَ، فَمَا هُوَ بِزَمْزَمَةِ الْكَاهِنِ ولا سَجْعِهِ، قَالُوا: فَنَقُولُ مَجْنُونٌ قَالَ مَا هُوَ بِمَجْنُونِ، لَقَدْ رَأَيْنَا الْجُنُونَ وَعَرَفْنَاهُ فَمَا هُوَ بِخَنْقِهِ ولا تَخَالُجِهِ ولا وَسْوَسَتِهِ قَالُوا: فَنَقُولُ شَاعِرٌ قَالَ مَا هُوَ بِشَاعِرِ لَقَدْ عَرَفْنَا الشّعْرَ كُلّهُ رَجَزَهُ وَهَزَجَهُ وَقَرِيضَهُ**

**وَمَقْبُوضَهُ وَمَبْسُوطَهُ فَمَا هُوَ بِالشّعْرِ قَالُوا: فَنَقُولُ سَاحِرٌ قَالَ: مَا هُوَ بِسَاحِرٍ لَقَدْ رَأَيْنَا السّحّارَ وَسِحْرَهُمْ فَمَا هُوَ بِنَفْثِهِمْ ولا عَقْدِهِمْ قَالُوا: فَمَا نَقُولُ يَا أَبَا عَبْدِ شَمْسٍ؟ قَالَ: وَاللّهِ إنّ لِقَوْلِهِ لَحَلَاوَةً، وَإِنّ أَصْلَهُ لَعَذِقٌ وَإِنّ فَرْعَهُ لَجُنَاةٌ وَمَا أَنْتُمْ بِقَائِلِينَ من هَذَا شَيْئاً إلّا عُرِفَ أَنّهُ بَاطِلٌ**». سيرة ابن هشام والرحيق المختوم.

فهذا هو قول بعض فصحاء العرب وأرباب البلاغة والبيان.

وعندما تعجَّب الأصمعي من فصاحة امرأة من العرب أنشدت شعراً بين يديه قالت له المرأة: أبعد قوله تعالى: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَرۡضِعِيهِۖ فَإِذَا خِفۡتِ عَلَيۡهِ فَأَلۡقِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحۡزَنِيٓۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيۡكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝٧﴾ [القصص: ٧]، أبعد هذه الآية فصاحةٌ قال: ولم؟ قالت: وقد جمع الله في هذه الآية بين أمرين ونهيين وخبرين وبشارتين. تفسير الآلوسي.

فاللغة العربية إذاً لغة مقدسة وتأتي قداستها من قداسة القرآن الذي نزل بها، وقداسةِ النبي الذي أنزل الله عليه القرآن، ولأنها لغة أهل الجنة في الجنة كما ورد في بعض الآثار.

واللغة العربية لغةٌ محببة، وحبها واجب، وهناك مقولة للثعالبي تؤكد ذلك بالدليل، حيث يقول: «من أحبَّ اللهَ أحبَّ رَسولَهُ ﷺ، وَمَنْ أَحَبَّ رَسولَهُ العربي أحبَّ العرب، ومَنْ أَحَبَّ العرب أحب العربية». كما أن العربية تزيد في المروءة فسيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: تعلموا العربية فإنها تزيد في المروءة، وتتوالى عنه التوجيهات في ذلك، فيكتب إلى أبي موسى الأشعري بقوله:

«**تعلّموا العربية فإنها من دينكم.. وأعربوا القرآن فإنه عربيّ**».

وقالوا:

ويعجبُني زِي الفتى ولباسُه فيسقط من عينيَّ ساعةَ يلحن

والعربية أيضاً يأتي جمالها من حفظها وخلودها، فكم من لغات اندثرت!، وكم من لغات تلاشت ونسيت، وكم من لغات بادت وباد أصحابها، أما اللغة العربية لغةُ القرآن فهي محفوظة وخالدة تعهَّد الله بأن تبقى ما بقيت الحياة؛ لأنَّها لغةُ القرآن الكريم؛ وقال الله عن القرآن الكريم: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: ٩].

وكم رأينا من أناس غيرِ عرب يقرؤون القرآن بكل طلاقة، بل وبأحكام التجويد، مع أنهم لا يعرفون التكلم بالعربية...

واللغة العربية تُظهر مفاتنَ جمالها في الشعر العربي، والشعر كما تعلمون هو ديوان العرب.

وكلنا نعلم مكانة الشعر الجاهلي، هذه الآبدة الأثرية التي ننظر إليها إلى اليوم على أنها فخرٌ نعتز به، ونعلقه في قلوبنا كما كان معلقاً على أستار الكعبة المشرفة...

ولا عجب أن تقيمَ القبيلة التي ينشأ فيها شاعرٌ الأفراحَ والتهنئةَ لأن الشاعرَ هو الذي يخلد للقوم ذكراهم وحروبهم وأيامهم، وهو الذي إذا هجا وضع، وإذا مدح رفع، فها هم بنو أنف الناقة الذين كان يسوؤهم هذا الاسم، وكانوا يشعرون بالخزي والعار منه، حتى قال شاعرهم:

قومٌ هم الأنفُ والأذنابُ غيرُهم وهل تسوي برأس الناقة الذنبا

فأخذ القوم يمشون بين الناس ورؤوسهم مرفوعة، بعد أن كانوا يشعرون بالذل والهوان كما أن اللُّغة أيضاً وعاءُ التاريخ، وكلَّما كان التاريخ ممتدّاً وخِصباً انعكس على اللُّغة قوَّةً وثراء، فالوِعاء لا بدَّ أن يُثري بما فيه، والتاريخ بمادته ومواقفه وحِراكِ أصحابه ومشاعرِهم، وذكرياتهم وانتصاراتهم، وإخفاقاتهم ودروسِهم وعِبرِهم ـ لا بدَّ أن يُغنيَ هذه اللُّغة التي كانت تَرجُمانَه المعبِّرَ، ولسانَه الناطقَ.

فحُق لشعرائنا أن يتغنوا بلغتنا العربية، وقد رأوا في هذه اللغة البهيةِ فاتنتهم ومحبوبتهم، وليلاهم وهندَهم، وفخرَهم وعزهم، فأكثروا من التغني بلغتهم، والتفاخر بها.

فهذا أمير الشعراء أحمدُ شوقي يقول مفاخراً:

إن الذي ملأ اللغاتِ محاسناً    جعل الجمالَ وسرَّه في الضاد

وللشاعر اللبناني حليم دموس بيتان مشهوران يقول فيهما:

لغةٌ إذا وقعت على أكبادنا    كانت لنا برداً على الأكباد
ستظل رابطة تؤلف بيننا    فهي الرجاء لناطق بالضاد

في حينَ نرى أن الشاعر الدكتورَ وليد قصاب يتحدث على لسان اللغة العربية قائلاً:

إني أنا الضادُ التي قد شُرِّفَتْ    وتفرَّدَتْ بمحاسنٍ وبهاءِ
اللَّهُ عظَّمها فصاغَتْ وَحْيَه    بالمعجزاتِ وبالسَّنَا الوُضَّاءِ
عَرَضَتْه في لفظٍ بهيٍّ ساحرٍ    وجمالِ إيقاعٍ وحُسنِ أداءِ
صاغَتْه فكراً مُعْجِزاً متألِّقاً    خرَّتْ لديه أكابرُ الفُصَحَاءِ

وكثيرون من غير العرب شهدوا بجمال العربية وفتوتها

وغناها. قال المستشرق (أرنست رينان) في كتابه: «تاريخ اللغات السامية»:

«من أغرب المدهشات أن تَنبُتَ تلك اللغة القويةُ، وتصلَ إلى أعلى درجة الكمال وسط الصحارى عند أمَّة من الرُّحَّل، تلك اللغة التي فاقت أخواتِها بكثرة مفرداتها، ودقَّة معانيها، وحسنِ نظام مبانيها، وكانت هذه اللغةُ مجهولةً عند الأمم، ومن يوم عُلمت ظهرت لنا في حلل الكمال إلى درجة أنَّها لم تتغيَّر أيَّ تغيُّر يذكر، حتى إنها لم يُعرف لها في كلِّ أطوار حياتها لا طفولةٌ ولا شيخوخةٌ، لا نكاد نعلمُ من شأنها إلا فتوحاتِها وانتصاراتِها التي لا تُبارى، ولا نعلم شبيهاً لهذه اللغة التي ظهرَت للباحثين كاملةً من غير تدَرُّج، وبقيَت حافظةً لكيانها من كلِّ شائبة».

والألماني فريتاج يقول: «اللغة العربيةُ أغنى لغات العالم».

ولأن للغة العربية جماليّةً لا تضاهى، وغنىً لا مثيل له، وبهاءً متجدداً ما تعاقب الليل والنهار، عرف أجدادنا قيمة هذه اللغة فقد مر «على الناس زمانٌ كانت العربية فيه تحتلُّ المكانةَ الأولى بين العلوم عند الكثرة الكاثرة منهم، وكان طالب العلم يبدأ رحلته العلمية بمعرفة علوم العربية المختلفة ـ من نحو وصرف وبلاغة وعروض ـ معرفةً بصيرة يتمكّن فيها من ناصية اللغة، ويجتنب اللحن والخطأ في ظاهر القول وما يسطره القلم، بل إن تلك المعرفةَ كثيراً ما كانت تخوّله التصنيفَ في بعض علوم العربية برغم تخصصه المختلف، أو شهرته في غيرها من العلوم كعلوم الطبِّ والفلسفة

والقرآن والحديث. . . وغيرها»[١].

(والعرب ـ كما هو معلوم ـ منذ أواخر العصر الجاهلي مهتمون بلغتهم معتزون بتراثها الأدبي، وقد قيل: «الشعر ديوان العرب» ولكن اهتمامهم واعتزازهم بها ازداد مع ظهور الإسلام لأن الله ﷻ اختارها لغةً لدينه؛ قرآناً، وسُنَّةً، وعبادةً، وتشريعاً. . ثم تضاعف الاهتمام والاعتزاز باللغة العربية وحفظ التراث اللغوي وتنقيته من الدخيل الأعجمي أثناء الفتوحات الإسلامية وبعدها)[٢].

وقد عزَّز هذه المكانةَ للعربية اهتمامُ أولي الأمر بها وإعلاؤهم لشأنها بدءاً من الخلفاء في مجالسهم ومحافلهم، وانتهاءً بالعاملين في مجالات الدولة المختلفة من وزراءَ وحجّاب وأمراءَ وكُتَّابٍ. .

وليس أدلَّ على هذه المكانة من تسمية رسول الله اللحنَ في القول ضلالاً، وذلك عندما لحن أحدهم في حضرته فقال: «**أرشدوا أخاكم فقد ضلَّ**» وماذا بعد الضلال إلا الخسران المبين؟!.

وكان النبي ﷺ يقول عن الشعر والبيان: «**إن من البيان سحراً، وإن من الشعر حكمة**»، رواه أبو داود. وكان يتمثل بقول ابن رواحة: ويأتيك بالأخبار من لم تزود. رواه الترمذي. . .

وكان يشجع على الشعر فقد كَانَ يَضَعُ لِحَسَّانَ مِنْبَراً فِى الْمَسْجِدِ يَقُومُ عَلَيْهِ قَائِماً يُفَاخِرُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَوْ قَالَ يُنَافِحُ عَنْ

---

(١) د. محمد حسان الطيان بتصرف موقع الألوكة.

(٢) أحمد محمد جمال، المصدر: مجلة البحوث الإسلامية، العدد ١، (ص١٠١ ـ ٩١).

رَسُـولِ اللهِ ﷺ وَيَـقُـولُ رَسُـولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ يُـؤَيِّـدُ حَسَّـانَ بِـرُوحِ الْقُدُسِ ما يُفَاخِرُ أَوْ يُنَافِحُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ**». رواه الترمذي.

ولقد كان النبي ﷺ أفصحَ العرب، وهو الذي نطق بكلماتٍ وعبارات لم يقلها أحدٌ قبله قال ابنُ دريد: ومن الألفاظ التي لم تُسْمع من عربيٍّ قبله قولُه: «**لا يَنْتَطح فيها عَنْزَان**». قولُه: «**الآن حَمي الوَطيس**». وقوله: «**لا يُلْدَغُ المُؤْمِنُ من جُحْرٍ مرتين**». وقوله: «**الحربُ خَدْعَة**». وقوله: «**إيّاكم وخَضْراءَ الدِّمَن**»، وغيرها الكثير من العبارات(١).

والخلفاء الراشدون، ساروا على النهج ذاته، وأولوا العربيةَ اهتماماً واسعاً، ولعلَّ في كلمة الخليفة الثاني عمرَ بنِ الخطاب رضي الله عنه إلى عامله أبي موسى الأشعري ما يُؤْذِنُ بهذه المكانة وذلك الاهتمام، فقد كتب إليه: «خذ الناس بالعربية فإنها تَزيد في العقل وتُثبتُ المُروءة» بل إن ولادة علم النحو كانت بإيعاز من الخليفة الرابع علي بن أبي طالب كرَّم الله وجهه، فإليه ينسب هذا العلم الجليل وهو الذي أمر أبا الأسود الدؤلي أن ينحوَ نحوَه.

وتمرُّ الأيام وتتعاقب السنونَ ومكانةُ العربية أبداً في نماء وصعود. فعبد الملك بن مروان أشهر خلفاء بني أمية يخشى اللحن ويتجنَّبُه، وفي ذلك يقول: «شيبني ارتقاء المنابر واتقاء اللحن» والحجاج يتوخّى ألا يُسمع منه لحن في كلام أبداً فهو أفصح الناس

---

(١) المزهر ـ عبد الرحمٰن بن أبي بكر، جلال الدين، ١/ ٩٣، وانظر: فقه اللغة، باب: في تقسيم القتل ١/ ٢٧.

في زمانه، وعندما يبلغه أن ابن يَعْمَر وقع على لحن له في كتاب الله ﷻ يعالج الأمر بطريقته الحجاجيّة! فينفيه من بغداد ويلحقه بخراسان قائلاً: «لا جَرَم، لا تَسمَعُ لي لحناً أبداً».

وهكذا بات التمكن في اللغة وامتلاك ناصية البيان وفصاحة اللسان قيمةً مقدسة، ومكرمةً متوارثة، وفضيلةً يتداعى إليها الناس، فينشِّئ الوالد ابنَه عليها، وتدعو القبيلة أبناءها إليها، بل تفخر بمن اشتهر بها أو عُرف بالتمكن منها، ويتغنّى الشعراء بمن حازها، وينحُون باللائمة على من افتقدها، ويعدُّون ذلك عيباً فيه، وفي ذلك يقول قائلهم:

كفى بالمرءِ عيباً أن تراهُ    لَهُ وجهٌ وليسَ لهُ لسانُ
وما حُسْنُ الرجالِ لهم بزَيْنٍ    إذا لم يُسعِدِ الحُسْنَ البيانُ

وفاقد الفصاحة والبيان يفقد أهم مقومات الحياة عند العرب وهي المروءة، يقول يونس بن حبيب: «ليس لعَيِيٍّ مُروءة، ولا لمنقوص البيان بهاء»[(١)].

أيتها السيدات والسادة: «إن لغتنا العربيةَ ركن ثابت من أركان شخصيتنا، فيحق لنا أن نفتخرَ بها، ونعتزَ بها ويجب علينا أن نذود عنها، ونوليَها عناية فائقة. ويتمثل واجبنا نحوها في المحافظة على سلامتها وتخليصها مما قد يشوبها من اللحن والعجمة، وعلينا أن لا ننظر إليها بوصفها مجموعةً من الأصوات وجملةً من الألفاظ

---

(١) د. محمد حسان الطيان بتصرف موقع الألوكة.

والتراكيب بل يتعين علينا أن نعتبرها كائناً حياً، وعلينا أن نؤمن بقوتها وغزارتها ومرونتها وقدرتِها على مسايرة التقدم في شتى المجالات، كما تعد مقوماً من أهم مقومات حياتنا وكِياننا، وهي الحاملة لثقافتنا ورسالتنا، والرابطُ الموحدُ بيننا والمكوّنُ لبنية تفكيرنا، والصلةُ بين أجيالنا، والصلةُ كذلك بيننا وبين كثير من الأمم.

وإن اللغة من أفضل السبل لمعرفة شخصية أمتنا وخصائصها، وهي الأداة التي سجلت منذ أبعد العهود أفكارَنا وأحاسيسنا. وهي البيئة الفكريةُ التي نعيش فيها، وحلقةُ الوصل التي تربط الماضيَ بالحاضر بالمستقبل. إنها تمثل خصائص الأمة، واستطاعت أن تكون لغةَ حضارة إنسانيةٍ واسعةٍ اشتركت فيها أممٌ شتى، كان العرب نُواتَها الأساسيةَ والموجّهين لسفينتها.

واللغة العربية أقدمُ اللغات التي ما زالت تتمتع بخصائصها من ألفاظ وتراكيبَ وصرفٍ ونحو وأدب وخيال، مع الاستطاعة في التعبير عن مدارك العلم المختلفة. ونظراً لتمام القاموس العربي وكمالِ الصرف والنحو فإنها تُعد أمَّ مجموعةٍ من اللغات تعرف باللغات الأعرابية؛ أي: التي نشأت في شبه جزيرة العرب، أو العربياتِ من حِميرية وبابلية وآرامية وعبريةٍ وحبشية. وعلماء اللغة حديثاً يصنفون كلّ السلالات اللغوية ويعودون بها إلى لغةٍ أمٍّ أطلقوا عليها: «اللغةَ السامية».

وإن الشخصية العربية تقوم على تشابه أذواق العرب ومَلَكاتهم،

وهذا التشابه يرتبط ارتباطاً وثيقاً بتراثنا الثقافي العريق، ويرتبط بعمالقة الشعر والأدب وبخاصة الذين سجلوا مُثُلَنا العليا، ويرتبط باللغة العربية التي نعتز بالحديث بها . . ولهذا فإهمال الأدب القديم والاتجاهُ الأكثر إلى الأدب الحديث يساعد من يروج للفصل بين الآداب القديمة «حيث امتدادُ أخلاق الآباء والسلف» وبين الآداب الحديثة، ولسنا بحاجة إلى التأكيد من جديد على دور اللغة في بناء الأمة وصناعةِ وُجدانها وتكوينِ هُويتها وثقافتها وضمانِ تماسكها وتواصل أجيالها.

قال الأستاذ محمد الخضر حسين: «كانت الفارسيةُ في الشرق هي التي يمكن بما لها من فصاحةٍ وحسنِ بيان أن يُوازَنَ بينها وبين اللغة العربية، وقد شهد بعضُ الأعاجم الذين عرفوا اللغتين بأنَّ العربيةَ أرقى مكانةً وألطفُ مسالكَ. قال ابن جني في «الخصائص»: إنا نسأل علماءَ العربية مِمَّن أصله أعجمي وقد تدرَّب قبل استعرابه عن حال اللغتين فلا يجمعُ بينهما، بل لا يكاد يقبَل السؤال عن ذلك لبُعده في نفسه، وتقدُّم لطف العربية في رأيه وحِسِّه. سألتُ غير مرَّة أبا عليٍّ عن ذلك، فكان جوابه نحواً مِمَّا حكيته»[1].

وقال ابن فارس في كتابه: «الصاحبي في فقه اللغة» «لغةُ العرب أفضل اللغات وأوسعُها. قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ [الشعراء: ١٩٢ ـ ١٩٥]، فوصفه ـ سبحانه ـ بأبلغ ما يوصَف به

(١) الخصائص ١/ ٢٤٣.

الكلام وهو البيان. . . فإن قال قائلٌ: فقد يقع البيانُ بغير اللسان العربي؛ لأن كلَّ من أفهَم بكلامه على شرط لغته فقد بيَّن.

قيل له: إن كنت تريد أن المتكلمَ بغير اللغة العربية قد يُعرب عن نفسه حتى يفهَمَ السامعُ مرادَه؛ فهذا أخسُّ مراتب البيان؛ لأن الأبكَمَ قد يدلُّ بإشارات وحركات له على أكثر مُراده، ثم لا يُسمَّى متكلماً فضلاً عن أن يُسمَّى بيّناً أو بليغاً.

وإن أردت أنَّ سائر اللغات تُبيّن إبانةَ اللغة العربية فهذا غَلَط، لأنَّا لو احتَجنا إلى أن نعبِّر عن السيف وأوصافه باللغة الفارسية لما أمكَنَنا ذلك إلا باسم واحد، ونحن نذكُر للسيف بالعربية صفات كثيرة. . وكذلك الأَسَد والفَرَس. . . فأين هذا من ذاك؟ وأين لسائر اللغات من السَّعة ما للغة العرب؟ هذا ما لا خَفاء به على ذي نُهية»[1].

فهذا ابن فارس وابن جني وأبو علي الفارسي وكانوا محيطينَ باللغة الفارسية يشهدونَ شهادةَ الحقِّ كما رأيتم.

ولغتنا العربية تتميز بكثير من الخصائص الفريدة، والمزايا التي جعلت منها أماً للغات، فهي تتميز بثبات الأصول ومرونة الفروع، وثباتِ أصول الألفاظ ومحافظتِها على روابطها الاشتقاقية وهذا يقابل استمرار الشخصية العربية خلال العصور، فالحفاظ على الأصل واتصالُ الشخصية واستمرارُها صفةٌ يتصف بها العربُ كما تتصف بها

---

(١) الصاحبي في فقه اللغة، باب: أفضل اللغات وأوسعها ١/ ٤.

لغتهم، ولغتنا أيضاً لغة المترادفات إذ يكثر أن يكون للمسمى الواحد أكثرُ من مفردة لغوية واحدة بل قد تصل إلى العشرات بل المئات ولا ننسى أن كثيراً من هذه المترادفات نشأ من تعدد اللغات، أو من ملاحظة اختلاف دقيق في الأحوال والصفات، قال ابن فارس في الصاحبي: «وقد سُمع أن معاني (العين) تنيف على المائة، ومعاني (العجوز) تنيف على الثمانين، ومعاني (الكرم) على الثلاثين، قال ابن خالويه: جمعت (للأسد) خمسمائة اسم، و(للحيّة) مائتين. وذكر صاحب القاموس في مادة (سيف) أن للسيف أسماء تنيف على ألف اسم، وهناك كتاب اسمه: المسلوف فيما له اسم واحد إلى الألوف للفيروزآبادي. . .

(ومن خصائص لغتنا الاشتقاقُ، وهو أنواع، وقد فصَّل القولَ فيها علماءُ اللغة من قدماءَ ومعاصرين، وأكتفي هنا بذكر هذه الأنواع دون تفصيلٍ ولا شرح، وهي: الاشتقاق الصغير، والاشتقاق الكبير، والاشتقاق الأكبر، والاشتقاق الكُبَّار.

● ومن خصائص لغتنا العربية المجازُ، وهو استعمالُ كلمة في غير معناها الأصليِّ لعلاقة مع قرينةٍ مانعة من إرادة المعنى الأصلي.

● ومن ذلك النَّحْت، وهو طريقةٌ من طرائق توليد الألفاظ، وهو قليلُ الاستعمال في اللغة العربية شائعٌ في غيرها من اللغات الهندية الأوربية. ومن أمثلته: البَسْمَلَة، والحَمْدَلَة، والحَوْقَلَة. وبعض العلماء يسمُّون النحت الاشتقاقَ الكُبَّار ويعدُّونه نوعاً من أنواع الاشتقاق. وهو أيضاً أنواع.

• ومن ذلك التعريب، وهو نقلُ المفردَة الأعجميَّة بلفظها مع إدخال بعض التعديل عليها، لتكونَ وَفق طبيعة اللغة العربية، وقد عرَّب اللغويون المتقدِّمون كثيراً من الكلمات الأعجمية والأعلام الأعجمية. فمن ذلك كلمة (هندزة) عرَّبوها إلى (هَندَسة).. وغيرُها الكثير من الكلمات.

• ومن ذلك الاختِزال الذي اخترعه علماءُ الحديث، وأخذَه عنهم علماء العلوم الأخرى كعلماء بالرضيات والكيمياء والفيزياء، وهو استخدامُ حرف أو حرفين من الكلمة الأصل للدَّلالة على الكلمة المختَزَلَة، ومن ذلك الرُّموز الدالَّة على المواد التي نُريد الحديث عنها.

• ومن ذلك استعمالُ كلمةٍ مهجورةِ الاستعمال وهي موجودةٌ في كتب اللغة، استعمالُها في معنى جديد، وهذه الطريقة أخذ بها المجمع العلميُّ العربي في دمشق).

ومن مزايا اللغة العربية (الإعراب) الذي هو الفارق بين المعاني المتكافئة في اللفظ، وبه يُعرف مراد المتكلِّم من الكلام، ولولاه ما مُيِّز بين فاعل ومفعول، ولا عُرف تعجُّب من استفهام.

ومن مزايا اللغة العربية أنَّ للأبنية (الصيغ) دلالاتٍ تجعل السامعَ يدرك من معرفته للصيغة المرادَ. وللأوزان في هذه اللغة معانٍ، ومن ذلك ما هو معروفٌ ومشهور كالأسماء المشتقَّة من نحو اسم الفاعل واسم المفعول والصفة المشبَّهة واسم الزمان واسم المكان وأفعل التفضيل واسم الآلة، والمصدر الدالِّ على المرَّة والمصدر الدالِّ على الهيئة.

ولأوزان الأفعال وتصاريفها دلالاتٌ معينة في العربية:

فمثلاً (فاعَلَ) تدلُّ على تعلُّق الفعل بمتعدِّد، وعلى المنافسة، مثل: قابَلَ وزاحَمَ ونافَسَ. وهكذا.

و(تفاعل) تدلُّ على المشاركة وتعدُّد الفاعلية، وقد تدلُّ على التظاهُر بالشيء، مثل: تَجاهَلَ، وتَغابَى، وتَمارَضَ.

ولأوزان الكلمات معانٍ معينة:

فمثلاً (فُعال) تدلُّ على الأصوات، مثل: رُغاء، وثُغاء، وعُواء.

و(فُعالَة) تدلُّ على البَقايا، مثل: حُثالَة، نُخالَة.

إنَّ وجود هذه القوالبِ الفكرية العامَّة في اللغة العربية توفِّر على المتكلِّم والمتعلِّم كثيراً من الجهد في التعبير والفَهم والإدراك.

وهذه الطريقةُ في اشتقاق الألفاظ من مَواردها الأصلية، وتصريفها في أشكالٍ متنوِّعة، واستخدام هذه الأبنية، تختلفُ عن طريقة التركيب الإلحاقي المعروفة في لغاتٍ أخرى والتي تقوم على زيادة أحرُف مخصوصة في أول الكلمة أو في آخرها لتدلَّ على معنًى خاص.

وعددُ الأبنية في العربية كبيرٌ، وكذلك فإن عدد تصاريف الكلمة الواحدة ومشتقَّاتها ومصادرها تصلُ إلى أكثرَ من مئة وخمسين كلمة.

ومن مزايا هذه اللغةِ أنها تمتاز في مجموع أصواتِ حروفها بسَعَة مَدرَجها الصَّوتي سَعَةً تُقابل أصواتَ الطبيعة في تنوُّعها وسَعَتها.

وتمتاز من جهةٍ أخرى بتوزُّعها في هذا المَدرَج توزُّعاً عادلاً يؤدِّي إلى التوازن والانسجام. وقد أشار ابنُ جني في «الخصائص» إلى أن العربَ تجنَّبت بعضَ الكلمات لتقارُب مخارج حروفها، مثل اجتماع السين والصاد، أو الطاء والتاء.

ومن مزايا هذه اللغةِ أن أصواتَ الحروف العربية يُنطَقُ بها الآنَ كما كان يَنطِقُ بها أهلُها قبل خمسةَ عشرَ قرناً، والفضل في ذلك يعود إلى القرآن الكريم كما تحدثنا.

ومن مزايا هذه اللغةِ ثباتُها على مرِّ الزمان ومحافظتُها على خصائصها ومفرداتها، فما قاله زهير وعنترة والحطيئة قبل خمسةَ عشرَ قرناً يقرؤه العربيُّ المعاصر اليومَ فيفهم مَعناه.

وبالموازنة مع الإنكليزية نجد أن ما كتبه شكسبير (١٥٦٤ ـ ١٦١٦م) يحتاج اليومَ الراغبون في فهمه من الإنكليز إلى مُترجم يُترجمه لهم». د. محمد بن لطفي الصباغ بتصرف من موقع الألوكة.

وإن السلف الصالح ـ أيتها السيدات والسادة: ما قصروا في خدمة اللغة العربية حيث جاهدوا بالجهد والمال والوقت لخدمة هذه اللغة لغةِ القرآن، عكفوا على تعلمها لما لها من مكانة مقدسة في نفوسهم،، غاروا عليها، وغاروا على بيانها المعجز أن تدنسه عجمة الأعاجم ولوثة الإفرنج... فقضوا سني حياتهم في تقعيدها وإشادة أركانها ورسم أوضاعها...

وأما عن وجود بعض الكلمات غير العربية في القرآن الكريم فذلك لحكم كثيرة منها: أنه حوى علوم الأولين والآخرين، ونبأَ كلِّ

شيء، فلا بد أن تقع فيه الإشارة إلى أنواع اللغات لتتم إحاطتُه بكل شيء، فاختير له من كل لغة أعذبَها وأخفها وأكثرَها استعمالاً للعرب. وكذلك كان للعرب في لغتهم بعضُ مخالطة لأهل سائر الألسنة في أسفارهم، فعلقت من لغاتهم ألفاظٌ غيرت العرب بعضَها بالنقص من حروفها واستعملتها في أشعارها ومحاورتها حتى جرت مجرى العربي الفصيح ووقع بها البيان. ففي بعض كتب الأدب أن يهودياً قال...

وقد حاول البعض منذ نزول القرآن أن يشيع التهمة والكذب بأن النبي يتعلم هذا القرآن من رجل أعجمي فعند قوله تعالى في سورة النحل: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [النحل: ١٠٣].

قال ابن كثير في تفسيره:

(يقول تعالى مخبراً عن المشركين ما كانوا يقولونه من الكذب والافتراء والبهت: أن محمداً إنما يعلمه هذا الذي يتلوه علينا من القرآن بشرٌ، ويشيرون إلى رجل أعجمي كان بين أظهرهم، وكان بياعاً يبيع عند الصفا، فربما كان رسول الله ﷺ يجلس إليه ويكلمه بعض الشيء، وذاك كان أعجمي اللسان لا يعرف العربية، أو أنه كان يعرف الشيء اليسير بقدر ما يَرُد جواب الخطاب فيما لا بد منه؛ فلهذا قال الله تعالى راداً عليهم في افترائهم ذلك: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣] يعني: القرآن؛ أي: فكيف يتعلم من جاء بهذا القرآن، في فَصَاحته

وبلاغته ومعانيه التامة الشاملة، التي هي أكمل من معاني كل كتاب نزل على نبي مرسل، كيف يتعلم من رجل أعجمي؟! لا يقول هذا من له أدنى مُسْكة من العقل). تفسير ابن كثير.

وبقيت اللغة العربية كذلك وأهلها يدافعون عنها، ويرعونها أحق رعاية حتى أتى على الناس زمان ـ كما يقول د. محمد حسان الطيان ـ: «تَنكَّروا فيه للعربية بعد طول تعهّد وعناية، وهجروها بعد طول وصالٍ ورعاية، وزهدوا فيها وعزفوا عنها بعد طول تقدير وتقديس، بل وصل الأمر ببعضهم إلى حدود المقت والقِلى، والبغض والمحاربة بعد طولِ الكَلَفِ والحب، والعشق والهيام!!».

وإن تعجب فعجبٌ أن يمتد أثر ذلك إلى بعض مدرسي هذه المادة فترى بعضهم ـ مع حرصهم المحمود على إيصالها إلى الطلاب ـ أبعدَ الناس عنها، وكأن بينها وبينهم أمداً بعيداً أو ثأراً قديماً، أو حجاباً مستوراً، فهم لا يأبهون لها ولا يعيرونها أدنى اهتمام. فأين هؤلاء من لغة القرآن؟! وأين هم من أفصح من نطق بالضاد؟! وأين هم من علماء السلف الذين كان الواحد منهم حجّةً في اللغة قبل أن يكون حجّة في مجالات شتى؟!)[1].

ويقول د. طيان: ليس عدلاً أن أحبِّبَ اللغة إلى أهلها وأصحابها! أيحبِّبُ أحدٌ ولداً إلى والده؟! أو فلذة كبد إلى صاحبها؟! بل قل أيحبِّبُ واحدنا اللسان إلى المتكلم وبه قوامه،

---

(١) الألوكة بتصرف شديد.

وعليه يبنى أمرُه، وفيه سرّ مقدرته، وإليه يعود الفضل في نجاحه، وعليه المعوّل في فلاحه؟!.

لا كلّ هذا لا يكون، ولكنها دعوة إلى إعادة الاهتمام بهذا اللسان، إنها دعوة إلى المصالحة مع اللغة، بعد أن أصابها من الإهمال وقلة الاكتراث ما ينبغي أن يتوقف عنده كل غيور، بل كل عاقل، لقد أصابها من جحود أهلها وانصرافهم عنها وافتئاتهم عليها ما جعل الدكتور شكري فيصل رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: «لعلّه لم يحمل قوم على لغة كان لها فضلُ وجودهم الحضاري ومكانتِهم الإنسانيةِ على نحو ما حمل ناس منّا على لغتهم.. اتهموها بالصعوبة وحمّلوها من ذلك ما هو حقّ في أقلّ الأحايين وما هو باطل في أكثر الأحايين. ورموها بالخروج على المنطق وأنها لا تنقاد قواعدها إليه. وقذفوا خطّها وحروفها بل دعوا إلى تبديلها، وبذلوا الكثير من القول والعمل. وأخرجوها من نطاق الطبيعة حين زعموا أنك في اللغات الأخرى تقرأ لتفهم بينما نحن في العربية نفهم لنقرأ. وقالوا في نحوها وصرفها ما لم يقله مالك في الخمر!. وتحدثوا عن عجزها عن متابعة التقدم الحضاري وكأنها لم تكن اللغةَ التي وسعت حقباً من الدهر العلومَ والمعارفَ كلها... وكأنها لم تكن اللغةَ التي أنشأت حضارةً وأنبتت ثقافة وكتبت آلاف الكتب في كل ضروب الصنائع والفنون والعلوم» د. محمد حسان الطيان بتصرف موقع الألوكة.

أيتها السيدات والسادة: إن من أكبر مصائب الأمة أن يكون

تعليمُها بغير لغتها، وتفكيرها بغير أدواتها، وقياسُ حاضرها يكون بمعاييرَ وضوابط حضاريةٍ غريبة عنها، والحالة هذه من التخاذل والتكاسل والتبعيّة، واجهت العربية مجموعة من التحديات والمصاعب وقفنا منها موقف المتفرج، إن لم نكن شاركنا فيها من طرف خفي. وقد آن الأوان أن نفضح خطط الأعداء ونكشفَ عن نواياهم الخبيثةِ، ونثبت للعالم أن هذه اللغة ثريةٌ غنية باقية فنرعاها حق الرعاية ولا ندعها تتعرض للتقويض والانهيار والغزو اللغوي الشرس من الداخل والخارج...

ومن المواجهات التي تواجه لغتنا العربية اتهامُها بالعقم والجمود والتحجّر والقصور، وأنها لم تعد ملائمة لأساليب القرن الحادي والعشرين عصرِ الثورة المعلوماتية والاختراقات الفضائية، فكان منا من نظر إلى تخلف العرب العلمي في عصر الذرة فأعلن أنه لا يرى لهذا سبباً غيرَ تمسك العرب بلغتهم في مراحل التعليم عامة والتعليم العالي منها خاصة، وآخرُ يلحّ في الدعوة إلى تدريس العلوم الطبية وغيرها بلغة غير عربية؛ ليظل المسلم عنده إحساس بعجز اللغة العربية لغةِ القرآن. ولا أجد رداً على ذلك أجملَ مما قاله شاعر النيل:

وسعت كتاب اللَّه لفظاً وغايةً ... وما ضقت عن آي به وعظات
فكيفَ أَضِيقُ اليومَ عَنْ وَصْفِ آلَةٍ ... وتنسيقِ أَسْمَاءٍ لمُخْتَرَعَاتِ
أنا البحرُ في أحشائِهِ الدرُّ كَامِنٌ ... فَهَلْ سَأَلُوا الغوَّاصَ عَنْ صَدَفَاتي

فهو يشير إلى الطاقات الهائلة والمخزون الضخم الذي تمتلكه

العربية التي وسعت هذا القرآن بكل أبعاده وآفاقه. إنها لغة الخلود حيث لا يمكن أن تزول عن الأرض إلا أن يزول هذا الكتاب المنزّل، وقد تكفل الله بحفظها ضمنياً في قوله: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: ٩] كما شهد الله في كتابه أن لغة القرآن لا تقبل العوج فقال: ﴿قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا غَيۡرَ ذِي عِوَجٍ﴾ [الزمر: ٢٨].

ومع كل الغنى الذي تتمتع به لغتنا العربية عبر مر العصور وإلى الآن، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها نرى بعض أعداءِ العربية من مستغربين ومستشرقين، ومن بعض الإمعات الذين يتبعون كل ناعق، ويركضون وراء كل سراب نراهم يتبجحون قائلين: نريد لغة عربية معاصرة، نريد أن نستبدل بالفصحى اللهجاتِ العاميةَ واللغاتِ المناطقيةَ والإقليميةَ القوميةَ الضيقةَ أو إحياءَ لغات قديمة ميتة، وكذلك من يدعون إلى اللاتينية بزعمهم أنها أكثر مرونة واختصاراً في النطق؟؟

ولا تعدو أن تكون هذه المحاولاتُ معولاً يحاول أن يصيب مقتلاً في كيان هذه الأمة، وهي محاولات هدامة تحاول إضعاف العربية وقد مشى تيار الهدم هذا في اتجاهين يكمل أحدهما الآخر هما: الاستشراق والاستغراب.

الأول: ـ اتجاه المستشرقين الذين أوكلت لهم مهمةُ التدريس في الجامعات والمدارس فشغلوا مناصب عليا، وتولوا مهامّ جسيمة، وسيطروا على كراسي الدراسة.. فألّفوا كتباً في الدين واللغة هي أكبرُ من علمهم، نفثوا فيها سمومهم ودسّوا فيها أفكارهم هذا

من جهة، ومن جهة ثانية أنهم غرسوا في الطلاب والكوادر هذه الأفكارَ فأشربت قلوبُ العديد من العرب بها، ومن جهة ثالثة أنشأوا المدارس والجامعاتِ التبشيريةَ والغربية في بلاد المسلمين وجعلوها أوكاراً لأغراض تجسسية خبيثة.

وأما الاتجاه الثاني وهو الاستغراب فما كان للاستعمار الغربي بحقده الدفين وخبرته الواسعة. . أن يترك هذه اللغة التي يعرفها معرفة جيدة ويدركُ آثارَها الاجتماعية والسياسية «ما كان له أن يدعَها تنمو بإيقاعات سريعة تتساوق وإيقاعاتِ النمو الحضاري العام، فأخذ يوجه إليها الضربة تلو الضربةِ، تارة بقرار سياسي. . وتارة بفتنة عمياءَ تثير الجدل وتعيق عن العمل. . وتارة باستعمال أبواق لا خلاق لها للترويج للغة مهجورة متخلفة أو للدعوة إلى عامية شائعة. . . ففي مصر مثلاً وجه اللورد كرومر ضربة قوية للعربية؛ إذ جعل لغةَ التعليم الرسمي والعالي الإنكليزيةَ. . . وفي الجزائر أصدر الفرنسيون عام (١٩٠٤م) قانوناً يمنع أي معلم عربي أن يتعاطى مهنته إلا برخصة وضمنَ شروط محددة منها:

أ ـ اقتصارُ التعليم على حفظ القرآن لا غير.

ب ـ عدمُ التعرض لتفسير الآيات التي تدعو إلى التحرر من الظلم والاستبداد.

ج ـ استبعادُ دراسة التاريخ العربي والإسلامي، والتاريخ المحلي وجغرافية القطر الجزائري والأقطار العربية الأخرى.

د ـ استبعادُ دراسة الأدب العربي بجميع فنونه.

لقد كانت خطة النفوذ الأجنبي ترمي إلى:

**أولاً**: تحويلِ أبجدية اللغات الإقليمية إلى اللاتينية وكانت تكتب أساساً بالحروف العربية، كما حدث في إندونيسيا وبعض بلاد إفريقية وآسية.

**ثانياً**: تقديمِ اللغات الأجنبية في الأقطار الإسلامية على اللغة العربية.

**ثالثاً**: تقديمِ اللهجات واللغات المحلية وتشجيعها والدعوة إلى كتابة اللغة العربية بالحروف اللاتينية. . .

وكثيرة هي الخطط الغربية للقضاء على العربية، وكثيرٌ من حاول أن يفضل اللغات الأخرى على العربية ولكن نقولُ له: عرفت شيئاً وغابت عنك أشياء.

ما حال من يريد أن ينقص من قدر العربية، ويعلي اللغاتِ الأخرى عليها إلا كما قال المعري:

فواعجباً !كم يدعي الفضل ناقص ... وواأسفاً! كم يظهر النقص فاضل
إذا وصف الطائي بالبخل مارد ... وعير قُساً بالفهاهة باقل
وقال السُهى للشمس: أنت خفيةً ... وقال الدجى يا صبح لونك حائل
وطاولت الأرض السماء سفاهةً ... وفاخرت الشهب الحصى والجنادل
فيا موت زر !!! إن الحياة ذميمة ... ويا نفس جِدي!! إن دهرك هازل

أيتها السيدات والسادة: أي هجوم محتمل يستعد الإنسان له بكل ما ملك من قوة ومن رباط الخيل، والهجوم على لغتنا بحاجة منا أن نبذل كل ما فيوسعنا لأن نبقيَها فوق هامة النجوم، وكثيرٌ منا

يساهم في نشر العامية ولو بغير قصد، فلو أخذنا على سبيل المثال الإعلامَ لرأينا فيه بعض الظواهر السلبية ومنها:

١ ـ فشوّ العامية على ألسنة بعض المذيعين ولا سيما في المقابلات والمحاورات، رغم أن الصحافة المقروءة استطاعت حتى الآن أن تصون نفسها من الانزلاق في اللهجة الدارجة نوعاً ما.

٢ ـ بعض الألفاظ الأجنبية كثيرة الترداد على ألسنة المذيعين وهذا العيب قلما نجده في الصحافة المقروءة... ومن الحلول والمقترحات الناجعة في علاج هذا الداء:

١ ـ أن تستخدم وسائل الإعلام في توعيتها الكلماتِ الفصحى، والعباراتِ سليمةِ التراكيب التي تجمع بين البساطة في التعبير، واحترام قواعد اللغة.

وأيضاً قيامُ وسائل الإعلام بالتوعية المستمرة في حثّ الجماهير على النطق بالعربية الفصحى...

وعلينا أن ننبه ـ في هذا الإطار ـ أن اللهجات الموجودةَ في الواقع هي نتيجةٌ طبيعية للعزلة التاريخية والانقسامات الدينية التي رسخت الشرخ الطائفي بين أبناء الأمة الواحدة، واللهجاتُ بشكل عام موجودة في معظم اللغات الحية وفي جميع أصقاع الأرض ولا تخلو لغة من لهجات عامية تختلف من بلد لآخر، ويصل الاختلاف أحياناً إلى حد تعذر فهم لغة الشخص الآخر من نفس القومية، كما هو الحال في اللغة العربية حيث نجد صعوبة بالغة في فهم اللهجة العربية للجزائري أو المغربي أو الموريتاني أو الصومالي.

ففي كل لغة من لغات العالم الحية توجد لغة فصحى وتوجد لهجات عامية محكية، ومهما اختلفت اللهجاتُ بحسب المناطق والبلدان فإن المرجعية تكون للفصحى الأساس، ومهما دخلت الشوائب والكلماتُ الغريبة على اللهجات المحكية فإن الفصحى هي الحصنُ المنيع والمرجع الأخير لكل الطوائف من أبناء الشعب الواحد. . الكتاب: اللغة العربية التحديات والمواجهة.

فلماذا أصبحت العربية اليوم تئن أنين الثكلى؟، وتبكي بكاء الحزينة، وتسيل دموعُها كدموع اليتيمة، وتشكو من حالتها على لسان شعرائها، وتشكو من أبنائها الذين كانوا في غاية العقوق، وما قابلوا الإحسان بالإحسان، فمن قبلُ عاتبت العربية على لسان شاعر النيل أبناءها، وها هي اليوم تشكو أبناءها وقسوتهم، وتشكو زمانها، وقلة نصرائها، وتوثبَ حسادها وأعدائها عليها، وتسأل عن أهل مودَّتها؟ وعن أصحابها وأهل رجائها! وعن أبنائها مع أنها الأم الرؤوم والقلبُ الحنون، والحضنُ الدافئ، ها هي اليوم تشكو على لسان الدكتور الشاعر د. وليد قصّاب، فيقول في قصيدة عنوانُها: العربية تشكو أبناءها:

أشكُو الزمانَ وقلَّةَ النُّصَرَاءِ وتَوَثُّبَ الحُسَّادِ والأعداءِ
وأرى الحِرَابَ تجمَّعَتْ لتنُوشَنِي وتَعِيْثَ في دَوحِيْ وفي أفيائي
ويَعُقُّني من كنتُ أرجو حبَّهم ووِدادَهم، في الليلةِ الظَّلماءِ
لكنَّ قلبي ليس يصدَعُه سوى جَحْدِ الحبيبِ وقسوةِ الأبناءِ
ربَّيْتُهُم في دَوحَتي أعطيْتُهم من جنَّتي وكسَوْتُهم برِدَائي

لكنَّهم لم يَدْفَعُوا عن حُرمَتي ... أو يُعْظِمُوا قَدري وحقَّ وفائي
أنا أمُّهم، أمُّ اللغاتِ جميعِها ... فضلٌ خُصِصْتُ به على النُّظَرَاءِ
قد صارتِ الفُصحى يتيماً ضائعاً ... ما بينَ أبناءٍ لها جُهَلَاءِ
لا يعرِفُون أصولَها وجُذورَها ... أو يَغتَذون بِرَوضِها المِعْطَاءِ
هَجَرُوا الكِتابَ فضاعَ سمتُ كلامِهم ... واعتاصَ نطقُ حروفِهم بَصَفَاءِ
كم من خطيبٍ بينكم لحَّانَةٍ ... مُسِخَتْ لديه ملامحُ الأشياءِ
رَفَعَ المضافَ ولم يُوَقِّرْ حقَّه ... أو جرَّ أسماءً بلا استحياءِ
ولربَّما نصبَ الكلامَ جميعَه ... من غيرِ ما فرقٍ ولا استثناءِ
ومحاضرٍ هَصَرَ الحديثَ مكسِّراً ... ضِلْعَ الحروفِ ورَقْبَةَ الأسماءِ
وإذا تحدَّث في الدروسِ معلِّمٌ ... هجرَ الأصيلَ إلى لُغَىْ الدَّهْمَاءِ
رَطَنُوا بغيري ذِلَّةً وخَساسةً ... هانت عليهم عِشْرتي وإخائي
كم زاحَمَتْني أَلْسنٌ عجميَّةٌ ... وعَدَتْ عليَّ رَطانَةُ الهُجَنَاءِ
ما بالُهم لا يعبؤونَ بحُرْمَتِي ... أو يَشفعونَ لذِلَّتِي وعَنَائي؟
أصبحتُ أسألُ: أين أهلُ مودَّتي؟ ... أين الصِّحَابُ؟ وأين أهلُ رجائي!
كم صُغْتُ من حَسَنٍ ومن أعجوبةٍ ... وخَطَرْتُ فوقَ حديقةٍ زهراءِ
ورقصتُ في ثوبٍ بهيٍّ ساحرٍ ... كالغِيْدِ بين أناملِ الشعراءِ
كم سُحْتُ في دنيا العلوم رشيقةً ... أختالُ بينَ أزاهرِ العلماءِ
جابُوا بحورَ مدائني فمنحتُهمْ ... ما فيَّ من ذهبٍ ومِنْ لألَاءِ
واليومَ ما من جاهلٍ متعالمٍ ... لم يَشدُ بعدُ معالمَ الإملاءِ
إلَّا ويُفتي في أُموريَ ضَلَّةً ... ويمورُ من حقدٍ وطولِ عِداءِ
ويقولُ: إني قد غَدَوتُ عتيقةً ... وأَضيقُ عن عِلْمٍ وعن أنباءِ
إن اللسانَ على النفوس علامةٌ ... وبه تُقاسُ أصالةُ الأُصَلَاءِ

وبـه تُـمَـيَّـزُ أمَّـةٌ مـن غـيـرِهـا وبـه افـتِـخَـارُ الـفـتـيـةِ الـشُّـرَفَـاءِ
كم من لغاتٍ في الورى مَطموسةٍ نَبُهَتْ بفضلِ رجالِها النُّجَبَاءِ
وأرى بَنِـيَّ تـنـكَّـرُوا لـجـلـودِهـم واستـعـبـدَتْـهُـم أَلْسُنُ الـغُـربـاءِ[1]

والشاعر الآخر يقول:

بكت يوماً ونثرت دموعها على وَجناتها..
وتنهدت بقوة.. ملأت صدرها من هواء الجفاء وهي تقول:
أم اللغات أنا.. ومنبعُ الحضارات هي حروفي..
تميزت بالضاد.. وأصبحت لغة الأجداد
بكسرتي... كسرت القوافي
وبفتحتي... فتحت بلاد العجم
بضمتي.. ضممت أراضي الغرب
وبشدتي، شددت زمام الأمور..
أما بسكوني.. فلي معه حكاية
ففيه سكون الليالي..
وهمسات الأحباب..
وتلاوات الآيات المحكمات
هل سألتم أنفسكم بأي لغة كان؟؟
إنه بالعربية..
أنا لغة القرآن
وأهالي الجنان

---

(١) المصدر: ديوان فارس الأحلام القديمة/ ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م، ص٧٠ ـ ٧٤.

يجب علينا أن ندرك أهمية اللغة العربية، وأن نحافظ عليها ونتكلم بالكلمات الفصيحة ونبتعدَ عن العامية واللغة المحكية وخاصة في تدريسها وفي جميع مراحل التدريس الابتدائية والثانوية وفي المعاهد والجامعات، وفي شتى مجالات الحياة، يقول أمير الشعراء في الشوقيات:

وصن لغة يحق لها الصيان
فخير مظاهر الأمم البيان
ألم ترها تنال بكل ضير
وكان الخير إذ كانت بخير؟
فعلِّمها صغيرك قبل كل
ودع دعوى تمدنِهم وخلّ
فما بالعي في الدنيا التحلي
وما خرسُ الفتى فضلاً عظيما

ويقول الأستاذ العقاد رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مقدمة كتاب (الصحاح) للأستاذ العطار: وستبقى اللغة العربية ما دام لها أنصارٌ يريدون لها البقاء. ولم ينقطع أنصارُها في عصرنا الحاضر، بل نراهم بحمد الله يزدادون ويتعاونون. ويتلاقى أبناء البلاد المختلفة على خدمتها ودعمها، لأنهم مختلفون بمواقع البلاد متفقون بمقاصد الضمائر والألسنة والأفكار.

**ختاماً أيتها السيدات والسادة:** خطر العامية كبير على اللغة الأم، التي هي فخرنا ولغة قرآننا ونبينا عليه الصلاة والسلام

و«الحديث عن اللغة العربية لا ينبغي أن ينتهي؛ بل لا بد أن يأخذ طابع الاستمرارية، طالما أننا نحيا بها، وتحيا بنا. لقد جعلها الله ـ سبحانه ـ وعاءً لكتابه المجيد؛ كما أنها وعاء لعلوم الدين كلها من تفسير، وفقه، وتوحيد، وغيرها، وهي لغة حديث رسولنا العظيم ﷺ الذي أوتي جوامع الكلم، وهي التي تحوي كنوز تراثنا العلمي والأدبي، ذلك التراث الذي نفخ الروح في هذه الأمة قديماً فسادتِ الدنيا كلَّها». تامر عبد الفتاح موقع الألوكة، بتصرف.

❁ ❁ ❁

# وَمِنَ الشِّعرِ ما أضحكَ

عندما يذكر الشعر الظريف. . . فكلنا يتذكر الشاعر الشاب الظريف، وعندما يذكر الشعراء الذين غرسوا البسمة على وجوه من حضرهم، فلا بد من ذكر أبي دُلامة والحطيئة وغيرهم من الشعراء. فأبو دلامة شاعرٌ يُضحك القوم، ويُدغدغ مشاعرهم.

فقد دخل على المهدي وعنده إسماعيل بن علي، وعيسى بن موسى، والعباس بن محمد، وجماعة من بني هاشم، فقال له المهدي: «والله لئن لم تهج واحداً ممن في هذا البيت لأقطعن لسانك، فنظر إلى القوم وتحيّر في أمره، وجعل ينظر إلى كل واحد، فيغمزه بأن عليه رضاه، قال أبو دلامة، فازددت حيرةً، فما رأيت أسلم لي من أن أهجو نفسي، فقلت:

ألا أبلغْ لديك أبا دُلامهْ فلستَ من الكرام ولا كرامهْ
جمعت دمامةً وجمعت لؤماً كذاك اللؤم تتبعه الدّمامهْ
إذا لبس العمامة قلت قرداً وخنزيراً إذا نزع العمامهْ

. . . فضحك القوم، ولم يبق منهم أحد إلا أجازه»[1]

---

(١) المستطرف في كل فن مستظرف، بهاء الدين الأبشيهي، ط٣، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م، دار صادر، ص٣١٧.

وأصبحنا نرى في الشعراء من يتحدث عن داره ومصائبها، بطريقة ساخرة مضحكة، كابن الأعمى ومنهم من يتحدث عن زوجته وصولتها، أو عن ثوبه البالي، أو عن حماره وفرسه وما يعانيه، أو حتى من الاصطبل.. فصفيُّ الدين الحِلّي يُضمّن من معلقة امرئ القيس في قصيدته فيقول:

رأى فرسي إصطبل عيسى فقال لي: (قفا نبكِ من ذكرى حبيبٍ ومنزل)
به لم أذق طعمَ الشعير كأنني (بسقطِ اللوى بين الدخول فحومل)
تقعقعُ من برد الشتاء أضالعي (لما نسجتها من جنوبٍ وشمأل)

وبعضهم يقول في وصف امرأة:

لها جسمُ برغوثٍ وساقا بعوضةٍ ووجهٌ كوجهِ القرد بل هو أقبحُ
إذا عاينَ الشيطان صورةَ وجهها تعوّذَ منها حين يمسي ويصبحُ

فنحن نعلم أننا نتعوذ من الشيطان الرجيم وشرّه، لكنّ الشاعر جعل الشيطان نفسه يتعوذ منها صباح مساء!!

... حتى دخول الحمام حوّله بعض الشعراء إلى صورة مصغرة لدخول سقر، وفيها المجرمون ولم ينس الاقتباس عندما يقول:

وحمامٍ دخلناه لأمرٍ حكى سقراً، وفيها المجرمونا
فيصطرخوا يقولوا: أخرجونا فإنْ عدنا فإنا ظالمونا[1]

ـ كما أنّ لشعراء العصر الحديث نصيباً وافياً في هذا اللون

---

(١) المصدر السابق، ص٣١٩ ـ ٣٢٠ بتصرف.

الشعري، فأنت عندما تقرأ معي القصيدة التالية لا بد أن ترتسم البسمة على وجهك، هذا إن لم يغلبك الضحك، فقد «كان للأستاذ عثمان لبيب» حمارٌ يركبه في ذهابه إلى المدارس بالقاهرة، فسرقه اللصوص، وبلغ الخبر «محمود سلامة» صاحب جريدة «الواعظ» فرثى الحمار المسروق، وواسى صاحبه بقوله:

قفْ بسوق الحمير وانظر مليّا هل ترى أدهماً أغرّ المحيّا؟
خلسته يد اللصوص صباحاً موكفاً ملجماً معدّاً مهيّا
فخلا اصطبله وأصبح قاعاً صفصفاً خاوي العروش خليّاً
كان يا حسرتا عليه صبوراً قانع النفس راضياً مرضيّا
كم ليالٍ على الطّوى قد طواها حامداً شاكراً ولم يشكُ شيّاً
ليت شعري! أين الأمان وهذا جحشُ عثمانَ قد عدمناه حيّا؟!
كان عوناً له إذا رام ظعناً وخليلاً لدى المقام صفيّا
كان إن قلت «هِشْ» أجابك طوعاً وإذا قلت: «حا» انتضى سمهريّا
لك فيه العزاءُ عثمان أمّا سالبوه فسوف يلقون غيّا[1]

فلله درّ الشاعر! حيث جمع بين سلاسة الشعر الظريف المضحك، وبين رصانة التركيب، وجزالة الألفاظ.

والشاعر محمود غنيم عندما سرقت محفظة صديقه، واساهُ بهذه المصيبة، التي جعلها خطباً جللاً، ومصيبة من أعظم المصائب، فأتى بهذه الأبيات اللطيفة معزيّاً صديقه الشاعر:

---

(١) الجواهر والدرر فيما نفع وندر، محمد خير رمضان يوسف ط١، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م، دار البشائر الإسلامية، ص٤٠٥.

هوّن عليك وجففْ دمعك الغالي ... لا يجمع اللّه بين الشعر والمال
من أين أصبحت ذا مال فتسلبه ... يا أشبه الناس بي في رقّة الحال
فيا لها صُرّةً من جيبك انطلقتْ ... وأنت أحوجُ مخلوقٍ لمثقال
عوّذ نقودك واعقد حولها عُقداً ... وثيقة تتحدى كلّ حلال
قالوا: خلتْ يده من كل ما ملكتْ ... فقلت: بل رأسه من عقله خالِ
ياليت شعري!! ماذا أنت صانعهُ؟! ... أتزمع الصوم حتى شهرك التالي
أقسمت: ماسلبت تلك النقود يدٌ ... لكنها أبقتْ من جيبك البالي
الذئب لا يشتهي لحم ابن جلدته ... فكيف أوقع نشّالٌ بنشّال؟![1]

فكان لهذه القصيدة أثرٌ عظيم في تخفيف المصيبة، والرضا بقضاء الله وقدره، فكيف لو كانت المصيبة أعظم من ذلك؟!!

وهكذا كنا في جولة مع قصائد مضحكة، سلّتنا عما نحن فيه من هموم العيش، وضنك الحياة، ولا بد أن نتذكر أخيراً قول الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضۡحَكَ وَأَبۡكَىٰ ﴿٤٣﴾﴾ [النجم: ٤٣].

❁ ❁ ❁

(١) المصدر السابق، ص٤٠٦.

# الخاتمة

آن الأوانُ أن ترسوَ سفينتنا بعد طول إبحار، وأن نحطّ ركابَنا بعد طول ترحال.

وكما أن لكل شيء خاتمةً، فها قد وصلنا إلى خاتمة الكتاب، بعد أن تنقلنا معاً في رياض غناءَ من العلم والمعرفة والأدب والفكر، وهذه ـ أيها القارئ الكريمُ ـ بضاعتي التي وفقني الله إليها، وهي بضاعة مُزجاةٌ، فما وجدتَ فيها صالحاً فمن فضل الله عليَّ وعلى الناس، وهو ذو الفضل المبين، وما وجدت فيها من خطأٍ أو هفوةٍ أو نسيانٍ، أو زلة، فمن نفسي، ومن تقصيري، ويأبى كتابٌ إلا أن يكون ناقصاً لأن الكمال فقط لكتاب الله ﷻ الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

والخاتمة تُذكرنا بالختام، فالإنسان مهما طال به العمرُ ومهما امتدّ به الأجل فلا بد أن يرحل من الدنيا، ويُخلّف فيها ما عملَ، وما خطَّ من كتابٍ، ورحم الله من قال:

وما من كاتبٍ إلا سَيَفْنَى ... ويَبقى الدَّهْرَ ما كتبتْ يداهُ
فلا تكتبْ بكفِّك غيرَ شيءٍ ... يَسُرُّكَ في القيامةِ أنْ تراهُ

ولا بد أن يأتي يومٌ وينطبقَ عليَّ قول القائل:

ستبقى خطوطي في الدفاتر برهةً      على أنها مِني وتفنى أناملي
فيا قارئاً خطّي سلِ اللَّهِ رحمةً      لكاتبه المدفونِ تحتَ الجنادل

أسأل الله القبول، ورحم الله من أهدى إليَّ عيوبي، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

مصطفى قاسم عبّاس

٣ رجب ١٤٣٣هـ الموافق: ٢٣\٥\٢٠١٢م

# الفهرس


| الموضوع | الصفحة |
| --- | --- |
| ❊ **الإهداء** | ٧ |
| ❊ **مقدمة الكتاب** | ٩ |
| تأمُّلاتٌ في سِفْرِ الحياةِ | ١٣ |
| عِنْدَمَا يَحْزَنُ الشُّعَرَاءُ | ١٧ |
| منْ صَمِيْمِ الْفُؤَادِ | ٢٤ |
| لماذا لا نفكّرُ منْ جديدٍ؟! | ٢٧ |
| كَلِمَاتٌ مُبَعْثَرَةٌ | ٣١ |
| في الحياةِ. . . هناكَ شيءٌ جميلٌ . . . وهُناكَ شيءٌ أجملُ | ٣٣ |
| الإنسانُ الشاعرُ عندما تطولُ به الحياةُ | ٣٦ |
| كُنْ عِصَامِيّاً ولا تكُنْ عِظامِيّاً | ٤٤ |
| الغُرَابُ عندَ العربِ. . نَذِيرُ شُؤْمٍ أمْ بَشِيْرُ خَيْرٍ؟! | ٥٠ |
| النَّدمُ. . . بَيْنَ الشَّريعةِ والأدَبِ | ٦٠ |
| قلوبٌ بلا دِماءٍ | ٦٧ |
| هكذا علّمتني الأيام | ٧٠ |
| لِأَنَّ الْحَيَاةَ لا تَنْتَظِرُ، وقِطَارَ الزَّمَنِ لا يَتَوَقَّفُ! | ٧٣ |
| آمالٌ تموتُ وآمالٌ تَحيا؟! | ٧٧ |
| أيّهَا الدّعَاةُ إلى الله | ٨٢ |
| لصوصُ الإنترنت وسارِقو الفِكْرِ والإبداعِ. . . مَنْ يُحَاسِبهم؟! | ٨٦ |

| الموضوع | الصفحة |
|---|---|
| قراءة في كتاب: (عَصرُنا والعَيشُ في زَمانِهِ الصَّعبِ) | ٩١ |
| قراءة في كتاب: (بصائرٌ للمُسْلِمِ الْمُعَاصِرِ) | ١٠٢ |
| قراءة في كتاب: (كِذْبَةُ نيسانَ في الميزان) | ١١٤ |
| قراءة في كتاب: (المنهجُ المفيدُ في بناءِ الإيمانِ والعقيدة) | ١١٩ |
| قراءة في كتاب: (الأربعونَ الرّياضيةُ) | ١٢٤ |
| قراءة في كتاب: (صَفَحَاتٌ مُضِيئَةٌ في التصوّرِ والسّلوكِ الدّينِي) | ١٢٨ |
| قراءة في كتاب: (حُرْمَةُ أَهْلِ الْعِلْمِ) | ١٣٨ |
| قراءة في كتاب: (لَحَظَاتٌ قَبْلَ الْمَوْتِ) | ١٥٠ |
| قراءة في كتاب: (الإسلامُ الْحِصْنُ الْأَمِينُ من أَمْرَاضِ العَصْرِ) | ١٥٨ |
| قراءة في كتاب: (فلسفةُ إِقْبَالٍ والثقافةُ الإسلاميّةُ فيْ الهنْدِ والباكِسْتانِ) | ١٦٨ |
| قراءة في كتاب: (سفينة الفرَجِ فيما هبَّ ودبَّ ودرجَ) | ١٧٦ |
| قراءة في كتاب: (دفاعٌ عنْ أبي هُرَيْرَة رضي الله عنه) | ١٨١ |
| قراءة في كتاب: (اصْطِنَاعُ الْمَعْرُوفِ) | ١٨٩ |
| أصحابُ الآراء الشّاذّةِ، من أين أتونا بها؟! | ١٩٧ |
| أَصدَقُ الدُّموعِ في رِثاءِ الإخْوَةِ. . | ٢٠٢ |
| الشَّيْبُ. . . يَضْحَكُ فَيُبْكِيْ | ٢١١ |
| المكفوفونَ في الأدب العربي البصيرة قبل البصر | ٢١٨ |
| بيني وبين صديقي الشاعر صهيب يوسف | ٢٢٤ |
| أُمُورٌ تَعَجَّبْتُ مِنْهَا!!! | ٢٣١ |
| صُوَرٌ من بَلاغَةِ الأَطْفَالِ | ٢٣٥ |
| الصَّحَابَةُ رضي الله عنهم عَدَالَتُهُمْ وعلُوُّ مَكَانَتِهِمْ | ٢٤٣ |
| خواطرُ بعدَ مُنْتَصَفِ اللّيْل | ٢٥٥ |
| قلُوبٌ شَاكيَةٌ، وعَبَراتٌ سَاجِمَةٌ فلِمَنْ يَكتُبُ الأديبُ؟! | ٢٦١ |

إدارةُ الوقتِ من المنظورِ الإسلاميِّ والإداريِّ ........ ٢٦٥
هل تجرّعتَ كأسَ الفشل يوماً؟ وماذا تعني لكَ كلمةُ (فاشلٍ) ........ ٣٢٠
مِنْ أصعَبِ مَواقِفِ الْحَيَاةِ ........ ٣٢٥
حُداءُ النواعير في مسامع الشعراء ........ ٣٢٩
شُعَرَاءُ فِي غَياهِبِ السُّجُونِ ........ ٣٣٤
. . . . وأشرَقَت شَمسُ الهِدَايةِ ........ ٣٤٨
الشبابُ أملٌ وعملٌ ........ ٣٥٢
افْعَلِ الخَيْرَ. . ولكنْ. . لا تَرْمِ بِهِ في البحرِ ........ ٣٦٠
مِن أَخبَارِ العِطَاشِ ........ ٣٦٤
الأُخُوَّةُ الصَّادِقَةُ هَلْ فَقَدْناها؟! ........ ٣٧٦
حتَّى تصفُوَ القلوبُ وتسلَمَ الصُّدورُ ........ ٣٨٢
في الإسلام: كادَ الجارُ أنْ يرثَ جارَهُ ! ........ ٣٨٦
لمَتَى تَخْدَعُنا المظاهِرُ البَرَّاقَةُ؟! ........ ٣٨٩
أشْواقُ الغُرْبةِ وَبُكَاءُ الدِّيَارِ ........ ٣٩٤
مِنْ عَجَائبِ الأَقْدَارِ! ........ ٤٠٨
رسالةٌ إلى الثقَلاء ........ ٤١٢
أتُحِبُّ أنْ تعيشَ مَحْسُوداً؟! ........ ٤١٨
. . . وَحَانَتْ سَاعَةُ الْفِرَاقِ! ........ ٤٢٣
هلْ يَتَجزَّأُ الْوَفَاءُ؟! ........ ٤٢٩
دَعُوها نائِمةً ........ ٤٣٤
دُمُوعُ القَوَافي فِي عُيُونِ الْمَراثِي ........ ٤٣٧
دينُ الإسلام بريءٌ من التطرُّفِ والإرهابِ ........ ٤٤٨
جمالُ العربيّة وخطرُ العاميّة ........ ٤٦٩

| الموضوع | الصفحة |
|---|---|


وَمِنَ الشِّعرِ ما أضحكَ ........................................ ٥٠٠

※ **الخاتمة** ........................................ ٥٠٥

※ **الفهرس** ........................................ ٥٠٧